رواية

الغرانيق

مازن عرفة

نوفل

رواية

الفرانيق

مازن عرفة

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2017 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2017
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **© YAY Media AS / Alamy Stock Photo**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-908-9
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-909-6

إلى محمد وجورج

شكر خاصّ لكلٍّ من د. جمال شحيد، ود. نهاد جرد.
شكر خاصّ لمحرّرتي رنا حايك، التي منحت الرواية لمسة من روحها.

القسم الأول

كآبة

البلدة

أنا مواطن صغير، أعيش في بلدة متواضعة، تترامى بيوتها الكئيبة على امتداد سهل أجرد، تظللها من الغرب سفوح جبال عارية تغطّي الأفق، تحاصرها إلى حدّ الاختناق، فيما يمتدّ البصر في الشرق إلى صحراء واسعة مقفرة تبدو دون نهاية، تثير الشعور بالظمأ والضياع بمجرّد النظر إليها، ولا تأتي منها إلّا العواصف الرمليّة السديميّة.

ما زال بعض المسنّين يتحدّثون عن نهر غزير كان يجري في البلدة، تنمو على ضفافه بكثافة أشجار الصفصاف، والحور، والزيزفون، والجوز، ويسقي حقولاً خضراً واسعة ممتدّة حتّى المدى، اختفى فجأة، وكأنّ الأرض ابتلعته، أو ربّما كانوا يتخيّلون وجوده، لكنّه اختفى، هو والحكايات القديمة عن الحقول... ومن وقتها أصبحت السهول، والبيوت، والأرواح، والكلمات جرداء، دون ذاكرة وأمسيات وأحلام.

انقطعت الأمطار عن البلدة، وأصبحت لا تهطل إلّا نادراً، حتّى في ذروة الشتاء، جفّت المياه في السواقي الصغيرة التي كان يغذّيها نهر الحكايات المختفي، فيبست الحقول التي عاشت خضراء في ذاكرة العجائز. وفي أثناء ذلك، جفّت الدماء من عروق الرجال، وذابت الشهوة من عيون النساء، وتحوّل معظم سكّان البلدة إلى موظفين رسميّين.

رجالٌ يشيخون في الأربعين، غير قادرين على الانتصاب، ونساء ممتلئات بكتل لحميّة باردة، تفيض بتثاقل عن أجسادهنّ خارج الثياب دون أيّ إثارة؛ بلدة خاملة، هي وسكّانها وحمامها الرابض بكسل فوق تماثيل الزعيم الجنرال، المنتشرة في الساحات وأمام المباني الرسميّة. وقد زاد من الخمول الحرُّ الشديد الذي خيّم عليها في ما يبدو إلى الأبد، ما جعل الشوارع شبه فارغة من الناس والحيوانات معظم أوقات النهار.

كان هناك حديث دائم عن خطط وطنيّة لإيصال التيّار الكهربائي إلى الحارات القديمة من البلدة، من أجل إنارة عتمتها التاريخيّة الرجعيّة، وعن إمكان استغلالها سياحيّاً بدلاً من أن تكون بؤرة للتمرّد على «الثورة العظمى»، وذلك من خلال التلاعب بانعكاس نور الكهرباء الجديد، رمز الحداثة، على جدران البيوت الفلكلوريّة القديمة، رمز الأصالة. لكن، لا أدري لماذا استُبدلت هذه الخطط، وأُحضر إلى الحارة بدلاً من الكهرباء تمثالٌ كبير أسود للزعيم الجنرال التاريخي، يرتدي بذلة عسكريّة، بدعوى إنارة عتمتها الرجعيّة بنور الأفكار الثوريّة.

اختار التمثال فسحة أعجبته في مدخل أحد الأزقة، وقرّر الوقوف هناك منتصباً بسموّ، ورأسه مرفوع إلى سماوات المجد، محاط بهالات القداسة الثوريّة. كان التمثال عابساً ومكشّراً طوال الوقت، هكذا بطبيعته الحجريّة. وعلى عكس لونه الأسود، كانت عيناه حمراوين تلتمعان في عتمة الليل، يراقب هنا وهناك الأبواب والنوافذ، يتطاول فوق الجدران الطينيّة العالية للتلصّص على البيوت القديمة التي تنفتح بفسحات نحو السماء. وكان بالتأكيد، إضافة إلى مهامّه الأمنيّة، يفكّر في شيء ما عن النسوة الشهوانيّات المختبئات منذ قرون وراء أسوار بيوتهنّ، الغارقة في تاريخ عميق من حكايات الجسد الشبق.

أخذت النسوة بإزاحة ستائر النوافذ المغبرّة بفرجات صغيرة وحذر شديد، يراقبن هذا القادم الحجريّ الغريب الذي جاء يقتحم عالمهنّ الليليّ المُغلق الساكن، دون أن يتوقف عن التلصّص على نوافذهنّ بفظاظة. وكانت ما إن تنفرج ستارة، ولو بفتحة صغيرة، حتّى تقتحمها نظراته الشبقة، فشعرت النسوة بأنّه يمكن أن يتسلّل إلى غرفهن في لحظة غفلة، ويفضّ بكارة عفّتهنّ التاريخيّة المقدّسة بعضوه الحجريّ القاسي.

وبما أنّ للحارات القديمة تاريخاً تآمريّاً طويلاً ضدّ التماثيل الوطنيّة، فقد انبثق في هدأة الليل رجال ملثمون من عتمة الأزقة، وأخذوا يرمون أكواماً من النفايات في مكان انتصاب التمثال، كلّما ذهب بجولة في الحارة.

لم يحتمل التمثال العتمة الثقيلة ولا رائحة الرطوبة والعفن المقززة، فهرب متسللاً تحت جنح الظلام إلى البلدة، وجد مكاناً مناسباً يطلّ على ساحة صغيرة، وانتصب هناك مسروراً، متنفساً الصعداء. لكنه لم يدرِ أنّه اختار مكاناً مشبوهاً، يمكن أن يسيء إلى سمعته الوطنيّة والأخلاقيّة، إذ تتجمهر دائماً هناك مجموعات عديدة من «جنود الثورة»، أمام «بيت المتعة» الوحيد في البلدة، يدخلون إليه يفرغون حقدهم على ضبّاطهم الساديّين في أجساد بائعات الهوى المتألقات بمهنتهنّ.

عندما انتصب التمثال بعيداً عن الحارات القديمة، انتشر هذا الخبر المسيء لمسيرة الثورة المظفرة سريعاً بين المواطنين الشرفاء. وبالرغم من سروره بالهروب من النظرات القلقة للنساء العدائيّات في الحارات الليليّة من وراء متاريس نوافذهنّ، شعر المواطنون بالإهانة لخروجه الذليل

منها، ولانكسار كرامته الحجريّة الوطنيّة بالعتمة الثقيلة والروائح العفنة القديمة، فطيَّروا برقيات إلى القيادة الثوريّة العليا من أجل الانتقام من الحارات القديمة وساكنيها الرجعيّين، المعارضين للسياسات الحجريّة المنيرة للثورة:

«نحن أبناء الثورة العظيمة ندعو «جنود الثورة» الأبطال الأشاوس لاقتحام الحارات القديمة، وتطهيرها من العصابات الإرهابيّة الرجعيّة التي تريد إقامة إمارات صحراويّة فيها بحدّ السيوف، والسواطير، والبلطات، والشنتيانات، وخاصّة بعد أن اعتدوا على أحد رموزنا الوطنيّة الحجريّة المعمّدة بدماء الثوّار، وأهانوا كرامته التنويريّة. وهم يتقدّمون الآن إلى ساحات بلدتنا المشهورة بتراثها النضالي، من أجل تخريبها وتدميرها، وقطع رؤوس سكّانها الآمنين على الطريقة الصحراويّة البدويّة... دام زعيمنا الجنرال خالداً، وعاش شعبنا العظيم».

وخلال بضعة أيّام حضرت من معسكرات «جنود الثورة» القريبة من البلدة عشر مدرّعات بمدافعها ورشاشاتها، ترافقها ثلاث جرّافات ضخمة بشفرات فولاذيّة خارقة للتحصينات، وذلك من أجل هدم بيوت الحارات القديمة على رؤوس ساكنيها الرجعيّين.

في صباح يوم «ساعة الصفر» انطلقت الحملة العسكريّة من ساحة البلدة الرئيسة، لكن يبدو أنّ المشرفين على هذه العمليّة الأمنيّة الشديدة السريّة كانوا لا يزالون مخمورين ويترنّحون، غير قادرين على الوقوف إلّا بصعوبة، بعدما شربوا في أمسية البارحة كمّيات كبيرة من «عرق التين»، المخلوط مع «ويسكي» سيّئ النوعيّة. وبدلاً من أن يسيّروا قوّاتهم إلى الأحياء القديمة، أعطوا الأوامر بالتوجّه إلى حيّ حديث يقع بجانب المقبرة، إذ شاهدوا خيوط عتمة ليليّة دكناء تتصاعد من مداخن منازله على الأسطح، فساورهم الشكّ فيه. تقدّموا إليه وهدموه سريعاً على رؤوس ساكنيه، ورجعوا إلى معسكراتهم فرحين بتنفيذ مهمّتهم بدقّة شديدة، وهم يهتفون بحياة الزعيم الجنرال المفدّى.

وانتهت الحادثة، ولم ترجع الجرّافات أبداً إلى الحارات القديمة.

أشاع أحد المغرضين خبراً في البلدة بأنّ الحملة العسكريّة بجرّافاتها، التي لبّت نداءات المواطنين الشرفاء، لم تحضر أصلاً إلّا من أجل إخماد بوادر تمرّد ساكني الحيّ الحديث، الواقع قرب المقبرة. فقد أخذ ساكنوه يلغطون كثيراً في الفترة الأخيرة بما يدفنه ليلاً جنود معسكرات الأشغال الشاقة من جثث فيها، بعدما راقبوهم عن كثب من خلال عتمة نوافذهم الليليّة. وإضافة إلى ذلك، فالتمثال يقف الآن منشرح الصدر في الساحة، ويمتع نظره في الوقت نفسه بملاحقة النساء المقيمات في «بيت المتعة»، اللواتي يتركن الستائر مفتوحة بالكامل أمامه ليل نهار، مسرورات بسهام نظراته الحجريّة الشبقة التي تكاد تخترق قلوبهنّ الحزينة، فلماذا إزعاجه، وهو لا يرغب في العودة إلى الحارات القديمة المعتمة؟

يعود إنشاء «بيت المتعة» في بلدتنا إلى المساعي النبيلة والحميدة لشيخ البلدة الفقيه، الذي هاله وقضّت مضجعه السامي معاكسات «جنود الثورة» الدنيئة لفتيات البلدة «الطاهرات الذيل». فقد كانت تصله الأخبار بأنّهم تطاولوا كثيراً على شرفهنّ الرقيق البريء الناعم، ثمّ تمادوا بتحرّشاتهم البذيئة الوقحة حتّى وصلوا إلى حدّ الاعتداء عليهنّ في الشارع، ومن ثمّ اغتصابهن على مرأى المارّة العابرين. وهؤلاء المارّة سرعان ما كانوا يلوذون بالفرار من هذه المواقف المهينة لكرامة بنات البلدة حتّى لا ينالهم ما لا يعجبهم من غرائب وعجائب الأمور العسكريّة وتعدّياتها، دون أن يردع هؤلاء الجنود أحدٌ ما، لأنّه لا قوة فوق قانون «الثورة العظمى» وكرامة أشبالها الميامين، جذوة نارها الملتهبة.

أمّا عناصر الأجهزة الأمنيّة، فلا يعنيهم الأمر برمّته، فمهامّهم تنحصر في مطاردة فلول «عصابات الظلال» وعملائهم، وهم بالأصل لا يرغبون في الاصطدام برفاقهم «جنود الثورة»، مع أنّهم لا ينقطعون عن مراقبتهم. وقد أعلنوا أنّ ما يفعله هؤلاء الرفاق هو من حقهم الطبيعي، من أجل أن يتخففوا من ضغوطهم الشبقيّة المتراكمة في معسكرات التدريب القاسية، ويبقوا في جاهزيّة عالية لمساعدتهم في الانقضاض على أعداء الثورة.

وهكذا، عندما كان بضعة جنود متوحّشين قادمين من المعسكرات ينفردون بفتاة بريئة، تسير وحدها في الشارع، سرعان ما كانوا يستغلّون غفلتها، وهي تنظر إلى عصفور جميل يطير في السماء، ويختطفونها. يحملونها على أكتافهم أو تحت سواعدهم، دون أن تدرك ما يحدث لها، إذ إنّها لا تزال تنظر إلى العصفور الجميل. يركضون بها ويرمونها تحت أقدام أوّل تمثال للزعيم الجنرال الحامي يجدونه، ليمنحهم أمان ظله الوارف.

يمزّق «جنود الثورة» ثوب الفتاة البريئة، الرمادي الأجرد، فينفتح أمامهم عريها الأبيض، لتجد عندئذٍ نفسها أمام ذئاب هائجة بدلاً من العصفور الجميل، فتختلج رعباً أمام أنيابهم الشرسة وأعضائهم الخارقة. يرتمون عليها بشبق مسعور هائج، منفلتين من جوعهم القديم، فيما يضيع أنينها المختنق بحشرجات الموت تحت صخب لهوهم واستعجال بعضهم بعضاً ليتناوبوا عليها متدافعين، فقد تأتيهم الشهوة ثانية. ولا يتركونها إلّا خرقة بالية دامية بلا حراك، وقد اصطحب كلّ منهم قطعة منها، ثدياً، أو فخذاً، أو مؤخّرة... فيما العصفور الذي لم يعد جميلاً لا يزال يطير في السماء.

وإذا ما استغاثت فتاة مختطفة بشباب البلدة فلن تجد مجيباً، لأنّه لا شباب في البلدة، فالمواطنون يولدون هنا أطفالاً، ويصبحون مباشرة عجائز، خاصة بعدما تعلموا أن لا يرفعوا رؤوسهم إلى الأعلى حتّى لا تصيبهم نوائب الدهر العسكريّة بما لا يسرّ القلوب المدنيّة. وهم، ما إن يشاهدون «جنود الثورة» حتّى يبتعدوا، متلهّين بالنظر إلى أحذيتهم الرماديّة الجرداء المليئة بالثقوب، إذ إن

أشاوس الثورة غالباً ما يصطدمون عن قصد بأحد المواطنين البسطاء، ويتهمونه بأنّه داس على ظلّهم العسكري، ولو كان الوقت مساءً لا ظلّ فيه، فيتسلّون به وبناله ما لا تُحمد عقباه حتّى تعود الكرامة للظلّ.

لا تبعد بلدتي الصغيرة كثيراً عن العاصمة، لكنّها تكاد تكون منسيّة في زحمة التجمّعات العشوائيّة الفقيرة التي تكاثرت وتوسّعت حولها. ولولا معسكرات «جنود الثورة» الممتدّة على مساحات واسعة من السهل الأجرد، التي تفصل بلدتي عن ضواحي العاصمة، لكانت امتداداً عمرانيّاً طبيعيّاً لها، بعشوائيّتها، وفقرها، وكآبتها... وعلى كل الأحوال، فإن كلّ ما يحدث في البلدة المتواضعة الكئيبة هو صورة مصغرة لما يحدث في العاصمة الكبيرة.

أنا مواطن نموذجي

رجل صغير أنا، لكنّني سعيد، كما على كلّ رجال البلدة أن يكونوا. كانت لديّ أحلام متمرّدة ذات مرّة في مطلع شبابي، أو ربّما في حياة أخرى، لا أذكر بالضبط، لكنّها أحلام كادت تودي بي إلى الدمار، إذ ظننت لوهلة على ما يبدو أنّني كبير، أستطيع تجاوز حصار الجبال، وعطش الصحراء، والسير منتصب الهامة، في بلدة أخذت تعيش أيّامها الرتيبة بملل إلى حدّ فقدان الإحساس بالزمن.

إلّا أنَّ شواشاً غريباً يضرب رأسي بنحو شبه مستمرّ، يجعل ذاكرتي ضائعة غير مستقرّة، ليس فيها مكان لنهر مختفٍ في البلدة، ولا لحقول خضراء واسعة حتّى المدى، ممّا يتحدّث عنه المسنّون. وهذا الشواش يُدخل الاضطراب إلى حياتي الهادئة، فتنتابني مشاعر متناقضة، تراوح ما بين اللامبالاة بما يحدث حولي، وبين إبداء الرفض الشديد له، بطريقة تصل أحياناً إلى حدّ العدائيّة.

ومع أنّني لا أعرف سوى هذه البلدة التي يبدو أنّني لم أغادرها أبداً، لا أستطيع السيطرة على ومضات غريبة مبهمة تلتمع لثوانٍ في رأسي، لا أعرف متى تهاجمني، ولا أستطيع التحكّم بها، ومضات كأنها قادمة من ذاكرة منسيّة في مكان مبهم غامض، أو من حياة أخرى بعيدة في عوالم لامرئيّة.

حياتي تسير بانسجام وتناغم مع حالة الأمن والأمان، الغالية والنفيسة، التي تنعم بها بلدتنا؛ مواطن مطيع، لا أفكّر في أيّ شيء، إذ علّمتني الخبرات الثوريّة المتراكمة أنّ متعة الوجود هي بعدم التفكير في الذات، والاسترخاء في نمط حياة هادئة بعيداً عن الضجيج، والانفعالات، والقلق، والتذمّر، والطموح، ورغبات التغيير، التي تقود جميعها إلى الفوضى والخراب.

وإذا ما انتابتني حالة تستدعي التفكير، وتفرض سلطانها عليَّ بقوّة، فإنّني أحاول قدر المستطاع التخلّص منها بسرعة بترداد النشيد الوطني، أو بعض الأغاني الحماسيّة الثوريّة في تمجيد الزعيم الجنرال المُفدّى حتّى أنجو من تأثيرها.

وبما أنني مواطن نموذجيّ، فأنا لا أتكلم كثيراً، ولا أرفع رأسي عالياً، ولا أحكّ جبيني وأقطب حاجبيَّ، كي لا يشكّ أحد في أنني أفكّر. وأحلامي صغيرة، متواضعة جداً، شبيهة بحذائي الرمادي الأجرد المهترئ الممتلئ بالثقوب، وأحوالي النفسيّة مستقرّة باستمرار، كما هي سترتي السوداء المجعّدة القديمة الممزّقة الأطراف، التي لا تفارقني صيفاً ولا شتاءً، والصالحة لكلّ الفصول.

ولست أنا الوحيد بهذه الصفات الوطنيّة الحميدة السامية، فجميع رجال البلدة يتّسمون بها، كمواطنين صالحين لا يحبّون التفكير، كما أنَّ لكل واحد منهم حذاءً وسترةً شبيهة.

ورغم التشابه بين المواطنين جميعاً في بلدتنا، أتميّز عنهم بعادة غريبة، إذ إن حكاكاً عجيباً شبه مستمرّ أصابني في منتصف ظهري إلى اليمين تحت كتفي، لا تصل إليه يدي أبداً لتهدئته. ما إن أجد نفسي وحيداً حتّى أبحث عن حرف جدار أو خزانة، وأحكّ نفسي به كالقرود المجنونة الملسوعة، وقد أصابتها الهستيريا.

عندما شاهدت زوجتي ذات مرّة الهستيريا التي تنتابني قرب طرف الجدار، ظنّت أنّ جنوناً غريباً مسّني، ومن وقتها وهي تنظر إليَّ بريبة وقلق، مع أنّني أحاذر فعل ذلك أمامها. فربّما معها حقّ في مسألة جنوني، إذ يبدو أنّ هناك علاقة لا أستطيع تفسيرها بين هذا الحكاك العجيب في ظهري والشواش الغريب في رأسي، فهما يثوران بشدّة معاً، ويهدآن لبعض الوقت معاً. تهاجمني في لحظات الهستيريا الومضات المبهمة، فأظنّ نفسي أنّي لست أنا، وأتحدّث بأشياء لا أعرفها، وكأنّها تنبثق من عالم آخر. وأحياناً تجعلني أتجاوز حدودي كمواطن صامت مطيع، وأقترب دون إرادتي من شخصيّة أخرى، أتماهى أو أتنازع معها، بنواس عجيب تتناوب فيه علاقات حب وكره: زعيمي الجنرال.

أظنّ أنّني أصبحت في أربعينيّات عمري، ومن يعِش في بلدتنا لا يشعر بمرور الزمن الثقيل، ولا برتابة الحياة المملّة، فالأيّام تتشابه تشابهاً مقيتاً حتّى بتفاصيلها الصغيرة.

منذ أعوام بعيدة لم أعد أذكر بدايتها، أستيقظ كلَّ يوم صباحاً بصعوبة وتثاقل، وقد امتلأ رأسي بالدوار الشديد، وآثار مشروب «عرق التين» الثقيل تضرب صدغيَّ، وطعمه المرّ يملأ فمي، ورائحته الكريهة تضمّخ أنفاسي.

أدفع عني زوجتي الثقيلة المرتمية فوقي في سريرنا الضيّق، وهي تغط في نوم عميق، وأنزلق من قرب جسدها الضخم، الذي ترتفع كتله اللحمية كهضبة تهتز بانتظام على صفير شخيرها الذي يشوّش صمت الصباح.

أسقط في حذائي قرب السرير، تلحقني سترتي، وأمضي بتكاسل إلى عملي اليوميّ بظهر منحنٍ، دون أن تعطّلني أيّة طقوس صباحيّة، فأنا لا أغسل وجهي ولا أحلق ذقني، إلّا في الاحتفالات الوطنيّة الرسميّة.

أمرُّ عند مخرج البيت من أمام مرآة قديمة ذاب طلاؤها عند الأطراف، تتخللها شقوق منحنية تتلوّى على مساحتها بالكامل، جعلتها تبدو كأنها تجميع عشوائي لكسرات مختلفة الأحجام. أنظر إلى انعكاس صورتي فيها، فأشاهد وجهاً ممزّقاً باهتاً، تتراكب قسماته حسب خطوط الكسرات فيها، فإذا ما حرّكته قليلاً توزّع إلى عدّة وجوه متراكبة. مع الزمن، انتظمت صورة وجهي دون هذه التمزّقات، وكأنّها امّحت، إلّا أنّني بدأت أشاهد وجوهاً غريبة لا أعرفها، وجوهاً متباينة تتبدّل من يوم إلى آخر، تنظر إليَّ بغرابة.

أمرّ في طريقي يوميّاً قرب مقبرة البلدة التي يرتفع سورها بأحجاره المتراكمة دون انتظام، بحيث تنهار هنا وهناك من وقت لآخر، لتنفتح فجوات تسمح بمرور كلاب البلدة في جولاتها الجماعيّة الاحتفاليّة الليليّة، وهي تنبح وتتشمّم رائحة الجثث المدفونة حديثاً، بحثاً عن وليمة باذخة.

أعمل في «إدارة السجلّ المدني» المستقرّ في بناء قديم يعود إلى زمن بعيد، يتجاوز المئة عام، تقف أحجار جدرانه الكالحة صامدة بوجه الزمن الذي يبدو أنه توقف هو أيضاً عندها، فأصبح زمناً كالحاً مثلها، صامتاً منطفئاً، ينسى معه الإنسان أنّه يعيش.

ترتفع على سطح البناء سارية صدئة منحنية، تحمل بقايا قطعة قماشيّة مهترئة وممزقة، ألوانها الحمراء والسوداء كابية، وقد أنهكتها الرياح والغبار، يُقال إنّها بقايا رايتنا الوطنيّة. لا أحد يغيّرها، بعدما ضاع السلّم الخشبي الوحيد الذي يسمح بالوصول إلى السطح، وأصلاً لم يعد أحد ينتبه إليها، بعدما اعتاد الناس على عدم رفع رؤوسهم إلى الأعلى حتّى لا يُظن بهم سوءٌ.

ينتصب أمام المبنى عالياً بسموّ ورفعة تمثال الزعيم الجنرال الملهم، لكنّي لا أدري لماذا يبدو لي عابساً، مكفهرّاً، صامتاً باستمرار، مع تكشيرة فم حجريّة مهدِّدة. على العكس، يبدو متسامحاً مع الحمامات الكسولة التي تغفو على رأسه وكتفيه طوال النهار، متجاهلاً إفراغها فضلاتها عليه، دون أن يفكر حتّى بطردها.

أحتلّ زاوية في مكتب كئيب، ضيّق، بالكاد يتّسع لي ولموظفتين اثنتين تجلسان معي، سقفه مرتفع جداً بطريقة لا تتناسب مع حجمه الصغير، رائحة فضائه عفنة مقزّزة اعتدت عليها، تضيئه كوّة عالية، يتناثر من وراء زجاجها الممحوّ بغبار السنين ضوءٌ شحيح، يرشح ظلالاً مقيتة على الجدران الرطبة المتآكلة...

لا أدري من أين تتسلّق الجدرانَ الرطبة باستمرار خطوطٌ من النمل الأحمر الصغير ذهاباً، وتنزلق عليه إياباً، دون أن تحمل أيّ مؤونة. تنتظم حركتها المستمرّة منذ عدّة سنين في رتابة اللامعنى، وتستنزف الوقت في عبثيّة التكرار المجّاني، كما تفعل أرتال «جنود الثورة» في المعسكرات القريبة من بلدتنا بتدريباتها اليوميّة. لكنّ الاثنين – النمل والجنود – يحاذران الوقوع

في شباك العناكب السامّة المنسوجة بمكر خادع، والتي يبدو أنّها معشّشة هنا منذ ما قبل نهوض البلدة.

تقتصر مهامّي على تسجيل أسماء المواليد الجدد في البلدة ضمن دفتر ضخم عتيق، متآكل الأطراف وممتلئ ببقع الحبر؛ عمل لا يحتاج إلى تفكير أو مجهود. لكنّ العجوز، الذي بلغ من العمر عتيّاً وحللت مكانه بسبب إحالته على التقاعد، أخبرني أنّ عمله كان مضنياً في ما سبق بسبب كثرة المواليد، أورثه بعد سنين طويلة يداً مرتجفة، وظهراً منحنياً، ونظّارة سميكة.

روى لي العجوز ترّهات عن أنّ أهل البلدة الفلّاحين كانوا لا يتوقفون عن إنجاب الأطفال بكثرة في زمنه، يتسلّون في دفء الفراش مع زوجاتهم اللواتي تذوب أجسادهنّ من العمل المنهك في الحقول، يتسلّون ليقتلوا ملل الأمسيات الطويلة المعتمة والماطرة، فلا يدرون إلّا والأطفال العابثون ينزلقون في عتمة الليالي من أسفل الفراش القذر إلى الغرف الطينيّة المُتربة، ليملأوها فوضى وضجيجاً، وهم يبحثون مباشرة عن بقايا كسرات خبز يلوكونها، مع أنّ أسنانهم لم تنبت بعد.

يمضي نهاري بسرعة، إذ إنني أقضي معظمه في النوم على طاولة المكتب القديمة غير المريحة، مستعيناً بالسجلّ المهترئ كمخدّة. أغفو طويلاً، وأنا أشعر بالطمأنينة بحراسة الصورة المقدّسة للزعيم الجنرال الحامي، التي تتصدّر الغرفة فوق رأسي بألوانها الرسميّة الكامدة.

عندما أصحو لبعض الوقت أشرب شاياً أسود ثقيلاً، مستخدماً لغليه وشيعة كهربائيّة صدئة، أضعها في كأس فخاريّة قديمة رماديّة، مكسورة الشفة والأذن. كأس لا أستطيع تبديلها بعدما اعتدت عليها منذ زمن طويل، أستمتع بقضم أطراف شفتها باستمرار، وأنا أشرب الشاي، متحسّساً صرير انزلاق أسناني على فخّارها.

في فترات صحوي أتحدّث قليلاً مع أم خالد وأم سمير، اللتين تجلسان في مكتبي. موظفتان قبيحتان يمتلئ وجهاهما بالبثور القديمة، ويندلق جسداهما الممتلئان على أطراف كرسيّ خشبي عتيق، يئزّ صريراً رتيباً باستمرار تحت مؤخّرتين عملاقتين كلما انطلقت دفقات أنفاسهما الثقيلة؛ أتحدّث قليلاً، ثمّ أعاود النوم.

لا أعرف ما هو بالضبط عمل هاتين الموظفتين في الدائرة، فهما لا تغادران المكتب طوال الدوام، ولا أراهما إلّا وبقايا الطعام تتطاير من فميهما الممتلئان دائماً لتحطّ على السجلّات أمامهما، وهما لا تنقطعان عن الثرثرة والضحك. إلّا أنّني اعتدت على أصواتهما التي تصدر مع مضغ الطعام، كالحفيف الخشن لحجري الرحى عندما يطحنان الحبوب، وأصبحت أغفو بسرعة على موسيقاهما الرتيبة، دون أن أعي بالضبط ما تتحدّثان عنه.

أكتفي عادة بتقليب الجريدة الحكوميّة اليوميّة في المكتب، فأنا لم أعد أحتمل مشاهدة القناة الرسميّة في التلفزيون حتّى لدقائق، إذ سرعان ما أشعر بصداع شديد في رأسي، وألم دفين في معدتي، ورغبة مجنونة في التبوّل، ويداهمني معها عُطاس شديد، دون أن أدري لماذا تأتيني هذه الحالات الغريبة، مع أنّني أبذل دائماً كل جهدي لإبداء محبّتي واحترامي للزعيم الجنرال الوقور عند مشاهدة أخباره العظيمة.

وقد حاولت ذات مرّة الاستمرار في متابعة القناة الرسميّة، على الرغم من الحالات الجسديّة التي تصيبني جرّاء مشاهدتها، احتراماً لخبر رعاية الزعيم الجنرال القائد لعرض عسكري مهيب، إلّا أنني سرعان ما رأيت نفسي في الشاشة، وكنتُ أنا الزعيم الجنرال. شعرت بالقلق الشديد من خطورة ما أرى، ومن خوفي لم أستطع التحكّم برغبتي المجنونة في التبوّل وأنا جالس في أريكتي.

مع محبّتي العظيمة واحترامي المبجّل للزعيم الجنرال الحامي، فأنا لا أغالي كثيراً في استحضار صوره، بالرغم من رمزيّتها الثوريّة عندي، إلّا في حالات الضرورة القصوى، وذلك كي لا أبدو انتهازيّاً. هكذا، أغطّي بها عادة البقع الرطبة والثقوب الكثيرة التي تملأ جدران بيتي وتتكاثر باستمرار، بحيث لا أدري كيف تحوّلت في النهاية إلى معرض عشوائي لحياته، منذ طفولته السعيدة، ومروراً بقيادته الثورة المباركة، وامتداداً لخلوده في الزمن اللانهائي.

لكنّني أفضّل طبعاً صوره بالبذلة العسكريّة وأوسمتها الوطنيّة، وقد أحاطت به مرافقته المسلحة المهيبة، فهي الأقدر على حماية المنزل من «عصابات الظلال»، واللصوص، والحشرات، ونظرات الجيران المتطفلة عبر النوافذ.

وعندما تنقصني بعض الصور لإخفاء الثقوب الحديثة في الجدران، ألجأ إلى بعض صوري القديمة وألصقها، فتختلط مع صور الزعيم الجنرال الذي يتفهّم سلوكي هذا. تنظر زوجتي شزراً إلى ما أفعله، تدير ظهرها لي وللصور، وهي تردّد «مجنون، مهووس بحبّ ذاته».

أعود إلى البيت من العمل في وقت الغداء لتناول الطعام، أنا وزوجتي العزيزة، على بساط كحليّ أجرد قديم تزداد فيه الثقوب باستمرار، وأمامنا صحن كبير من الأرزّ المسلوق طبقاً يوميّاً إلى جانب سلطة خضروات حسب الموسم. تهبط بجسدها الضخم على الطعام وتزدرده في ثوانٍ، وأنا لم أكد أجلس.

غداء متواضع، لكنّ زوجتي تزيّنه بتذمّر دائم، غالباً ما يتحوّل إلى صراخ مثلوم بنوبات بكاء، تشكو بها حظها السيّئ من الحياة معي، من جنوني الهستيري جانب الحائط أو الخزانة، ومن الأرزّ المسلوق دائماً بدون لحم. ثمّ تنتابها نوبات اختلاجيّة غريبة، فتذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وهي تزأر، تحطّم ما يعترض طريقها من أثاث قليل، تبكي، وتضرب وجهها، وتنفش شعرها، وتمزّق أطراف ثوبها الرمادي الواسع، فتظهر من تحته ملابسها الداخليّة بألوانها البيضاء الكالحة. تفعل

كلّ ذلك دون أن تسيطر على تصرّفاتها، ودون أن تحترم الصور العظيمة للزعيم الجنرال المهيب المعلّقة على الجدران، فأشعر بالخجل الشديد أمامه.

أتركها تستمرّ في صراخها، كي أنال غفوة العصر قبل أن أذهب إلى المقهى الشعبي. يتراءى لي عندئذٍ أنّها تنفلت بجنونها وهي تزأر، فتقفز وتتمشّى على الجدران والسقف، بالرغم من جسدها السمين والثقيل. أستغرب عدم سقوطها أو حتّى ارتداد ثوبها، فأخفي رأسي تحت الغطاء السميك، وأنام بعمق حوالى ساعتين. وعندما أستيقظ أجدها قد ذهبت لزيارة نسوة الحارة، حيث يجلسن أمام المنزل على مصطبة طينيّة، يقرمشن خبزاً يابساً مدهوناً بزيت الزيتون ويتحدّثن دون انقطاع، إلّا أنّهنّ يصمتن عندما أمرّ من أمامهنّ، وينظرن إليَّ بغرابة. لا أدري ماذا تروي زوجتي لهنّ عنّي، لكنّ صمتهنّ في أثناء مروري يزعجني، فيما هنّ يتحدّثن طويلاً أمام تمثال الزعيم الجنرال، الرابض في رأس الحارة، والذي غالباً ما يزحن له مكاناً على المصطبة عند العصر ليجلس إلى جانبهنّ، ويستمع إلى كلّ ما يقلنه.

أترك زوجتي في المساء تقرمش وتثرثر مع نسوة الحارة، وأمضي إلى المقهى الشعبي الكبير الواقع في طرف ساحة البلدة الرئيسيّة، حيث أجتمع مع أصدقاء «ورق اللعب» في أمسيتنا اليوميّة، التي لم ننقطع عنها منذ سنوات طويلة بعيدة، على ما أذكر منذ زمن انتصار ثورتنا العظمى.

وحتّى أختصر الطريق إلى الساحة، أترك الشارع المُغبرّ المليء بالحفر، الذي أمرّ منه صباحاً إلى عملي على امتداد المقبرة، وأنعطف نحو الحارات القديمة، فأجتاز أزقة تتلوّى، تفوح منها رائحة الرطوبة التاريخيّة العتيقة. فساحة البلدة الرئيسيّة لا تبعد عن الحارات القديمة كثيراً، ولكي أصل إلى «مقهى الثورة» ما عليَّ سوى الخروج من أول زقاق، والمرور من أمام «بيت المتعة».

وباستثناء الضوضاء والصخب والضجيج الذي يثيره زبائن الأمسيات في المقهى، لا شيء يميّز الساحة الرئيسيّة في النهار، سوى وجود مركز انطلاق الحافلة القديمة الوحيدة إلى العاصمة، وهو هادئ معظم الوقت بسبب ندرة المسافرين.

تقف الحافلة في ظل شجرة الكينا المُصْفَرّة الوحيدة في الساحة، قرب بركة حجريّة مُغبرّة فارغة من المياه باستمرار، لا يتجاوز قطرها خمسة أمتار، ويتوسّطها تمثال نصفي بوجه مكفهرّ للزعيم الجنرال الصبور. يتذكّر الجميع أنّ نوافير الماء انبثقت عالياً لمدّة ساعتين، يوم رفع الستار عن التمثال في أحد الاحتفالات الوطنيّة الرسميّة منذ أعوام بعيدة، ثمّ تعطّلت نهائيّاً، ولم يعد أحد يهتمّ بها منذ ذلك الحين، فتحوّل المكان إلى تجمّع مقزّز من ركام الأحجار والأتربة والنفايات وبقايا بول المارّة.

ولأن التمثال نصفي، لم يستطع مغادرة البحيرة الجافة والمهملة، فاضطرّ إلى أن يبقى في مكانه مغمضاً عينيه حتّى لا يرى ما حوله، وأغلب الظنّ أنّه طلب من أحد ما تحطيم أنفه حتّى لا يشمّ الروائح النتنة التي تفوح من حوله.

يجلس السائق العجوز ذو الوجه المهترئ وراء مقود الحافلة القديمة التي اختفت ألوانها الباهتة تحت طبقات متتالية من الشحوم السوداء والطين المتحجّر، فيما نسي إصلاح واجهتها المحطّمة بعدما اصطدمت بركام أحجار المقبرة عند سورها الشمالي ذات يوم. فهو مصاب بمرض «النوم» الذي غالباً ما تهاجمه نوباته وهو يقود، وكاد يومها يقود ركّابه جميعهم إلى القبور مباشرة.

ينتظر العجوز طويلاً في الساحة مسافرين عابرين، يغفو معظم الوقت على مقوده والسيجارة في فمه، فيما دخانها يتصاعد من أذنيه. وفجأة يوقظه صياح بضعة من «جنود الثورة» الأجلاف الصاخبين، يريدون العودة إلى معسكراتهم قرب البلدة. يصحو، ويبتسم، فتسقط السيجارة على بنطاله، وينفتح فمه واسعاً على قاع عميق أسود بدون أسنان، تزمجر الحافلة، وتنطلق مخلفة وراءها سحابة كثيفة دكناء من الدخان الأسود.

يحضر «جنود الثورة» في مجموعات صغيرة إلى البلدة، بثيابهم العسكريّة المهلهلة المهترئة، المبرقعة بالأسود والرمادي والبنّي، والممرّغة هي ووجوههم ببقايا الطين اليابس وبقع الشحوم. يملأونها ضجيجاً وصخباً وعبثاً، وكرّاً وفرّاً، يتعالى صراخهم الوحشي، وتنفجر ضحكاتهم المجنونة، مثل لعلعة بنادقهم الرشاشة عندما يتسلّون بإطلاق رصاصها في الهواء. هدفهم الأساسي «بيت المتعة» الذي أنشئ خصّيصاً لهم، غير بعيد عن المركز الأمني.

أمرٌ يومياً بالقرب من «بيت المتعة» مساءً، وأنا في طريقي إلى المقهى، فأرى أمامه «جنود الثورة» يصطفّون بنظام وانضباط شديدين، منتصبي القامة، مرفوعي الرأس، وقد حبسوا أنفاسهم في صدورهم، مستعدّين للمعارك الرجوليّة التي تثبت من هو الشجاع في ساحة الوغى، وترفع اسمه عالياً بين الأبطال الغيورين على الوطن والثورة.

فمع أنّ متعة اختطاف الفتيات من الشوارع واغتصابهنّ في ظلّ التماثيل لا تعادلها أيّ متعة، عمل الشيخ الفقيه في البلدة على ترويج ممارسة الفعل الجنسي تحت مظلّة القانون العادل والأخلاق الحميدة، مع نساء حسناوات خبيرات بتركيع أشجع الشجعان أمام إغرائهنّ، يُتقنّ جميع فنون الباه الموروثة من ذكريات تاريخنا المجيد في بلاطات السلاطين، ويتفنّنّ بها بإضافة أحدث الطرق المكتسبة من أفلام البورنو «الإفرنجيّة»... ولذلك كان التحدّي أمام «جنود الثورة» شائكاً وخطِراً، لكنّه ممتع.

ألمح «البترونة» التي تدير «بيت المتعة» في الطابق الأرضي، الذي تنيره نافذة زجاجيّة عريضة تنفتح على الشارع، وهي تجلس وراء طاولة واسعة قديمة، وتحتلّ عدّة كراسيّ صُفّ

بعضها إلى جانب بعض بجسدها الضخم جداً، الذي يعادل حجم خمس من النساء اللواتي يعملن لديها، فخبراتها التاريخيّة المتراكمة في عالم المتعة تكدّست في جسدها كتلاً لحميّة شهوانيّة شبقة، تجعلها مبتغى من يبحث عن المتعة الحسّية العميقة في أعلى درجاتها أصالة.

تنتصب وراء «البترونة» صورة ضخمة للزعيم الجنرال الفائق الرجولة، بنظرته الرصينة المهدّدة، وبحجم يتعدّى ضخامة جسدها العملاق، فتسم المكان بالحماية والرعاية والأمان، وتنهى أيّ جندي عن الإخلال بالنظام، كما كان يحدث سابقاً في الشارع.

ومع أنّ هيبة «البترونة» مستمدّة من الحضور الطاغي للصورة، يُقال إنّها تمتلك من القوة الجسديّة ما يكفي لتحطيم خمسة من الجنود، لو حاولوا تعكير الصفو الوطني في بيتها. فبالإضافة إلى أنّها تعرف أين تتمركز منطقة الضعف الجسديّة والنفسيّة عند الرجل، إذ إنّها تنهال مباشرة برفستها الضخمة على ما بين فخذيه، فإنّها تستمتع خاصّةً بالتلويح في الهواء بجسد الجندي المسكين الذي يقع بين يديها، لترميه من النافذة المطلّة على الشارع. ولذلك كانت مضطرّة لتغيير زجاج النافذة المحطّم باستمرار في الأيّام الأولى من افتتاح «بيت المتعة»، ريثما انتظمت الأمور، وعرف الزبائن الحدود المسموح بها.

لا أدري كيف عرفت «بيت المتعة» هذا، وإن بصورة باهتة لكن حقيقيّة، مع أني لم أكن في حياتي كلها واحداً من «جنود الثورة»، المسموح لهم حصراً بارتياده، والذين أحمل تجاههم مشاعر متناقضة، فأنا أحترمهم لأنهم أشبال الثورة وحماتها الميامين، وفي الوقت نفسه أكرههم بسبب أفعالهم الشنيعة مع فتيات بلدتنا «البريئات».

وفي الومضات السريعة التي تنبعث للحظات في رأسي فجأة، تهاجمني أحياناً صورة عجيبة ليد قويّة تلوّح بي في الهواء ثمّ ترميني عبر نافذة واسعة، فيتطاير زجاجها ويتناثر حولي على الأرض. وكلّما أتتني هذه الصورة، شعرت بألم شديد عند مرفقي وكتفي، وكأنّني اصطدم الآن بأرض الشارع، حتّى لو كنت جالساً على أريكة أو متمدّداً في سرير.

والأخطر من هذا عندما تجتاحني صورة مخيفة أكثر غرابة أشمئزّ منها، فأجد نفسي أغتصب فتاة صغيرة بريئة ممزقة الثياب، تحشرج من الرعب تحتي في ظلّ تمثال للزعيم الجنرال، بينما فوقي يطير عصفور صغير، ويستعجلني آخرون ليحلّوا مكاني... لا أعرف إلى أين أهرب من نفسي أمام هذه الصورة، فأنا مواطن صغير مسالم، لا أجرؤ على رفع رأسي في الشارع، حتّى لو كنت وحيداً. لكنّ هذه الصورة تندفع من داخلي، ولا ينفع معها الهروب إلى أيّ مكان، فأشرب الكثير من جرعات عرق التين حتّى أنسى.

تتناول «البترونة» دون توقف جرعات متتالية من عرق التين بنوعيّة خاصّة ثقيلة، وهي جالسة وراء طاولتها، يلذعها طعمه المرّ، فيمتعض وجهها وهي تبتلعها، وتقفز شفتاها المتبرّمتان

اشمئزازاً إلى خارج خدّيها الضخمين المتهدّلين، فيما تعتصر عيناها امتعاضاً، فتغوران إلى الداخل أكثر، بحيث تكادان تضيعان في امتلاء وجهها.

وما إن تعيد كأس العرق إلى الطاولة بيدها اليمنى حتّى تدفع بخرطوم النارجيلة بين شفتيها بيدها اليسرى، تمتصّه طويلاً بنهم وعمق شديدين، ثمّ تنفث الدخان كثيفاً من فمها، ومنخريها، وعينيها، وأذنيها، بدفقات كثيفة، فتحيطها بغلالة دخانيّة تلغي الحدود بين وجودها الواقعي وشبحيّة امّحاء كتلها اللحميّة، لتغيب في فجوة مكانيّة وقعر دخاني يكاد يبتلعها.

ومن قلب غلالتها الدخانيّة تلك، تنظر بشرود طويل بعيداً جدّاً، إلى نهاية الشارع أمامها، وتضطرب عندما يوقظها جنديّ ويدعوها للعودة إلى الطاولة لتناوله تذكرة دخول، فتسعل لتصحو، وتمدّ يدها من داخل الغلالة الدخانيّة، تتناول النقود لترميها في درج جانبي، ثمّ تعود من جديد لتسقط في شرودها.

ما إن يتلقى الجنود تذاكرهم حتّى يؤدّوا التحيّة العسكريّة بشكل نظامي شديد الانضباط أمام صورة الزعيم الجنرال المهيب، ثمّ يتسلقون الدرج بخفة الأرانب، كلّ درجتين معاً، باحثين عن رقم الغرفة المخصّصة لهم ليندفعوا إلى داخلها.

تتشابه الغرف بالكامل، ولا تتمايز إلّا بأرقامها، رماديّة كالحة، دون نوافذ، عارية من أيّ شيء سوى سرير نحاسي عتيق، يقف على قوائمه بصعوبة في أحد أطرافها، يغلب السواد على لونه الأصفر الباهت بسبب تراكم الأوساخ الكثيف عليه. والغرف دون باب يفصلها عن الممرّ، استُعيض عنه بستارة من عيدان القصب الرقيقة المتقصّفة، التي تكشف من بين ثقوبها الطوليّة ما وراءها أكثر ممّا تخفي. وينبثق من الجدار الجانبي فوق السرير مصباح كهربائي صغير أحمر اللون، يكاد لا ينير نفسه، فيرسم ظلالاً مبهمة على الجدران.

وكما في كلّ مؤسّسات الدولة الرسميّة، تحتل صورة الزعيم الجنرال، العين الساهرة، المكان المشرف في الغرفة، متصدّرةً هنا أيضاً الجدار فوق السرير مباشرة.

تتمدّد في كلّ غرفة امرأة عملاقة، ممتلئة بكتلها العارية، على فراش قذر تثير رائحته الاشمئزاز. ما إن يدخل إليها زبونها حتّى تلتقطه من سترته العسكريّة المهلهلة، تشدّه إليها، وهو لم يكد يفك حزام بنطاله، وتتلقاه بفخذيها العملاقين لتحاصره بمهارة، دون أن تسمح له بخلعه بالكامل، فلا يشعر وهو مذهول من صدمة الاصطدام إلّا وقد سقط بجسده كلّه فيها.

يهتزّ السرير النحاسي بصرير معدني متكسّر، يئنّ كأنّه يكاد يسقط في كلّ لحظة حطاماً معدنيّاً، فيما تتراقص الظلال الباهتة على الجدار، تتطاول، تتضخم، تتعارك، وتنكمش. يتعالى اللهاث الرجولي عالياً ضاجّاً في فضاء الغرفة، وما إن يصل إلى سويّة معيّنة حتّى يأخذ نور المصباح الأحمر بالاشتداد والخفوت بنحو متناوب مع إيقاعه. وفي أثناء ذلك، ترمي المرأة

ذراعيها بلامبالاة على مسند السرير، وتذهب نظراتها الساهمة إلى نسيج عنكبوت معشّش على أطراف السقف، دون أن يعنيها ما يحدث لجسدها.

وبعد مرور ما يقارب الدقيقة، يتصاعد كلّ شيء نحو الذروة، الصرير المعدني بأزيزه المتكسّر، تراقص الضوء الأحمر الشاحب، تلاعب الظلال على الجدار، تسارع اللهاث الوحشي، ضياع النظرات الساهمة... وفي لحظة، ينفلت صوت لحظة الذروة عالياً، قادماً من الأعماق، فينفجر المصباح الصغير الرقيق من صدى إيقاعه وشدّته، ويتناثر زجاجه الناعم في فضاء الغرفة، فتسود العتمة والصمت، ويهدأ اللهاث.

وما إن يعود السرير إلى صمته وهدوئه حتّى تدفع المرأة عنها بقدمها الرجل الذي ذبل عضوه مع شهوته. تتناول منشفة رمادية عتيقة مهترئة، معلقة على جانب السرير، تمسح بها عرق جسدها الذي يهطل غزيراً والسائل الكثيف الذي تركه البطل بين فخذيها، ثمّ تعيد تعليقها. تبدّل المصباح الصغير من علبة مليئة بالمصابيح، مرميّة بقربها على طاولة صغيرة، وتستعجل التالي على الرغم من أن السابق لم يُنهِ رفع بنطاله.

يخرج البطل من الغرفة خالي الوفاض، وينزل الدرج مهلهلاً محطّماً بتثاقل شديد، زاحفاً كالسلحفاة، مستنداً إلى الجدار خوفاً من الانهيار والسقوط. يغادر «بيت المتعة»، وقد نسي أن يؤدّي التحيّة العسكريّة أمام الصورة، ويذهب مباشرة إلى بائع الفلافل العجوز، يشتري سندويشاً ضخماً من أجل تعويض طاقته المهدورة التي ذهبت في المشفرين الفاغرين، ثمّ يجلس على مصطبة طينيّة، ويأكله بصمت.

لا تمنح «البترونة» جسدها إلّا يوم الخميس، باحتفاليّة خاصّة يحضرها أربعة ضبّاط من نخبة الكوماندوس، ممشوقي القامة، شديدي البأس، مفتولي العضلات. يدخلون معاً إلى غرفتها الخاصّة الواسعة التي يحتلّ أرضيّتها فراش أبيض كالح، عريض بقدر اتّساع ساحة معركة. تصطفّ ستراتهم بنجومها الذهبيّة اللامعة على مشجب خشبي، وإلى جانبها مسدّساتهم الفضّية، وخناجرهم، وقنابلهم، وعلى الأرض أحذيتهم العسكريّة الأنيقة.

يمسّد الضبّاط الأربعة «شنباتهم»، ثمّ يقفزون إلى الفراش كالغزلان عراة بالكامل، ويغطسون في التلال اللحميّة لـ«البترونة»، يتّحدون معها في كتلة هلاميّة تضيع حافاتها وأطرافها. جسدٌ عملاقٌ بخمسة رؤوس يتلوّى بنشاط، ومؤخّرات تصعد وتهبط بحيويّة، وخوار ذئاب وخنازير برّية يملأ فضاء الغرفة بصخب شديد. أبطال حقيقيّون تهتزّ جدران الغرفة مع صهيلهم، وتكاد تنهار في لحظة الانتشاء من صراخهم.

وبعد دقائق تنجلي المعركة عن حطامها، فيرتمي الضبّاط الأربعة متناثرين في أرجاء الفراش، كالقتلى المثخنين بالجراح، فتتركهم «البترونة» مطروحين وكأنّ شيئاً لم يحدث. تمضي، وتنزل

الدرج بخفّة، وهي تتناول زجاجة كاملة من عرق التين دفعة واحدة محتفلة بانتصارها، فيما هم يزحفون وراءها على بطونهم إلى بائع الفلافل، ليشتري كلّ منهم سندويشين ضخمين معاً.

عند الظهيرة، وبانتظار قدوم الجنود، تجلس النسوة متتاليات على الدرج، منفرجات الأفخاذ باسترخاء ناعس. هنا يجدن تيّاراً لطيفاً من النسيم العليل، ينعش أعضاءهنّ ونفوسهنّ الذابلة. يقرمشن خبزاً يابساً مدهوناً بزيت الزيتون، يشربن عرق التين، ويحسبن الأيّام والزبائن والنقود. لكن، لا أحد يعرف بما يحلمن، ببيت وحياة دون دعارة، أم ببيت وحياة دعارة مستقلة عن «البترونة»! فأحوالهنّ الماليّة أخذت تسوء في الأيّام الأخيرة مع ازدياد الاستنفارات الحدوديّة، إذ أصبح «جنود الثورة» يغيبون طويلاً على سفوح الجبال العالية، وفي أطراف الصحراء القاسية، وهم يطاردون الأعداء الذين يدعمون «عصابات الظلال» في دولة الثورة العظمى.

ومع أنّ الجنود ظلّوا يعودون بحماسة شديدة من معاركهم ويشترون تذكرتين معاً، أخذت فترات حضورهم تتباعد كثيراً، بسبب ارتفاع وتيرة المؤامرات الخارجيّة على الوطن. كما أن النساء المكافحات في «بيت المتعة» أصبحن مهدّدات من مُنافسات جديدات، أخذت أعدادهنّ تتزايد فجأة، نساء فقدن أزواجهنّ في معسكرات الأشغال الشاقة، وانقطعت بهنّ سبل الحياة، فاضطررن للنزول إلى ميدان النضال اليومي في الشارع مباشرة لعرض أجسادهنّ خارج بيوت دعارة، وبأسعار رخيصة منافسة.

تتميّز دولتنا منذ انتصار الثورة العظمى بالانتشار الواسع للمقاهي الشعبيّة في جميع مدنها وبلداتها وقراها، التي تُنشأ برعاية خاصّة من الزعيم الجنرال المتفهّم، فهي أحد أشكال التعبير عن اهتماماته بالمدّ الجماهيري، وإمكانيّات استيعابه في ممارسات منضبطة موجّهة لمصلحة الاستقرار العام.

فالمقاهي تمتصّ الطاقة والحيويّة الزائدة لدى المواطنين، وتحدّ من انفلات الرغبات المكبوتة بإثارة الشغب، إذ لا تتجاوز المنازعات فيها المشاكسات والمماحكات البريئة العفويّة، كردود فعل على هزائم «ورق اللعب».

وقد اخترت مع أصدقائي الرائعين المقهى الشعبي الكبير في الساحة الرئيسيّة، المسمّى «مقهى الثورة»، لقضاء أمسياتنا فيه، باعتبار أنّه أكبرها في البلدة، ولحسن الخدمات المتميّزة فيه.

تستيقظ روحي وينتابني الصحو المبدع فور دخولي «مقهى الثورة» مساءً، فتتجدّد قواي، وتستفزّ حيويّتي، وترتفع وتيرة نشاطي، أشعر بالانتعاش والانشراح، وترتسم الابتسامة العريضة على وجهي. في هذه اللحظة أرمي كلّ شيء وراء ظهري وأبدأ نهاري الحقيقي.

تلتمّ مجموعتنا الرائعة التي استقرّت على خمسة أشخاص منذ مدّة طويلة حوالى السادسة مساءً من كلّ يوم، نختار في الصيف طاولة تحت شجرة اللبلاب المُصْفرّة دائماً من العطش، عند المدخل

الخارجي للمقهى، بسوره الخشبي المتكسّر والمنبطح أرضاً في طرفه الأيمن. أمّا في الشتاء، فنتغلغل داخل الصالة بين أمواج دخان السجائر والنارجيلات الكثيف، التي تتصاعد في فضائها، وتتناغم مع دفقات الصخب والضجيج التي يصدرها الزبائن بصراخهم الدائم.

يرافقنا طوال الأمسية في المقهى الصوت الأجشّ للمطرب الشعبي أبو علي، الذي يلعلع مخربشاً من شريط كاسيت موصول بمُكبّر صوت عتيق، بزعيق يرافقه أزيز ربابة تُحتضر، وقصف طبل يعلن انهيار جدار. يتعطّل المُكبّر من وقت إلى آخر بسبب تلف أسلاكه المهترئة، فينقطع الصوت، وخاصّة عند ذكر أعداء الثورة، فيهزّه صاحب المقهى، وهو جالس خلف طاولته، بعصاً طويلة، ليعود إلى الزعيق. لكن، ما إن يأتي ذكر اسم الزعيم الجنرال المُصلح في كلمات الأغنية حتّى يصبح الصوت صافياً كأنّه صادر من آلة تسجيل حديثة، دون أسلاك قديمة متقطعة.

أبو علي مطرب صاعد، قادم من قرية تقع في أقصى الشمال، كادت تكون منسيّة لولا اكتشاف المواطنين احتضانها لطفولة الزعيم الجنرال العفوي في أثناء عطلاته المدرسيّة، حيث تركت طبيعتها الريفيّة البدائيّة بصمتها القويّة على شخصيّته الجريئة التي برزت منذ نعومة أظفاره.

هناك، في طفولته، كان الزعيم الجنرال الجريء يصطاد الأرانب بالفخاخ من أوكارها، ويحطم رؤوسها بالحجارة، ويلتقط العصافير على أعواد الدبق ويكسر أقدامها، ثمّ يشويها حيّة ليعرف كيف تتصرّف في اللحظات الأخيرة من حياتها. هناك كان يحبس حشرات زيز القصب ذات الظهر الأخضر الذهبي اللامع في علب الكبريت حتّى الاختناق، يلتقط الضفادع بمهارة من السواقي ويقطع أطرافها ليعرف ردود فعلها، يقلّب أعشاش النمل مخرّباً ليبحث عن الملكة، يسرق بيض الدجاج ويبتلعه نيئاً مع قشرته، يسطو على كروم العنب والتين والرمان... بطولات رائعة قديمة نمَّت في قلبه الجرأة، وجعلته يتحدّى المخاطر بطفولة بريئة.

يصدح زئير أبو علي بذكريات طفولة الزعيم الجنرال البريء، ويزيّنها بمواويل مستلهمة من الفلكلور الشعبي للقرية، مستذكراً زعيق الفلّاحين على حيواناتهم لردّها عن المزروعات، والشتائم الإباحية التي يتبادلونها إثر اتهام بعضهم بعضاً بسرقة الملفوف والفجل والفول من الحقول، ترافقه موسيقى إبداعيّة مستوحاة من تلاقي عصيّ الرفوش وقرعها على الرؤوس في المعارك الدمويّة حول اقتسام مياه السواقي، أو صراخ الألم المتصاعد من القلب إذا ما رفس بغل حَرن أحد الفلّاحين، أو نطحه ثور هائج.

هكذا أحيا أبو علي التراث الوطني الثوري بأصالته الفلكلوريّة في القرى، فأنشده في مناسبات الأعراس، والولائم، والمآتم، والختان، والصلح بين الأزواج والزوجات، جاعلاً صورة الزعيم الجنرال العبقري منذ الطفولة حيّة في القلوب.

عندما اكتُشف أبو علي مصادفة في أحد الأعراس الشعبيّة، احتفى الجميع به لإبداعاته في إحياء الذاكرة الشعبيّة الثوريّة، فسُجّلت أغانيه على أشرطة كاسيت، في إطار رصِّ صفوف الثورة على أرضيّة الأصالة الشعبيّة الصافية النابعة من القلب، وخاصّةً بعد تزايد الشعور بملل المواطنين من الأغاني الحماسيّة الثوريّة على أرضيّة المعاصرة. وعُمّمت هذه الأشرطة على جميع المقاهي الشعبيّة، فتغيّرت الأحوال، وسُرَّت القلوب، وانشرحت النفوس، وانتعشت الآمال، وأصبحت الأجواء فيها أكثر حميميّة. فأغاني أبو علي تتميّز بحرّية العبث البريء، والمشاكسات الأخويّة، وتبادل العبارات العفويّة الإباحيّة فيها، وذلك للتعبير عن سياسات الانفتاح على أجواء أكثر ديمقراطيّة، تخفّف من ضغوط الرقابة الإعلاميّة والأمنيّة على المواطنين.

أصدقاء المقهى موظفون مثلي؛ ساعي بريد، وسائق شاحنة جمع النفايات، وممرّض في المستوصف، ومستخدم في مكتب دفن الموتى، يميّزني عنهم فقط جلوسي خلف مكتب. لا أعرف عنهم أكثر من هذا، فنحن لا نتبادل هنا إلّا الأحاديث الثوريّة المتعلقة بـ«ورق اللعب»، بعيداً عن كلّ ما هو شخصيّ، باعتبار أنّ الفرد يذوب في الجماعة لتحقيق مصلحتها العامّة.

وتتحدّد أشكال التسلية في المقهى في جميع ما نرغب فيه من ألعاب تاريخيّة مشهورة على المستويات الوطنيّة والإقليميّة والعالميّة، مثل «الباصرة»، و«الطرنيب»، و«كون كان»، و«التريكس»، و«أبو الفول»، أمّا لعبة «البوكر» فهي ممنوعة وبمتابعة دقيقة من الأجهزة الأمنيّة، فبالإضافة إلى أنّها تسلية بورجوازيّة منحطّة، فهي أيضاً من ألعاب القمار، واللاعبون الفقراء بعد أن يقامروا بزوجاتهم ويخسروهنّ، يمكن أن يقامروا أيضاً بالوطن والثورة.

تعلو لهجة المنتصر بعد كلّ دور من «ورق اللعب» بالتحدّي والقوّة والعزّة والكرامة، فيبدأ بكيل الشتائم والإهانات للمهزوم، من مخزونه الإباحي الشعبي، ويسخر منه مطالباً إيّاه بالذهاب إلى العاصمة، والمشاركة في دورات تعليميّة وتدريبيّة وطنيّة في أصول اللعب حتّى يصل إلى المستوى المبدع لغريمه.

وفي حال الفوز السريع المدوّي، يقفز المنتصر على الكرسيّ القديم، ويرقص جذلاً وملوّحاً في الهواء بسترته السوداء الدكناء المهترئة، تعبيراً عن الانتشاء العميق، هاتفاً بحياة الزعيم الجنرال المنير الذي ألهمه عبقريّة الإبداع في اللعب، وأضاء له طريق النجاح، وغالباً ما يقع أرضاً بعد أن ينسى نفسه ويظنّ أنّه قد أصبح فوق الغيوم.

أمّا المهزوم فيندسّ تحت الطاولة، بعد أن يخلع سترته ويخفي وجهه ورأسه تحتها خجلاً أمام الصورة المقدّسة، فمع عدة هزائم سوف يلحقه العار الشديد، ويكتسب سمعة سيّئة بين روّاد المقهى على المستوى الوطني.

ينقسم روّاد المقهى إلى فرق متنافسة بألعاب الورق في الأعياد الوطنيّة الرسميّة، حيث تعطّل دوائر ومؤسّسات الدولة من أجل التفرّغ للاحتفالات بما يليق بعظمة هذه المناسبات، وأهمّها ذكرى ميلاد الزعيم الجنرال الممتلئ بحبّ الطفولة، وذكرى زواجه، وولادة أبنائه، واحتفالات ابتسامته الرصينة، وارتدائه البذلة العسكريّة، وتصحيح ترتيب الأوسمة عليها، وخنقه صديقه بيديه بعد اكتشاف خيانته. في هذه المناسبات الوطنيّة تبدأ المنافسات وجولات التحدّي بورق لعب جديدة منذ الصباح، وبجميع أنواع اللعب. تستمرّ التصفيات طوال النهار بحماسة شديدة، تتوالى خلالها الهتافات الوطنيّة بحياة الزعيم الجنرال المفدّى الخالد، رمز اللعب الذكيّ المبدع. ومع مرور الوقت تتعالى الأصوات من الحناجر، وتلتهب الأكفّ بالتصفيق، وتختلج الأجساد بالإثارة، وترتعش القلوب بالترقب، وخاصّة كلّما اقتربت المنافسات من نهايتها.

وما إن يأتي المساء حتّى تُعلن أسماء الفائزين، وأولهم زعيمنا الجنرال الذي شارك معنا في اللعب روحيّاً، فترتفع صوره والأعلام والبيارق عالياً، ويخرج جميع الروّاد من المقهى في مسيرة حاشدة، تدور حول الساحة الرئيسيّة لعدّة ساعات. وفي هذه الأثناء يحضر عناصر الأجهزة الأمنيّة إلى المسيرة، ويطلقون الرصاص من أسلحتهم في الهواء، مشاركة بالفرح والابتهاج بالانتصارات العظيمة التي حدثت في المقهى.

ثمّ تعود الحياة إلى طبيعتها في الأيّام التالية.

ومن سوء الحظ أنَّ مجموعتي مهزومة دائماً في المنافسات الوطنيّة، نخرج منها بعد نصف ساعة من بدء الجولات الأولى، على الرغم من خبراتنا التاريخيّة العالية في اللعب، واستخدامنا مجموعة جديدة من أوراق اللعب غير المفتوحة من أجل الحظ الجيّد. ودائماً يتّهم بعضنا بعضاً بعدم التوجّه بقلوب صافية قبل بدء اللعب نحو صورة الزعيم الجنرال المُلهِم، ما يتسبّب لنا بالهزيمة. وترتفع وتيرة الاتّهامات ضدّي خاصّةً، باعتبار أنني شبه مهزوم باستمرار في اللعب اليومي.

ولكنّنا في النهاية نبقى أصدقاء.

الأكثر ضجيجاً بيننا من أصدقائي الرائعين هما أبو خالد، ساعي البريد، وأبو سمير، سائق شاحنة النفايات، اللذان تعمل زوجتاهما معي في المكتب. وهما قبيحان مثلهما، لهما وجهان خشبيّان متغضّنان، مثلومان في عدّة أماكن بإزميل نجّار طاشت يده في أثناء صنعهما، فإذا ما ضحكا قرقعت قهقهاتهما كصرير باب عتيق يكاد يسقط من جرّاء تلاعب رياح شديدة به، وهو ما كان يستفزّ بقيّة المجموعة.

لا أدري كيف يحصل أبو خالد وأبو سمير على ورقة الجوكر الأسود باستمرار، عندما يكون دورهما في توزيع أوراق اللعب، ما يؤدّي إلى تزايد انتصاراتهما. فالجوكر يتمثّل بصورة الزعيم

الجنرال، ومن يحمله يضمن الفوز بواسطته كورقة رابحة باستمرار دون منافس. هكذا، بدأ الشكّ يراودني في تلاعبهما وغشّهما.

ومع تكرار فوزهما بدأت أنا وشريكي أبو ياسين الأكتع، العامل في مكتب دفن الموتى، ومنافسوهما في اللعب، نشعر بالإهانة الوطنيّة أمام الهزائم المتتالية التي تنال منّا دون أيّ اعتبار لأهمّية منصبي الرسمي في «إدارة السجلّ المدني». ومع أنني ظللت أخجل من الهزيمة وأندسّ تحت الطاولة مطأطئاً رأسي مختبئاً تحت سترتي، بدأ أبو ياسين يتمرّد، ويتّهمهما بالغش والإساءة إلى سمعتنا الوطنيّة، فالجوكر الزعيم الجنرال هو والد الجميع، ويمنح الفرص والبركات دون استثناء أحد من نعمه.

ينهض أبو ياسين بحيويّة، على الرغم من عاهة كتفه التي اختفت منها بعض العظام إثر مرور عربة خيل عليه في شبابه، ينحني ويتطاول إلى حذائه الرمادي الأكثر اهتراءً بين أحذيتنا، يخلعه ويهجم به على أبو خالد وأبو سمير، وهو يرغي ويزبد. فيضطرّ عندئذ أبو سليمان الأعور، الممرّض في المستوصف، خامسنا في المجموعة، إلى التدخّل والفصل بينه وبينهما، بالرغم من معرفتنا أنّه متآمر معهما. وفي النهاية، يتدخّل المعلّم صاحب المقهى لفضّ النزاع، ويأمر النادل بتوزيع خمس كؤوس من الشاي الثقيل على حساب المقهى.

يحضر النادل من قلب غمامة العتمة في الداخل، فينبثق أمامنا فجأة بنحوله الشديد وطوله الممتدّ عالياً، بحيث يصلح أن يكون سارية للراية الوطنيّة. يتقدّم، وهو يرفع صينيّة كؤوس الشاي عالياً فوق رأسه حتّى لا تصطدم بمجموعات الزبائن المتنازعين باستمرار مثلنا، فيتزايد طوله أكثر، بحيث أخاف عليه من الانكسار في الوسط. تندلق الصينية علينا، وقد انسكب نصف محتوى كؤوس الشاي عليها، ومع ميلانها يسيل ما تجمّع فيها فوق رؤوسنا، فيتحوّل غضبنا نحوه بسبب إهانته الشخصيّة لنا، وعدم احترامه لمناصبنا الرسميّة في الدولة. وما إن تنزلق الكؤوس على الطاولة حتّى يفرّ هارباً بخفّة، لكن سرعان ما نضحك عندما نشاهده وقد طالته ضربة حذاء طائش من إحدى المجموعات المتنازعة.

وعلى الرغم من هذه النزاعات البريئة تنتهي الأمسيات دائماً بوئام، بعد أن نتناول في نهايتها طبقاً من الحلويات الشعبيّة يدفع ثمنها المهزوم، الذي غالباً ما يكون أنا.

نغادر المقهى في حوالى التاسعة مساءً ونعود إلى بيوتنا، نتمشّى قليلاً أنا وشريكي في اللعب أبو ياسين الأكتع، قبل أن نفترق كلٌّ في طريقه.

ومع أنَّ أبو ياسين يعمل مستخدماً في مكتب دفن الموتى، فهو الأقرب إلى قلبي، أشعر بالراحة وأنا أسير معه، مع أنه يثير دائماً في داخلي مشاعر متناقضة تجاهه. فعواطفنا متضامنة بسبب محاولاتنا ردّ الهزائم المشتركة في اللعب، من أجل استرداد كرامتنا الوطنيّة المهزوزة، لكن في

الطريق تنتابه حالات غريبة من اشتعال العواطف المتمرّدة المتطرّفة التي تسيء إلى سمعة المواطن النموذجي. يهذي بهلوسات عجيبة عمّا يحدث في دولة الشمال التي نتبادل العداوة معها منذ زمن بعيد، وهي تنتظر الفرصة المناسبة كي تنقضّ علينا.

يُلمّح قائلاً «من هناك انطلقت جذوة الثورات العظمى جميعها، لا من دولتنا الغبيّة».

فينتابني القلق والاضطراب والحيرة ممّا يقوله.

وتطاول ذات مرّة قائلاً «هناك يقيم زعيم الزعماء منذ أكثر من مئتي عام، أي قبل أن يولد زعيمنا وأجداده، وهو لا يزال يعيش بين الناس بالرغم من موته، يمضي إليهم في المعامل والمزارع والمدارس، دون بذلة عسكريّة، ودون أوسمة وأيقونات، مترفّعاً عن مباهج الحياة البورجوازية التي نعيشها هنا. لا يحلق لحيته أبداً. لحيته الكثيفة وصلت إلى الأرض تعبيراً عن تاريخيّة حكمته الثوريّة، يكنس بها الأفكار البورجوازية المرميّة على الطرقات».

ثم يتحدّث أبو ياسين عن مشاعر تضغط على صدره، دون أن يعبّر عنها بصراحة، ويقول إنه يريد أن يتنفس الحرّية.

أتصبّب عرقاً، وأنا أرتعد من هذه الجرأة، أخاف أن تنتقل إليَّ العدوى، وخاصّة أن حديثه يثير شيئاً غريباً في ذاكرتي الممسوحة. لكن ما أسمعه من حكايات مخيفة عن معسكر الأشغال الشاقة القريب من البلدة يجعلني أتهرّب منه، فأمضي بسرعة قائلاً: إلى اللقاء في الغد، أبا ياسين.

أنا وزوجتي

في المساء، أعود إلى البيت من المقهى، فأجد زوجتي متمدّدة على السرير، متّكئة على يدها وهي تبكي. تشهق بحرقة، ودموعها تنهمر بغزارة من عينيها الصغيرتين المحمرّتين الغائرتين وراء خدّيها المتفجّرين سمنة. يبتلّ الفراش، وتأخذ القطرات تسيل منه على البساط الرمادي الممزّق، الذي أصبح مجعّداً ملتفّاً على نفسه من الحزن المنسكب عليه يوميّاً. لا أسألها عن سبب بكائها، فهي لن تحدّثني عنه بشيء.

ما إن أدخل إلى الغرفة حتّى تسرع بخلع سروالها الضخم الكالح البياض، وترميه في فضاء الغرفة، فيعلق على المصباح في وسط السقف ليخيّم بظلاله على السرير، أو يسقط على صورة الزعيم الجنرال المتسامح، المعلّقة على الجدار، في إطار خشبي عتيق، فهو يغضّ الطرف عن نزوات النساء وسراويلهنّ ما دمن حزينات.

تشير زوجتي بإصبعها إلى الفراغ الذي خلفته في الصدر الدموع الهاربة، فأنتفض لمرآها المزري، أنزع ملابسي بسرعة، وأقفز إلى كتلها اللحميّة العجينيّة العملاقة المركونة فوق السرير، وأغوص فيها لملء فراغ الدموع، وأمضي في إسكات الحزن والقلق لديها.

ما إن أتحرّر من واجباتي الليليّة الثقيلة التي أضطرّ للقيام بها تحت ضغط النخوة الوطنيّة لتسكين آلام زوجتي التي سرعان ما تغفو، حتّى أذهب إلى المطبخ، وأحضر زجاجة كبيرة من عرق التين، وأجلس على الأريكة أشاهد أفلام العنف والإثارة الدمويّة الرجوليّة في التلفزيون. بعد عدّة ساعات، أغفو معانقاً إحدى ممثلات الأفلام بجسدها الأهيف، بعد أن أنقذها من أسْرِها لدى إحدى عصابات المخدّرات العالميّة.

وفي الصباح أنهض متثاقلاً، وأمضي متكاسلاً إلى عملي اليومي الممّل.

ومنذ فترة ليست بالبعيدة، أخذت أشعر بتصرّفات غريبة تصدر عن زوجتي في الليل، بدءاً من لحظة عودتي من المقهى. تلاحقني بنظرات لا أفهمها، فيها خليط من العدائيّة واللامبالاة، فيتراءى لي أحياناً أنها لا تعرفني، وكأنّها تراني للمرّة الأولى. فما إن أدخل البيت حتّى تطفئ ضوء غرفة النوم، وتشعل مصباحاً صغيراً أحمر اللون، لا أدري من أين حصلت عليه، وتبقى متمدّدة على السرير، تنتظرني صامتة ساكنة. تفتح فخذيها مباشرة دون مبالاة، وترمي بساعديها على مسند السرير، فأقوم بواجباتي الزوجية نحوها بطريقة اعتياديّة وطبيعيّة، فيما هي تنظر في العتمة، لا أدري إلى أين، ربّما إلى شبكات العنكبوت الموزّعة في زوايا السقف.

استغربت من وضع زوجتي الليليّ، وخاصّة عندما لاحظت أنها قد علّقت منشفة رماديّة قديمة مهترئة على الحائط قرب السرير، فما إن أنهي ممارسة الجنس معها حتّى تأخذها وتمسح بها جسدها المُتعرّق وما بين فخذيها، وتعيد تعليقها، فيما أنا أنهض، وقد علقت بأنفي رائحة الفراش القذر، التي لا أدري من أين تأتي.

سألتها ذات مرّة، بعد أن غطست في كتلها اللحميّة المتكدّسة وانتهيت فيها «ما بكِ؟».

أجابتني بلامبالاة «من أنت حتّى تسألني هذا السؤال وتهتمّ بي شخصيّاً؟».

أحدّق بها في العتمة، وقد ملأت الدهشة وجهي «أنا! أنا زوجك».

تهمس ساخرة «اصمت، زوجي لم يعد يرجع إلى البيت إلّا مع طلوع الفجر، ولا ترفع صوتك، فقد يخبره الجيران بوجودكم، أنت والآخرين، وتحدث مصيبة... ثمّ إنّك أنت بالذات أصبحت تأتي أكثر من مرّة في الأسبوع، دون أن تهتمّ بدور غيرك».

يبلبلني جوابها، وقبل أن أسألها عن هذه التفاهات التي تنطق بها، أراها وقد غرقت في النوم سريعاً، ولا تفلح محاولاتي في إيقاظها.

أجلس مصدوماً على الأريكة، أشرب جرعات كبيرة من عرق التين حتّى أملأ الفراغات المدوّية في رأسي، ولا سيّما بعد ما سمعته من زوجتي. فعلاقتي معها طبيعيّة في أثناء النهار، إذ ما زلنا نتناول وجبة الغداء اليوميّة من الأرزّ المسلوق مع سلطة الخضار، التي تزيّنها بتذمّرها الدائم، وأغفو بمتعة على زعيقها لأنام ساعتين قبل الذهاب إلى المقهى.

لكنّي لا أدري ما الذي يحدث لها ليلاً! وهل لهذا علاقة بما يحدث لي أنا أيضاً في الليل؟... لا أظنّ، فما يحدث لي هو شيء مختلف تماماً.

كنت كلّما عدت إلى البيت مساءً، ونظرت إلى المرآة القديمة المعلقة على الجدار في المدخل، تلك التي ملأت الخطوط المنحنية كامل مساحتها، محوّلة إيّاها إلى تجميع عشوائي للكسرات، أرى وجهي عاديّاً، لا ممزّقاً حسب الكسرات فيها. وقد حدث هذا منذ أن انتظمت حياتي كمواطن نموذجي مطيع، في أجواء الأمن والأمان التي سادت في البلدة.

إلّا أنّ ما يخيفني الآن هو أنّني أصبحت أرى فيها وجهاً مختلفاً كلّ يوم، وجميعها وجوه بقسمات متغضّنة، غريبة، مشوّهة، لأشخاص لا علاقة لي بهم، لا أعرفهم، ولم أرهم أبداً... وربّما لهذا تظنّ زوجتي أنّها تمارس الجنس كلّ ليلة مع شخص مختلف. لكنّ ما يزعجني ليس تشوّشها باختلاف الوجوه عليها وعدم قدرتها على تمييزي ليلاً، بل استعدادها للنوم مع آخرين.

وما يوتّرني أكثر هو رائحة الفراش القذر، والمنشفة القديمة المهترئة المعلقة على الجدار، فزوجتي نظيفة، بغضِّ النظر عن تعرّق كتلها اللحميّة المستمرّ. ومع كلّ الفقر الذي نعيشه، فإن رائحة الغرفة وأثاثها مريحة ولطيفة بسبب وسواس النظافة لديها، فمن أين تأتي رائحة القذارة هذه؟

ولا أعرف أيضاً لمَ تستخدم هذه المنشفة العتيقة المهترئة، رغم أنّها تستمتع بسائلي، وتعوّض به الدموع الغزيرة التي تسكبها حزناً.

سألت صديقي أبو ياسين الأكتع ذات مرّة، بطريقة غير مباشرة حتّى لا ألفت انتباهه، عن استعمال بعض النساء لمناشف تُعلّق على الجدار، يمسحن بها ما بين أفخاذهنّ بعد الممارسة الجنسيّة. فوجئت بنظراته المريبة إليَّ، وقال لي معاتباً «لا أدري لماذا لم تعد تتمشّى معي بعد خروجنا من المقهى ليلاً، تغادرني مسرعاً، وأنا ألاحظ أنّك غيّرت طريقك، فبدلاً من أن تذهب باتّجاه المقبرة ومنها إلى البيت، أراك تمرّ من أمام «بيت المتعة»، وهناك تختفي من أمام ناظريَّ».

صحيح، أنا أمرّ من أمام «بيت المتعة» كلّ ليلة. أتوقّف قليلاً أمام أضوائه الخافتة، ثمّ لا أتذكر ماذا يحدث بعد ذلك!

بذلت مجهوداً كبيراً حتّى أقنعت زوجتي بأنني لا أعود فجراً إلى البيت، وأنّني أقضي الليل بطوله معها. سكتت بامتعاض، وأشاحت بوجهها عنّي صامتة، لكنّني متأكّد من أنّها لم تصدّقني، بل أخذت علاقتي معها تتوتّر أكثر فأكثر، دون أن تفارقني نظراتها المريبة. وبالرغم من كلّ هذا، ما زلت طبيعيّاً معها، ما إن أصل إلى البيت مساءً حتّى أخلع ثيابي بسرعة وأرتمي عليها في السرير، دون أن أنظر إلى الساعة، إلّا أنّني أشعر الآن بازدياد نفورها منّي، تريد أن أنهي بسرعة وتتخلّص منّي.

ومنذ مدّة غير بعيدة، فوجئت بأنها أصبحت تركلني بقدمها بعيداً عنها ما إن أنهي واجباتي نحوها، وهي لا تزال هي في ذروة تهيّجها. تركلني، فأقع متعثّراً على الأرض فوق البساط الرمادي الأجرد الممزق، فيما هي تنقلب على صدرها لتدفن وجهها في المخدّة وتنشج باكية.

وبالرغم من الإثارة التي تتركها رجرجات مؤخرتها العملاقة وهي تبكي، لا أدري لماذا لا تأتيني الشهوة من جديد، لأعاود الدخول فيها بهذا الوضع الرجراج الجميل، فربما أستطيع أن

أرضيها في المرّة الثانية، وأجعلها تهدأ... لكنّ الشهوة لا تأتيني، فيما هي تستمرّ بموسيقى نشيجها فترة من الزمن، ثم ما تلبث أن تسكن شيئاً فشيئاً، وتنام.

أنهض عن الأرض، أجلس على الأريكة، وأنظر مذهولاً إلى عضوي الذابل تماماً.

لا أدري كيف بدأت تنتابني حالات من التفكير في ما يحدث لي مع زوجتي! فمع أنّني لا أحبّ التفكير كمواطن نموذجي في البلدة، وجدت نفسي منساقاً في البحث عن الأسباب التي تدفعها إلى النفور منّي، دون أن أستطيع إشباعها روحياً أو جسدياً، ولا حتّى ملء الفراغ الذي يخلّفه انبثاق الدموع في داخلها.

ربّما لا تتعلّق المشكلة بها، بل بي بالذات.

يبدو أنّ الاعتياد على الأرزّ المسلوق وجبة غداء أساسية يومياً، بدأ يترك آثاراً صحّية سيّئة على جسدي. وإضافة اللحم إلى وجبة الغداء مستحيلة، بسبب راتبي المتواضع الذي لا يسمح لي بالتبذير في قضايا الطعام وتنويعه. وهذه القضيّة في الأصل تشغلني، وتقضّ مضجعي باستمرار، فأنا لا أتناول اللحم إلّا في الولائم التي تقيمها «إدارة السجلّ المدني» في المناسبات الوطنيّة الهامّة، حيث أعمل، مثل عيد ميلاد الزعيم الجنرال الرؤوف، وأعياد ميلاد زوجته الكريمة، وأولاده الميامين، وأقربائه الأقربين الرائعين حتّى الدرجة الثالثة. ومع أنّ مثل هذه المناسبات الهامّة عديدة جداً على مدار العام، ليس هناك من ضمانة أكيدة في تلقّي الدعوة إليها باستمرار، لأنّ هذه مرهونة بمزاجيّة «أبو العينين» الذي يحدّد شروط المشاركة فيها، بمعاييره الوطنيّة المتقلبة.

و«أبو العينين» هو المسؤول الأمني عن موظفي «إدارة السجلّ المدني»، وترتفع تقاريره مباشرة إلى الأجهزة الأمنيّة العليا. المُفترض ألّا يعرف الموظفون بوظيفته الأمنيّة الوطنيّة السريّة، لكنّهم اكتشفوها بسبب الإكراميّات الماليّة التي يستنزفنا بها بشكل متواصل من أجل تحسين ملفّاتنا الأمنيّة.

أمّا دفع زوجتي إلى استبدال الأرزّ بالبطاطا المسلوقة التي لا تتقن طهوها، فهو قضيّة معقّدة جدّاً، قضيّة غير قابلة للنقاش، بدءاً من المستويات النفسيّة، وصولاً إلى المستويات العملياتيّة والاستراتيجيّة، فقد تزوّجتها هكذا من عائلة لا تتقن إلّا طبخ الأرزّ، وقبلتها بهذه الشروط. وأنا لا أستطيع تغيير زوجتي فجأة، لأنّني ببساطة اعتدت عليها، وعلى نزواتها وتقلباتها المجنونة، وخاصّةً على تذمّرها الموسيقيّ اليوميّ على الغداء، وهو ما يساعدني على أن أنال غفوة ممتعة بعد الظهر بسهولة. كما اعتدت أيضاً على فخذيها اللدنتين الممتلئتين اللتين أغرق بهما عندما أنام بينهما ليلاً، فتعتصرني بدفئهما، وتجعلني أتغلّب على حالات الارتخاء الجنسي التي أخذت تصيبني بكثرة في هذه الأيّام، مع ازدياد الهزائم الوطنيّة التي تنالني في المقهى.

ثمّ تناهى إلى علمي أنّ بعض المواطنين من ذوي الحظوة يحصلون على لحوم جيّدة من مستودعات خاصّة بالمسؤولين في الدولة، لكن بأسعار عالية لا يستطيع تحمّلها إلّا كبار الموظفين. يعني هذا محاولة الحصول على المزيد من المال. ربّما «أبو العينين» يساعدني بعمل إضافي معه؟

لا أدري كيف جاءتني مثل هذه الفكرة الغبيّة الخطيرة، فالمتعارف عليه أنه بقدر ما يبتعد المواطن عن المخبرين، يكون في أمان أكبر.

سارت حياتي بنحو طبيعي بين الدائرة والمقهى، إلّا أنّني بقيت أفكّر في الحصول على مبلغ من المال بأيّ طريقة، كي أشتري بواسطته سرّاً كمّيات ولو قليلة من اللحوم.

وفجأة، بدأت ألحظ بعض التحوّلات الغريبة في جسدي وتصرّفاتي ومزاجي، أخذت أتململ من النوم الطويل على سجلّات المكتب غير المريحة، ومن ثرثرات أم خالد وأم سمير المستمرّة، ومن مماحكات اللعب في المقهى، فلم تعد تعنيني كثيراً الانتصارات والهزائم الوطنيّة فيه. لم أعد أرقص على الكرسيّ عندما أنتصر، وهو ما كان يحدث نادراً، ولا أختبئ تحت الطاولة عندما أنهزم، وهو ما كان يحدث تقريباً باستمرار. والأخطر من هذا، أنّ صمماً مؤلماً أخذ يصيبني في المقهى جرّاء زعيق المطرب الشعبي أبو علي، بالرغم من أصالة أغانيه الثوريّة. وحلّ الاشمئزاز مكان اللامبالاة لمنظر نسوة «بيت المتعة»، اللواتي يجلسن على الدرج مساءً لتهوية ما بين الفخذين الممتلئتين.

وأكثر ما أخذ يزعجني هو وجود المرآة القديمة المُكسَّرة في مدخل بيتي، لا أدري لماذا بالضبط؟

كذلك بدأت تظهر مشاعر غريبة عدائية عائمة لديَّ، دون أن أعرف أسبابها، ولمن تتوجّه بالضبط، ما لبثت أن تحوّلت إلى شكل من التفكير المرضي القريب من الوسواس.

فقد اكتشفت أنني أصبحت أكره تضخّم جسد زوجتي الغريب، مع أنّه شبيه بكلّ أجساد النساء في البلدة. أتأفف من كتلها اللحميّة العملاقة، وتعرّقها المستمرّ، وشخيرها المخرِّش، وإطباقها على صدري في أثناء النوم. وشعرت ببلادة الأزواج الذين اعتادوا على زوجاتهم المشوّهات.

ولكنَّ الأخطر من كلّ هذا هو عدم القدرة على إبعاد نظري عن «شنب» الزعيم الجنرال المناضل في أيّ صورة تمثّله، مستغرباً تشعّثه وسقوط طرفيه نحو الأسفل بابتذال شديد، بدلاً من صعوده إلى الأعلى. ولم تنجح محاولة قلْب الصورة الموجودة في غرفة النوم، بجعل أسفلها عالياً في تصحيح الوضع، فقد انتصب «الشنب» عالياً نحو المجد، لكنّ الوجه سقط بدلاً منه إلى الأسفل، بحيث بدا لي أنه ينهار مهاناً، دون أن يجد شيئاً يسنده. أمّا زوجتي، فقد اعتبرتني مخبولاً بالكامل، إذ لم تتوقع أن يصل جنوني إلى هذا المستوى، بحيث أشاهد العالم بالمقلوب، دون أن تتفهّم طبعاً موقفي من «الشنب».

ذات ليلة، بينما كنت أحاول الدخول في زوجتي كالعادة يوميّاً، من أجل ملء فراغات الألم فيها، داهمني شعور غريب، شعور بأنني أغرق في كتلها اللحميّة العجينيّة أكثر فأكثر، أسقط وأغوص فيها، دون أن أستطيع التوازن، رغم كلّ المحاولات التي بذلتها. كانت زوجتي متمدّدة وقد فتحت فخذيها دون مبالاة، ورمت بساعديها على مسند السرير دون اهتمام بي، لم تكن ترغب في منحي أيّ مساعدة.

استنجدت بصورة الزعيم الجنرال المُشجِّع المعلقة فوق السرير، من أجل استلهام توازن جسديّ أو روحيّ منه، فوجئت بأنه ينظر إليَّ بوجهه المقلوب رأساً على عقب بكلّ اشمئزاز وشزر، فثبّط من همّتي أكثر. حاولت تذكّر بعض الشعارات الوطنيّة التي تستنهض الهمم، فلم أتذكّر أيّ واحد منها، أمّا النشيد الوطني والأغاني الحماسيّة الثوريّة فقد نسيتها منذ أن كرهت المطرب الشعبي أبو علي.

أحسست في هذه اللحظة بأنّ عضوها الجنسي قد انفتح واسعاً حتّى يكاد يبتلعني، وأنّ فخذيها لم تعودا تعتصرانني وتساعدانني على الانتصاب. بذلت مجهوداً كبيراً حتّى انتهيت، وأنا أعارك كتلها اللحميّة، ولم أعرف كيف أنهيت، فقد كانت رعشات اللذة باهتة متقطعة، لم تُثْر لديَّ أيّ متعة، بل لم أفكّر فيها، فكلّ ما كنت أرغبه في تلك اللحظة هو الخروج من تلك اللجّة، قبل أن أغوص أكثر وأختنق فيها.

نهضت عن جسد زوجتي وكأنني تخلصت من واجب ثقيل، محاذراً ركلتها الشديدة هذه المرّة، انتصبت قليلاً على ركبتيَّ في السرير، والعرق البارد يتصبّب من كلّ جسدي. صدمتني نظراتها إلى عضوي الذابل، قبل أن تنقلب على بطنها وتبدأ نشيجها، فانتقلت نظراتي إليه أيضاً، فوجئتُ، ذهلتُ، وتبلبلتُ! كانت هناك حمامة صغيرة منكمشة بدلاً منه، وليس ذلك العضو العملاق الذي يفتخر به كلّ رجل في البلدة، وبالتأكيد هو ما أفقدني التوازن في الكتل اللحميّة العجينيّة بحجمه الصغير، بحيث كدت أنا نفسي أغرق بالكامل في عضوها المنفتح بشبق جائع.

جاءني هذا الاكتشاف كضربة صاعقة، خاصّة أنني في هذه الأمسية لم أكن مهزوماً في «أوراق اللعب»، إذ حصلت على الجوكر الزعيم الجنرال عدّة مرّات، وربحت الجولات كلّها. كنت منتصراً هذه الليلة في المقهى، فلماذا هُزمت في الفراش؟ والأسوأ من كلِّ هذا، أنّ زوجتي، قبل أن تنقلب على بطنها وتبدأ نشيجها المعتاد، رمقتني بنظرات غريبة، جعلتني أرتجف دون أن أستوعب ما يحدث حولي، نظرات هي مزيج من الدهشة، وخيبة الأمل، والازدراء، والاشمئزاز، والاستفزاز، والعدائيّة الشديدة.

تركت السرير متثاقلاً ونظراتي ضائعة في الفراغ، جلست على الأريكة غائباً عمّا حولي، منتظراً انتهاء نشيج زوجتي. فكّرت بالخذلان الوطني الذي يسبّبه لي عضوي أمامها، وقد أخذ

ينكمش ويضمر في اللحظات التاريخيّة الحرجة من مصير علاقتنا الجسديّة، في ظلّ تشويش واضطراب تسبّبه نظرات الزعيم الجنرال العدائي، من خلال صورته المقلوبة فوق السرير.

إلّا أنَّ أشدّ ما أثار خوفي هو انتشار خبر هزيمتي الليليّة بين نسوة الحارة الثرثارات، اللواتي يجلسن على المصطبة الطينيّة، فيسبّب لي ذلك فضيحة وطنيّة مجلجلة، لا ينفع معها أن أخبّئ رأسي تحت الطاولة خجلاً أمام صورة الزعيم الجنرال الناقم.

أنا وزوجتي والزعيم الجنرال

يبدو أنَّ العلاقة مع زوجتي أخذت تسير باتجاه التعقيد أكثر فأكثر، ما إن أغوص بين فخذيها وأدخل فيها حتّى تهاجمني الرؤى والأفكار الغريبة العجيبة التي أعجز عن التحكّم بها، فأنتقل إلى عالم آخر، وأنسى أنني أمارس الجنس معها.

وبقدر ما تكون الرؤى والأفكار جميلة ومثيرة في تلك اللحظات، يكون لها تأثير منشّط، ومجدّد، وحيويّ، وصافٍ، على طاقتي الجنسيّة. هكذا، أخذت أصل إلى ذروة المتعة برعشات قويّة لم أختبرها من قبل.

هاجمتني بداية في خيالي صورة امرأة عارية جميلة، هيفاء القدّ، لطيفة المحيّا، ليس في جسدها امتلاء متضخّم، بل اتّساق ناعم منسجم متناغم، بثديين صغيرين متكوّرين ينهضان بعفوية مغرية، وعضو جنسي صغير ينكمش خجلاً، فيزيد الاشتهاء اشتعالاً. يجول الخيال بمتعة على جسدها، ليصعد ويتوقف عند وجه أليف منير باسم، بعينين واسعتين متألقتين، وخدّين ناعمين ورديّين محمرّين من الخجل.

أصبح خيالي يستحضر صاحبة الوجه الأليف المنير كلما مارست الجنس مع زوجتي ليلاً، يأتيني بقوّة ويقتحمني ليزيح الشعور بالجسد المتضخم المُتعرّق المرتمي في العتمة تحتي. وبقدر ما كان يزداد تذمّر زوجتي وتتعقد العلاقة معها نحو الأسوأ، كانت صاحبة الوجه الأليف تقترب منّي أكثر، وتعيش معي بحميميّة، تناجيني وأناجيها، تداعبني وأداعبها، بحيث لم أعد أستطيع الوصول إلى ذروة المتعة مع زوجتي بدونها، أي بدون صورتها في الخيال، بل وتساعدني على بلوغها بسرعة ويسر، بغضّ النظر عمّا يحدث بيني وبين زوجتي اللامبالية المتذمّرة.

وذات مرّة، فوجئت بعودة الحيويّة إلى زوجتي في السرير بطريقة أذهلتني. تخلّت فجأة عن لامبالاتها وتأمّلها لعنكبوت السقف، وكأنّهما لم يكونا. وما إن نمت معها حتّى اعتصرتني على غير

عادتها بساعديها وفخذيها العملاقين بقوّة شديدة، وكادت تلتهمني بفمها، وهي تلهث بشبق مجنون، فشعرت بالاختناق والانسحاق وتحطّم أضلاعي، مع أنني أنا الذي أجثم فوقها.

أدركت أنّ زوجتي كانت تستدعي شخصاً ما، يمتلك سلطة قويّة، بمجرّد بدء الجنس معي، وتنتقل، بخيالها، بمجرّد دخولي فيها، إلى الفعل الجنسي معه بدلاً منّي. أصبحت زوجتي تنام معي جسديّاً، ولكنّها تنفعل جنسيّاً، وروحيّاً، وعاطفيّاً، ووجدانيّاً، مع صاحب السلطة القويّة الذي تستدعيه. ويبدو من المجهود الذي بذلته في العمليّة الجنسيّة أنّها نجحت في لعبتها، بحيث وصلتْ إلى رعشات عميقة عنيفة معه، مرّات متتالية.

أصابني الاضطراب والإحباط، وعدت للسقوط في الإخفاق والهزيمة من جديد، إذ أصبحت أنام مع زوجتي الخائنة الغادرة، التي لا يؤمن لها، وقد عاد إليها شبقها المجنون من جديد، لكن مع بطلها المنقذ في خيالها، دون أن أعرف بمن استنجدت، كي تصل إلى ذروتها بسهولة وعمق.

في المقابل، انسحبت صورة فتاتي صاحبة الوجه الأليف إلى زاوية بعيدة في خيالي، دون أن تستطيع التدخّل من أجلي، بعد أن كانت تمنحني جسدها بشوق شديد، وننجح في الوصول معاً إلى نشوة عميقة. أصبحت صورتها تذهب وتجيء الآن متردّدة في خيالي، حين أبدأ بممارسة الجنس مع زوجتي، وكأنها خائفة من أحد.

ولِمَ لا؟ لمَ لا تكون فتاة خيالي الرائعة البسيطة خائفة من صورة الشخص الذي استحضرته زوجتي بخيالها، فقد يكون مرعباً وحشيّاً بدائيّاً، وهو هكذا على الأغلب. والدليل على ذلك أن زوجتي تستمتع بوحشيّته البدائيّة التي تشبع شبقها، فتصرخ متأوّهة بطريقة مجنونة، وكأنّه يغتصبها بعنف، فيما تنزوي صاحبة الوجه الأليف في خيالي جانباً، متردّدة خائفة منه، وتتركني خائباً.

وهكذا، ضربت الفوضى حياتي الجنسيّة، إلى أن لاحظت ذات مرّة أنّ زوجتي الخائنة الغدّارة ما كادت تجتاز ذروة متعتها العميقة حتّى استرخت بعينين ذابلتين ناعستين، والرضى يغمر وجهها، وألقت نظرات تشعّ بالمحبّة والودّ على صورة الزعيم الجنرال الغادر، المعلقة على الجدار فوق السرير، نظرات فيها عرفان وشكر وردٌّ للجميل. وشعرت بأنّ رأسها المرميّ بكسل على مخدّة السرير يكاد يتطاول ويصل إلى وجهه في الصورة، إذ إنّ وضعه المقلوب سهّل اقترابه منها، بالرغم من وجود الإطار.

أتاني ذلك كضربة صاعقة هزّت كياني في العمق، لقد اكتشفت غريمي الذي لا أستطيع فعل شيء إزاءه، عرفته، إنه الزعيم الجنرال الشبق، فهو الذي يأتي إلى زوجتي في الخيال، ويمنحها المتعة العميقة، وهي تتقبّل ذلك. لكنّني أنا السبب في التقريب بينهما دون قصد، فأنا الذي قلبت صورته.

ومع مرور الوقت ازدادت العلاقة تعقيداً مع الزعيم الجنرال الماكر، إذ أخذت تنوس بين محبّتي له كرمز للوطن نهاراً، وبين كرهي له كسارق لزوجتي ليلاً، فيما هو يستفيد من ضعفي وتردّدي في اتخاذ موقف واضح منه، فيمعن في إهانتي، إذ لم يعد يكتفي بالاستجابة للطلبات الإباحيّة الشاذة لزوجتي الخائنة، الحقيرة، الغدّارة، المبتذلة، الملعونة، التي لم تكن تسمح لي بها سابقاً، بل أخذ يلاحق أيضاً صورة فتاتي، صاحبة الوجه الأليف، الرائعة، الناعمة، المتألقة، البريئة في خيالي، فيطاردها بقسوة ويمنعها من النوم معي.

وهكذا، ما إن أغوص بين فخذي زوجتي ليلاً حتّى يهاجمني الزعيم الجنرال الغادر بعنف، بل أصبحت أشاهده جسداً حقيقيّاً متحرّكاً معي طوال أداء واجباتي الزوجيّة الليليّة، وكأنّه خرج من الصورة إلى الغرفة.

وما كان يزيد من توتّري أنه يأتي من الصورة باستمرار عابساً مكفهرّاً مهدّداً، مكشّراً عن أسنانه، وعينه اليمنى شبه المغمضة ترتجف بشدّة من الغضب، بعكس صورته المهيبة الفاتنة المعلقة على الجدران، التي يبدو فيها مبتسماً بنظرة أبويّة حانية، مانحاً حبّه للمواطنين جميعاً.. يأتيني هنا غاضباً، ببذلته العسكريّة، وبكلّ أوسمتها وأيقوناتها الوطنيّة، بل وتحضر معه مرافقته بأسلحتها الكاملة، تتوزّع في أنحاء الغرفة في مواقع قتاليّة وأصابعها على الزناد، تحسّباً لأيّ محاولة اغتيال.

وأصبحت العلاقة الجسديّة مع زوجتي الخائنة الحقيرة أكثر تعقيداً بوجود صاحبة الوجه الأليف، والزعيم الجنرال العدائي. فما إن تبدأ معركتي الليليّة مع زوجتي، وتأتيني ذات الوجه الأليف المنير بجسدها الرشيق الأهيف في خيالي، في محاولة منها لإمتاعي، حتّى يقتحم المشهد هو ببذلته وأوسمته وأيقوناته، ويزيح صورتها بفوقيّة من مجال رؤيتي التخيّليّة. وبمقدار ما تعتصرني زوجتي راغبة في افتراسي بشبقها المجنون تلبية لطلباته الحقيرة، فتكاد تحطّمني، يلاحقني هو بحضوره معنا في الغرفة ومعه مرافقته المسلحة.

وأخذت صورة الزعيم الجنرال تتشوّه بقوّة وبطريقة تفاجئني، إذ تضخّم وجهه بطريقة تثير القرف والاشمئزاز، وتهدّل خدّاه بكتل جلديّة مغطّاة بقشرة يابسة، وكأنّها حراشف أفاعٍ تخفي ملامحه، وتدلّت شفتاه اللاهثتان طويلاً إلى الأسفل، بحيث أصبحتا تتلاعبان في الهواء، ويسيل من طرفيهما خيطا دماء، فيما عيناه حمراوان تقدحان شرراً، وقد خرجتا من محجريهما، وبرز له نابا مصّاصي الدماء، بل وشاهدت قرن ماعز صغيراً يبرز من وسط جبينه، كلّ هذا دون أن يتخلّى عن بذلته العسكريّة الأنيقة.

وكلما أدار ظهره لي، كان يصدمني بمنظره عارياً بالكامل من الخلف، وكأن البذلة بأوسمتها مفصّلة على جسده من الناحية الأماميّة فقط. أنظر في عريه الخلفي، فأشاهد ظهراً مليئاً بالبثور

الحمراء المتقيّحة، ومؤخّرة سمينة متهدّلة متجعّدة وقد غطّاها شعر أسود غليظ مُقرف، ينهض كالأشواك.

وما أذهلني أكثر هو، ليس فقط حضوره حقيقة في الغرفة بهذا التشوّه البدائي المرعب، بل تحوّله في صوره التي علقتها على كامل مساحات جدران الغرفة لإغلاق الثقوب فيها، إلى مسوخ تلاحقني أينما يهرب بصري، فلم أعد أعرف الحدود بين الواقع والصورة.

وبالرغم من محاولات صاحبة الوجه الأليف الدؤوبة للتسلّل إلى خيالي، سرعان ما كان الزعيم الجنرال الوحش البدائي يتدخّل ويطاردها، وكأنه يحاول أن ينتزعها منّي بالقوّة. ومع تزايد الاهتزازات مع زوجتي واشتداد وتيرتها وإيقاعها، تبدأ صورة جسد فتاتي الرائعة وصورة زعيمي الجنرال البشعة بالتناوب على الحضور والهروب بتسارع شديد، لتخرجا من خيالي، وتتراكضا متجسّدتين في الغرفة حولي.

أصبت بالدهشة عندما شاهدت فتاتي الناعمة الحلوة عارية، وقد أخذت تتلاعب بالزعيم الجنرال البشع المقرف في الغرفة، وهي تغنج بدلع عابثة ضاحكة، متظاهرة بالفرار أمامه، بهدف زيادة إثارته وإشعال شهوته أكثر، فيما اضطرّ هو بكلّ ثقل أوسمته وأيقوناته الوطنيّة إلى أن يلاحقها ويحاصرها في إحدى زوايا الغرفة.

وفي اللحظة التي أكاد أصل فيها إلى ذروة المتعة وأنا أعتصر زوجتي، أفاجأ بعضو جنسي وحشي عملاق للزعيم الجنرال الشبق ينهض بعنف من بين الأوسمة والأيقونات الوطنيّة، الساقطة من سترته فوق الفخذين والتي تهتز مع انتصابه برنين حماسي وطني سرعان ما ينتظم إيقاعه على موسيقى فرق الجيش النحاسيّة، التي لا أعرف كيف انتشرت في فضاء الغرفة. في أثناء ذلك، تسند المرافقة المسلحة أسلحتها بجانب الجدران، وتبدأ بالتصفيق على اللحن نفسه لتشجّع الزعيم الجنرال، البطل الغدّار، والمهيب الرعديد، والشجاع الكاذب، على الاستمرار والصمود في معركته البطوليّة.

يهجم الزعيم الجنرال الوحش بعضوه الذي أخذ بالتضخّم إلى حدّ العملقة على فتاة خيالي، بجسدها العاري الناعم النحيل وعضوها الصغير المنكمش الخجول، يطرحها على أرض الغرفة، ويبدأ باغتصابها بوحشيّة بدائيّة. أصابُ عندئذٍ بالإحباط والخيبة والارتخاء بالكامل، فلا أشعر إلّا وقدم زوجتي العملاقة تركلني بقوة وتطيح بي في الهواء بعيداً عن السرير، فأقع على البساط الرمادي الممزق المليء بالثقوب متعثراً، دون أن أستطيع لملمة نفسي التي كادت تغيب عن الوعي من شدّة الصدمات المتتالية، الجسديّة والنفسيّة، في هذه الليلة العصيبة.

وللحظات، قبل أن أستردّ وعيي بالكامل لأدرك ما حدث حولي، وأكتشف أن عضوي خذلني من جديد، ألمح من ضباب غمامة تدور بي فتاة الوجه الأليف تحت جسد الزعيم الجنرال، الجبل

الشاهق، مسحوقة تحت أكوام أوسمته وأيقوناته الوطنيّة التي اختلط بعضها مع بعض، وأصبحت كومة من الخردة المتكسّرة، تخشخش مع اهتزازاته الزلزالية وزئيره الوحشي المرعد فوقها.

لكنَّ فتاة الوجه الأليف تذهلني، إذ تضحك تحته بغنج لعوب، تصرخ متأوّهة بطريقة اصطناعيّة أكثر منها حقيقيّة، بقصد إثارته، فيما أخذت تنتف شعيرات من «شنبه» الساقط نحو الأسفل، لتستفز شبقه بعمق أكبر. أمّا هو، فقد كانت مؤخّرته السوداء بأشواكها تتراقص نحو الأعلى والأسفل على إيقاع ضحكاتها الساخرة، بينما يصرخ بمتعة مازوشيّة واضحة مع كلّ شعرة تُنتزع من «شنبه».

يقترب قائد المرافقة المسلّحة بثقة من الزعيم الجنرال الذي يسحق تحته بكلّ متعة صاحبة الوجه الأليف، وبهدوء يمدّ يده إلى ظهره إلى نقطة أسفل كتفه إلى اليمين قليلاً في نقطة لا تطالها اليد، ويحكّها له بهدوء وعناية، فيما مؤخّرته تتصاعد وتنزل متراقصة... أشعر عندئذٍ بالراحة، ولا أرغب في الحاجة إلى طرف جدار أو خزانة، كي أحكّ ظهري. وبينما يحكّه لي قائد المرافقة المسلحة، أشعر بنشوة عميقة مع ماريلا الرائعة تحتي، أنتهي فيها بنشوة مذهلة، وأسترخي، فيهدأ حكاك ظهري، وينطفئ الشواش في رأسي، ويختفي صوت خشخشة الأوسمة والأيقونات بين جسدينا. أنظر إلى بسمتها الرائعة التي تسحرني، وأهمس لها بكلّ الحبّ «ماريلا، كم أنت ساحرة».

يبدو أنّني أصبحت أهذي وأهلوس كثيراً كلّما اقتربتُ من زوجتي في العتمة ليلاً، تزداد الومضات في ذهني، فتختلط بحالة مروّعة من الشواش المؤلم، وتشتدّ الرغبة في حكاك ظهري بجنون. أمّا هي، فلم تعد تهتمّ بكلّ جنوني، أصبحتْ تحاذر الاقتراب منّي أو الحديث معي في معظم أوقات النهار، حتّى إنّها انقطعت عن التذمّر الموسيقي النهاري، ما أفقدني إيقاع غفوة بعد الظهر الممتعة. وفي المساء، أصبحت تنام سريعاً بعد أن أنهي الجنس معها. لكن، قبل أن تغفو تردّد هامسة «مجنون، مخبول، مهووس، ممسوس... لم يعد ينقصنا إلّا ماريلا».

لم تعد معاركي الليليّة الوطنيّة تستمرّ طويلاً، معاركي مع زوجتي العملاقة المتعرّقة التي أصبحت أحاذر ركلتها القويّة في لحظة ارتخاء عضوي، ومع المرأة صاحبة الوجه الأليف التي يبدو أنّ لها اسماً لا أعرف من أين أتى، ماريلا، وقد أصبحت كلتاهما تخوناننني مع الزعيم الجنرال الغادر المغتلم.

ما إن أنهي معركتي الليليّة مع زوجتي حتّى أذهب إلى الشرفة الصغيرة، أسترخي على كرسيّ، وأتأمّل صمت الليل، حيث يتسلّل ضياء القمر من بين الغيوم العابرة، يظهر ويتوارى، ليتلاعب بظلالها المرميّة على المنازل والشوارع. قمر كامل منير باستمرار وغيوم عابرة حتّى لو كان الوقت صيفاً... هناك، سرعان ما يداهمني النعاس.

وبما أنّني لم أعد أسهر أمام التلفزيون، لم تعد تنتابني الرغبة في النوم على الطاولة في العمل، أعدّ الكثير من كؤوس الشاي بالوشيعة الكهربائيّة، ولا أشرب إلّا القليل منها. أراقب صفوف النمل الأحمر تذهب وتجيء على الجدران المهترئة، وأتساءل منذ متى تمارس حركتها هذه دون انقطاع، وإلى متى ستستمرّ بها. أتمشّى بنزق في الممرّ بين المكاتب جيئة وذهاباً، هرباً من ثرثرة أم خالد وأم سمير، أمرّ من أمام صور الزعيم الجنرال غير مبالٍ، ودون إبداء طقوس الاحترام المعتادة. يمرّ الوقت ثقيلاً مملّاً متعباً بانتظار انتهاء الدوام.

لا أحد ممّن هم حولي في العمل أو المقهى يلاحظ تغيّر تصرّفاتي، فالكلّ يهتمّ بأموره الشخصيّة ولا يتدخّل في حياة الآخرين. أمّا القريبون منّي، فينظرون إليها كنزوات عابرة لا تستدعي الاهتمام كثيراً، باستثناء أبو ياسين الأكتع الذي داخلته الريبة في ما يطرأ عليَّ من تحوّلات.

لكنّ «أبو العينين»، رجل الأمن في دائرة العمل لدينا، انتبه إلى نزقي وتأفّفي وتذمّري ومللي، بل لاحظ بعين خبيرة ما لا يراه الآخرون، فقد اكتسب مهارة في مراقبة المواطنين، ومتابعة أيّ تصرّفات أو تغيّرات مريبة في حياتهم اليوميّة.

«أبو العينين» هو صديق الجميع، أو بالأحرى يفرض صداقته على الجميع، وبما إنه استنزفني مالياً مقابل تسجيل اسمي في الولائم الرسميّة، وتحسين سجلّي الأمني بالتقارير المؤيّدة للنظام، فقد توطّدت علاقتي الطيّبة معه. وتعبيراً عن صداقته أخذ يبثني همومه عن توسّع مهامه الأمنيّة السريّة مع ازدياد أعداد الموظفين في الدائرة، وعن متطلبات رؤسائه اللجوجة التي لا تنتهي، بحيث أدّى ذلك إلى رفع تقارير كاذبة لهم عن حوادث وهميّة لم تقع من أجل إرضائهم.

أسرَّ لي «أبو العينين» عدّة مرّات، بأنّ المهام الأمنيّة تتوسّع في البلدة، مع ازدياد المؤامرات وارتفاع وتيرتها ودرجة خطورتها على الثورة، وأنَّ الأجهزة الأمنيّة بحاجة إلى عناصر جديدة ذوي شخصيّات قويّة وذكيّة، ترفض الواقع المملّ حولها، وتطمح إلى تغيير حياتها. وأكّد أنّ العمل، وإن كان صعباً وقاسياً معها، فإنّ المكافآت المالية فيه عالية جداً والامتيازات مفتوحة، إذ يمكن تناول اللحوم الطبيعيّة دائماً، بدلاً من الأرزّ السيّئ الصيت، كما يمكن استبدال عرق التين المرّ اللاذع الذي يدفع للدوار والبكاء والنسيان، بالويسكي «الإفرنجي» الثقيل الذي يدفع إلى الدوار والانشراح والانفتاح على الحياة. وألحّ كثيراً على أن المكافآت والميزات تتضاعف لمن يقبل التطوّع بلجان معسكر الأشغال الشاقة بالذات.

سألني «أبو العينين»: «لم تعد تنام كثيراً وراء الطاولة على غير عادتك؟».

أجبته بحذر وتلعثم «لا أشعر بالنعاس، أنام بما فيه الكفاية ليلاً».

ترتسم ابتسامة ماكرة على وجهه، يربّت كتفي ويقول شبه هامسٍ «الأفلام في التلفزيون لم تعد تنال إعجابك؟».

أضطرّ للدفاع عن نفسي حتّى لا يُساء فهمي «الأفلام التي تُعرض مملّة باهتة، ليس فيها عنف حقيقي أو إثارة واقعيّة».

– أنت مواطن نموذجي مثالي في بلدتنا، لا تنتقد في العادة ما تسمح بعرضه الدائرة الثقافيّة في القيادة على التلفزيون.

– لا، لا أقصد ذلك، لكنّ رصاصة تصيب واحداً من الأعداء، فينفجر كيس مليء بالدم مخفيّ تحت ثيابه، ولا يموت حقيقة، البطل يرمي بأحد الأنذال من بناء مرتفع، يسقط، ثمّ ينهض بعد تلقّيه بشبكة إنقاذ دون أن يحدث له شيء، وتترافق اللكمات العنيفة في الصراع بمؤثّرات صوتيّة لطبل يُقرع بشدّة، أو لوح خشب يتكسّر، مؤثّرات صوتيّة تناسب أفلام الأطفال. والأسوأ من ذلك، عندما تُعرض لقطة سريعة جداً لشابّ قويّ مفتول العضلات يُقَبِّل فتاة مغرية ويخلع ثيابها عنها، فتتوقّع حفلة جنسيّة رائعة، لكن ما إن يفكّ أوّل عروةٍ من ثوبها حتّى يُعرض منظر طيور تُغرّد على غصن شجرة... أفلام غير واقعيّة، أرغب في مشاهدة شيء قويّ، مثير وممتع.

اتّسعت ابتسامة «أبو العينين» إلى أكبر مساحة يمكن أن يحتلّها فمه الخبيث، قادني إلى مكتبه وناولني جهازاً إلكترونيّاً صغيراً، وقال: «أنت موظف مهمّ ومحترم في دائرتنا، ونحن نثق بك، سأعطيك فرصة لتغيير أجوائك الليليّة. هذا الجهاز يسمح لك بمشاهدة أفلام حقيقيّة وواقعيّة بعد وصله بالتلفزيون، استمتع بها بعد أن تنام زوجتك... وإذا أعجبتك هذه الأفلام، فقد تنضمّ إلينا، الثورة تحتاج إلى أبناء يحبّونها باندفاع، دون الحاجة إلى حفظ الشعارات الوطنيّة وترديدها مثل الببّغاوات».

بعد الاطمئنان إلى نوم زوجتي، وصلتُ الجهاز الإلكتروني بالتلفزيون، وجلست مع زجاجة كبيرة من عرق التين، وأنا أمنّي النفس بسهرة ممتعة، إذ يبدو أنّ «أبو العينين» قد تفهّمني، ولم يُسئ الظنّ بي وبوطنيّتي.

يظهر على الشاشة فيلم يبدأ بلقطة عامّة لمنزل بطابق واحد، شبيه بـ«بيت المتعة» في البلدة، لكن ليس ببؤسه وقبحه، إذ يبدو واحداً من سلسلة «بيوت المتعة» الجديدة في المشروع الرائد الذي تبنّاه الشيخ الفقيه في البلدة، برعاية رسميّة من الزعيم الجنرال المصلح الاجتماعي، ونهضَتْ بموجبه تلك البيوت في طول البلاد وعرضها. وكما يبدو، فإنّ هذه البيوت لم تعد تقتصر بزبائنها على «جنود الثورة»، إذ يظهر على الشاشة مواطنون من مختلف الفئات والأعمار يرتادونها، مع عبارة «لندعم عملتنا الوطنيّة».

أتساءل، لماذا أعطاني المخبر «أبو العينين» فيلماً دعائيّاً عن الإنجازات الوطنيّة الرائدة في بلدنا، يمكن بثّه على القناة الرسميّة على التلفزيون؟ بينما طلبت أنا مشاهدة فيلم حقيقي وواقعي.

على كل الأحوال، قرّرت المتابعة، فالفيلم لم يبدأ بعد.

تركّزت الصورة على مدخل «بيت المتعة»، ترافقها إحدى أغنيات المطرب الشعبي أبو علي عن مغامرة طفوليّة للزعيم الجنرال الرجولي، عندما كان عمره لا يتجاوز عشر سنوات، مع إحدى الراعيات في الجبل تناهز الأربعين عاماً، ونومه معها في أحضان الطبيعة بمتعة شديدة. هكذا تتحدّث الأغنية، مع أنّ ما يجري تداوله أنه قد جرى التبديل بين العمرين في كلمات الأغنية، إذ يقال إنه هو من كان عمره أربعين عاماً، والراعية عشرة أعوام، وأنها اختفت نهائياً بعد ذلك اليوم.

يظهر الآن على الشاشة عنوان الفيلم... لا أصدّق ما أراه، إذ كيف تحدث مثل هذه المصادفة غير المتوقعة، فقد كان العنوان «ماريلا: حلم قادم من بلاد الشمال». ماريلا، ذلك الاسم الذي يراودني في هذياناتي وهلوساتي الليليّة. لكنّ المصادفة الساخرة غير المتوقّعة تتحوّل ببساطتها إلى غرابة مجنونة تراجيديّة، فتنقلب الابتسامة إلى تعجّب ودهشة، ثم خوف ممّا أرى، إذ تظهر على الشاشة صورة امرأة، فلا أصدّق عينيّ. ماريلا هذه ليست إلا صاحبة الوجه الأليف المنير التي تأتيني في خيالي كلما نمت مع زوجتي، ماريلا بعينين واسعتين متألقتين، وخدّين ناعمين ورديّين محمرّين من الخجل!

كيف يحدث هذا!؟ لا أصدّق عينيّ، إذ كيف أتت إلى خيالي، مع أنني أشاهد هذا الفيلم للمرّة الأولى؟! أو بالأحرى، كيف وجد مخرج الفيلم فتاة شبيهة بتلك التي تعيش في خيالي؟!

ها هي ماريلا تجلس الآن على طرف السرير، وقد لبست غلالة رقيقة شفافة، تنهض، تحلّ زنّارها فتسقط عنها، ينكشف جسد أهيف ناعم، بثديين صغيرين متكوّرين، ينهضان بعفويّة مغرية، وعضو جنسيّ صغير ينكمش خجلاً، فيزيد الشهوة اشتعالاً... لا أصدّق ما أرى، إنّها فتاة خيالي بجسدها، كما أعرّيها، وأعانقها، وأصل إلى النشوة معها، قبل أن يسرقها منّي الزعيم الجنرال الغدّار بقبحه ومكره.

خلعت ماريلا غلالتها أمام نافذة عريضة في الطابق الأول، مفتوحة مشرعة للهواء الطلق، لكنّني فوجئت برؤية تمثال ضخم طويل مهيب للزعيم الجنرال الإباحي يستند إلى حافتها من الخارج بساعديه، ويلقي بنظراته الحجريّة الوقحة داخل الغرفة، مع ابتسامة رضى على وجهه. ورغم النظرات الوقحة، فإن ماريلا لم تهتم له، إذ تمدّدت على السرير عارية بكامل جمالها الساحر البريء، دون أن تخفي شيئاً من مفاتنها الحميمة.

وسرعان ما يصدمني المنظر التالي الذي عقد لساني، إذ يدخل سبعة رجال عراة بأعمار مختلفة إلى الغرفة، بينهم شابّ في الخامسة عشرة وعجوز في السبعين، يصطفّون حول السرير

بعيون وحشيّة متلهّفة، ويبدأون بممارسة الجنس معها بشبق بدائي وبالوضعيّات كلها، الواحد تلو الآخر. ما إن ينتهي الواحد منها حتّى تدفعه عنها بلطف، لينسلّ على أرض الغرفة منهاراً، ويتمدّد مسترخياً بغفوة لذيذة على سجّادة أنيقة، فتتلقّى التالي بشوق وحيويّة، وكأنها الآن بدأت.

تنتهي منهم جميعاً، لكنّها تظلّ بكامل طاقتها، ولأنّه لا يوجد زبائن جدد، تنهض إلى المرميّين على السجّادة، تثيرهم من جديد بفمها، وتمتص ما بقي من رحيقهم، ليذوب السبعة ويغيبوا عن إدراك ما حولهم، الواحد تلو الآخر.

ومع أنّني كنت أظنّ أنّ ما يحدث في الفيلم هو تمثيل، كان كل شيء يبدو – على النقيض – حقيقيّاً وواقعيّاً، فقد كانت ماريلا تنفعل بكلّ أحاسيسها مع كلّ واحد منهم، تتقلّب بحيويّة شبقة بينهم، وهي تثيرهم بإغراء شديد. تضحك، وتغنج، وتتدلع، وتتأوّه بشدة، لتمنح شركاءها متعة حقيقيّة تظهر خاصّةً من صرخاتهم العالية في أثناء وصولهم إلى ذروة النشوة، التي كانت تجعل التمثال يرتد عن النافذة، مذهولاً مستغرباً ممّا يسمع، فهو لا يعرف طعم الجسد البشريّ اللحميّ.

أشعر بأنني قد وصلت إلى حافة الجنون، وأنا أشاهد الفيلم، ومع أنني أكتشف لأول مرّة أنّ ماريلا حقيقيّة قادمة من الشمال، لم أستطع إبداء أيّ ردّة فعل على ما أشاهده سوى شعور عميق بالحقد على كلّ شيء حولي. فبعد انكسار حلمي معها بعدائيّة الزعيم الجنرال القبيح الغادر ومكره، ها هم سبعة من الرجال الحقيرين المُلتقطين من الشارع يدمّرونه بالكامل.

تركني الفيلم مذهولاً، ضائعاً، مشتّت الذهن، مبعثراً... لكن، قبل أن تغادر ماريلا الغرفة تقترب من الشاشة، تنظر إليّ مباشرة وترمي بقبلة وهي تقول «حاول أن أراك في المساء باكراً، قبل أن يحضر زعيمك الجنرال بخردة أوسمته وأيقوناته الوطنيّة التي تجرح جسدي الناعم، وتزعجني بخشخشتها الحماسيّة... ثمّ، إلى متى سنبقى على هذه الحال؟ متى ستصبح زعيماً جنرالاً، ونفعل ما نرغب؟».

أشعر بنفسي محتدّاً، وقد وصلت إلى درجة الغليان، فالانفجار، وبحقد شديد لا أدري على من، بالتأكيد على الجميع في هذا البلد، حيث لا يمكن حتّى لحلم شخصي صغير أن يعيش.

أقول في نفسي «نعم سأصبح زعيماً جنرالاً يا ماريلا، وسأمتلكك لنفسي، وأستمتع بكامل طاقتك وحيويّتك وحدي... لكنّني سأذبحك بعد ذلك بالكامل لخياناتك لي، وسأشرب من دمك».

في اليوم التالي، أذهب إلى العمل مشوّشاً، مبلبلاً، مضطرباً، شاحباً، مشتّت الذهن، وأنا أهذي طوال الطريق كالممسوسين. يلاقيني المخبر «أبو العينين» من بعيد بابتسامته العريضة التي سرعان ما تنطفئ عندما يلاحظ عبوسي. يعترض طريقي، لكن عندما يسمع هذياني عن الذبح والخيانة والدم يتوقّف مرتاباً، ويتركني أذهب إلى مكتبي.

في نهاية الدوام، وكنت قد بقيت وحيداً في مكتبي، يحضر «أبو العينين» إليَّ، ويتحدّث معي بثقة وألفة «كنت أرغب في تغيير أجوائك الليليّة، وفي الوقت نفسه اختبار مدى استعدادك للعمل معنا في الأجهزة الأمنيّة، وبالضبط في المركز الأمني الذي يقع بالقرب من «بيت المتعة» في بلدتنا، حيث يراقب عناصره الروّادَ، ويتتبّعون تصرّفاتهم بالكاميرات المزروعة سرّاً في غرفه، وخاصّةً ما يتلفّظون به في لحظة النشوة من أسرار شخصيّة يمكن أن تمسّ الثورة. وما أعطيتك إيّاه ليس فيلماً، بل تسجيل حقيقيّ لما يحدث فعلاً... لكن يبدو أن طموحاتك أكبر من هذه المهام الصغيرة، لم أعرف أنّك تحبّ الذبح والدم، وخاصّة لخونة الثورة».

أجيبه شارد الذهن، دون أن أعي ما الذي أقوله بالضبط «من يخُنْ يجب ذبحه وشرب دمه».

فيناولني بثقة فيلماً جديداً.

في المساء أجلس كي أشاهد الفيلم الجديد، وأرجو أن يكون هذه المرّة فيلماً واقعيّاً لا يتدخّل في خيالاتي وأحلامي الشخصيّة.

يبدأ الفيلم بعنوان عريض بالأبيض على شاشة سوداء:

«القضاء النهائي على عملاء عصابات الظلال»: فكرة الزعيم الجنرال القائد، المناضل الثوري العبقري، إخراج قسم الدعاية الإيديولوجيّة الثوريّة في الأجهزة الأمنيّة.

وفي اللوحة الأخيرة تظهر عبارة:

«سرّي جداً، يُسمح بمشاهدته فقط للمناضلين الثوريّين مهما كانت أعمارهم، حتّى لو كانت تحت العاشرة، الذين يُهيّأون للعمل مع الأجهزة الأمنيّة – قسم العمليّات الخاصّة بمعسكرات الأشغال الشاقة».

انتابني شعور بالغبطة العميقة. وأخيراً سأشاهد فيلماً واقعيّاً، والأهمّ أنّه فيلم وطنيّ، يشعرني بالاعتزاز والانتماء إلى الثورة، بغضّ النظر عن موقفي من «الشنب» الهابط. وأتفهّم أيضاً معنى «سرّي جداً»، فهذا الفيلم لا يمكن عرضه على قناة التلفزيون لدينا، إذ هو موجّه إلى نخبة المناضلين المؤهّلين لإدراك عظمة موضوعه، لا المواطنين العاديّين المبتذلين.

سررت لارتفاع حظوتي عند المخبر «أبو العينين»، على الرغم من استنزافي مادّياً من طرفه، فقد عرف أخيراً أهمّية عملي في «إدارة السجلّ المدني»، واكتشف قوّة شخصيّتي المتوارية وراء هذه المهمّة الصعبة في تسجيل المواليد.

نسيت هذياناتي وهلوساتي الليليّة، وشعرت بالخيلاء لاختياري أنا بالذات لمشاهدة هذا الفيلم، وسرعان ما تبادرت إلى ذهني الموائد العامرة باللحوم في منازل كبار الموظفين.

ولِمَ لا، إن كنت سأخدم الثورة بإخلاص، فلماذا لا أنال حظوة خاصة بين المواطنين؟! أنا أيضاً مناضل له طموحات كبيرة في الحفاظ على أمن الثورة. وما يهاجمني في الليل من كوابيس غير

طبيعيّة، لا تنزع من القلب احترام صورة الزعيم الجنرال القائد المحبوب نهاراً، على الرغم من غدره الليلي و«شنبه» الهابط إلى الأسفل.

في البداية لقطات رائعة معبّرة لكتائب من جيشنا العقائدي الثوري العظيم في استعراض عسكري مهيب، ترافقها موسيقى حماسيّة تعزفها فرقة الجيش النحاسيّة الشهيرة، التي تجعل الدموع تنفجر من مآقيها فخراً وانتشاءً. يقفز على إيقاعها «جنود الثورة» هرولة فوق الأرض بحماسة منقطعة النظير، فتصل ركبهم إلى صدورهم، وترتجّ الأرض تحت أقدامهم، بحيث تكاد الينابيع تنفجر منها. يقفزون مشمّرين عن سواعدهم القويّة، الممسكة ببنادقهم بعزم لا يلين، وكاشفين عن صدورهم السمراء المشدودة من تحت قمصانهم المفكوكة الأزرار العليا، وهم يردّدون وراء حادي قطيعهم هاتفين بصوت عالٍ شعاراتهم العقائديّة، فيهتزّ بهديرهم الفضاء الذي يكاد يتشقق وينهار متبعثراً.

يمرّ الجنود أمام منصّة تقف عليها مجموعة من الشخصيّات العسكريّة الهامّة، تقترب كاميرا التصوير منهم، أشاهدهم بوضوح، كانوا عشرة من الضبّاط المترهّلين بالنجوم على أكتافهم. لكن، ما إن أنعمت النظر فيهم حتّى فوجئت بأنّهم كانوا جميعاً الزعيم الجنرال المناضل.

كيف يحدث هذا!؟ لم أفهم كيف يمكن لزعيمنا المحبوب، الواحد الأوحد، أن يصبح عشرة، وكلهم الزعيم الجنرال المناضل.

إلّا أنّني سرعان ما تأكدت من أنَّ واحداً منهم فقط، يقف في المنتصف، تتدلّى من بزّته العسكريّة الأوسمة والأيقونات، أمّا البقيّة فقد كانوا يرتدون بزّات عسكريّة غير مزيّنة.

فهمت الآن الحديث المتداول همساً عن وجود تسع شخصيّات تشبه الزعيم الجنرال الذكيّ، تحلّ مكانه في الاستقبالات والمهامّ الرسميّة خوفاً عليه من الاغتيال، أو بسبب تعارض هذه المناسبات مع أوقات نومه، أو حواره مع المناضلات الثوريّات.

والآن فهمت كيف يمكن لعبقريّته أن تسمح بوجوده في عدّة أمكنة مختلفة ومتباعدة في الوقت نفسه، دون أن يفهم المواطنون البسطاء هذا الوضع المُحيّر، والمدهش، والعجائبي... وبالتأكيد، لا يدخل في هذا وجوده في قلوب جميع المواطنين في الوقت نفسه.

وسرعان ما طردت من ذهني هاجساً ألحّ عليَّ فجأة، عمّن يحضر في الليل إلى هلوساتي، هل هو الزعيم الجنرال الغدار نفسه، أم أحد أشباهه، أم كلهم بالدور؟

أسخر من نفسي... أكيد أنّ العمليّة كلها توهّمات مريضة.

سيبدأ الآن الاحتفال الحقيقي بعد انفضاض العرض العسكري، إذ يجلس الزعيم الجنرال العظيم على أريكة ملكيّة، ويجلس الأشباه في صفّ واحد وراءه على كراسٍ عاديّة، وجميعهم يترقبون أن يبدأ.

يتضمّن هذا الاحتفال تدريباً عسكريّاً حيّاً أمام سموّ الزعماء الجنرالات، برعاية زعيم الزعماء الجنرال، حسب ما أعلن المُعلّق الخفيّ... لذلك أتوقع أن يكون الفيلم حقيقيّاً بالكامل، وواقعيّاً بأعلى الدرجات.

يظهر في الساحة عشرون رجلاً، يبدون من الأبطال الأشاوس، حليقو الرأس بالكامل، بحيث تنزلق عليه طلقات رصاص الأعداء، مع لحى ضخمة مشعّثة سوداء، تصلح كل واحدة لإسكان وكر قبيلة من النمل. ضخام الأجساد مثل الثيران الجاهزة دائماً للعراك، بهامات عالية منتصبة نحو المجد، وصدور عريضة مفتوحة للهواء والشمس، وعضلات مفتولة بقوة الإيمان بالثورة، لكن مع ابتسامات ناعمة ودودة محبّبة، ترتسم على وجوههم الهادئة، التي يُزيّن كل منها شنب عريض.

يحملون جميعهم ندبة عميقة على خدّهم الأيسر، برزت تفاصيلها بوضوح فوق لحاهم الكثّة، ربّما ليتعرّف بعضهم إلى بعض، أو علامة ولاء لقائدهم.

ويتمنطقون بأسلحة متنوّعة، آليّة وبيضاء. وبالرغم من كلّ مظاهر القسوة والشراسة والوحشيّة المحيطة بالرجال العشرين، فقد كانوا مرحين، يتبادلون المزاح والمماحكات بضجيج ناعم محبّب، يتدافعون بلطف، دون أن تعوقهم أكوام الأسلحة المعلقة على أجسادهم من تبادل اللكمات الودّية، والمعانقات، والقبلات، والاحتكاكات الرجولية البريئة.

كانوا يتصرّفون ببراءة الأطفال، طبيعيّين عفويّين، وكأنَّه لا أحد من المسؤولين يحضر احتفالهم، ما جعلني أشعر بالألفة والمحبّة نحوهم. ولولا الندوب العميقة في خدودهم اليسرى، لرأيت في كلّ واحد منهم شبيهاً بالزعيم الجنرال المناضل، لكن دون أن يصلوا بالطبع إلى سموّه وحضوره الرائع الطاغي.

بسرعة تمنّيت أن أكون واحداً منهم.

كان مظهر هؤلاء الرجال قريباً من القلب، إلى درجة أنني تساءلت لماذا لم يوضع عنوان للفيلم من مثل «الأبطال الرائعون»، أو «مجموعات الشجعان»، أو «الخارقون العشرون»... فهذا يتناسب مع حقيقة هؤلاء النسور البواسل الذين كما يبدو يستعدون لمعركة فاصلة حاسمة مع عملاء «عصابات الظلال»، وها هم يستمتعون الآن بإحدى «استراحات المحارب».

وبالتأكيد، فإن عملاء «عصابات الظلال» سيضاهون رجالنا بالحجم والقوة والعنف، وبامتلاكهم أسلحة حديثة، لكن ليس لديهم إيماننا العميق بقوة الثورة وحتمية انتصارها، وهو ما يجعلنا أكثر جرأة وتصميماً على خوض المعركة معهم والثقة بالانتصار.

تتوالى مشاهد الفيلم، فتظهر صفوف رجال هزيلين، مقيّدي الأيدي بالسلاسل الحديديّة الثقيلة، شاحبي الوجوه، حفاة وشبه عراة، مشعثي الشعر، طويلي اللحى، بالكاد يستطيعون السير بظهورهم المحنيّة، يسند بعضهم بعضاً. تألمت لمرآهم، ورثيت لأحوالهم، لا بدّ من أن «الرائعين الشجعان

الخارقين» أنقذوا هؤلاء المواطنين المساكين من أيدي «عصابات الظلال» الذين عذبوهم بوحشيّة وساديّة واضحة.

كم أشعر الآن بالفخر بالرائعين الشجعان الخارقين، سليلي بطولات الزعيم الجنرال المناضل، وكم أشعر بالكره والحقد على «عصابات الظلال» الساديّين، الذين ما زالت فلولهم تتسلل من الغرب وتندسّ بيننا، تقلق أمن الوطن وأمانه، وتعذب المواطنين الشرفاء البسطاء إلى هذه الدرجة من الوحشيّة.

ثمّ حدث بعد ذلك شيء غريب، أو بالأحرى لا أدري ماذا حدث بالضبط، وكأن الأحداث خرجت من سياق الفيلم إلى عالم آخر خارج البطولة والشجاعة. لا بدّ من أنّ خللاً حدث في سياقه الأصلي، تلاعب أو تزوير من أحد العملاء المغرضين، أو حدث تداخل مع فيلم آخر... فقد أوقف النسور البواسلُ المواطنين الشرفاء الهزيلين أمام جدار أسود متّسخ، مليء بثقوب غريبة كأنها آثار طلقات ناريّة، وهم يدفعونهم بأعقاب البنادق، ويركلون من يسقط حتّى ينهض، والذي لا يستطيع يطلقون على رأسه النار.

اصطف الهزيلون بهدوء وصمت أمام الجدار. كانوا أضعف من أن يُبدوا أيّ ردّ فعل. وظهرت على الشاشة فوق صورتهم عبارة بخط عريض وكبير: «عملاء عصابات الظلال».

لم أفهم ماذا يحدث! لكنّ الأحداث تتابعت بتسارع شديد، وبطريقة تفوق أعلى درجات الجنون، وكأنه تم الانتقال إلى كابوس وحشي أخذ يلتهمني بأفاعيه، فقد فوجئت بـ«الأبطال الرائعون»، و«مجموعات الشجعان»، و«الخارقون العشرون»، يطلقون النار على الهزيلين بغزارة من أسلحتهم الرشاشة، وتصدر منهم صيحات وحشيّة، تُذكّر بصراخ قادم من أعماق الغابة البدائيّة، بينما ارتسمت على وجوههم علائم شبق غريزي منتشٍ بأزيز الرصاص ورائحته. يطلقون ويطلقون دون أن يتوقفوا، وكأنهم غابوا في سكرة معركة حامية الوطيس.

وقد ترافق إطلاق الرصاص مع موسيقى حماسيّة متواصلة من عزف فرقة الجيش النحاسيّة، بدأت بالنشيد الوطني، وتبعته أغانٍ ثوريّة، متناوبة مع زعيق المطرب الشعبي أبو علي.

ومع أنَّ الرجال الهزيلين سقطوا وتكوّموا بعضهم فوق بعض، فقد استمرّ الذين لم يعودوا رائعين، أو شجعاناً، أو خارقين، بإطلاق النار غزيراً على أجسادهم التي ارتمت على الأرض كالخرق البالية. بدّلوا مخازن الذخيرة ثانيةً، وأطلقوا الرصاص من جديد، عليهم وعلى الجدار العالي وعلى سرب عصافير تطاير مذعوراً.

ثمّ انتقلت الكاميرا إلى وجه زعيم الزعماء الجنرال. بدا باسماً مسروراً منشرحاً مبتهجاً، يُمَسِّد بمتعة «شنبه»، ويقلّد الزعماء الجنرالات التسعة حركته ذاتها.

هذا ليس فيلماً، إنّه مجزرة حقيقيّة وواقعيّة بالكامل. وهي لم تنته بعد...

تعود الكاميرا إلى الأجساد المرميّة المتكوّمة على الأرض، والدم لا يزال ينبثق منها كالنوافير.

ذهلت بلون الدم في الفيلم. ومع أنّه يُعرض بالأبيض والأسود، إلا أنّ الدم هنا أحمر، أحمر قانٍ حقيقي. لا ينهض الرجال الهزيلون. لقد ماتوا حقيقة لا تمثيلاً. وهذا دمهم.

لم أرغب يا «أبو العنين» في فيلم حقيقي إلى هذه الدرجة.

حقيقي ولا ينتهي! فالموسيقى تتصاعد، والصراخ الحماسي الوحشي البدائي من الذين ليسوا رائعين، ولا شجعاناً، ولا خارقين، يعلو فوقها أكثر. يُخْرجون خناجرهم، وسيوفهم، وفؤوسهم، وبلطاتهم وينقضّون على الأجساد الهزيلة، يقلبونها بأقدامهم، ثمّ ينحنون فوقها يُقطّعون أعضائها.

حطّم أحدهم جمجمة بفأس ذات نصل حاد، فبان الدماغ منها أبيض، لزجاً، ساخناً، ملتمعاً، مزيّناً بخيوط من الدماء الحمراء. أخرجه بقبضة يده طريّاً عجينيّاً، وازدرده بمتعة كبيرة، وابتلعه... أصبح أكثر ذكاءً.

فتح آخر صدر جسد، تخيّلت لوهلة أنّه ما زال حيّاً يختلج، انتزع منه قلباً أحمر قانياً بعد أن اقتطعه من شراينه وأوردته، فهدأ الجسد. اقترب به من فمه وأخذ بقضمه لقيمةً لقيمة بمتعة، وقد تزيّن «شنبه» بلون الدم الأحمر القاني... أصبح أكثر شجاعة.

غرق ثالث في تقطيع الأعضاء الجنسيّة بسكّينه الحادّة، يملأ بها جيب بنطاله الواسع، وبين الفينة والأخرى يتناول واحداً منها يمتصّه، ثمّ يبتلعه بالكامل بلقمة واحدة، مستلذاً بقرمشة الغضاريف فيه... أصبح أكثر شبقاً.

وفيما كان العشرون الحقراء البدائيون يتناوبون على فرائسهم، شعرت برعب مجنون، فاندفع الطعام من جوفي، تقيّأته على نفسي وعلى أرض الغرفة. ركضت فوراً إلى صنبور المياه وفتحته، وضعت رأسي طويلاً تحت المياه الباردة، محاولاً أن أنسى ما شاهدت. جررت نفسي إلى الشرفة تائهاً، مرتعباً، مرتعداً، مرتجفاً، محموماً، دون أن أستطيع التماسك. سقطت على كرسيّ، أغمضت عينيّ، لكنّ صورة الدم الأحمر لم تفارقني.

يهاجمني الشواش بجنون غريب. أهرب إلى الجدار وأضرب رأسي به ضربات متتالية قويّة، فأشعر بالدماء تنزف منه بغزارة، دم يغطّي جبيني وعينيّ، لا أرى إلّا دماً أحمر، أحمر، العالم كله أحمر، لكنّ الشواش لا ينتهي.

تتوالى الومضات في رأسي حارقة، أمسكه كي أتماسك قليلاً، فتغوص يداي داخله. تشتعل النيران فيه، تصل إلى جسدي، فيشتعل كله. وفي أثناء ذلك يأكلني ظهري، وكأنّ الأفاعي أنشبت أنيابها فيه قرصاً والتهاماً، أبحث عن الجدار الذي ضربت رأسي به كي أحكّ ظهري على حرفه فلا أجده، لقد اختفى الجدار.

لكنّ الفيلم يستمرّ... تنتقل الكاميرا إلى الشرفة، وتتحوّل الشرفة إلى المنصّة التي أقف عليها أنا الزعيم الجنرال، وإلى جانبي الزعماء الجنرالات التسعة، أضحك مبتهجاً، كلّ شيء حولي ملوّن بألوان قوس قزح الرائعة، الجثث الحمراء تكاد تجعلني أنظم قصيدة رائعة في العشق.

يقترب منّي قائد المرافقة المسلحة بهدوء حتّى لا يقطع تأمّلاتي المنتشية، ويقول «زعيمي الجنرال، اخترت لك الدماغ الأكثر بياضاً، والقلب الأكثر ورديّة، وأعضاءً جنسيّة تذوب في الفم».

أتناولها بمتعة شديدة. كم هي لذيذة، وأمسح يديّ المزيّنتين بالدم على أوسمتي وأيقوناتي الوطنيّة... أصبحُ أكثر ذكاءً، أصبح أكثر شجاعة، أصبح أكثر شبقاً.

أشعر أمام هذا المشهد بطعم مقرف في فمي وأتقيّأ من جديد. معدتي فارغة لا يخرج منها شيء، فتتلوّى بداخلي، وأنا أحاول التقيّؤ، أحسّ بأحشائي تتقطّع، وكأنّ أحشائي تخرج من أحشائي.

ولا تزال الدماء تنزف على عينيّ، ولا يزال دوار من الشواش المروّع يفجّر ومضات جديدة، والنار تشتعل بي أكثر.

يقترب مني الآن قائد المرافقة الجديد أبو علي الحوت. أين ذهب ذاك القديم أبو عدنان؟! يهمس بأذني «ماريلا، لقد وجدناها بين الجثث، ما زال فيها بعض الروح».

أمضي إليها، ماريلا أيتها الخائنة، كان يجب أن أذبحك بيدي أنا، وأشرب من دمك، لن أنسى ذلك، كيف تخونينني مع سكرتيري الضابط الصغير الشابّ! لقد نال جزاءه بطريقة شنيعة لا يتخيّلها أحد، والآن جاء دورك.

أقترب منها. جسدها الممزق بالرصاص ما زال يرتعش، وعيناها ضائعتان في الفراغ. ما زلتِ جميلة بثدييك الصغيرين المتكوّرين، وعضوك المنكمش خجلاً حتّى وأنت تموتين. منظر الاختلاج والدم يجعلني أزداد اشتهاءً لك. ولِمَ لا، فما زلت جميلة، والدم يجعلك أجمل.

ينتصب عضوي عملاقاً من بين الأوسمة والأيقونات المتدلية، فأسمع صوت موسيقى حماسيّة تملأني نشوة. أتمدّد فوق ماريلا وأخترقها بقوّة. أسمع خشخشة الأوسمة والأيقونات في انسحاقها على جسدها، فأشعر بمتعة رائعة لم أختبرها من قبل، ينبثق الدم من فمها، ومن ثقوب الرصاص في صدرها، أحمرَ قانياً، فتزداد متعتي أكثر. يقترب قائد المرافقة أبو علي الحوت منّي، يحكّ لي ظهري في منطقة أسفل كتفي إلى اليمين قليلاً.

وفي اللحظة التي يتوقف فيها تنفسها أنتهي فيها، ماريلا الرائعة المثيرة، بمتعة لم أختبرها قطّ، ولن تتكرّر أبداً، متعة لا توصف.

أنهض عن جسدها زعيماً جنرالاً كبيراً خالداً، زعيم الزعماء، الواحد الأوحد.

أستيقظ في الصباح، أدفع عني زوجتي الثقيلة المرتمية فوقي، وهي تغط بنوم عميق في سريرنا الضيّق، أنزلق من قرب جسدها الضخم الذي ترتفع كتله اللحميّة، كهضبة تهتزّ بانتظام

على صفير شخيرها. أسقط في حذائي قرب السرير، وتلحقني سترتي، وأمضي بتكاسل إلى عملي اليومي بظهر منحنٍ.

أمرّ من أمام المرآة، لا أرى وجهي، أصبحت دون وجه.

أنا والموتى الأحياء

منذ أيّام ليست بالبعيدة، أخذت تنتابني حالات نفسيّة شديدة الغرابة، لم أعانها من قبل. في البداية ظهرت ليلاً أثناء عودتي من المقهى الشعبي قرب مقبرة البلدة، عندما أسير وحيداً في العتمة، فيما السكون القلق حولي يلفّني بترقب غامض. ثم ما لبثت أن تطوّرت، وأصبحت ترافقني باستمرار معظم نهاري وليلي.

شعور غريب بالفراغ غير الاعتيادي في داخلي، فراغ مبهم في روحي، يختلط بإحساس مريب من عبثيّة اللامعنى لوجودي في رتابة هذه البلدة الكئيبة، التي لا يكاد ينبض فيها بالحياة إلّا التماثيل الحجرية. اكتشفت أنّني أعيش في هذه البلدة دون هدف، أو بالأحرى في هذا العالم دون معنى.

يمضي نهاري في حلقة مفرغة عبثيّة: دائرة العمل صباحاً، تحت ملاحقة المخبر «أبو العينين» المستمرّة كي أعمل معه، والمقهى في الأمسيات، بالانتصارات التي يمجّدها المغنّي الشعبي أبو علي بزعيقه الجارح للآذان، والواجبات الوطنيّة الليليّة نحو زوجتي، التي أصبحت تخونني هي وفتاة خيالي مع الزعيم الجنرال الإباحي في احتفال شبق جماعي على الفراش نفسه.

وكلما واجهت اللامعنى في حياتي تحت رعاية الزعيم الجنرال الغادر، الذي لا يؤمَن جانبه والمثير للملل والاشمئزاز، أخذ الفراغ المبهم في روحي يتداخل مع ضياع غامض، وكأنّني أعيش في متاهة دون منفذ أو نهاية، فلا أعرف لماذا أحيا مع الناس الأموات الذين يتحرّكون حولي في هذه البلدة، دون أن يعني لي وجودهم الشبحي شيئاً، بمن فيهم طبعاً زوجتي، وزميلتا العمل، وأصدقاء المقهى.

ثم انتقل هذا الشعور بالفراغ المندمج بالضياع من روحي إلى جسدي، إذ أصبحت أشعر بأنني فارغ في داخلي. نعم فارغ فراغاً مادّياً حقيقيّاً، فراغاً دون رنين في داخلي، وما جسدي إلّا قشرة

طيف تحيط به. وانعكس ضياعي في هذا الفراغ بشعور أنني أهوي فيه باستمرار، يتملّكني دوارٌ مجنون. أهوي، وأدور، ولا أصل، كما لو كنت في ثقب كوني دون قرار. وفي أثناء ذلك، أصبح من الممكن أن تنهار قشرة الطيف تحت أيّ صدمة صغيرة عابرة، من عصفة هواء عابثة مثلاً، فأتبعثر مفتّتاً إلى فراغات صغيرة، تذهب إلى اللامكان، فلا يبقى مني إلّا ثقب.

منذ أن شاهدت فيلم «عصابات الظلال»، الواقعي والحقيقي، الذي دفعه إليّ المخبر «أبو العينين»، أصبحت حالاتي النفسيّة تشتد سوءاً. فإلى جانب مشاعر الفراغ والضياع والسقوط التي ترافقني باستمرار في يقظتي، أخذت تراودني في نومي كوابيس مروّعة لا علاقة لها بالعوالم الإنسانية.

جثثٌ ممزقة مشوّهة، مرميّة في كلّ مكان من البلدة الفارغة من سكّانها مع هبوط الظلام؛ في الساحات الفارغة، وعلى الطرقات عند المنعطفات المريبة، وعلى الأرصفة التي تحطّم بلاطها، وحول «بيت المتعة» عندما يطفئ أنواره، وتحت التماثيل الحجريّة الدكناء للزعيم الجنرال عندما تنام، وبين أكوام النفايات المقزّزة. جثثٌ تتدلّى من أغصان الأشجار اليابسة، والأسطح الطينيّة المتداعية، وأعمدة الكهرباء المطفأة. جثثٌ مرميّة لا أحد يرفعها، إذ أجدها في مكانها لعدة أيّام، لا تختفي إلّا تحلّ مكانها جثث جديدة.

تلمع أعين الجثث في ظلام الكوابيس ببصيص أحمر مرعب. أشعر بأنّها تلاحقني أينما تحرّكت، ولا يسعني سوى الهروب إلى الأمام. لكنّ ذلك لا ينفع، إذ إنّها تتكاثر أمامي بحيث تكاد تسدّ طريقي. ترعبني نظراتها الحمراء المروّعة، ويقلقني ذلك الحزن الذي يرتسم على وجوهها.

أحاذر الاصطدام بها، أختار دروباً ملتويةً مبتعداً عنها، لكنّها تنبثق أمامي مرميّة على الأرض، أو تسقط متدلّية من غصن شجرة. أهرب مسرعاً، أقفز من فوقها، أو ألتفّ حولها، محاولاً الوصول بسرعة إلى البيت، كي أغلق الباب وأنجو منها، لكنّها تلحّ عليّ، تزحف ورائي، تلاحقني بنظراتها الحمراء، وكأنّها تريد أن تستوقفني لتحدّثني، فيما أزداد جنوناً ورعباً.

ثمّ تطوّرت الكوابيس إلى درجة أكثر عبثيّة، إذ أخذت الجثث تنهض فيها بخفّة، وتطفو في الهواء حولي، وكأنها تسبح في العتمة، تنساب، تنزلق، تتقلب، تتدحرج، ويتعالى منها غناء شجيٌّ حزينٌ، أقرب إلى البكاء. وما إن تقترب مني حتّى تكاد تمسك بي من يدي، تريد أن تقودني باتجاه المقبرة، نعم، المقبرة.

يسمّرني الرعب في مكاني، فتلتفّ الجثث حولي مشكّلة حلقة، تدور ببطء في البداية، ثمّ يشتدّ دورانها أكثر فأكثر حتّى تصبح كالإعصار، وتضيّق الخناق عليَّ، فيما يشتدّ نشيج نشيدها الحزين. عندها، أسقط في هاويتي المتوارية في داخلي، تنفكّ عقدة لساني، فأصرخ، ويلاحقني صراخي الطويل الممطوط في سقوطي. فجأة أصطدم بشيء صلب، فأستيقظ عندئذ غارقاً في بحيرة من

العرق الساخن، فالبارد، وقد سقطت إثر ركلة من قدم زوجتي العملاقة، تطيح بي من السرير الضيّق أرضاً، على البساط الأجرد المليء بالثقوب.

تتأفّف زوجتي بجفونها الناعسة، تنقلب على ظهرها، كي تحتلّ كامل السرير، وتقول «لماذا تصرخ كالمعتوه وتوقظني من نومي؟! اذهب ونم مع ماريلا في المطبخ حتّى لا تزعجني».

أحاول أن أُبعد عن ذهني الرؤى السوداويّة التي تتوالد فيه أثناء مروري قرب المقبرة، مؤكداً لنفسي أنَّ ما أسمعه من حكايات مخيفة عنها ما هو إلّا توهّمات الناس البسطاء، التي تولّدها الرهبة من أماكن الموت الموحشة. ثمّ لا داعي للخشية من هذه الحكايات العابثة، وفقاً للرؤى الثوريّة التي يبثّها التلفزيون، فليس هناك جنّ، ولا شياطين، ولا عفاريت، ولا أشباح، خاصّة بعدما تمكّنت الأجهزة الأمنيّة من تنظيف البلدة من عناصر الثورة المضادّة الرجعيّين الذين يروّجون لهذه الكائنات الشرّيرة الوهميّة.

وحتّى إن وُجد في البلدة مَن ينظرون إلى هذه الكائنات الخرافيّة بقداسة، فهم قلّة، محصورون بعتمة الحارات القديمة، ليس لهم تأثير يُذكر على المسيرة الثوريّة المنيرة في الشوارع الحديثة.

ما أسمعه من أصوات مريبة لدى مروري الليلي قرب المقبرة هو بالتأكيد لكلاب شاردة جائعة تنبش التراب، بحثاً عن جثّة طازجة. يبدو أنها اعتادت وجود مثل هذه الغنائم، فجعلت من المقبرة موئلاً لفتوحاتها الكلبيّة، إذ يؤكّد شريكي أبو ياسين أنّ حفّار القبور العجوز المعتوه، الذي يحضر يوميّاً في الصباح إلى عمله، يكتشف من وقت إلى آخر بقايا جثّة نهشتها الكلاب ليلاً، وقد تقطّعت أوصالها، وارتمت أجزاؤها في أنحاء مختلفة من المقبرة، فيجمع البقايا، ويدفنها في حفرة عميقة مغطاة بصخرة ثقيلة.

لا يجرؤ أحد على الحديث من أين تأتي الجثث التي تُدفن على عجل، وتُترك نصف مكشوفة، والتي أخذت تتكاثر أشلاؤها الصباحيّة في الفترة الأخيرة، ما زاد من بهجة الاحتفالات الليليّة للكلاب الشاردة بضجيج موسيقى النباح الولائمي.

يُغلق القاطنون قرب المقبرة والمرضى بالوهم نوافذهم المطلّة عليها، ويرخون فوقها ستائر كحليّة سميكة معتمة، توجّساً من وحشة المكان، وكي لا تصطدم نظراتهم بذكرى الموت وكوابيسه. إلّا أنّهم يلمحون أحياناً بعد منتصف الليل، من وراء الستائر، ضوءاً أصفر شحيحاً عند إحدى فجوات جدار المقبرة المتهدّم، فيدفعهم الفضول لإزاحتها بشق صغير، والتلصّص عبره لمعرفة ما يحدث بالقرب من منازلهم.

يكتشفون عندئذٍ وجود شاحنة معسكر الأشغال الشاقة، المعروفة بصندوقها المعدني المغلق إلّا من كوّتين جانبيّتين، يسدّهما شبك حديدي بثقوب صغيرة، إضافة إلى لونها الزيتيّ المعتم المتّسخ، الذي تجعله الظلمة أكثر غموضاً. ويشاهدون كيف يقفز من الشاحنة بضعة رجال من حرّاس

المعسكر بلباسهم الزيتي المميَّز، يتحرّكون سريعاً كالأشباح دون أيّ ضجيج، ويُنزلون منها ما يبدو كتلة ملفوفة بكيس قماشي رمادي، يرمونها في أوّل حفرة يصادفونها في المقبرة، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء ردمها بالتراب كاملةً، ثمّ ينسحبون بهدوء وسرعة كما حضروا. صباحاً، يدرك القاطنون بمحاذاة المقبرة أنّ عدد مساجين معسكر الأشغال الشاقة انخفض قليلاً.

سمعت كثيراً من الهمس عن شاحنة معسكر الأشغال الشاقة التي تتسلّل ليلاً إلى المقبرة، وتلقي بأحمالها السريّة هناك، عن جثث انتُزعت أعضاؤها الحيويّة في لحظة إعدامها للمتاجرة بها مع عصابات من «الدول الإفرنجيّة»، إلّا أنّني تناسيتها، مثلما أتناسى كلّ ما يجري تناقله عمّا يحدث في ذلك المعسكر من أخبار مريبة، وخاصّة مقولة أنّ من يدخل إليه لا يخرج منه إلّا إلى قبره... تناسيتها طبعاً حتّى لا أسمح لأحد باتّهامي بالتعاون مع «عصابات الظلال».

ومنذ بدء معاناتي من الحالات النفسيّة الغريبة، أخذت أسمع لدى مروري الليلي بالقرب من المقبرة غناءً حزيناً شجيّاً، بدلاً من الأصوات الاعتياديّة التي يثيرها نبش الكلاب في التراب. غناء يكاد يدفعني للبكاء، وقد تداخلت فيه أصوات أطفال وشباب وعجائز، نساء ورجال؛ غناء يجعلني أتوقف مشدوهاً، أسمعه، فيرتعش القلب بالذهول والخشية... إنّه الغناء الحزين الذي ينبعث من الجثث الممزقة الطافية في كوابيسي الليليّة الوحشيّة، وهي تشدّني إلى المقبرة.

كنت أظنُّ أنَّ مثل هذه الأصوات الشجيّة تنبعث من داخلي، من أحزاني القديمة المختنقة في القلب، ومن بقايا ذكرياتي الممسوحة في عالم يوغل بعيداً وأتذكّر منه أحياناً القليل بومضة. كنت أظنّ أنّها ربما تتسرّب دون إرادة منّي، كصدى قادم من اللاوعي، حيث تصطرع الرغبات المقموعة، التي تستيقظ مع حالة الصفاء التي تنتابني وأنا عائد من المقهى...

ولكن، عندما لاحظت أنّ هذا الغناء كان يداهمني بمجرّد مروري بالقرب من المقبرة ليلاً، تأكّدت من أنّه ينبعث منها بالذات، لا من داخلي، وبدأ الخوف يتسرّب إلى قلبي، وأخذ يراودني الشك في ما يحدث فيها.

لم أجرؤ على البوح بما أسمعه من المقبرة لأحد، فليس في دولتنا الثوريّة مكان للجنّيات الغولات، اللواتي يبكين ليوقعن الرجال في مصائدهنّ الشبقيّة ويمتصصن دماءهم، من يؤمن بهؤلاء تُلصَق به مباشرة صفة الرجعيّ التي يمكن أن تقود إلى معسكر الأشغال الشاقة دون محاكمة.

ولم أفكّر مطلقاً بالحديث عن الأموات في كوابيسي أمام أحد، حتّى أمام زوجتي التي لا آمن جانبها، فذلك سيقودني بالتأكيد إلى محكمة ثوريّة تودي بي مباشرة إلى مشفى الأمراض العقليّة، حيث يخضع المواطنون المرضى لمعالجات ثوريّة نوعيّة عنيفة، للسيطرة على التعاطف النفسي

الذي يبدونه مع «عصابات الظلال». وإذا ما أتيح لهم مغادرته بأعجوبة، فإنّهم يتركونه دون رأسهم الحامل للأفكار الإرهابيّة.

وأنا لا أرغب في أن أصبح وليمة لكلاب المقبرة، ولا أن أمضي وقتي على الشرفة من دون رأس، مثل آخرين كثر.

لكنّ الضجيج يشتدّ في رأسي، والقلق يضغط على صدري. لم يكن أمامي سوى التوجّه إلى أبو ياسين، العامل في مكتب دفن الموتى، وشريكي الدائم في اللعب، فهو أقرب الناس إليَّ، بالرغم من أحاديثه المريبة عن دولة الشمال، وقد نما بيننا بعض الودّ لكثرة الهزائم الوطنيّة التي نالتنا معاً في المقهى، فتجرّأت على أن أشعر بالثقة به.

وبعد تردّد شديد حاولت أن ألمّح له مداورة وبحذر إلى شيء غريب يحدث في المقبرة، دون ذكر الكوابيس التي أعاني منها. وللغرابة، فإنّه في هذه المرّة حاول تفهّمي دون سخرية، بل شجّعني على الحديث بابتسامة عفويّة نادرة، إذ إنَّ نظراته إليَّ تحمل بالعادة مكر ثعلب مع ابتسامة ملغّزة تحيّرني. أمّا الآن، فقد بدا كأنّه ينتظر منّي مثل هذا التساؤل، ليفصح عن شيء يعلمه هو فقط، فيما تعللت بأنّني قد أجد لديه جواباً شافياً عن لغز المقبرة، على أساس أنّه يعمل مستخدماً في مكتب دفن الموتى.

في العادة، لا تتجاوز الأحاديث مع الأصدقاء الأربعة في المقهى موضوع الانتصارات والهزائم الوطنيّة التي تثيرها مماحكات «أوراق اللعب»، كما أنه ليس من لقاءات بيننا خارج المقهى، ماعدا نزهتي الليليّة القصيرة مع أبو ياسين، ونحن عائدان من المقهى، حين يهمهم بأفكار غريبة عن دولة الشمال المعادية.

بعد تردّد، قرّرت دعوته صباح يوم عطلة إلى بيتي لشرب الشاي، والتحدّث معه بهدوء بعيداً عن الأعين في لغز المقبرة الذي يقلقني. فوافق، مع بعض الاستغراب، إذ إنّ الرجال في البلدة لا يتبادلون الزيارات في المنازل، كي لا يثيروا الشبهات الأمنيّة، ويكتفون باللقاءات في المقهى، حيث يمكن مراقبتهم بسهولة.

عندما حضر أبو ياسين إلى بيتي، لم تَرُدّ زوجتي المتذمّرة دائماً على تحيّته، وقد فوجئَت بقرعه الباب ودخوله إلينا، وذهلَت من ترحيبي له، فنحن غير معتادين على استقبال زوّار في المنزل. إضافة إلى أن عاهة جسده لم تعجبها، إذ يبدو أن شكله الأكتع قد صدمها بشدّة، وهو يتقدّم نحونا بكتفه المنحنية، فمطّت شفتيها بقرف، ونظرت إليه باشمئزاز وعدائيّة، وهي تتراجع إلى الوراء مرتاعة، وقد صدرت عنها شهقة غريبة.

حدّقت بي زوجتي بعينيها الصغيرتين الغائرتين تحت خدّيها، مع تكشيرة مستنكرة مهدّدة من فمها، وكأنّها تتّهمني بارتكاب جريمة لا تُغتفر بفتحي الباب له.

كانت زوجتي قد استيقظت قبل قليل ولا تزال بقميص نومها الأجرد المهترئ المتجمّع على جسدها العملاق بتجعّدات تفضح تفاصيله المتهدّلة. ثدياها العملاقان يكادان يندلقان خارجه، وقد هبط منه فخذا بقرة لا تقوى على الحراك لثقلها، فيما بدا شعرها المشعّث، الذي لم أعد أتذكّر متى مشطته آخر مرّة، ناهضاً مثل أشواك البراري اليابسة، ففي زمن بعيد كان لديها مشط أحمر ورثته من جدّتها، لكنّه ضاع بسبب إهمالها.

فوجئت بشريكي أبو ياسين ينظر إلى زوجتي بتمعّن، ويقول لي مبتسماً بصوت عالٍ، دون أن يبعد نظراته المبحلقة عنها «زوجتك ظريفة، أحسدك عليها».

فاجأني قوله الغريب، إلّا أنّني لم أهتمّ كثيراً، إذ اعتبرته تملقاً لزوجتي في محاولة لاسترضائها بعد استقبالها الجافّ.

وما إن جلس على الأريكة حتّى طلبتُ من زوجتي بثقة تحضير إبريق من الشاي لنا، لكنّها رفعت رأسها بتعالٍ واشمئزاز، وأدارت ظهرها لنا، دون أن تبدر منها كلمة، ومضت إلى الجارات باكراً على غير عادتها، ليجلسن على المصطبة الطينيّة، يتحدّثن ويقرمشن الخبز اليابس.

عندما استدارت زوجتي مغادرة، تأمّل أبو ياسين مؤخّرتها الممتلئة، والسمينة، والثقيلة، التي كانت ترتجّ تحت قميص نومها إلى الأعلى والأسفل بإيقاع متناوب يثير فيَّ الاشمئزاز دائماً، ولم يبعد عنها ناظريه المبحلقين فيها حتّى توارت خارجة من الباب، فبادرني قائلاً «زوجتي عرجاء، عندما تسير أمامي في البيت أرى مؤخّرتها الثقيلة ترتجّ ساقطة بشكل مائل نحو قدمها المصابة، تبدو كأنّها تتلاطم في كلّ الاتّجاهات بعشوائيّة، ما يزيد من نفوري منها، أحسدك يا شريكي على زوجتك الرائعة».

ثمّ أخذ أبو ياسين ينقّل نظره بين صور الزعيم الجنرال المناضل، التي تكاد تغطي جدران الغرفة كلها بعشوائيّة، ومعظمها تمثله بالبزّة العسكريّة، فيما توزّعت بينها صوري شبه الممزقة. تعلّلت مباشرة بأنّه لم يعد لديّ ما يكفي من صوره كي أسدّ الثقوب في الجدران، فعاد إلى ابتسامة الثعلب الماكرة، التي سرعان ما اتّسعت بشكل عريض، عندما لاحظ صورة الزعيم الجنرال الكبيرة الموجودة في إطار، والمقلوبة على الجدار فوق السرير.

اضطررت إلى أن أُعدّ الشاي بنفسي بعد رفض زوجتي، فتركت أبو ياسين وحيداً في الغرفة، وعندما عدت من المطبخ وجدته متمدّداً في السرير، وقد خلع حذاءه الرمادي المثقوب، وفوجئت بأنّه نزع صورة الزعيم الجنرال ذي الشارب المتهدّل عن الجدار، وأسندها أرضاً على الجدار مقلوبة كما كانت.

قال لي من جديد «بيتك جميل، أجد لمسة أنثويّة رائعة في كلّ الزوايا، بعكس بيتي الذي تضرب فيه الفوضى في كلّ مكان، كما أن السرير واسع ومريح ورائحته عطرة».

استغربت حديثه، وأنا أنظر إلى الغرفة شبه العارية من الأثاث، فهذه أوّل مرّة أتحدّث فيها مع أبو ياسين حديثاً شخصيّاً حتّى أتعرّف إلى ذوقه، فتعجّلت بالسؤال الذي دعوته إلى بيتي من أجله، وأنا أناوله كأس الشاي في السرير، قائلاً: «أبو ياسين، اسمعني، الغناء الصادر من المقبرة يقضّ مضجعي».

وعلى الرغم من أننا بعيدون عن العيون، فقد اقترب برأسه منّي هامساً، وهو يأخذ رشفة من كأس الشاي «هذا سرّ عميق وخطير، لا يعلم بتفاصيله إلّا جاري حفّار القبور، وقد طلب منّي أن لا أتحدّث به لأحد حتّى لا نخسر حياتنا».

– إلى هذه الدرجة من الخطورة! أعدك بأن لا أتحدّث بهذا لأحد.

أسند أبو ياسين كتفه المائلة إلى الجدار، وقال بلهجة خطابيّة وبلغة العارفين: «هؤلاء الذين يغنّون ليلاً هم الموتى الأحياء، وأظنّ أنّني لن أستطيع إخبارك بأكثر من ذلك».

نظرت إلى أبو ياسين باستغراب، متسائلاً «الموتى الأحياء؟! لم أسمع بهذا في حياتي، أعرف حكايات عن أموات دُفنوا، ثمّ تبيّن أنّهم كانوا في غيبوبة أو سبات عميق، بحيث بدوا كالأموات. عندما يستيقظ هؤلاء من موتهم الظاهري، يجدون أنفسهم في عتمة القبر الموحشة، فينتفضون، ويصرخون، ويخدشون بأظافرهم جدران القبر، لكن ما من مجيب، ولا من ضوء ينير لهم أين هم. وعندما يدركون وضعهم، يموتون حقيقة من الرعب قبل أن يختنقوا من قلّة الهواء المتسرّب إلى القبر».

هذه المرّة، أبو ياسين، هو الذي نظر إليَّ باستغراب، غادر السرير وجلس على الأريكة، وقد اكتسى وجهه بتعابير القلق، فيسألني والخشية تملأ قلبه «من أين تأتي بهذه الحكايات؟».

– هذه حكايات القاطنين قرب المقبرة، الذين يسمعون أحياناً بعد دفن بعض الموتى أصواتاً كابوسيّة تجأر في هدأة الليل، تنبعث من القبر الجديد، فيظنّون أن الشياطين والعفاريت يلهون بالأموات حسب أقوال الرجعيّين. لكن، عندما فُتح قبر ليس بالقديم لإنزال جثة جديدة فيه، وُجدت بقايا الهيكل العظمي للميت السابق بوضعيّة الجلوس، وإحدى اليدين مرميّة على الجدار، وكأنّها تخرمش باحثة عن مخرج.

– دعك من هذه التخريفات الرجعيّة يا صديقي.

– ... ثمّ هل تعرف المجنونة «حسنا»، بشعرها المشعّث الشديد البياض، التي تدور بأسمالها الممزّقة في الأزقّة، تغنّي وتبكي طوال الوقت؟

– نعم، أعرفها، هذه التي يغتصبها جامعو الزجاجات البلاستيكيّة ليلاً جماعات جماعات، في دارهم الخربة المهجورة، دون أن تعي ماذا يفعلون بها.

– يقال إنّ هذه المرأة قتلت ظلماً في البلدة المجاورة، جريمة شرف كما يقال، لكن يبدو أن طعنات السكّين في صدرها وبطنها لم تؤدِّ إلى موتها، بالرغم من نزف دمها الشديد، بل إلى غيابها عن الوعي، وقد رُميت على عجل في إحدى الحفر بالمقبرة، وأهيل عليها بعض التراب، دون أيّ احترام لموتها.

– وماذا حدث بعد ذلك؟

– جاءها الصحو في الليل، واستطاعت أن تزيح الطبقة الرقيقة من التراب التي تغطّي جسدها وتتنفّس من خلالها، ونهضت معتوهة بالكامل عندما شاهدت ما حولها. زحفت، ووصلت إلى جانب الطريق، حيث أنقذها بعض أهالي بلدتنا. لقد خرجت من القبر وعاشت، لكنّها فقدت عقلها بالكامل... والآن، حدّثني عمّا لديك عن الأموات الأحياء.

– بحكاياتك هذه تجعلني أفقد الرغبة في أيّ حديث.

– أبو ياسين، قلت لي إنّ حفّار القبور حدّثك عن شيء خطير، وقد أسررت لك بمخاوفي لأنّك شريكي، واستقبلتك استثناءً في بيتي، فمن هم الأموات الأحياء؟

– ما سأحدّثك فيه يحتاج إلى أن نعبّ الكثير من عرق التين المرّ الصافي والمركّز، حتّى نستطيع مواجهة الحكاية دون أن نصاب بالجنون.

يقول أبو ياسين: «هل تذكر البلدة الواقعة على حدود الصحراء قريباً منا، والتي تمرّدت منذ ثلاثة أشهر على الزعيم الجنرال الشامخ الذي لا يُهزم، وسيطرت عليها مجموعة من العملاء المحليّين بدعم من «عصابات الظلال»، حسب البيانات الرسميّة؟».

– نعم أتذكّر، وقد حطم العملاء جميع تماثيل الزعيم الجنرال غير القابل للسقوط، فتبعثرت حجارتها على الأرض، وأحرقوا مبنى البلدية، ومركزاً أمنيّاً، بل ودعوا بقيّة البلدات إلى التمرّد معهم، إلّا أنَّ اللجان الثوريّة حاصرت البلدة بالمدرّعات، وقصفت البيوت، فأشعلت فيها النيران، وحصدت بالرشاشات كلّ العملاء دون رحمة.

– وبقيت منهم فقط أشلاء الجثث مرميّة في الشوارع... لكن صديقي حفّار القبور روى لي مهلوساً حكاية غريبة لا تصدَّق عمّا حدث في مساء ذلك اليوم، ولولا أنّنا نعيش في الحارة نفسها منذ الطفولة معاً، وهو الذي رفع دولاب عربة الخيل عن كتفي عندما دهستني، لما صدّقته، ولقلت إمّا هو مجنون، أو له علاقة بالمتمرّدين العملاء، لأنَّ ما حدّثني به لا يُصدّق.

– حدثني بكلّ التفاصيل، فزوجتي عند الجيران، ولن تعود إلّا في المساء، حين نكون نحن قد ذهبنا إلى أمسيتنا في المقهى.

– مؤسف أنّها لن تأتي، يبدو أنّ وجودي لا يجعلها تشعر بالراحة... في كل الأحوال، سأقصّ عليك ما رواه لي حفّار القبور، لكن سوف تحتاج إلى الكثير من عرق التين حتّى تحتمل ذلك.

«ليلة قمعت اللجان الثوريّة التمرّدَ في البلدة المجاورة، كنت قد أنهيت مساءً حفر قبر وتجهيزه لليوم التالي، من أجل دفن جثّة أحد الأموات العجائز. حملت معولي ومجرفتي، وذهبت لأعيدهما إلى غرفتي الصغيرة الواقعة في طرف المقبرة، كي أغلق الأبواب بعد ذلك، وأمضي إلى منزلي.

وبينما كنت في الغرفة، سمعت جلبة وضوضاء غير اعتياديّين، يزداد اقترابهما منّي، نظرت من الكوّة في عتمة المساء التي هبطت، فتبيّنت ضوءاً ساطعاً لجرّافة ضخمة، يحيط بها الكثير من أعضاء اللجان الثوريّة الذين عرفتهم من ثيابهم المبرقعة وأسلحتهم الرشاشة، قادمين باتجاه المقبرة.

توزّع عناصر اللجان حول سور المقبرة، وأخذوا بإطلاق النار عشوائياً في الهواء، وباتجاه المنازل المطلة عليها، كي لا يتجرّأ أحد على إزاحة ستار نافذته. وفي أثناء ذلك، تقدّمت الجرافة وفتحت ممراً واسعاً في جدار المقبرة المتداعي، عبرته ومضت باتجاه سفح التلة الواقعة في أقصاها، والمشرفة على فسحة واسعة من الأرض، حيث لا توجد أيّة قبور.

تذكرت السمعة المخيفة التي ترافق أعضاء اللجان الثوريّة أينما تحركوا، فأيّ تصرّف يثيرهم من قبل أيّ شخص في ظروف الاستنفار الأمني يعرّضه لإطلاق النار عليه مباشرة. لذلك، كمنت في مكاني، دون حراك، على أمل مغادرتهم بسرعة، لكنّني بقيت أراقب بدافع الفضول.

فتحت الجرّافة وهي تزأر بقوة حفرة كبيرة في الأرض، مستعينة بضوئها الكاشف. بدت لي الحفرة أكبر من المقبرة نفسها.

بعد فترة، حضرت أربع شاحنات ضخمة، عبرت الفتحة في سور المقبرة، واستدارت بمؤخراتها باتجاه الحفرة العميقة، لتظهر فجأة بقربها مجموعة من مساجين معسكر الأشغال الشاقة بلباسهم الرمادي المهترئ، يدفعهم أعضاء اللجان بأخمص بنادقهم بعنف، وهم يصرخون ويشتمون أمهاتهم.

تسلق المساجين الشاحنات بصعوبة بسبب ضعف أجسادهم، ثم أخذوا يرمون منها كتلاً في الحفرة، أخذت تنهال فيها بطريقة عشوائيّة، فتتجمّع بعضها فوق بعض مثل أكوام القمامة. ذهلت، وفكرت أنه لا ينبغي رمي الأموات بهذه الطريقة، بل دفنهم باحترام بما يليق بالجسد الإنساني، كما نفعل عادة في الجنائز.

دققت النظر أكثر في ما يرمونه، فامتلأ قلبي رعباً، هذه ليست جثثاً، بل أشلاء جثث ببقايا ملابس محترقة ملوّثة بالدماء، أجساد مشوّهة، ممزقة، مقطعة، مبقورة، بعضها دون رؤوس أو أطراف، وأيدٍ وأقدام تُرمى منفصلة، رؤوس مقطوعة تتدحرج، كتل لحوم ما زالت الدماء تنزف منها، عظام ناتئة من لحم بشري، مكسّرة، محطّمة، مفتّتة... ذبائح، وكأنها جُلبت مباشرة من مسلخ البلديّة، حيث يُحضّر الجزّارون أغنامهم وأبقارهم، ذبحاً، وسلخاً، وتقطيعاً.

لحوم بشريّة طازجة، وليمة لا تناسب فقط الكلاب الشاردة في البلدة، بل أيضاً قطيعاً من الذئاب المتوحّشة الشيطانيّة التي تهيم على وجوهها في الجبال.

ومع أنّني معتاد على رؤية الجثث التي أدفنها، ولملمة الأشلاء التي تتركها الكلاب في المقبرة بعد ولائمها الليلية، طار صوابي أمام هذا المشهد، وداهمتني رغبة شديدة في التقيّؤ، لكنّ معدتي كانت فارغة مساءً، فحلّ تشنّج مؤلم في أحشائي، بحيث شعرت بها تتقطع. وبدأت أقترب من فقدان عقلي، وقد امتلأت عيناي بالدموع، دون أن أجرؤ على البكاء، خوفاً من صدور أيّ صوت منّي يدلّ على وجودي، غير مصدّق أنَّ ما أراه حقيقة، وليس كابوساً ليليّاً.

كان السجناء يرمون الكتل البشرية بلامبالاة غريبة، وكأنّهم فقدوا عقولهم وأحاسيسهم، لا يدركون ماذا يفعلون، وقد تلطّخت أيديهم ووجوههم وملابسهم بالدماء الطريّة، يمسحون عرق جبينهم بأكفّهم المدماة من وقت إلى آخر، ثم يعاودون عملهم بآليّة رتيبة، بالرغم من الشتائم المنهالة عليهم، كي ينهوا عملهم بسرعة.

من بين الجثث المرميّة، تعالت أصوات إنسانيّة غريبة، استغاثات، نداءات، بكاء، نواح، أنين، عويل، هذيانات، بينها أصوات، أصوات ناعمة، صغيرة، لنساء وأطفال يستنجدون.

لا أصدّق ما أسمع ولا ما أرى. هناك جرحى أحياء كانوا يُرمَون في الحفرة مع الأشلاء. من أين أتوا بهم؟! من الشوارع أم من المستشفيات؟! لا بدّ من أن هناك خطأ ما!

كنت أظن أنَّ الكتل تنزلق وحدها من رأس تلة اللحوم البشرية، ولكن لا، فهناك من يزحف بينها، يحاول التسلّق والنهوض، من بين ركام اللحم والدم الكابوسي، إلا أنهم سرعان ما ينزلقون بين الكتل اللزجة وقد انهالت عليهم أشلاء جديدة، فيغطسون، ويستكينون في النهاية غارقين».

يأخذ أبو ياسين عدّة رشفات من كأس العرق، ويستمرّ بالحديث:

انتهى أخيراً عمل المساجين، فتنفسوا الصعداء، كمن أنهى نوبته في مصنع، لكنّ أحد الضباط من ذوي الثلاث نجوم صرخ طالباً من عناصره أن يصفّوهم قرب الحفرة، فمضى هؤلاء إلى طرفها كالمنوّمين، لقد ظنّوا أنّ نوبة عملهم انتهت، لكن ما زال هناك كما يبدو عمل آخر ينتظرهم، ربما عمل إضافي.

اصطفّ المساجين المساكين على طرف الحفرة، ووقف وراءهم عناصر اللجان الثوريّة. بلغ الجنون أقصى مداه. سيطلقون النار دون رحمة على هؤلاء الذين عملوا طويلاً برمي الجثث.

رفع العناصر بنادقهم وصوّبوها على المساكين، ينتظرون أمر قائدهم. تردّد الضابط قليلاً، فتململ العناصر. هل جاءته لحظة رحمة، بالرغم من الابتسامة الذئبية المرتسمة على وجهه؟ يبدو أنّه تراجع عن فكرة القتل، إذ ألغى أمر الإطلاق، فنزلت البنادق بإشارة من يده.

ابتسم الضابط ابتسامة واسعة، بينما كان عناصره ينتظرون أوامره، وكأنهم يعرفون أنّه يخبّئ لهم مفاجأة ظريفة كعادته.

وطبعاً، كان يخبّئ مفاجأة، لكنها لم تكن ظريفة، إذ اقترب من أحد المساجين وركله بقدمه من الخلف ركلة قوّية، ألقت به في وسط الحفرة فوق أشلاء الجثث. ضحك العناصر من المفاجأة الظريفة، وهم يرون السجين يحاول النهوض متعثّراً من بين الكتل اللزجة التي كان يرميها قبل قليل، فتقدّموا من المساجين الواقفين قرب الحفرة، وأخذوا يركلونهم بأحذيتهم العسكريّة الثقيلة، مقلدين قائدهم الشجاع. تدحرج المساجين المساكين إلى وسط الحفرة، يحاولون النهوض والخروج من ركام اللحم والدم، فيغوصون أكثر بين الأشلاء.

قلت في نفسي لعلّ هذا مزاح من الضابط، كي يتسلّى عناصره، وحتماً سيدع المساجين الذين ساعدوه يخرجون، لكنّي صُعقت وأنا أرى الجرافة تهيل التراب فوقهم بسرعة. تحوّل سائقها إلى مجنون يتراقص خلف مقوده وهو يصفر ويغنّي بحماسة أغاني المطرب الوطني أبو علي. ارتسمت في الحفرة على ضوء الجرّافة أجساد مغبرّة تحاول النهوض من بين التراب المنهال، فسواعد، أيدٍ، أصابع، ثم اختفوا تحت الأمواج الترابيّة، وذهب كلّ شيء في الظلام... وسقطت أنا في الظلام.

وفيما كنت أغوص في الظلام تناهت إلى سمعي الأحاديث الأخيرة الصادرة عن مجموعة العناصر الشجعان:

– تمّت تسوية الأرض جيّداً يا سيّدي، بحيث لم تعد هناك أيّ آثار تدل على أنه كانت هناك حفرة. لكن سيتساءل الناس ماذا كنا نفعل هنا في الليل، صحيح أنهم أغلقوا أبواب بيوتهم، إلا أنه سمعوا الضجيج وإطلاق الرصاص في المقبرة.

– أحضروا الجنود العشرين المنشقّين الذين رفضوا إطلاق النار على العملاء، وأعدموهم مباشرة في مكان الحفرة، فينشغل الناس غداً بهم... ولنُنهِ هذه القضية، لا نريد أن تشغلنا وقتاً طويلاً.

– يا سيدي، لكن قد يتساءلون عن هؤلاء الجنود عندما يرون جثثهم، لماذا أعدِموا؟

– يا غبيّ، أحرقوا الجثث.

وسقطت أنا في الظلام... كان آخر ما تناهى إلى سمعي صوت إطلاق رصاص، وبالتأكيد أجساد جنود تسقط، ثمّ شبّت نار كبيرة حولي، في رأسي، وفي جسدي، وكأنّي كنت أحترق فيها، فيما تعالت هتافات قويّة شقّت عنان السماء «يعيش الزعيم الجنرال».

تطفر عينا أبو ياسين بالدموع، وهو يسألني عن زجاجة ثانية من عرق التين. أشرب معه، وأهذي. لم أعد أعرف من يروي الحكاية، هل هو حفّار القبور، أم أبو ياسين، أم أنا.

– أبو ياسين هذه حكاية من توهّماتك، تحاول أن تؤثّر بها على عواطفي لتدخلني إلى هذياناتك الكابوسيّة ضدّ الزعيم الجنرال، ومن بعدها تمرّر لي أفكارك الشيطانيّة الشماليّة. ما دام حفار القبور فقد عقله، فكيف أخبرك بهذه الحوادث؟

– نعم، لقد فقد عقله، ولا أعرف كيف عاد إلى بيته في حارتنا بعد ما شاهده، لكنّ زوجته قرعت بابي بعد منتصف الليل بعنف، وارتمت عليَّ بهلع بقميص نومها الممزّق، وهي تبكي. كنت وقتها أشاهد فيلماً في التلفزيون، وزوجتي تنام بعمق بعدما أنهيت واجباتي الوطنيّة الليليّة. ولولا الرعب المرتسم على وجه زوجة الحفّار لقلت إنّها تحاول إغرائي، لكنّها كانت تستنجد بي، وتسألني الحضور لرؤية زوجها الذي أصابته حمّى شديدة، يتعرّق باستمرار ويهذي كالمجنون، يقع عن الفراش ويتقلّب على الأرض، يزحف، ينهض، ثمّ يسقط، يئنّ ويستغيث، ثمّ ينوح طويلاً دون أن ينقطع عن الهذيان.

– وماذا فعلت؟

– ذهبت لأستطلع الوضع، فوجدته مرميّاً على الأرض في حالة مزرية، مدّدته على الفراش، وجلست أعتني به، فاستكان قليلاً لوجودي معه. وبما أنّني بقيت معه حتّى الصباح، فقد استطعت في فترات الصحو التي انتابته بين هذياناته أن أعرف تقريباً ما شاهده وسبّب له الرعب.

– وماذا حدث بعد ذلك؟

– عند الصباح، نام طويلاً وبعمق، وما إن نهض من نومه حتّى كان قد نسي كلّ شيء، وذهب إلى عمله بنحو طبيعي، إلّا أنّه كان قد فقد عقله بالكامل، وأخذ يهلوس باستمرار برؤى غريبة تراوده، ما أزعج أهله وجيرانه، فانفضّوا عنه وتركوه لحاله عندما لم يجدوا علاجاً له.

– أبو ياسين، وعمَّ كانت هلوساته؟

– عن الموتى الأحياء.

– أيّ موتى أحياء؟!

– الموتى الذين يراهم ينهضون في أثناء الليل من الحفرة المطمورة، يجلسون بقربها ويتحدّثون، يتنزّهون بين القبور، وهم يغنّون بحزن شجيّ، ثمّ يعودون إلى حفرتهم قبل انبلاج نور الصباح.

– إنه يهلوس، وأنت تصدّقه!

– طبعاً لا أصدّق هلوساته عن الموتى الذين يخرجون من الحفرة، فالذي يموت ينتهي، هكذا يقول فيلسوف دولة الشمال. إلّا أنّ الحفار يؤكّد أنّ هؤلاء الموتى الأحياء هم الذين زرعوا شجرة صنوبر وورداً جميلة حول الحفرة، بألوان جميلة زاهية. وهو يراهم في المساء يروونها من نبع صغير، تفجّر من طرف المنحدر فجأة قبل أسابيع، بل واستعاروا من عنده دلواً

لنقل الماء إليها. ويؤكد أنّه يساعدهم في إعداد الشاي مساءً، بل جلس معهم ذات مرّة وشرب عدّة كؤوس.

غادرني أبو ياسين وأنا غارق في الذهول. رجعت زوجتي من عند جاراتها وهي تتذمّر قائلة: «من أجل شريكك أبو ياسين الأكتع الغليظ، جلستُ طويلاً مع نسوة الحارة على المصطبة الطينيّة، وأنا أنتظر ذهابه، ولم نتناول اليوم طعام الغداء، وها قد اقترب موعد أمسيتك في المقهى».

تعود زوجتي وتسألني: «ألن نتناول الغداء قبل ذهابك؟... لماذا أنت صامت هكذا، واجم، لا تجيب وكأنّك فقدت لسانك وضاع عقلك؟!».

كان المساء يسدل ظلال عتمته في الخارج، وقد تأخّرت عن موعدي مع الأصدقاء في المقهى. خرجت من المنزل، وأنا كالمنوَّم، صامت، تائه، مبلبل الأفكار، ومشيت، دون أن أعرف إلى أين تقودني قدماي. لم أنعطف نحو الحارات القديمة كعادتي، بل بقيت متّجهاً إلى الشارع الذي يمرّ بالقرب من المقبرة، مع أنَّ وقت سماع الغناء منها لم يحن. وما إن وصلت إليها، حتّى انحرفت إلى أحد الانهيارات في جدارها المتداعي، عبرته، ومشيت مباشرة إلى رأس المنحدر بعيداً عن القبور.

توقّفت في الفسحة أمام المنحدر قرب شجرة صنوبر جميلة، باسقة شامخة، تتهادى في عتمة المساء، ونسائم خفيفة تتغلغل بين أغصانها وتداعبها، تمرّ من قربها ساقية صغيرة، نما العشب الأخضر على أطرافها، فيما ترامت غير بعيد عنها غابة صغيرة من شجيرات الورود المزهرة بألوانها الساحرة، يملأ عبقها المكان كله، ألوان لا يمكن رؤية مثيل لها في البلدة، الملتزمة بالألوان الكامدة الرسميّة لرموز دولتنا الوطنيّة.

جلست تحت الشجرة، تداعبني رطوبة المساء. القمر جميل اليوم. تسلّلت السكينة أخيراً إلى روحي، ودفعني الخدر إلى التمدّد، فذهبت في حالة بين الغفوة والصحو.

نمت بعمق وسلام كما لم أنم في حياتي، لا أحلام مزعجة، لا كوابيس، ولا جثث طافية. شعرت بجسدي خفيفاً يطفو في رطوبة منعشة تداعبه، في ألق من ضياء بنفسجي ناعم يحنو عليه، وأنا مسترخٍ بدعة. صفاء في القلب، وبصيرة في الذهن تعبر بي تخوم الوعي إلى فضاء مطلق، دون زمان، دون مكان.

رأيت نهراً غزير المياه، ينحدر من جبال يغطّيها ضباب سحري، ويمضي نحو حقول خضراء في سهل يغتسل بالضياء.

رأيت حصاناً أبيض، يعدو على دروب معشوشبة بين الحقول، وفارس يمتطيه بإباء وكرامة، وصبايا بعمر الورد يلوّحن له بمناديل مطرّزة.

رأيت نفسي في حديقة بيت طينيّ جميل، مزنّرة بالورود، تتوزّع في أنحائها منحوتات أثريّة قادمة من غابر الأزمان، وإلى جانبي تجلس فتاة في ربيعها السادس عشر، ترتسم على فمها

ابتسامة ساحرة، أناديها باسمها «آلاء».

لا أدري كم من الوقت مضى وأنا نائم، ففي لحظة شعرت بيد صغيرة تهزّني بنعومة، وصوت طفولي يداعبني قائلاً «انهض، أحضرت لك كأساً من الشاي الساخن».

أصحو، أفتح عينيّ بتمهّل، أتحسّس عتمة خفيفة تحيط بي، أشعر بضياء قمر ساطع هادئ ينير ما حولي، فأتذكّر أين أنا، في المقبرة، تحت شجرة الصنوبر.

– ألا تريد كأس الشاي الساخن؟ يكرّر الصوت الطفولي.

أنهض جالساً، وأنا مذهول ممّا أسمع، أفتح عينيّ وأنظر أمامي، فأتبيّن فتاة صغيرة حلوة، ناعمة، بشعر طويل ممشط بعناية، في الثامنة من عمرها تقريباً، ترتدي ثوباً أخضر جميلاً، وتمدّ يدها لي بكأس من الشاي، يتصاعد البخار منها.

أجيبها: «بلى، فعلاً لدي رغبة شديدة في شرب الشاي».

– وهذه أختي، أحضرت لك باقة من الزهور الملوّنة، جمعتها لك خصّيصاً.

تتقدّم منّي فتاة أخرى بحلاوة الأولى، ترتدي أيضاً ثوباً أخضر جميلاً، في العاشرة من عمرها تقريباً، تمدّ يدها لي بباقة زهور ملوّنة.

أسألهما، وأنا أرتشف الشاي وأتشمّم عطر الزهور «من أنتما، ومن أين جئتما، وماذا تفعلان في هذا المكان الموحش؟».

تنظر كلٌ من الفتاتين إلى الأخرى باستغراب. تقول الكبرى وهي تشير إلى شجيرات الزهور: «هذا المكان ليس موحشاً، ونحن أتينا من الحفرة».

تردف الصغرى: «نحن الأموات الذين كدّسنا الأشرار في الحفرة، نخرج منها ليلاً، نتنزّه، نتنسّم الهواء العليل، نزرع ورداً نسقيها من الساقية، نشرب شاياً، ونغنّي غناءً شجيّاً».

تكمل الكبرى: «عرفنا أنّك قدمت لزيارتنا بعدما سمعت غناءنا، فأحضرنا لك شاياً وزهوراً».

أستغرب صفاء روحي، وأنا أرى الصغيرتين تجلسان بقربي، وكأنّني لا أخاف الأموات، لكنّ هاتين ليستا من الأموات بل حيّتان، تتحدّثان معي.

تقول الصغرى: «ها هي والدتنا قادمة إلينا، كي ترحّب بك أيضاً».

تقترب امرأة في الثلاثينيّات، ترتدي الأخضر أيضاً، جميلة المحيّا، لا تفارق الابتسامة وجهها. حيّتني وجلست بقربنا، لأفاجأ بأنَّ في حضنها رضيعاً، تخرج ثدياً وتلقمه إيّاه، فيمتصّه بنهم. قالت: «البقيّة سيخرجون أيضاً بعد قليل للترحيب بك. إنّهم يرتدون أطياف أجسادهم الحقيقيّة، خوفاً من أن نثير لديك القلق إذا ما شاهدت أجسادنا الممزّقة والمقطّعة التي فارقنا الحياة بها».

أسألها: «وكيف فارقتم أنتم هذه الأجساد الحقيقيّة الناعمة الجميلة؟».

– كنّا نتناول العشاء، أنا والفتاتان، والرضيع في حضني، عندما سقطت قذيفة مدفع فوق غرفتنا الطينيّة، انفجرت، فتطايرت أجسادنا أشلاءً وسط نار، وشظايا، ودخان، وغبار، ثمّ رمانا الأشرار في الحفرة.

– وزوجك، والد الأطفال، أين كان في تلك اللحظة؟

– كان مع المعتصمين في الساحة، ينادون بإسقاط الزعيم الجنرال الكلب. نجا من الموت بأعجوبة، عندما ركض هو وبعض من رفاقه باتّجاه الأزقّة الضيّقة، هاربين من المدرّعات التي هاجمتهم... زرناه أنا والأولاد في المنام، فوجدناه يبكي بكاءً مرّاً طوال الليل. قال إنّه سينتقم لنا، سيحصل على سلاح ويذهب به إلى الجبال، كي يقاتل من هناك الزعيم الجنرال المستبدّ ورجاله الأشرار.

وفيما هي تتحدّث، كان العشرات يتحلّقون حولي، يطلعون من الحفرة، وهم يتزايدون. رجال ونساء وأطفال، بوجوه حلوة مبتسمة، يرتدون الأخضر جميعاً، يجلسون ويشربون الشاي، ثمّ أخذوا يروون لي الواحد تلو الآخر:

– أنا لم أشارك في أعمال المنتفضين، كنت أروي لأطفالي قبل النوم حكاية «ليلى والزعيم الجنرال»، وفجأة دخل علينا عشرة من الذئاب الأشرار، يحملون سكاكين وبلطات، قطّعوا زوجتي وأطفالي أمامي، ثمّ ذبحوني، ورمونا أشلاءً مبعثرة في الشارع، لكنَّ العائلة اجتمعت في النهاية في الحفرة.

– كنت متمدّداً في السرير مع زوجتي، أعانقها وأقبّلها بشغف، فقد غبت عنها طويلاً في سفر. وفجأة، انفجرت بنا قذيفة برعد قاصف ونار حارقة، فلم أجد نفسي إلّا وأنا أعانق زوجتي بشوق وأقبّلها بشغف في حفرة الأموات.

– كنت جريحاً في المستشفى، لا أقوى على التنفّس بعدما استخرجوا رصاصتين من جسدي أصابني بهما قنّاص من رجال الأجهزة الأمنيّة. فجأة جاؤوا وسحبوني وجرحى آخرين، وألقوا بنا في شاحنة مليئة بالجثث، ثمّ رمونا في حفرة وجراحنا تمنعنا من النهوض...

– كنت مع المعتصمين في الساحة، هربنا أمام المدرّعات التي هاجمتنا، لكنّ رشقة رصاص رشاش أصابتني في فخذي، فسقطت متألّماً ولم أعد أقوى على النهوض، ولم أشعر إلّا والمدرّعة تمر فوقي وقد فرمتني بجنازيرها، ثمّ لمّوني ورموني لحماً مطحوناً في الحفرة.

– قبل عشر سنوات، قلت مرّة في الشارع إنّ الزعيم الجنرال مجنون، واستطعت أن أثبت ذلك بأدلّة مقنعة، فأدخِلتُ إلى مشفى الأمراض العقلية، وهناك أجروا عليَّ تجارب كثيرة حتّى أصبحت فعلاً نصف مجنون، ثمّ جعلوني أشتغل في مصنع، أرمي الدمى البلاستيكيّة التالفة في حفر. وفي

المرّة الأخيرة، كان الكثير منها تالفاً، محطّماً، دبقاً بسائل أحمر، رميناها في حفرة كبيرة، ثمّ ركلني أحدهم في ظهري ودفعني خلفها، وانهالت عليَّ بعد ذلك أكوام من التراب.

ثمّ قالت والدة الطفلتين: «مع بزوغ الفجر، نبتت من أحلامنا المختنقة شجرة صنوبر جميلة، باسقة شامخة، وغابة صغيرة من شجيرات الورود المزهرة بألوانها الساحرة، يملأ عبقها المكان كله، وسالت ساقية صغيرة. أصبحنا نصحو في الليل ونعتني بهما، ونغنّي. نحن أحياء. لن نموت، ولن تسكن أرواحنا، حتّى يأخذ أحدهم بثأرنا».

أنا والصورة

وأنا عائد إلى البيت، لمحت من بعيد نسوة الحارة السمينات جالسات على المصطبة الطينية، يثرثرن كعادتهن دون توقف، وهنّ يقرمشن خبزاً يابساً مدهوناً بزيت الزيتون. وبمقدار اقترابي منهنّ، كنت أسمع لغطهنّ بوضوح، مختلطاً بحفيف جاروشة أفواههنّ التي تكسّر الخبز وتطحنه، إلّا أنّني لم أرَ بينهنّ زوجتي التي غالباً ما تنتظرني هناك، كي ندخل معاً إلى البيت لتناول الغداء. ربّما سبقتني اليوم لتعدّ لي مفاجأة لطيفة، كأن تغسل ثوب نومها الوحيد القديم، ليعود نظيفاً مغرياً تثيرني به فتصلح العلاقة المتوتّرة بيننا.

يخفت لغط نسوة المصطبة عادة عندما أمرُّ بهنّ، دون أن ينقطعن عن قرمشة الخبز، وما إن أتجاوزهنّ حتّى يشيّعنني بنظرات غريبة، ليضجّ لغطهنّ وقرمشتهنّ من جديد بمجرّد ابتعادي.

أمّا اليوم، فإن شيئاً مريباً يحدث، فبمجرّد رؤيتهنّ لي قادماً من بعيد لم يسكتن فقط، بل رمين كسرات الخبز على المصطبة، وهنّ ينظرن إليَّ مذهولات، ونهضن واقفات، فارتخت أثوابهنّ الرمادية الواسعة الممزقة على أجسادهنّ العملاقة، التي فوجئت بمرآها في هذا الوضع للمرّة الأولى. هالني حجم أثدائهنّ وبطونهنّ ومؤخّراتهنّ العملاقة، التي ينافسن بها أثقال كتل زوجتي اللحميّة بكلّ سهولة، واستغربت مدى اهتراء أثوابهنّ، وامتلائها بالثقوب التي تفضح كتل لحمهنّ. أمّا هنَّ، فقد انصبّت نظراتهنّ على باقة الزهور الملوّنة الجميلة التي أحملها، لا يستطعن رفع عيونهنّ المبحلقة عنها.

أرى النسوة الآن يدفعن بعضهنّ بعضاً باتّجاهي، فيما تحاول كلُّ واحدة التهرّب من دربي، وهي تقول للأخريات «لا، حدّثنه أنتنّ، فمن الضروري أن يعرف، لكن أنا لا أجرؤ».

يبدو أنَّ أكثرهنّ امتلاءً، وذات الثقوب الأوسع في ثوبها، حسمت أمرها، وقرّرت استيقافي ومحادثتي، إلّا أنّها بدت متردّدة، لا تعرف كيف تبدأ، لتستمدّ الشجاعة أخيراً من نظرات الأخريات

لها، فتقول لي: «مرحباً يا جارنا، من أين لك باقة الزهور الغريبة الألوان هذه؟ ألا تعرف أنّ هذه الألوان غير متداولة في دولتنا! لو شاهدك أحد رجال الأجهزة الأمنيّة لاعتقلك مباشرة، وربما أدخلك بسببها إلى معسكر الأشغال الشاقة».

أنظر إلى الزهور ببلاهة، وكأنّي أراها الآن بيدي للمرّة الأولى، لا أتذكر من أين حصلت عليها.

تستمرّ المرأة: «على كل الأحوال، من أين أنت قادم؟».

تفاجئني بسؤالها، طبعاً أنا قادم من... أتوقّف، صحيح من أين أنا قادم؟ يبدو أنّني لا أتذكر، فهناك شواش شديد في رأسي، يجعلني لا أتذكّر، ومع ذلك أجبتها: «أنا قادم من عملي في دار البلديّة».

تنظر إليّ باستغراب شديد، وتستمرّ: «لكنّهم يقولون إنّك لا تذهب إلى عملك!».

– من يقول ذلك؟

– دوريّات الأجهزة الأمنيّة، يسألون عنك، ويقولون إنّك لم تداوم في عملك منذ خمسة عشر يوماً، زارنا مخبر غليظ جلف، اسمه «أبو العينين»، تسلّم التحقيق الرسمي، وهو يبحث عنك.

– لا، غير صحيح، أعود ظهراً كلّ يوم من العمل، وأتناول الغداء مع زوجتي.

تنظر النسوة بعضهنّ إلى بعض، وكأنهنّ يخفين سرّاً من الصعب الإفصاح عنه، فتدفع المرأة الأولى بإحدى النسوة الأقلّ حجماً، لكن في ثوبها ثقوب أكثر، لتقول لي: «لكن أنت لا تتناول الغداء مع زوجتك منذ خمسة عشر يوماً».

– لا، إنّها تنتظرني في الداخل، وسأذهب إليها.

تتردّد المرأة الثانية لتقول: «زوجتك ليست في البيت».

أجيبها بثقة: «لا، إنّها في البيت، ربّما تأخرتْ اليوم في تحضير الغداء، فغادرتكنّ باكراً».

تلحّ المرأة بشدّة: «زوجتك ليست في البيت، لقد ذهبت، غادرته».

– إلى أين؟

– مع أبو ياسين الأكتع، شريكك في اللعب.

– زوجتي ذهبت مع شريكي أبو ياسين! إلى أين، ولماذا؟

– أنت لم تعد تمضي أمسياتك في المقهى منذ خمسة عشر يوماً، فأتى إلى بيتك ليسأل عنك، ويعرف سبب غيابك. قرع الباب، ففتحت له زوجتك، ودخل ليطمئنّ عنك، وبقي معها حتّى الصباح، كي يواسيها في وحدتها، وفي كلّ ليلة كان يأتي ليواسيها.

تتدخّل في الحديث امرأة ثالثة، بثوب شبه ممزّق، يبدو منه بوضوح سروالها الرمادي المهترئ، قائلة: «هيّا أخبريه الحقيقة، وماذا حدث في غيابه».

تتردّد المرأة الثانية من جديد، لكنّها تحسم أمرها: «شريكك أبو ياسين الأكتع رجل له ابتسامة ثعلب، أغرى زوجتك بكلامه الحلو، همس بأذنها أن بيتها جميل، وفيه لمسة أنثويّة رائعة في كلّ الزوايا، وأنَّ السرير واسع ومريح ورائحته عطرة، فأخذت زوجتك تغسل له قميص نومها كلّ يوم».

تتدخّل المرأة الثالثة من جديد: «أنا سأقول له الحقيقة... أنت يا جارنا بسيط، لم تقدّر قيمة مؤخّرة زوجتك، لكن أبو ياسين اكتشف سحرها وجمالها، ما إن يراها كيف ترتجّ في أثناء السير حتّى يتهيّج بسرعة. هي أيضاً في المقابل، أصبحت ما إن ترى عاهة كتفه وكيف يميل جسده جانباً كلما سار حتّى تزداد شهوتها، وترتفع وتيرة شبقها».

– ومن حدّثكنّ بكلّ هذا؟!

– هي طبعاً... يا جارنا، هذا حديث حميمي سرّي بين النسوة، لكن عليك الآن أن تعرف الحقيقة.

تكمل المرأة الثانية حديثها: «على كل الأحوال، في اليوم السابع حضر أبو ياسين في الصباح على درّاجته الناريّة، وكنّا نحن نراقبه من هنا...»

– لكن شريكي أبو ياسين ليس عنده درّاجة ناريّة، وهو أصلاً لا يتقن قيادة درّاجة هوائيّة، فكيف بناريّة!

– بلى، في اليوم السابع حضر على درّاجة ناريّة سوداء عتيقة، تقرقع بشدّة، لكنَّ صوت منبّهها جميل وقويّ، أطلقه عدّة مرّات، فلعلع في الحارة. وجاءت زوجتك، وقد لفّت ثيابها بصرّة قماشيّة ورديّة اللون.

– ورديّة اللون!؟

– نعم، ورديّة اللون، لا ندري من أين حصلت عليها!

– ولا أنا!

– المهمّ، جاءت بصرّة ورديّة اللون، وقد مشّطت شعرها الكثيف المجعّد بمشط أحمر، تركته معلّقاً فيه، وركبت خلفه على الدرّاجة بشكل جانبي، بحيث تدلّت مؤخّرتها عن مسند الجلوس، وكادت تلمس الأرض، ولكنّ الدولاب كان منفوخاً جيّداً، فاحتملها ولم ينفجر. ثمّ لفّت يدها السمينة على خصره النحيل، وأمالت رأسها على كتفه الأكتع، وانطلقا معاً، يثيران خلفهما كثيراً من الغبار اختفيا في غمامته.

– وإلى أين انطلقا؟

– لا ندري، لكن باتّجاه الشمال... غريب يا جارنا أنّك لا تعرف شيئاً ممّا حدث.

– لا أصدّقكنّ، أنا ذاهب إليها في الداخل.

لكنّ النسوة دفعن فجأة بامرأة أخرى سدّت عليَّ الطريق بثدييها العملاقين، وقلن لها: «هيّا، أخبريه أنت بطريقتك اللطيفة حتّى لا ينصدم المسكين بالحقيقة الكبرى، فالمصائب تتوالى على رأسه».

قالت: «يا جارنا، إذا دخلت المنزل فلن تجد أيضاً أولادك».

تزداد دهشتي، وأنا أرى العالم مقلوباً اليوم بالكامل: «أيّ أولاد!؟».

– أولادك الأربعة المساكين، تركتهم زوجتك وغادرت، حاولنا أن نعتني بهم في غيابك، لكنّهم كانوا يتذمّرون دائماً ويشتمونك، ثمّ أخذوا يدورون ليلاً في الشوارع لجمع الزجاجات البلاستيكيّة من بين النفايات.

– أيّ أولاد أيّتها النسوة الخَرِفات، ليس لدينا أولاد، أنا وزوجتي مصابان بالعقم منذ أوّل يوم في زواجنا، مثل عقم هذه البلدة الكئيبة اللعينة، ابتعدن عن طريقي أيّتها المعتوهات.

ترمقني النسوة بأطراف أعينهنّ، وهنّ يتهامسن: «مسكين جارنا، يبدو أنّه فقد عقله».

تتشجّع امرأة أخرى وتقول: «يا جارنا، حاولنا أن نثني أولادك عن الذهاب، لكنّهم ركبوا رؤوسهم ولم يقبلوا».

تتدخّل أخرى قائلة: «ركبوا درّاجاتهم الهوائيّة ومضوا باتّجاه الجنوب».

وتصرخ أخرى: «قالوا إنّهم سيبحثون هناك عن عمل في أحد «بيوت المتعة» التي تتكاثر في إمارة الجنوب، فقد سمعوا أنّها تحتاج إلى أطفال من أجل تلبية حاجات زبائنها الشاذّين».

بدوت بين النسوة أبلهَ معتوهاً. أصبحن يتكلّمن معي كلهنّ في وقت واحد، يهاجمنني من كلّ الجهات بلغطهنّ، يشكّلن حولي بأجسادهنّ العملاقة دائرة، تدور وتدور، فيما يتبادلن دفعي بسواعدهنّ القويّة. سقطت أرضاً، وكدن يطأنني بأقدامهنّ الثقيلة المغبرّة المشقّقة. أخذن ينشدن تراتيل بدائيّة قديمة بطريقة رتيبة مرعبة، وكأنهنّ سيقدّمنني أضحية لإله غادر لا يشبع دماً، ويصرخن بأصوات معدنيّة مشوّهة فيها أزيز: «هربوا نحو الشمال، هربوا نحو الجنوب، جبال عارية في الغرب، صحراء قاحلة في الشرق، شمال جنوب، شرق غرب، وأنت هنا محبوس، مختنق، في الوسط، في هذه البلدة الكئيبة التي تعيش بؤسها برعاية الزعيم الجنرال المناضل، فماذا تنتظر؟!».

أتسلّل زحفاً من بين أقدام النسوة الضخمة اللواتي أصبحن معتوهات بالكامل. أنهض وأركض إلى البيت، دون أن أفلت باقة الزهور الملوّنة من يدي. أتوقّف أمام الباب، أتماسك، أنظر إلى الباقة، تجعلني أهدأ، تسحرني ألوانها المتألقة، أقرّبها من أنفي، يتسلّل عبقها إليه ويسكرني، فتأتيني الذكرى كالبرق، تداعبني بعد طول انتظار. وكأنّ فتاتين تلبسان الأخضر، إحداهما في الثامنة

والأخرى في العاشرة، كانتا تقفان معي تحت شجرة صنوبر، تقدّم لي الكبرى باقة الزهور الملوّنة، وهي تقول لي برجاء: «لا تتأخّر علينا كثيراً، نحن بانتظارك».

الآن تذكّرت. لقد كنت عند الموتى الأحياء الذين تحلقوا حولي تحت شجرة الصنوبر الباسقة، وأخذوا يروون لي حكايات موتهم الحزينة، يروون ويروون وأنا أستمع إليهم. خمسة عشر يوماً مضت وأنا أستمع، إلى أن انتهت حكاياتهم. غادرت، وقد وعدتهم بأن أمضي معهم أمسياتي من الآن فصاعداً بدلاً من الذهاب إلى المقهى.

دخلت إلى البيت. زوجتي ليست هنا. لقد رحلت فعلاً كما قالت النسوة. هذه هي المرّة الأولى منذ زواجنا التي أجد فيها نفسي بدونها وحيداً في البيت. لن أسمع زعيقها ولا تذمّرها يزيّنان غدائي، ويشكّلان موسيقى رتيبة تساعدني على أن أغفو ظهراً، ولن أشمّ رائحة الأرزّ المطبوخ التي تصيبني بالغثيان.

لقد غادرت زوجتي إذاً، هربت مع شريكي أبو ياسين الأكتع، وبالتأكيد هربت فتاة خيالي ماريلا أيضاً مع الزعيم الجنرال الحقير.

أمرُّ من أمام المرآة بجانب الباب، فلا أرى انعكاس صورتي فيها. أرى مرآة فارغة، لا تعكس إلّا الفراغ.

أشعر بانقباض في صدري، فيهاجمني الشواش المجنون في الرأس، والحكاك المسعور في الظهر، بعدما انقطعا عني خمسة عشر يوماً.

أسقط في غيمة من الصور الضبابيّة السديميّة التي تعصف برأسي، صور يختلط بعضها ببعض في شواش مروّع، ليس فيها إلّا أجساد عارية وأصوات لاهثة مبهمة. أجلس على الأريكة وأحاول التركيز، فتتوضّح الصور قليلاً، ثمّ تتوالى أمامي كفيلم في حركته الطبيعيّة.

أرى زوجتي تتأوّه بمتعة شديدة تحت جسد أبو ياسين، الذي أصبح شريكي في زوجتي أيضاً، هو والزعيم الجنرال، فيما يضيع وجهها بخدّيها السمينين وعينيها الصغيرتين الغائرتين في كتفه الأكتع، متمسّحة فيه مثل قطة وحشيّة. أمّا هو، فكان غارقاً في كتل لحمها، يعلو ويهبط فوقها، لا ينفكّ يحدّثها في أثناء ذلك عن دولة الشمال، مستغلّاً لحظات ضعفها في ذروة شبقها لتقبّل أفكاره.

ثمّ تتالت صور ماريلا، وهي تتأوّه بشبق إباحي عابث تحت الكتلة الوحشيّة لجسد الزعيم الجنرال الذي بدا كبرميل فوقها، يسحق جسدها الناعم بأوسمته الوطنيّة، وقد برز نابا وحش من فمه. أمّا هي، فكانت تداعب بأصابع متلذذة ظهره الممتلئ بالبثور المتقرّحة. وفي أثناء ذلك، يصفق قائد مرافقته المسلحة، هو وعناصره، بضجيج، يدورون حولهما، وهم يهتفون «يعيش الزعيم الجنرال، البطل الهمام، أشجع الفرسان».

أشعر بالقهر والألم، أصرخ بنداءات مبهمة، فتتدافع فجأة صور الموتى الأحياء، وهم يصرخون بذعر لحظة قتلهم المأساوي.

تختلط التأوّهات الشبقة مع الصراخات المعذبة في رأسي، تتحوّل إلى شواش وحشي مروّع، قادم من أعماق غابة بدائية نسيها الزمن. يصمّ الضجيج الوحشي أذنيّ، فأرتمي على السرير، وأدفن رأسي تحت الوسادة.

يسود صمت وسكون، فيما رأسي مخفيٌّ تحت المخدّة، ثمّ فجأة، تصدر قهقهة قادمة من بعيد، تبدو هامسة في بعدها، إلّا أنّه بمقدار اقترابها يزداد ضجيجها، لتملأ فضاء الغرفة، وتلعلع فيه بصدى معدني لا ينكسر. ثمّ ما تلبث أن تتوالد منها قهقهات عديدة، كما الأغصان من جذع شجرة، تضجّ إيقاعاتها المتداخلة بعشوائيّة مجنونة، فتتكسّر لحظات الزمن تحت طرقاتها وتتبعثر.

لا تنفعني الوسادة في الهروب من أصوات القهقهات، أسحب رأسي من تحتها لأتبيّن من أين تأتي، فأفاجأ بصدورها من صور الزعيم الجنرال التي سددت ثقوب جدراني بها، فيما نزع أحدهم صوري التي كانت متناثرة بينها، فالجدار لا يحتمل صور متنافسين.

أرى الوجوه تقهقه، والجدران تهتزّ معها، تنفتح الأفواه واسعةً، بحيث يظهر قعرها العميق، فتتصاعد الاهتزازات الصوتيّة منها بأصداء قويّة، كأنّها قادمة من بئر دون قرار، فيما تتوجّه نظراتها إليّ، مبحلقة بي وهي تقهقه بسخرية واحتقار...

تتضخّم صور الزعيم الجنرال بشكل مروّع وهي تقهقه، تتجاوز الواحدة منها حجم الغرفة، تتضخّم أكثر فأكثر دون أن تتوقف عن القهقهة، فترتسم على الجبال والسهول والأودية والشطآن، وتعلو القهقهات عندئذٍ إلى أعلى درجاتها كهدير الرعد تردّد الآفاق أصداءها.

أتذكّر الموتى الأحياء، وأستمدّ منهم الشجاعة، فأقف في منتصف الغرفة وأصرخ متحدّياً، لتضجّ صرخاتي في فضاءات الأمكنة بتضاريسها. تتوقّف عندئذٍ قهقهات الزعيم الجنرال المتكبّر، تصمت وجوهه مستغربة ممّا تسمع، وعندما تدرك ما أفعل، تقسو تقاطيعها، وتكشّر عن أنياب ذئاب ملوّثة بالدماء.

تسيل الدماء من أفواه الصور على تضاريس المكان، دماء حمراء قانية، رائحتها طازجة، كما في حفرة الموتى الأحياء، كما في حفر الموتى الأحياء جميعها، الممتدّة على طول البلاد وعرضها، كي تهدّدني مفتخرة بأفعالها القديمة.

أحضر سكّيناً من المطبخ، وأهجم على الصور، أمزّقها بالطرف الحادّ، أفقأ العيون، وأجدع الأنوف، وأشوّه الأفواه، وأرسم ندوباً على الوجوه، في الجبين وعلى الخدود. ثمّ أحزّ الصور طولاً وعرضاً، وبشكل مائل ودائري، بخربشات عشوائيّة، صاعدة نازلة. تتجعّد الوجوه الممزّقة، تتحوّل إلى كتل مفتّتة ممتزجة بدماء هي أقرب إلى السواد، فلا أرى إلّا بقايا عيون وأنوف وشفاه، مشقّقة،

مشقّفة، مقطّعة. تختلط تضاريس الأمكنة، فتضيع معالم الجبال والسهول والأودية والشطآن. تصبح البلاد بطولها وعرضها دون تضاريس، دون صور الزعيم الجنرال، تصبح البلاد دون زعيم جنرال... فلتمت أيّها الزعيم الجنرال، ولتنتكس رايات جنودك وعناصر أمنك ومخبريك.

اتّسخت الجدران. تحوّلت الصور التي كانت تسدّ ثقوبها إلى عجينة سوداء دمويّة. أحضر ممسحة خشنة أبلّلها بالماء، وأبدأ بالتنظيف. أعمل بهمّة ونشاط فأحفّها، وأفركها، وأدعكها جيّداً، ثمّ أكشطها بالسكّين بحدّة، فتتساقط الأوساخ على الأرض.

تبدأ الجدران بالعودة إلى رونقها وصفائها كلّما تقدّم العمل. تزول عنها أوساخ الماضي، لترتسم عليها آمال الحاضر وأحلام المستقبل. صورٌ جديدة تظهر عليها، أنيقة ومتألقة، تملأ الجدران كلها طولاً وعرضاً بانتظام متناسق ساحر. إنّها صوري أنا. نعم. أنا الزعيم الجنرال الجديد. أنا القادم باسم الفقراء الذين سأنقذهم من بؤسهم، وباسم البلاد التي سأرفع راياتها نحو المجد.

يسقط الزعيم الجنرال القديم المنحرف عن الخطّ الثوري، يعيش الزعيم الجنرال الجديد التطهيري الذي سيعيد للثورة ألقها.

أتلفّت حولي بزهو، وفيما أنقّل بصري في الغرفة هنا وهناك، متأمّلاً عظمتي في الصور الجدارية، ألمح إطار صورة الزعيم الجنرال القديمة التي كانت مقلوبة على الجدار فوق السرير وتطاولت بلؤم إلى زوجتي، ثمّ أنزلها أبو ياسين إلى الأرض باحتقار. أنظر إلى الإطار المرميّ بإهمال، فأبتسم ساخراً. لقد أصبح فارغاً، فلمَ لا أستفيد منه؟!

أقرّر الدخول في الإطار. أنزلق فيه وأصبح داخله صورة أكثر تألقاً ورونقاً من تلك التي كانت فيه سابقاً. يملأ وجهي الوقور وصدري المثقل بالأوسمة كامل الصورة، فلا يبقى لقدميّ إلّا أن تتدلّيا منه، لا يعجبني منظرهما، فأسحبهما وأجلس متربّعاً داخل الإطار.

وقبل أن تذهب الصورة إلى موقعها على الجدار فوق السرير، تنظر إلى نفسها في المرآة. أراني رائعاً بعد حركتي التطهيريّة. ابتسامة وقورة، تقطيبة جبين تدلّ على التفكير العميق، نظرة توحي بالعزم والتصميم والإرادة، جلسة متربّعة كالسلاطين كلّها عزّ وشرف... كم أنا راضٍ عن نفسي، لقد نجحت حركتي الانقلابيّة.

لكن قبل أن أغادر المرآة يستوقفني شيء غريب في الصورة، شيء مقلق غير مريح. أدقّق النظر، فأكتشفه بسرعة وبلمعة ذكاء؛ إنّه شنبي... لا يزال متهدّلاً إلى الأسفل. لا يرتفع عالياً نحو المجد، بل يسقط نحو الحضيض، وهذا غير مقبول من زعيم تقدّمي هو رمز شعبه.

أتذكّر كيف قلبت صورة الزعيم الجنرال السابق المنحرف على الجدار من أجل رفع شنبه، فأصبحت الصورة مشوّهة، وكيف تشوّهت العلاقات والأوضاع معها في الغرفة مباشرةً، سواء مع

الزوجة، أو مع فتاة الخيال. أمّا أنا، فسأنقلب بنفسي داخل الإطار بحركتي التطهيريّة من أجل السموّ إلى المجد بشنبي، لا بالإطار، وليبقَ الإطار في الوضع الطبيعيّ، رمزاً للاستقرار الوطني والثبات في السلطة.

أنقلب إذاً، فيصبح رأسي في الأسفل، وأنا متربّع نحو الأعلى... صحيح أنّني أصبحت مقلوباً بوضع غير مريح، لكن الشنب أصبح مرتفعاً، متّجهاً عالياً نحو المجد، فيما بقي الإطار مستقرّاً ثابتاً.

تتسلّل من باب شرفة الغرفة موسيقى فرق الجيش النحاسيّة، موسيقى مشتعلة بالحماسة والعنفوان والنار، تضجّ في الرأس فتملأه بمشاعر النشوة الوطنيّة، والعزّة التاريخيّة، والخيلاء بالذات العسكريّة. إنّها الموسيقى الاحتفاليّة بمناسبة العرض العسكريّ العظيم، الذي سيمرّ من أمام الشرفة بمناسبة انقلاب صورتي بحركتها التطهيريّة في الإطار.

تذهب الصورة إلى الشرفة وأنا مقلوب في إطارها، لكنّ شنبي يرتفع بفخر نحو المجد، تتموضع على عرش يشعُّ ألقاً، يليق بسموّها، كي أشهد بفخر العرض العسكري لقطعاتي العظيمة، الدرع الحامية لسلطتي.

ما إن تستقرّ صورتي على العرش حتّى تبدأ الآلات الموسيقيّة بعزف ألحانها الحماسيّة، وهي تطفو في الهواء بصفوف منتظمة مقابل الشرفة.

تمتدّ يدي خارج الصورة ممسكة بالصولجان الذهبي، وتعطي إشارة البدء بالعرض، فتظهر من بعيد طلائع القطعات الأولى من الفرق المشاركة. إنّها تماثيلي الحجريّة السوداء، الآلهة المعبودة، تتقدّم الآن بصفوف منتظمة منضبطة على إيقاع الطبول الضاجّة، تماثيل وراء تماثيل، صفوفاً وراء صفوف، بخطوات واثقة ونظرات حجريّة صارمة.

ما إن يصل صفّ من التماثيل أمام الشرفة حتّى تلتفت الرؤوس باتّجاهي في الصورة تحيّةً لي، فأشعر بالسموّ داخل الإطار. ثمّ سرعان ما تنقلب الرؤوس على أجسادها بحركة بارعة تأييداً لانقلابي التطهيري، فيصبح الشنب مرتفعاً نحو الأعلى، فيما تبقى الأجساد الحجريّة مشدودة بصلابة صخور قاسية، صلابة تتحطّم عليها المؤامرات الداخليّة والخارجيّة كلّها التي تحاك ضدّ عرشي.

تمرّ أوّلاً صفوف التماثيل العملاقة التي تتحدّى الشمس والمطر والغبار في الساحات الرئيسيّة والحدائق العامّة، تلحقها صفوف التماثيل الأصغر التي تحرس مداخل المؤسّسات الرسميّة، فصفوف التماثيل النصفيّة التي تتوضّع في الردهات والمكاتب.

تخفت الموسيقى الآن بمسحة شاعريّة، لتمرّ على إيقاعاتها الناعمة صفوف نورانيّة مشعّة لأطياف تماثيلي التي تعيش في عقول المتعصّبين من مريديّ، كي تلهمهم الأفكار الثوريّة النيّرة،

أطياف نورانيّة تمضي طويلاً وطويلاً حتّى ظننت أنّها لن تنتهي من كثرتها.

كم أنا محبوب من شعبي، كلّ هذه التماثيل الرائعة لعبادتي.

يتغيّر إيقاع الموسيقى الحماسيّة الاحتفاليّة إلى ألحان أكثر معاصرة، فيها مسحة جماهيريّة تعلو على الصرامة العسكريّة التقليديّة، إذ تتقدّم الآن قطعات جديدة من جحافل جيوشي المناضلة أمام الشرفة. إنّها صوري الرائعة التي تخفق وحدها في الهواء بعفويّة وطنيّة، أرتدي فيها إمّا بذلاتي العسكريّة التي تضفي تلقائيّاً على نظرتي الصرامة، أو بذلات مدنيّة ترتفع فيها يدي ملوّحة مع طيف ابتسامة على شفتيّ.

تطفو الصور مرفرفة أمام الشرفة، تطير بتعاويذ سحريّة تستمدّ قوّتها من وهج الرمز الذي تحمله، شخصي أنا. صور قماشيّة بحجم واجهات الأبنية، صور بأحجار الفسيفساء، صور منقوشة على الجدران، صور مؤطّرة تُعلّق على الجدران، صور مطبوعة على القمصان الداخلية، وشوم مرسومة على سواعد الرجال وعانات النساء، تتقدّم كلها صفوفاً صفوفاً، وهي تتراقص بنشوة، فإذا ما جاء دور الأيقونات الصغيرة التي تُعلّق على البذلات، زحفت منها جموع هائلة بكثافة جيوش النمل.

ما إن تصل الصور أمام الشرفة حتّى ينقلب الرأس فيها قبل أن تمضي في مسيرها، فخورة بانقلابها الإيديولوجي العظيم.

يتغيّر الإيقاع الآن، تضجّ الطبول برعودها فيما تصمت بقيّة الآلات، إذ تتقدّم زاحفة أمام الشرفة جبال بأحجامها الطبيعيّة، ارتسمت على سفوحها صوري العملاقة والعبارات الهائلة الممجّدة لي، وقد رصفتها بأحجار مدهونة بالأبيض على امتداد عدّة كيلومترات أيدي الآلاف من الجنود، بدلاً من نومهم الكسول ليل نهار. كم هي مهيبة صوري، وهي تغطّي جبال الوطن كلّه، فتتلقفها أبصار المواطنين كيفما تحرّكوا في مساحاته الواسعة.

تتحوّل الموسيقى إلى رصاص وانفجار قذائف، إذ تتقدّم الآن القطعات المقاتلة التي تحمي سياج العرش، صفوف لا تنتهي من البذلات العسكريّة الفارغة الرائعة، تعتمر كلّ واحدة منها خوذة صقيلة وتنتعل حذاءً ثقيلاً، وتمضي على إيقاع «واحد اثنين». بذلات حيّة تكاد تنطق وتهتف بحياتي، منفوخة بالعزم والتصميم، وقد تمنطقت بأسلحتها، بنادق آليّة ورشّاشات، ارتفعت سبطاناتها إلى الأعلى بكلِّ عزّة، حاملة شرف القتل بمتعة.

تلي البذلات العسكريّة المدرّعات، التي اكتسبت روحاً معدنيّة أخّاذة منذ ولادتها في مصانع الفولاذ. تسير وحدها مسرورة بقرقعة سلاسلها التي تبثّ الرعب أينما تحرّكت، ثمّ تتقدّم وراءها طائرات الهليكوبتر والطائرات الحربيّة التي تطفو في الهواء بقوّة أرواحها الشيطانيّة. وأخيراً، كم كانت المفاجأة مذهلة عندما حضرت السفن الحربيّة والغوّاصات وحاملات الطائرات.

طوال العرض العسكري وأنا أتساءل لمَ أصبح العالم الذي أراه من الشرفة أمامي مقلوباً رأساً على عقب ومشدوداً إلى السماء.

فكّرت بذلك طويلاً، دون أن أصل إلى نتيجة، حتّى شعرت بالصداع.

كانت جميع قطعات جيشي تسير مقلوبة على صفحة السماء، ولكنّها لا تقع إلى الأسفل أرضاً، حتّى السفن، كانت تبحر مقلوبة في مياه سماويّة، لا تسقط مطراً، باستثناء الطائرات، فقد كانت تزحف بطريقة عجيبة على الأرض، لا تستطيع معها الإقلاع والتحليق عالياً.

كنت متنبّهاً إلى أنّ صفوف جيوشي، فور مرورها أمام الشرفة، وهي تسير على صفحة السماء، كانت تحيّيني بلفتة منها، ثمّ تقلب رؤوسها، طبعاً من أجل أن يرتفع الشنب لديها إلى الأعلى، وتعبيراً في الوقت نفسه عن التأييد لحركتي التطهيريّة. لكن بعد مرور عدّة صفوف منها، أخذ الشك يساورني بجدّية حركاتها، فقد لاحظت أنّها تقلب رؤوسها فقط، دون أن تقلب جسدها بالكامل متربّعة مثلي. وبدأت أتوجّس من ريائها، لا بل تعاظم الشك في إمكانيّة خيانتها لمبادئ حركتي، والأسوأ، أن يفكّر أحدها في الحلول مكاني. أصبحت الرؤوس تواجهني تماماً وبشكل طبيعي، وجهاً لوجه، وكأنّها تتحدّاني بسلطتي كلّها، نعم تتحدّاني، فيما تسخر منّي بجسدها المقلوب بعكسي.

أصابني الدوار من التعقيدات التي تولّدت من الانقلابات حولي، وشعرت برائحة الخيانات والمؤامرات تجاه حركتي التطهيريّة، فقرّرت أن أنقلب في الصورة من جديد، من الأسفل إلى الأعلى، بحركة استئصاليّة مجيدة لإعادة النظام والتوازن إلى سلطتي، وحتّى أعرف من هم المؤيّدون ومن هم الخونة.

نفّذت الحركة الاستئصاليّة الجديدة بكلّ فخر واعتزاز، وقد قصصت طرفيْ الشنب، فلم يعد مرتفعاً إلى الأعلى، ولا هابطاً نحو الأسفل، بل صار ممتدّاً إلى الطرفين. لن تؤثّر فيه أيّ حركة انقلابيّة بعد الآن. وأخذت أراقب ردود الفعل.

لسوء الحظ، وبعكس ما توقّعته، أصبح الوضع أكثر تعقيداً بنتيجة الحركة الانقلابيّة الثانية، بل وفوضويّاً، إذ اختلطت الاتّجاهات العلويّة بالسفليّة خبط عشواء. فلقد انقلبت مجموعة من جيشي معي تؤيّدني، ورفضت مجموعة ثانية إعادة الحركة الانقلابيّة ثانية، مدّعية أنّها ستبقى مخلصة للمبادئ القديمة، وبقيت مجموعة ثالثة انتهازيّة، تهتزّ متذبذبة بين هنا وهناك، تتحيّن الفرصة المناسبة لتحقيق طموحاتها الخفيّة.

اختلط الحابل بالنابل، فلم أعد أميّز بنتيجة حركتي الاستئصاليّة الاتّجاهات العلويّة من السفليّة، وهل العالم هو المقلوب أم أنا!

هؤلاء الرعاع لا يعرفونني بعد على حقيقتي، لا يعرفونني عندما أغضب وأكشّر عن أنيابي، لقد شهدوا حركتي التطهيريّة، ومن بعدها حركتي الاستئصاليّة، لكنّهم لم يختبروا بعد حركتي الانشقاقيّة.

ونفّذت حركتي الانشقاقيّة. قرّرت بلمحة ذكاء خاطفة عدم الانقلاب في الإطار، لا إلى الأعلى ولا إلى الأسفل، بل بحركة استعراضيّة مفاجئة، كانت مذهلة حتّى لي، حركة ستربك الجميع بالتأكيد، وخاصّة أعدائي.

لكن يبدو أنَّ خللاً ما وقع بمجرّد أن نفّذت حركة الانقلاب الجانبي، فقد اختلطت جميع الجهات عليَّ بشواش عظيم، ولم أعد أميّز الأسفل من الأعلى، ولا اليسار من اليمين، وبدا أنّ جيشي أصابته حركة ارتعاشيّة عشوائيّة مجنونة من الانقلابات في جميع الاتّجاهات.

وأخذ العالم يدور حول صورتي زوابع وأمواجاً متصادمة، بحيث لم تعد تثبت في أيّ اتّجاه، واختلطت السماء بالأرض، فأصبحت السماء موطن جبال وبحار، والأرض سائبة بلا قرار، ومن يسقط إلى الأعلى يذهب فلا يعود، ومن يصعد إلى الأسفل لا يصل. عمّت العالم الفوضى، وضعت أنا بصورتي في اللااتّجاهات واللامعنى.

تناثر جيشي في اتّجاهات لانهائيّة، فتبعثرت التماثيل، والصور، والجبال، والبذلات، والأسلحة، والمدرّعات، والسفن، والطائرات، في فوضى شديدة. تبعثرت مثل الغبار المتلاشي في فضاء تهبّ فيه العواصف الترابيّة بعصفات مروّعة. وأخذت تنقلب، وتتقلب، وتتشقلب، بدورانات لانهائيّة في فوضى شديدة، لا تعرف الاستقرار على الحركات التطهيريّة، أو الاستئصاليّة، أو الانشقاقيّة، أو التدميريّة، أو الانتحاريّة، أو على اللاحركات، بل أخذت تتصادم بعضها ببعض بحركات مجنونة، فتدمّر ذاتها بذاتها.

وفجأة، حدث انفجار هائل مروّع، سببه قصف أصوات بشريّة هادرة عاصفة، لم أسمع لها مثيلاً من قبل، ولا أيّ صورة زعيم قبلي سمعت بمثلها. كانت الأصوات تهتف بكلمات غريبة لم أعتد سماعها في مزرعتي التي وسعها البلاد طولاً وعرضاً، كلمات مثل «خبز، كرامة، حرّية».

آخر ما وعيته كان اللحظات الأخيرة للانفجار الذي سبّبه قصف الأصوات البشريّة وهي تهتف، فأطاح جيوشي وصورتي في الإطار، بعثرها ونثرها بالكامل، فذهبنا هباءً منثوراً ذرّته الرياح غباراً ضاع في العدم.

أستيقظ في غرفتي وأنا أشعر بصفاء روحي عميق سحريّ، متألق الذهن والقلب، أجدني ممدّداً في سرير عريض واسع، بشراشف وأغطية ناعمة نظيفة تشعّ منها رائحة عطرة، تنتشي معها الأنفاس.

تغتسل جدران الغرفة ببياض ناصع عميق، تداعبه شمس الصباح المتسللة من الشرفة بأشعّتها الذهبيّة، فتوشّحه بمسحة ألق. الأريكة الطويلة، والطاولة الدائريّة، والكراسي المربّعة، ارتدت أغطية ورديّة، أقرب إلى الشفّافة، تغطّيها زهيرات مطرّزة بحمرة خدّيْ صبيّة في خفر مراهقتها.

ألتفت نحو شمس الشرفة، فتتلاقى عيناي بانعكاس صورتي على مرآة صغيرة على طاولة السرير. وجهي وجه شابّ في العشرينيّات من عمره، وسيم بتلويحة خصلات شعر ناعمة على الجبين، لا تفارق الابتسامة شفتيه، ونظرته هادئة ناعمة.

يدخل طيف صبيّة إلى الغرفة، وبالرغم من أنّني لا أرى سوى ظهرها، أتعرّف إليها، فهي التي تلوّح لي دائماً من النافذة المقابلة، لكن يبدو أنّها الآن منهمكة هنا في ترتيب باقة زهور ساحرة بألوان قوس قزح في مزهريّة شفّافة.

أسألها، دون أن أدري أين أنا، ومع من أتكلم: «آلاء، ماذا تفعلين؟».

يلتفت إليّ وجه كالبدر، يهمس كأنّه قادم من الأحلام: «أرتّب في المزهريّة باقة زهور الموتى الأحياء التي أحضرتَها هذا الصباح».

تقترب مني آلاء الساحرة، صبيّة في السادسة عشرة من عمرها، تجلس بقربي على الفراش، تحيطني بذراعيها وتطبع قبلة عذبة على شفتيّ، وتسألني: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

أستمرّ بالحديث، وأنا لا أدري متى بدأت: «وامتطى فارسٌ حصانه الأبيض، وأخذ يعدو به على دروب ممتدّة بين حقول خضراء، فيما الصبايا يلوّحن له بمناديل بيضاء، مطرّزة برسوم قلوب حمراء عاشقة».

القسم الثاني

ساديّة

ساديّة سياسيّة

في ليلة ولادتي كان الجوّ شتائياً عاصفاً بشدّة، وكأنّه التحف غضب الطبيعة كلها، والظلمة حالكة السواد. كان جوّاً – كما روت لي جدّتي – يثير الخشية والقلق في القلوب، ويبثّ الريبة والتوجّس في النفوس، وقد التمّت العائلة حول سراج صغير شاحب الضوء. ليلتها تنبّأت لي جدّتي في عتمة الظلال المتراقصة، بحكمتها التي عركتها السنون، قائلة: «حتّى لو أصبحتَ زعيماً...».

وقبل أن أكمل النبوءة التي ألقتها جدّتي، عليَّ أن أذكر أنّ هذه الـ«حتّى لو» التنبّؤية كانت في تلك الأيّام تحمل في بعض معانيها احتمالاً قويّاً بحدوث الشيء في المستقبل، أي إنَّ النبوءة كانت تعني «عندما تصبح زعيماً...».

في تلك الأيّام، كان الطموح بأن يصبح أيّ شخص زعيماً، أمراً طبيعياً، أو بالأحرى مشروعاً، حتّى إن كان من ساكني الغرف الفقيرة التي تجلس فيها العائلة على بساط رمادي كالح مثقوب.

ولكنَّ الظروف التي ألقَت فيها جدّتي هذه النبوءة كانت غريبة، ففي تلك الليلة العاصفة، لم يهدأ صراخي المزعج – حسب ما روت لي – ظلّ يعلو ضاجاً في نوبات بكاء مستمرّة، ويختلط باتّساق عجيب مع عويل الرياح المخيف في الخارج، دون أن يهدأ الاثنان، أقصد الصراخ والعويل. كما أنّها رمت النبوءة بحدس غريب، لحظة تزامن فيها رعد هادر يصمّ الآذان مع برق أضاء الأرض والسماء خاطفاً الأبصار.

وتروي جدّتي: «في تلك الليلة الغريبة من الصراخ والعويل، سطا ذئب شرس على زريبة أغنام في طرف البلدة التي كانت لا تزال صغيرة، يجري فيها نهر غزير المياه، تنمو على ضفافه أشجار الصفصاف والحور والزيزفون والجوز بكثافة، ويسقي حقولاً خضراء واسعة ممتدّة حتّى المدى. ولاذ الذئب بالفرار بعدما سحب معه نعجة بيضاء سمينة باتّجاه الجبال، دون أن ينجح

الفلّاحون الذين لاحقوه في قتله، أو في إنقاذ الغنيمة المخطوفة، على الرغم من تسلّحهم بالعصيّ والسكاكين والفؤوس. لاحقوه، لكنّه اختفى فجأة، وكأنّ الأرض ابتلعته».

– ومن أين أتى هذا الذئب يا جدّتي؟ أسألها بلهفة.

– لا يعرف أهل البلدة من أين أتى هذا الذئب الشرس يا بنيّ، فقد ظنّوا أنَّ زمن الذئاب التي تنزل من الجبال في الأيّام الباردة انتهى إلى غير رجعة، بعد انتشار العسكر في سهلنا. لكنّ أحد العجائز الذي بلغ من العمر عتيّاً قال يومها إن هذا ليس ذئباً، بل رجل مستذئب يعيش بيننا في السهل، دون أن ندري به، وسيظهر أيضاً في الليالي المقبلة ليسطو على البلدة من جديد، وعندها سيختفي النهر الغزير المياه.

– وهل صدّقوه؟

– لا، فقد سخر الأهالي منه بشدّة، وحتّى الآن لم يظهر هذا الرجل المستذئب – كما ادّعى – فهذا يحدث فقط في الحكايات. لكنّ العجوز بقي متمسّكاً بقوله حتّى لحظة وفاته. إنّه مختبئ بيننا، وسيظهر في زمن قريب، ليسطو على قطعان الماشية بكاملها.

وبمقدار اشتداد عويل الريح المختلطة برائحة الذئب الشرس ليلة ولادتي، كانت تزداد نوبات بكائي الضاجّة، إذ لم تنفع محاولات جدّتي في تهدئتي، وهي تهدهدني، كما لم تنجح تعاويذها السحريّة التي ألقتها في وجه الريح في تهدئتها، فيما كانت والدتي قد ذهبت في غفوة عميقة، بعد الإنهاك الشديد الذي نالها منّي في أثناء الولادة.

وبما أنَّ محاولات جدّتي لم تنفع في تهدئة أيٍّ منّا، أنا والريح، فقد بدأ الانزعاج المشوب بالقلق والحيرة والاضطراب يزحف إلى تجاعيد وجهها التي حفرتها الأيّام. هل لعلّة بي أم لنذير شؤم؟ وعندما فقدت صبرها الذي لطالما اشتهرت به، تنبّأت بانزعاج «حتّى لو أصبحت زعيماً... جنرالاً، فلن تكون مقبولاً ولا محبوباً».

لكن، بسبب الفوضى التي حدثت في تلك الليلة العاصفة، جرّاء المطاردة الفاشلة والبكاء الضاجّ اللذين ملآ فضاء القرية، فقد اختلطت النبوءة على الجيران، ولم يعودوا يدرون بمن كانت تتعلق، بي عندما أكبر، أم بالذئب الذي سيعود ذات يوم.

لا تفقه جدّتي في السياسة شيئاً سوى أن العسكر أخذوا زوجها وثلاثة من إخوتها في زمن بعيد إلى حرب في بلاد تقع وراء الجبال والضباب، ولم يرجع منها سوى الأخ الأصغر، الذي نجا بأعجوبة، بعدما فقد إحدى ساقيه، وروى لها الغرائب والعجائب من الأهوال التي عايشها هناك.

وبرغم بساطة جدّتي، اكتست نبوءتها العفوية أهمّية كبيرة في زمن ولادتي، فقد خرج آنذاك «الفرنجة» من بلادنا، وأخذت الدويلات الجديدة تتشكّل في المنطقة بعد ارتسام حدودها السياسية على الخرائط، وكانت بحاجة في الواقع إلى زعماء قادة، كما تحتاج القرية إلى مختار. ثمّ حدث كلّ

شيء فجأة، في وقت لم يفكّر فيه أحد من الناس بأن ذئباً – أو رجلاً مستذئباً – متوارياً خلف نجومه العسكريّة، قد يظهر بيننا، منتظراً ليلة ظلماء تعوي فيها الرياح، ليسطو فجأة على زريبة الغنم بكاملها، ويختطف البلاد.

وصلت جدّتي، بحدسها الشعبي العفوي البسيط، إلى حقيقة موضوعية مفادها أنّ «الزعيم الجنرال» الجديد – أي زعيم العسكر الثوري – وهو الذي سيقود في النهاية جميع الأغنام بعد أن يسطو عليها إلى حظيرة سلطته، لن يعود محبوباً في المستقبل القريب. وقد اعتمدت في نبوءتها على دلالات نفسيّة وطبيعيّة بسيطة: البكاء الضاجّ الغريب، عويل الريح المخيف، رائحة الذئب الشرس، والتشاؤم باختفاء نهر المياه الغزير. وقد استقرأتها دون أن تفكّر حتماً بمفهوم «زعيم العصابة» الذي سيتحوّل إليه مباشرة، وهو ما سيؤدّي بالضبط إلى فقدان شعبيّته.

– ومن هي الأغنام يا جدّتي؟ أسألها.

– هؤلاء أنتم، الذين ستركضون كالقطيع في المسيرات الجماهيريّة، وستصيحون: عاش عاش، ماع ماع.

إنّ محاولاتي البعيدة زمنيّاً لأكون زعيماً جنرالاً – برغم إخفاقاتها – جديرة بالحديث عنها. صحيح أنها كانت تمثل حالة فردية، لكنّها تعبّر أيضاً عن حلم يقظة جماعي لدى الكثيرين حولي.

في طفولتي المبكّرة، كانت صورة الـ«زعيم جنرال» تقترب من تلك الرومانسيّة الموجودة فقط على صفحات الكتب، وهو الذي كنت أتلبّس شخصيّته في البداية. لكن مع التقدّم في المحاولات والإغراق في رغبة الوصول إلى مستوى «زعيم جنرال» حقيقي، صرت أقترب أكثر فأكثر من مفهومه المتماهي مع «زعيم العصابة»، وهو الأكثر واقعيّة.

لا ترقى فكرة «قيادة» حافلة نقل الركاب إلى مستوى قيادة «الزعيم الجنرال القائد» لشعبه. لكن، على كل الأحوال، كانت «قيادة» – على الأقل بالمعنى اللغوي. هكذا، كنت في طفولتي المبكرة – تقريباً منذ الخامسة من عمري – أقود بثقة حافلتي الحديثة «البولمان»، بأناقتها، ولونها الفيروزي الصافي، وصوت محرّكها الناعم، وأسير بها على طرق عريضة ملوّنة، خمريّة، ورديّة، زهريّة، كحليّة، بنفسجيّة؛ طرق بتدرّجات ألوان قوس قزح، تمتدّ بعيداً بعيداً، وتمضي بي إلى بلاد الأحلام.

تلك الحافلة لم تكن سوى قدّاحة والدي العجوز، الذي فقد أسنانه ويدخّن بشراهة. فقد كان يشتري دخاناً رخيصاً ماركة «الجيش»، يرمي بعلبته الورقيّة السريعة التمزّق، ويصفّ السجائر بدلاً من ذلك في علبة معدنيّة من النحاس، مهترئة ومقشورة الطلاء. وهذه العلبة القديمة لم تكن تستهويني، بل القداحة الشهيرة المرافقة لها باستمرار، التي كانت تتحوّل إلى حافلة تجوب الطرقات الحالمة.

وكثيراً ما كان والدي يفتقد قداحته، فيصرخ مغتاظاً «هل يجب أن نبلغ الشرطة في كل مرة تُسرق فيها القدّاحة؟».

وتكتشف الشرطة في كلّ مرّة بعد طول تحقيق، أنّ القدّاحة سافرت بعيداً عن البلدة، اخترقت الجبال والسهول والأودية على طرق حالمة ملوّنة، لا يعرفها إلّا الابن، فتغضّ النظر عن هذه القضيّة المحليّة عائلياً، وتأخذ جزاء تعبها فرّوجاً مشويّاً، أو علبة حلويات.

وبما أنه لم يكن لدينا هاتف للاتصال بي من أجل إعادة الحافلة إلى البلدة، وبالتالي استرجاع القدّاحة، فقد كان والدي يضطرّ غاضباً إلى إشعال سجائره الثقيلة بكبريت ماركة «المدفع»، يشتعل بعود واحد مقابل خمسة بسبب صناعته الوطنيّة، بل وينفجر بعضها محرقاً أطراف الأصابع والشوارب. وقد أدّى سوء التسلح بهذه «المدافع» لإشعال «الجيش» إلى تقدّم العدوّ باتجاه البلدة، فقد كانت أعوادها لا تشتعل إلّا في حالات القصف إلى الخلف، ولإشعال الشوارب. وبسبب قذائف «المدافع» هذه التي تنطلق إلى الخلف فقط، متناسية العدوّ في الأمام، فقد ازدادت في أثناء فترة طفولتي الانقلابات العسكريّة في العاصمة، فيما بقي قسمٌ كبيرٌ من أراضينا محتلاً من قبل العدوّ «الغاشم» و«المغتصب».

أمّا الطرق الحالمة الملوّنة التي كانت تسير عليها حافلتي، فلم تكن إلّا الخطوط العرضيّة لبساط فلكلوري قديم، تقودها إلى بلاد بعيدة. وبما أنَّ البساط كان ممدوداً في «غرفة الضيوف» الباردة المقدّسة، التي لا تُفتح إلّا للضيوف الرسميّين، فقد كان عليَّ أن أتسلّل إليها سرّاً مع حافلتي بالرغم من البرودة والرسميّة اللتين تكتنفانها، فالصمت هناك كان يغريني.

وعندما تكتشفني والدتي هناك، كانت تقرّعني بشدّة قائلة: «ملأت الغرفة بدخان الحافلة وضجيج ركّابها، ماذا أفعل إذا ما حضر ضيوفي الرسميّون فجأة، ولم يجدوا متّسعاً للجلوس؟ فقد شغل المتنزّهون القادمون بالحافلة معظم الأمكنة بعدما أحضروا طعامهم معهم، وجلسوا يتناولونه تحت الأشجار قرب الساقية».

ما إن قاربت السابعة من عمري حتّى حصلت على درّاجة حمراء بثلاث عجلات، كنت أصول وأجول بها كفارس مغوار على سطح بيتنا الإسمنتي، المسوّر بجدار يبلغ ارتفاعه حوالى مترين. هكذا، تحوّلت إلى فعل أكثر واقعيّة من خلال «قيادة» الدرّاجة في بيتنا الإسمنتي، الناهض كقصر إقطاعي وسط بيوت طينيّة تحيط به، وما زالت سطوحها تُدحل بمداحل حجريّة بيضاء، كلّما هطل المطر. وبرغم حداثة بيتنا الإسمنتي، كان تنفيذ بنائه سيّئاً، وخاصّة سطحه الذي ارتسمت عليه تضاريس جبال، وأودية، وبحيرات.

على طرقات سطح بيتنا، كنت أمضي بدرّاجتي صعوداً وهبوطاً، وأدور بسرعة عند المنعطفات، وخاصّةً عند ذلك المنعطف الشهير الذي يقودني إلى أسفل الوادي، حيث تركد مياه

بحيرة عميقة، يقبع فيها وحش خرافي ضخم، ينفث فمه ناراً إذا ما أخرج رأسه من الماء، ويشعل الحرائق حوله، إلّا أنّني في كلّ مرّة كنت أقضي عليه بعد معركة دمويّة قاسية، وأقطّعه بسيفي الحادّ.

يحدث هذا كلما كنت أشعر بخطر الوحش على البلدة، فهو قد يخطف الأولاد في أيّ لحظة – لم يصل إدراكي وقتها إلى مستوى حكايات «الحسناء والوحش».

المهمّ أنني كنت أرجع بدرّاجتي صاعداً من الوادي بعد القضاء على الوحش، فأصل مُتعرّقاً منهكاً إلى طرف الدرج، وأرفع رأسي «قائداً» منتصراً، لأسمع عندئذٍ صراخ والدتي المزعج «لا تلعب على السطح، قد تصاب بضربة شمس، انزل إلى الغرفة، اجلس هادئاً واكتب وظائفك المدرسيّة».

تغمغم والدتي طويلاً، مسيئة إلى سمعتي البطوليّة بابتذال دعوتها للنزول والجلوس عاقلاً في الغرفة، فلم تكن والدتي تفهم ماذا كان سيحلّ بالبلدة الوادعة وبأطفالها إن لم أقضِ على الوحش الخرافي الشرّير في كلّ مرّة.

لم تكن قيادة الدرّاجة الطفوليّة سوى مرحلة وسيطة للجلوس خلف مقود سيّارة حقيقيّة، وكانت بالضبط شاحنة عسكريّة مخصّصة لحمل أجهزة اتّصال لاسلكي مخبّأة في حقلنا تحت أشجار الجوز ذات الأوراق الكثيفة.

فقد تسلّلت بضع سيّارات عسكريّة ذات صيف إلى حقلنا، لتختفي تحت الأشجار، خوفاً من أن تكتشفها طائرات العدوّ، فتقصفها وتدمّرها بوجود عيدان «المدفع» التي لا تشتعل.

كنت أقضي أيّام طفولتي في أثناء العطلات المدرسيّة الصيفيّة في تلك الحقول، غزالاً شارداً تحت تسمية «ناطور»، حتّى جاء العسكر واحتلوها، فتحوّلتُ إلى غزال غير شارد، وسُحبت منّي صفة الناطور، وصرت بحاجة إلى إذن عسكريّ يوميّ لدخولها، دون إمكانيّة التجوال فيها، فقد وقف الحرّاس على مداخلها، لا يسمحون للفلّاحين بالوصول إليها إلّا بعد التدقيق في طبيعة العمل الذي سينفذونه فيها، والأدوات التي سيستخدمونها، خوفاً من تسلل «الجواسيس» إلى معسكرهم الجديد:

– سنفلح الحقل اليوم.

– سنقتلع الأعشاب الضارّة.

– اليوم دورنا في السقاية.

وعندما قالوا ذات مرّة: «سنقطف الخيار والباذنجان».

فاجأهم العسكر: «لا لا لا، نحن سنجني المحاصيل كلها، فاتركوها لنا، لأنّها قضيّة تتعلق بدعم الأمن الوطني».

هكذا كان الفلّاحون يردّدون أمام العسكر، عندما يريدون الدخول إلى حقولهم، دون أن يجرؤوا على البوح برغبات من أمثال:

– أريد أن أغفو تحت شجرة الجوز.

– أرغب في أن أشرب الشاي المحضَّر بنار الحطب قرب الساقية، مع جيراننا فلّاحي الحقل المجاور.

– أودّ أن أغازل زوجتي في حقل الذرة.

وعلى الرغم من تعقيدات الحركة في حقل «عسكري»، استطعت كسب ثقة أحد الجنود الذين كانوا يقضون معظم نهارهم في النوم تحت ظلال الأشجار، دون أيّ عمل، فسمح لي بالجلوس خلف مقود سيّارة اللاسلكي الذي بالكاد تستطيع يدا طفل في التاسعة من عمره أن تحيط به. وما إن جلست حتّى انطلقتُ بالسيّارة مسرعاً على طرق جبليّة وعرة، محاذراً قصف الطائرات المعادية التي لا تستطيع مدافع العيدان غير المشتعلة إسقاطها. وقد اعترض طريقي مجموعة من جنود الأعداء، فتحوا الباب وأخذوا يمازحونني بسخرية تنضح من قهقهاتهم المجلجلة. سألوني بإلحاح:

– هذه الفلّاحة التي تقطف البندورة لها مؤخّرة عريضة ممتلئة، أين تخبّئون مثل هذا الجمال.

– هل تعمل النسوة وحدهنّ في حقل الذرة؟

وفي أثناء ذلك، امتدّت يد قاسية مثلومة لتداعب فخذي من فوق البنطال، ويسألني صاحبها: «أخبرني، كيف تحلبون الأبقار؟».

قفزت عندئذٍ مذعوراً من السيّارة العسكريّة، تاركاً إيّاها لقصف الطائرات المعادية، وابتعدت عنهم مسرعاً، وأنا أبحث عن قدّاحة والدي ودرّاجتي الثلاثيّة العجلات... ومن وقتها، تسلّل إلى قلبي كره كلّ أنواع العسكر؛ أولئك الذين نظروا إلى مؤخّرة جارتنا، ولمسوا فخذي الصغيرة، وأولئك الذين اغتصبوا حقلنا دون أن يستطيعوا إسقاط طائرات العدوّ.

استطعت متأخّراً اكتشاف بعضٍ من أسباب عدم كوني زعيماً جنرالاً قائداً، وهو غياب مؤهّلات «قيادة» سيّارة حقيقيّة، لأنّني ببساطة لم يكن لديّ واحدة. فقد بقيت فقيراً طوال عمري، ولم أستطع أبداً شراء سيّارة تذهب بي إلى بلاد الأحلام عبر طرق شاعريّة، ولا امتلاك منزل يؤويني كي أحلم فيه بالسيّارة.

ولكنّ مفهوم «القيادة» المرتبط بـ«الزعيم الجنرال القائد» أسمى من مفهوم «قيادة سيّارة» التي جرّني إليها المعنى اللغوي، فهو حتّى لا يقودها، بل لديه سائق شخصيّ، بل أكثر من سائق. والحقيقة، حتّى يكون الشخص زعيماً جنرالاً قائداً، عليه أن يمتلك موهبة أسمى، موهبة قيادة المعارك، والمعارك الحقيقيّة تعني القدرة على القتل وسفك الدماء، دون خوف أو وجل.

هكذا، أخذت بالتحوّل من القدّاحة والدرّاجة إلى المعارك الدمويّة... أقف عند بزوغ الشمس على ظهر مركب، يتهادى بسكون على صفحة مياه البحر، مراقباً بحذر وتوجّس ظهور الخطر في أيّ لحظة. فجأة، تظهر سفينة القراصنة، وكأنها انبثقت من لجّة البحر، يرفرف عليها عالياً علمها الأسود، المزيّن بعظمتين متقاطعتين عليهما جمجمة.

يهيج البحر ويموج، ويكاد يقلب السفن، وفي أثناء ذلك يمسك القراصنة بأطراف الحبال، يتأرجحون بها في الهواء، ويقفزون بها إلى سفينتي لسلب كنز المجوهرات منها. تبدأ معركة حامية الوطيس معهم، أقفز هنا وهناك كالشيطان، حاملاً سيفي بيد، وغدّارة قديمة يخرج منها دخان البارود باليد الأخرى. أطعن الصدور، أبقر البطون، أقطع الأيدي والرؤوس، أرمي الأشرار أحياءً إلى أسماك القرش. ثمّ أحاصر رئيس القراصنة، أقلع عينه الثانية، وأقطع يده الثانية، وأحطّم قدمه الثانية، وأرميه في البحر. وفي النهاية، أنقذ الأميرة الحسناء، والمساجين المساكين المقيّدين بالسلاسل من قبو سفينة القراصنة التي تأخذ صواريها وأشرعتها بالاشتعال، ثمّ تغطس غارقة في قاع البحر. تقبّلني الأميرة الحسناء عرفاناً بجميل إنقاذها، فيما يأخذ المساجين بتنظيف سفينتي من القتلى والدماء... فأنا زعيم جنرال بطل.

يشكّل سطح بيتنا الإسمنتي بسوره المرتفع مترين تقريباً، المكان المناسب لتمثيل السفينة، حيث تجري المعركة مع القراصنة. لا أدري من كان يشاهدني من الجيران، وأنا ارقص رقصة الموت المجنونة على السطح، حاملاً عصاي ملوّحاً بها كالسيف، ويقول: «ماذا يفعل هذا المجنون الصغير، يقفز هنا وهناك كالأبله، ويكاد يقع عن السطح».

لكنّي لا آبه لذلك، المهمّ أنني أنقذت الأميرة، وأحرقت سفينة القراصنة... فأنا الزعيم الجنرال، القائد الأوحد، المنتصر دائماً.

تنتهي موضة أفلام القراصنة التي تعرضها سينما البلدة، ويأتي دور أفلام أبطال الكاوبوي المتحضّرين الأخيار، الذين يصطادون الهنود الحمر الهمجيّين الأشرار، وتتحوّل عصاي الشهيرة من سيف يقارع القراصنة إلى بندقيّة تقنص الهنود.

أركب حصاني الأبيض وأطلق النار على الهنود الحمر، وهو يعدو بي سريعاً، ومع ذلك أصيبهم بدقّة، يسقط منهم واحد، اثنان، عشرة، مئة... ثمّ أختبئ وراء سور الحصن الذي أقيم على الحدود مع أراضي هؤلاء الهمجيّين. يهاجمون الحصن، وهم يولولون بأغاني حربهم، ويحاولون إشعال النار فيه. أطلق النار من جديد، يسقط واحد منهم عن حصانه، اثنان، عشرة، مئة... يلعلع صوت إطلاق النار من بندقيتي التي لا ينفد رصاص مخزنها الصغير، يتساقطون كالذباب حتّى ينتشي الخيال... فأنا، الزعيم الجنرال، القائد الأوحد، المنتصر دائماً.

ثمّ تأتي موجة أفلام من كلّ الدنيا – من روسيا وأميركا – تصوّر جميعها الصراع مع النازيّين الأشرار الذين كادوا يكتسحون العالم ويدمّرونه.

أصبح بطلاً طويل اللحية، مرتدياً ثياباً مهترئة، فأنا هارب من معسكر اعتقال نازي، حيث يُحرق الأحياء في المواقد. يلاحقني الجنود النازيّون بكلابهم البوليسيّة وصراخهم الوحشي، لكنّني أضلّلهم بالسير في جدول ماء، فيضيع أثري ولا تكتشفه الكلاب. وما إن أحصل على بندقيّة رشّاشة – بعكس بندقيّة أفلام الكاوبوي «أم طلقة واحدة» – حتّى أحصدهم كسنابل القمح، فيرتمون قتلى بالعشرات، ثمّ بالمئات، دون أن تنفد الطلقات منّي.

أتحوّل تالياً إلى جيمس بوند، قاهر الجواسيس، الذي تسير سيّارته تحت سطح الماء، ليختفي عن عيون الأعداء، ثمّ إلى بطل هندي – ليس هنديّاً أحمر شرّيراً بالطبع، بل أولئك الأبطال من الهند الذين يرقصون ويبكون طوال الوقت – بطل يفتك بعصابة كبيرة من الأشرار، وينقذ البطلة، وهو يرقص ويغنّي ويقاتل في الوقت نفسه، فيما الجمهور يسكب الدموع بغزارة، بحيث تتبلّل أرضيّة صالة السينما. كل هذا وأفلام الكاراتيه لم تكن قد انتشرت بعد، فنجا الكثير من الأشرار من قبضتي الحديديّة، ورفساتي الهوائيّة.

هكذا، كنت أتقدّم خطوة خطوة نحو بناء شخصيّة الزعيم الجنرال القائد، البطل المنتصر، التي تنبّأت بها جدّتي، وذلك من خلال العنف والقتل الذي مارسته بمتعة – وإن كان ذلك على مستوى الخيال. المهم أنَّ الرغبة بالقتل موجودة، وستأتي الفرصة الواقعيّة لاحقاً، فقد سفكت دماء قراصنة، وهنود حمر، ونازيّين، وجواسيس، وعصابات هنديّة، من أجل التقدّم في مساري. وفي أثناء ذلك، أنقذت جميع حسناوات العالم من أيدي هؤلاء الأشرار، فأصبحن ملك رغباتي.

أستيقظ أنا وأهلي، والجيران، ذات صباح صيفي هادئ في بلدتنا على صخب موسيقى الجيش النحاسيّة الاحتفاليّة في الراديو، الذي يضجّ عالياً في غرفة الجلوس. نتحلّق على بساط أجرد ممزّق حول صينيّة قشّ، يتوزّع عليها طعام الفطور: لبنة، وجبنة، ومكدوس، وزيتون، وزيت وزعتر، مع شاي. نسمع طبولاً، وطبلات، وأبواقاً، وبويقات، وزمامير، ودفوفاً، وصنوجاً، وربابات تعزف لحن انتصار عسكري، يسير على إيقاع أحذية الجنود السوداء الثقيلة، ترافقهم أحصنة، وفيلة، وتنانين، وديناصورات، تنفث جميعها ناراً مع أنفاسها.

يهتز الراديو بعنف، بحيث يكاد يقفز من مكانه ليعلن المذيع الجهوري الصوت البيان رقم 1:

«باسم الشعب، وبناءً على مقتضيات المصلحة الوطنيّة العليا، يسيطر العسكر الوطني الطالع من نير الاستعمار على مبنى الإذاعة، وقيادة أركان الجيش، والقصر الرئاسي، والمراكز الحدوديّة، والبنوك، ومحطّات الباصات، والمطاعم الشعبيّة، ودور السينما، وأقبية الخمّارات،

ومحالّ ألعاب الأطفال، وأعشاش الحمام والعصافير، ومراكز الأحلام في أدمغة المواطنين... وجميع الأماكن التي يمكن أن تحاك فيها المؤامرات والدسائس ضد قيادة الجيش الوطنيّة.

وبناءً على مقتضيات المصلحة الأمنيّة العليا، يحتلّ العسكر الوطني السطوح، وغرف النوم، والحمّامات، المطلّة منها على المناطق الاستراتيجية المذكورة أعلاه، والتي يمكن أن ينفذ منها الأعداء المارقون مخططاتهم. وبالتالي، يُمنَع على المواطنين الشرفاء في الأماكن المذكورة أداء طقوس نشر الغسيل، وممارسة الجنس، والاستحمام، ريثما تُدعّم مواقع الدولة الوطنيّة، وبدلاً من ذلك عليهم أن يتعاونوا معنا في رصد الانهزاميّين المدسوسين.

ملاحظة: يُمنع التجول الليلي في مناطق الأحلام في الرأس حتّى إشعار آخر».

تستمرّ الموسيقى الحماسيّة في المذياع، هي وفحيح أحصنتها، وفيلتها، وتنانينها، ودیناصوراتها، حتّى وقت الغداء. نتربّع على بساطنا الأجرد حول صينيّة القش، وعليها برغل بالعدس مع سلطة بندورة وخيار، وبصل يابس ومخلّلات. فجأة، يخفت ضجيج الموسيقى، ليحلّ مكانها صوت خشخشة تتقيّأ صدى نحاسياً، ما تلبث أن تعلو أكثر فأكثر. إنها خشخشة أوسمة عسكريّة تعلن قدوم الزعيم الجنرال البطل المنقذ، الذي أخذ على عاتقه تخليص البلاد من هيمنة الخونة المتوارين وراء حجب الرياء والخداع، كما يقول المذيع.

يقف المذياع باستعداد احتراماً للكلمة التاريخية التي سيلقيها الزعيم الجنرال المبجّل، ويخرج من منتصف جهاز الراديو طرفا شنبين، يذهب واحد باتّجاه اليمين، والثاني باتّجاه اليسار، يمتدّان في الغرفة، يعرّشان على الجدران، ونجلس في ظلّهما الوارف نحن المواطنين المستمعين، صغاراً وكباراً.

يعلن الزعيم الجنرال في خطبة حماسيّة واثقة: «باسم الشعب المسكين، أنقذنا البلاد من الفوضى. مبادئنا وسطيّة، بين اليمين واليسار، سيروا إلى الأمام ولا تهابوا العدوّ».

البيان رقم 2: «نعدكم بتحسين الأحوال والأوضاع المعيشيّة السيئة، ثروات الوطن لأبناء الوطن».

البيان رقم 3: «بقوّة الشعب وآماله، نهدّد قوى الثورة المضادّة التي تقف بوجه المسيرة المُؤيّدة. سنحطمها على صخرة الصمود».

البيان رقم 4: ما إن يزعق الزعيم الجنرال «سندمّر...»، حتّى ينقطع فجأة البثّ في الإذاعة، بينما نجلس إلى العشاء حول صينيّة القشّ: بطاطا مسلوقة مقطّعة ومغمسة بالزيت.

أستيقظ أنا وأهلي، والجيران، ذات صباح جديد، على موسيقى الجيش الحماسيّة، التي سرعان ما تخفت شيئاً فشيئاً قبل أن نتربّع حول طعام الفطور، ويحلّ مكانها رنين أوسمة عسكريّة بصدى

ذهبي، معلنة قدوم زعيم جنرال أكثر ألقاً. يخرج من المذياع طرف شنب باتّجاه اليمين فقط، ويمتدّ في الغرفة باتّجاه صحراء الذهب الأسود.

يصدر من المذياع صوت جهوريّ قويّ، معلناً «عفواً أيّها الشعب المحبوب، هذا ليس البيان رقم 4 العفن، بل البيان رقم 1 المبارك: لقد عملت الطغمة العسكريّة السابقة على خيانة آمال الشعب الذي كاد يقع في حبائل دسائسها. لقد انبطحت هذه الطغمة كاشفة عن مؤخّرتها أمام الشيوعيّة المنتصبة بقوّة في مستنقعات الجوار النتنة».

وما إن يحين وقت الغداء حتّى يعلن الراديو البيان رقم 2 المبارك... «عفواً أيّها الشعب السموح العطوف، هذا ليس البيان رقم 2 السيّئ الذكر، بل البيان رقم 1 الاستثنائي المقدّس». يخرج طرف شنب من الراديو باتّجاه اليسار، ويمتدّ في الغرفة نحو جبال الثلج، ويأتي صوت أجشّ مع خلفيّة لقرقعة جنازير دبّابات: «لقد عملت المجموعة المتآمرة السابقة على تدمير روح الشعب، وجعلته ينبطح كاشفاً عن مؤخّرات أفراده جميعاً أمام عباءات الرجعيّة، التي تخفي تحت غلالاتها الشفّافة انتصابات خطيرة، تستمدّ قوّتها من البترو دولار الذي يغذّيها باستمرار بالأطعمة المعلبة والكوكاكولا».

تتوالى البيانات العظمى رقم 1 في أوقات الفطور، والغداء، والعشاء، فيما لا نزال جالسين، أنا وأهلي، والجيران، على البسط الجرداء المليئة بالثقوب، متحلقين حول صينيّة القشّ.

كانت كلّ تلك الانقلابات العسكريّة كزوبعة في فنجان، قبل أن يأتي عصر الثورة المجيدة. من وقتها أخذنا نتناول الطعام مرّتين بدلاً من ثلاث مرات، بسبب سياسة شدّ الأحزمة العظيمة.

يدوّي البيان الجماهيري رقم 1، معلناً هذه المرة قيام «تحالف اتحاد القوى الثوريّة الشعبيّة الوطنيّة المؤمنة بالكفاح المسلح» باحتلال الإذاعة والتلفزيون – كان قد أصبح لدينا بثٌّ تلفزيوني بالأسود والأبيض في بداية الستينيّات –، مع تركيز السيطرة على مناطق الأحلام المنفلتة في الرأس.

يتدافع الآن زعماء جدد لإعلان البيان الجماهيري رقم 1، هذه المرة على شاشة التلفزيون: منظّرون ثوريّون، قادة ميليشيات، زعماء عمّاليّون، فلّاحون مناضلون، نساء قياديّات، طلاب، وشبيبة... جميعهم زعماء ثوريّون قادمون على أكتاف الجماهير الغفيرة المناضلة، يعلنون «الثورة على الإقطاع، والرجعيّة، والرأسماليّة، والصهيونيّة، والاستعمار (الذي لم يكن قد تطوّر بعد إلى مرحلة الإمبرياليّة)، والثورة على ياقات البورجوازيّين والإقطاعيّين الأنيقة، وأثواب سهرات زوجاتهم، وملابس نوم عشيقاتهم».

وتبدأ الإذاعة والتلفزيون ببثّ الأغاني الوطنيّة الحماسيّة: «من قاسيون أطلّ يا وطني»، و«والله لاتطوّع بالحرس القومي»، و«لبّيك يا علم العروبة»، و«سأحمل روحي على راحتي».

يتسارع الزعماء الثوريّون لمدّ أيديهم إلى غرفة جلوسنا عبر شاشة التلفزيون، من أجل مصافحة عائلتي، والجيران الذين ليس لديهم بعد تلفزيون، فأتوا يتفرّجون عندنا. تتزاحم عشرات الأيادي، وهي تتطاول إلينا، نحار في كثرتها، وخاصّة جدّتي الغافية في زاويتها، فيما والدي لا يجد وقتاً، وهو يحاول باستمرار إشعال سيجارة «الجيش» بكبريت «المدفع» دون نجاح، بعدما أضعتُ قدّاحته مع أحلامي الطفولية إلى الأبد.

تربكنا كثرة الأيادي الممدودة، أيادٍ كبيرة، صغيرة، مفلطحة، مثلومة، ناعمة، جافّة، قاسية، أيادي زعماء وزعماء لا تنتهي، تُحدث فوضى واضطراباً في غرف مشاهدة التلفزيون في البلدة، فيحدث فوضى واضطراب في الوطن. نطلب نحن الجماهير البسيطة أن يدعونا بسلام، نودّ أن نتفرّج على مسلسلات فكاهيّة في التلفزيون بدلاً من ذلك، على مسلسل «حمّام الهنا» لغوّار الطوشة، ومسرحيّة «كبريت بمدفع» لمحمود جبر. يغلق والدي جهاز التلفزيون، يقطع عنه التيّار الكهربائي، لكنّه لا ينطفئ. على مدى أربع وعشرين ساعة في النهار، يبثّ بيانات تأييد، وخطباً حماسيّة، وأغاني وطنيّة، وموسيقى فرق الجيش الحماسيّة، وكلّها تمجّد المسيرة على درب بناء الوحدة، والحرّية، والاشتراكيّة.

كلّ تدريباتي الأولى على القسوة والعنف كانت استعداداً لأصبح زعيماً جنرالاً. كلّها جرت في أحلام اليقظة، وكان القتلى مجرّد أعداد وهميّة، تنتشي المخيّلة بقتلهم. كان لا بدّ من الانتقال من حلم اليقظة إلى الواقع، من الخيال إلى القتل الحقيقي، وهو ما لا يمكن تنفيذه إلّا عندما يكون المرء زعيماً جنرالاً حقيقيّاً، فهو الوحيد الذي يقتل دون أن يحاسبه أحد على فعله، بل يقتل ويحاسب الآخرين على فعله هو... وهذا التحوّل حدث لديَّ مع فترة الانقلابات العسكريّة، التي تُوِّجَت بانقلاب الثورة المجيدة.

ذات مرّة، وأنا متمدّد على أرض الحقل في ظلّ شجرة زيتون، قرصتني نملة سوداء في يدي وآلمتني. كانت نملة من ذلك النوع الكبير المسمّى «جمل النمل»، الذي يسطو على أعشاش النمل الصغير، فينهبها ويدمّرها. ها هي فرصتي كي أقتل حقيقة. جعلتها ضخمة كبيرة بقدر الوحش الخرافي الذي يسكن البحيرة الواقعة على سطح بيتنا، ثمّ سحقتها بين إصبعيَّ بسهولة. لقد انتصرت عليها.

استمرأت العمليّة، فقتلت نملة وحشاً ثانيةً، وبدا أن لا أحد يحاسبني على قتل نملتين. ها أنا أخطو بثقة نحو امتلاك صفة القتل دون أن يحاسبني أحد، بل سيصفّق الجميع لانتصاري، إذ إنّني خلّصتهم من وحشين.

تخيّلت نفسي زعيماً جنرالاً قائداً، وبدأت بارتكاب مجزرة حقيقيّة، فقتلت من النمال الوحوش عشرة، مئة، مئتين، ألفاً... بل شرعت أحفر عشّ النمل في الأرض، بحثاً عن الملكة التي تضع

بيوضاً تفقس الوحوش. حفرت حوالى نصف متر، خرّبت أنفاقاً، وممرّات، وحواجز، ومخازن أنشأها النمل، وقتلت الكثير منها. لكنّني، لم أصل إلى الملكة، بل وجدت الآلاف والآلاف من النمل كلّما غصت في الأرض، فتوقفت عن القتل بعدما شعرت بالملل والنزق والعبثيّة من هذا الفعل.

بعد ذلك، كان لا بدّ من أن أفتك بحشرات غير النمل، حشرات مخيفة مهدِّدة لا تستكين لقتلها بسهولة، وذلك على طريق التدريب المتقدّم للوصول إلى نفسيّة زعيم قاسية، واثقة بنفسها.

فكّرت بالدبابير، تلك الحشرات الحمراء المزيّنة بحلقة صفراء مع إبرة مخيفة تحمل سمّاً زعافاً، دبابير عملاقة طائرة تحرم الناس البسطاء من تناول عناقيد العنب الذهبيّة، مهدِّدة من يقترب منها بلسعه. إلّا أنّني سرعان ما تراجعت، وذكرى لسعة أحدها في ساعدي قرب عريشة العنب لا تفارقني. فكّرت في الأفاعي، لوهلة فقط، وتراجعت بسرعة، إذ إنّ مجرّد تذكّر ملمسها يجعلني أرتعش خشية منها.

وقد رافقني طويلاً في صغري شعور غريب بأنّ جسد المرأة يشبه جسد الأفعى بطراوته ولدونته، ولوقت طويل كنت أفكّر أنني إذا ما لمست عري امرأة وعصرته، فقد تنتفض لتنهشني بفمها، ثمّ تلتفّ عليَّ بجسدها البشري الذي يتحوّل إلى جسد أفعواني مهدّد.

بعد التهرّب من مواجهة الدبابير والأفاعي، أقلعت عن التفكير بقتل حيوانات – ما عدا النمل – وقرّرت اختصار المراحل لتقوية ساعديَّ في العراك مع أندادي من الصبية، فمن السهل مقارعتهم والإيقاع بهم أرضاً، ثمّ الوقوف منتصراً بعد أن أضع قدمي على صدر المهزوم المتمدّد أرضاً أمامي.

فكرت أنّ عليَّ البدء بابن عمّي المشاكس ياسين، الممزّق البنطال والأشعث الشعر دائماً، والذي يقاربني في السنّ، فهو يزعجني بسخريته الماكرة، يُعيّرني بأنّني ابن البلدة المُترف الذي لا يعرف الحقول إلّا صيفاً، بينما هو مقيم فيها صيفاً وشتاءً في بيت أهله الطيني، إلى جانب زريبة الأغنام، التي كان عليه أن يأخذها كل يوم إلى المرعى صباحاً، ويحلبها مساءً.

وسرعان ما جاءت الفرصة عندما حاول ياسين أن يسخر منّي كالعادة أمام جمع من الصبية في الحقل، ففوجئ بنهوضي وتوجّهي إليه بثقة، فيما كنت أقول له بلهجة زعيميّة: «انتظرني يا كلب، سألقّنك هذه المرّة درساً قاسياً أمام الجميع».

لم يعلم ياسين بخططي كي أصبح زعيماً جنرالاً عندما قرّرت التوجّه إليه، ولم أدرك في المقابل أنّ حياة الرعي في سفح الجبل قد قوّته، وأنه أصبح يتسلّى بقتل الدبابير والإمساك بالأفاعي، دون خوف وبسهولة. ولذلك، ما إن تقدّمت بثقة لمعاركته ورميه أرضاً حتّى حاول الابتعاد، إذ فاجأه تقدّمي نحوه على غير العادة، لكن قبل أن يبتعد، كانت يده قد وصلت إلى وجهي بلكمة...

وإلى هنا كانت الحادثة طبيعيّة، فأنا على الرغم من لكمته كنت واثق الخطوة في تقدّمي، لكن لم أدرِ وقتها أنّ شيئاً ما يقف لغير مصلحتي – هل هو القدر الذي تحالف ضد نبوءة جدّتي في اشتراطاتها الطبيعيّة والنفسيّة، أم هي نظريّة الاحتمالات العلميّة؟ فاللكمة الصغيرة، البسيطة، المتناهية باللامعنى، أصابت أنفي، الذي سرعان ما سال الدم منه مدراراً، وملأت خيوطه قميصي الرمادي الفاتح ببقعه. ويا للسخرية، سرعان ما أصبحت موضوع تندّر وسخرية بين الأنداد من الصبيان في الحقول.

لقد هزمني ياسين، وأنا لم أبدأ المعركة معه بعد، ما جعله يثبت في مكانه، فيما أنا مرتبك لا أعرف ما أفعل لإيقاف سيلان الدم من أنفي.

كان لحادثة ياسين الأثر السيّئ على خططي في السير قدماً نحو بناء شخصيّة الزعيم الجنرال، إذ غالباً ما ستتكرّر الهزائم قبل أن تبدأ معاركي، مع أنّني كنت أحسب مقدَّماً نقاط ضعف ضحيّتي المفترض هزيمتها، فإذا بي أنقلب أنا إلى الضحيّة المهزومة. فمرّة تنالني لكمة شديدة على فكّي، ومرّة على رأس معدتي، أو أنال رفسة في أسفل بطني، وكلّها تقع مصادفة خارج توقعاتي. في النهاية قرّرت الإقلاع عن هذه المواجهات، فآثارها محبطة على خطى تشكّل شخصيّة الزعيم الجنرال، القاسية الواثقة من نفسها.

عندما بلغ عمري نحو أربعة عشر عاماً، سمعت بإنشاء نادٍ رياضي في بلدتي، لألعاب الدفاع عن النفس، أو ما يُسمّى بالجيدو والكاراتيه. قلت في نفسي إنَّ الفرصة جاءت، كي أستدرك خلل تدخّل القدر أو نظريّة الاحتمالات ضدّي بفكرة ذكاء القوّة وتوجيهها.

ذهبت إلى النادي، وقابلت الإداري الذي فاجأني بسؤاله: «في أيّ من الدورات ترغب في التسجيل، الكاراتيه أم الجيدو؟».

أجبته بثقة «في كلتا الدورتين معاً، كاراتيه وجيدو، فأنا أرغب في تعلم القتال بكلّ أشكاله».

نظر إليَّ مستغرباً: «لن تتحمّل، ثمّ لكلّ لعبة قواعدها ومهاراتها المختلفة التي يتآلف معها الجسد، عليك أن تختار!».

رددت عليه بانزعاج: «هذه مشكلتي وليست مشكلتك، ثمّ لو كانت لديكم دورات كونغ فو، وسومو، لسجّلت فيهما أيضاً».

وهكذا، ما إن بدأت الدورات حتّى أخذ أحد مدرّبي الكاراتيه يعلّمني اللكم والطيران في الهواء، ومدرّب الجيدو يعلمني العراك والانبطاح أرضاً، وهما يقولان لي: «تخيّل أنّك تقاتل عدوّاً وهميّاً وأنت تنفّذ التمارين».

وما إن مرّت فترة قصيرة من التدريب الفردي حتّى طلبت متلهّفاً الانتقال إلى تمارين الاشتباك الفعليّة مع عدوّ «حقيقي». وعلى الرغم من اندفاعي، أخذت أتلقّى اللكمات والرفسات بالكاراتيه،

فيصيبني دوار شديد مع كلّ واحدة منها، ويُلوَّح بي وأُرمى أرضاً في الجيدو، فتدور غرفة التدريب واللاعبين معي في الفضاء، فلا أعرف من أصابه الدوار، أنا أم الغرفة. وفي كلّ الأحوال، لم أستطع هزيمة غريمي، بل كان عليَّ أن أنهض، وأنا أشعر بالدوار والغثيان، وأحيّيه بروح رياضيّة.

كنت متأكداً من أنّ الزعيم الجنرال يضرب ويسفك الدماء، لكنّه لا يحيّي ولا يعتذر، ما جعلني أسخط على نفسي لاختياري هذه التّرهات الرياضيّة القتاليّة، التي كانت لا تعني سوى إضاعة الوقت الثمين في السير نحو الهدف المنشود. وبدأت الاعتقاد جازماً بأن الزعيم الجنرال الحقيقي لا يمارس رياضة الكاراتيه والجيدو، بل إنّ مجموعات الحماية التي تحوم حوله هي التي تفعل. أما هو، فيكفيه أن يمتلك نفسيّة وحشيّة لا تهاب سفك الدم، يعطي الأوامر بالقتل، دون الحاجة إلى قتل الدبابير، والإمساك بالأفاعي، والتدرّب على الكاراتيه والجيدو.

ومرّ زمن تكاثرت فيه أيدي الزعماء الثوريّين الممتدّة إلى غرفتنا، أنا وأهلي، والجيران، عبر جهاز التلفزيون، متنازعين على مصافحتنا، دون أن يتركوا لنا وقتاً لتناول وجبة واحدة وحيدة في يومنا. أصبحت الأيدي بالمئات بدلاً من العشرات، بحيث لم تعد تتّسع لها الشاشة الضيّقة، برغم أنها كانت ترمز للبلد باتساعه كله، تنحشر فيها وتتدافع أكثر فأكثر حتّى فاضت عنها.

وفي أثناء تنازع الأيدي على المصافحة، انزلقت منها على أرضية الغرفة الرموز الثوريّة المقدّسة التي كانت تحملها، من الكتيّبات الحزبيّة، والبنادق، والمطارق، والمعاول، والرايات. ارتمت أمامنا، فيما لا نزال ننتظر مسلسلاً كوميديّاً، ونحن جالسون على بسط رماديّة كالحة مليئة بالثقوب، نشرب الشاي.

وبدلاً من إعادة التقاط الرموز الثوريّة من أرضيّة الغرف، كي لا تداس بالأقدام وتُدنَّس، التحمت الأيدي بعراك شديد في ما بينها. تكوّرت قبضات قاسية، وأكفّ خشنة، وبرزت أظافر طويلة حادّة من الأيدي الناعمة، وكلّ منها يصرخ: «اصمت وابتعد عن طريقي، أنا الزعيم الأوحد، أنا الزعيم القائد».

ملأت الاشتباكات الشاشة فوضى وشواشاً وهي تتنازع بوحشيّة، ممزّقة بعضها بعضاً على إيقاع الأغاني الوطنيّة الحماسيّة. ومع أنّ التلفزيون كان لا يزال يبثّ في منتصف الستينيّات بالأسود والأبيض، كانت الدماء التي نزفت من الجروح عبر الشاشة حمراء، حمراء قانية، تبشّر بفجر جديد من المعارك الدامية القادمة.

صرخت والدتي علينا تنهرنا: «انهضوا بسرعة عن البساط، أريد أن أرفعه حتّى لا يتلوّث بالدماء النازفة من الشاشة، يبدو أنّ هذه الثورات ستوسّخ بيوتنا النظيفة».

وأخذنا ننهض عن البسط المهترئة مراضاة لوالدتي فقط، أنا وأبي وإخوتي، والجيران، ولكن الدماء أخذت تسيل على أرض الغرفة بكثافة حتّى إنَّها غطت الرموز الثوريّة التي ملأتها. اضطررنا إلى الجلوس على كراسيّ قش صغيرة عتيقة، وقد رفعنا أرجلنا الحافية عن أرضيّة الغرفة، وتركناها متأرجحة في الهواء حتّى لا تتلوّث بالدماء. ومع ذلك لا نريد مغادرة الغرفة، إذ ما زلنا ننتظر مسلسلاً كوميديّاً في التلفزيون.

فجأة، توقّف البث لعدّة ساعات، لكن دون أن تنقطع أصوات موسيقى الجيش الحماسيّة القديمة، فتذكّرنا أيّام البيانات العسكريّة القديمة رقم 1 في الراديو، وجلسنا ننتظر متوجّسين بريبة حركة عسكريّة على التلفزيون، وشنبات جديدة تُعرِّش في الغرف.

ولم يطل الانتظار كثيراً حتّى جاء صوت معدني بصدى مخربش يقرقع من الشاشة التي كانت تبثّ صورة شبح غير واضح المعالم: «أيّتها الجماهير الغفيرة، والغفورة، والغافرة، وغير المغفور لها، نحن نعلم أنّكم تنتظرون بكلّ الشوق البيان رقم 1، لكننا سنقوم بكل محبة بإذاعة البيان رقم 15.

فنحن لا نمثل انقلاباً عسكريّاً قديماً، على الرغم من أننا من العسكر، ولسنا ثورة جديدة، بل نحن استمرار لمسيرة الثورة المجيدة. لكن بسبب ما اكتنفها من فوضى شديدة وابتعاد عن الينبوع، فقد أخذنا على عاتقنا العودة إلى البدايات، دون تشويش الانتهازيّين المراوغين الذين عملوا على حرف التيّار الثوري من أجل تحقيق مصالحهم ومآربهم الشخصيّة.

والبيان رقم 15 تاريخيّ، لأنّه يمثل الصفاء والنقاء، المستلهمين من الينبوع، وسينال من اقترف الخيانة بحق الثورة جزاءه الرهيب».

ينتهي البيان التاريخي، دون أن نسمع شيئاً عنه، وتعود الموسيقى الحماسيّة للتصاعد، لنُفاجأ نحن المحتشدين أمام شاشة التلفزيون برؤية الأيدي، التي كانت تحاول أن تصافحنا سابقاً، ثمّ أخذت تتنازع، قد أخذت تتساقط على أرض غرفنا، مقطوعة بوحشيّة من رسغها. تتكوّم أمامنا بعضها فوق بعض، دون أن تبدي أيّ ارتعاش أو تصدر منها أيّ صرخة، أيدٍ كبيرة، وصغيرة، ومفلطحة، ومثلومة، وناعمة، وجافّة، وقاسية، تزيّنت كلها بالأحمر، بعضها مقطوع الأصابع، والبعض الآخر ممزق الجلد بزوائد مُدماة عند الرسغ، تكدّست كلها مختلطة بدمائها، فامّحت الحدود بين كتلها اللحميّة.

تظهر على شاشات تلفزيونات البلدة – إذ أصبح لدى جميع الجيران أجهزة تلفزيون – صورة عشرة جنرالات، يجلسون وراء طاولة على صفّ واحد، ينسدل عليها علم الثورة كبيراً وعريضاً، بحيث يغطيها بالكامل. بدت سترات بذلاتهم مرصّعة بالأوسمة العسكريّة التي غمرت مساحات

القماش كلها بتعبيراتها الوطنيّة. وقد عقد كلّ واحد من الجنرالات علماً على رقبته، تركه ينسدل على صدره، فيما تزيّنت الخلفيّة الجداريّة بعلم كبير جداً، غمر الجالسين كلهم برموزه الوطنيّة.

توحي وجوه الجنرالات بالصرامة بسبب جسامة الموقف الثوري الذي يمثلونه، إلّا أنّه بالرغم من السحنات القاسية لها، افترت الشفاه عن طيف ابتسامات، لكن دون أن تنفرج كثيراً، حتّى لا تذهب بالوقار العسكري. ومع أن الأيدي كانت ملوّثة ببقع الدم، لم يحاولوا إخفاءها، فقد ضرّجوها من أجل الثورة.

يكسو الهدوء والوقار الوجوه جميعها، ما عدا ذا الوجه القاسي والرأس المفلطح، الذي يجلس في أقصى اليمين، إذ تبدو ابتسامته غريبة، فيها من الريبة والمكر أكثر ممّا توحي بالانتماء إلى هدوء المجموعة ووقارها.

يقرأ الجنرال النحيف ذو الرأس المتطاول الجالس في المنتصف البيان رقم 16:«نحن مجلس قيادة الثورة، جند الثورة الأوفياء، قرّرنا إعادتها إلى صفاء الينبوع ونقائه بإخلاصنا لها».

تصفيق شديد من قبل الجنرالات.

يستمرّ: «إنّ المثقفين، والميليشيات، والعمّال، والفلّاحين، والشباب، وأشباههم من المدنيّين الفوضويّين، لا يعرفون النظام ولا الانتظام. يسهرون طوال الليل يشربون الشاي ويلعبون الورق، ويستيقظون صباحاً متأخّرين. ينهضون كسالى، ويتمطّون طويلاً في فرُشهم، فتختلط عليهم الأوقات، ولا يميّزون الصباح من المساء، يتناولون فطورهم عصراً وغداءهم ليلاً. وفي أثناء ذلك، ينسون الثورة التي تستيقظ باكراً، كي تحلّ مشاكلهم، وتؤمّن لهم الخبز، تفلح الأرض، وتدير المعامل».

يشرب الجنرال كأساً من المياه، ويستمرّ بقراءة البيان:

«نحن العسكر، على عكس المدنيّين الفوضويّين، حياتنا تسير وفق النظام والانتظام، تسير وفق إيقاع محدّد: «واحد، اثنان»، «واحد، اثنان».

إنّه إيقاع مسير التدريب اليومي في المعسكر، نسيره يوميّاً مئات الخطوات، فيدوّي في الرأس دون توقف، «واحد، اثنان».

نكرّره باستمرار، ودون نهاية، حتّى تصبح مجموعات الجنود كلّها كتلة واحدة صمّاء، لا تعرف من الأعداد سوى «واحد، اثنان».

كتلة متجانسة متماسكة تفكّر بطريقة واحدة متطابقة، خلف قائدها الذي يحدو إيقاعها على «واحد، اثنان».

العقول الفرديّة امّحت، توحّدت في عقل واحد ينسجم مع النظام العسكري الكلّي الشمولي، رتابة وتكرار وانتظام، «واحد، اثنان».

نستيقظ باكراً في الخامسة صباحاً، «واحد»، نقفز من أسرتنا فوراً، «اثنان»، نمارس الرياضة، «واحد»، نتدرّب على السلاح، «اثنان»، نتناول الطعام، «واحد»، نشرب الشاي، «اثنان»، والمحصّلة: «واحد، اثنان».

ننام مع زوجاتنا على أسرّة معدنيّة بنوابض نحاسيّة، تهتز تحتنا بانتظام، «واحد، اثنان»، «واحد، اثنان». ينزلق العضو في الزوجة، «واحد»، ينسحب منها قليلاً، «اثنان»، ثمّ يتسارع إيقاعنا، نحن والزوجات والسرير حتّى نصل معاً نحن الثلاثة إلى الذروة العظمى التي يمنحنا إيّاها سحر رتابة الأعداد «واحد، اثنان». ثمّ نسترخي وننام، نحن والزوجات والسرير، متمتمين «واحد، اثنان».

إنّه جيش الثورة العقائدي الرائع الذي تنتظم مسيرته وفعالياته ونشاطاته وحياته كلها على إيقاع «واحد، اثنان».

أمّا هؤلاء المدنيّون الفوضويّون الذين لا يعرفون النظام، فينبغي وضع حدّ للتشويش والخراب الذي يسبّبونه في المجتمع بكسلهم وعبثهم، كادوا يحرفون الثورة المجيدة عن مسيرتها المباركة. عليهم أن يتعلموا الإيحاءات العظيمة التي يقدّمها «واحد، اثنان»، ويكرّروا الأفكار الثوريّة العظيمة على إيقاعها.

على المثقفين، والمناضلين الحزبيّين، والعمّال، والفلّاحين، والنسوة، والشبيبة، والأطفال، أن تنتظم حياتهم كلها على إيقاع «واحد، اثنان»، التي أقودها أنا المايسترو الأعظم، الجنرال الثوري ذا الصوت الذهبي الذي يعكس ألق التكرار المقدّس المهيب «واحد، اثنان».

على صفوفهم أن تنتظم في منظمات شعبيّة-عسكريّة، يتدرّبون فيها بألق ورتابة، منظّمات يتوحّد فيها اللباس ونمط الحياة والتفكير على إيقاع «واحد، اثنان». على الحضانات، والمدارس، والجامعات، أن تُخرّج من وراء مقاعدها أجيال ثورة «واحد، اثنان»، وأن تتلقّاهم المزارع والمعامل ومؤسّسات الدولة ليعملوا فيها، ويبرزوا مواهبهم على إيقاع «واحد، اثنان».

على الجماهير أن تستيقظ باكراً في الخامسة صباحاً، تنهض وتمارس الرياضة مباشرة، تأكل الخبز العسكري القاسي، وتشرب الشاي الثقيل، في السادسة صباحاً، ثمّ تتدرّب على السلاح الروسي، وتخرج في مسيرات جماهيريّة، على إيقاع «واحد، اثنان». عليها أن تمضي يومها وليلها بتكرار «واحد، اثنان». لا حاجة لها للقراءة والتفكير حتّى لا يختلّ الإيقاع التوحيدي، وإلى اللقاء على دروب النضال».

وفجأةً يعلن ذو الوجه القاسي والرأس المفلطح البيان رقم 16:

«أيّتها الجماهير العظيمة الصبورة، أحيّي جميع فئاتكم المناضلة التي تسير على إيقاع «واحد، اثنان»، لكن في الواقع لا يمكن للجسد أن يكون لديه عدّة رؤوس، وكذلك النظام، بل رأس واحد

قائد. هذه هي طبيعة الحياة التي أثبتتها مسيرة التاريخ، فكما أنّ الإله واحد في السماء، فالحاكم على الأرض واحد أيضاً، ما دام يمثّل السلطة المطلقة المقدّسة، فهل ترضون بتعدّد الآلهة في السماء؟».

ثمّ يخرج المسدّس ويطلق النار على رفاق الدرب الذين ملأت الدهشة وجوههم.

تعلو الآن موسيقى حماسيّة، موسيقى الانتصار العظيم، وتفاجأ الجماهير بالبيان رقم 1 التعديلي التصحيحي، يلقيه الجنرال ذو الوجه القاسي والرأس المفلطح «من في السماء واحد، وعلى الأرض واحد، وأنا الواحد في السماء والأرض، ومنذ الآن ستنتظم حياة الثورة والجماهير والوطن كلّها على إيقاع الواحد، الذي هو أنا، الواحد الأوحد، الزعيم الجنرال».

من وقتها، لم يعد التلفزيون يبثّ برامج الخطب والبيانات الحماسيّة والأغاني الوطنيّة باللونين الأبيض والأسود، من ذكريات الـ«واحد، اثنان»، بل بلون واحد مسطّح باهت ما بين الرمادي والترابي، وعلى إيقاع «واحد»، إذ هكذا كانت تراه الجماهير برغم إدخال تقنيّات الألوان الطبيعيّة إلى بثّه في نهاية القرن الماضي.

ومن وقتها عرف الناس الرجل المستذئب في البلدة-الوطن، استوى على العرش بعد أن قضى على الذئاب الصغيرة، واستولى على القطيع كلّه، وصاحت الأغنام وراءه «ماع، ماع، عاش الزعيم الجنرال».

مع أنّ القتل على مستوى الخيال شكّل فترة تدريبيّة انتقاليّة مهمّة لتنفيذ القتل الحقيقي على مستوى الواقع، فإن آثار المرحلة الطفوليّة الخياليّة ظلّت ترافقني طوال عمري عبر أحلام اليقظة. وقد برزت هذه الأحلام وتواترت على نحو مروّع في حياتي، عندما أصبحت شخصاً مهمّشاً بالكامل في الحياة، منكسراً، محطّماً، ومن خلالها بقيت أقتل خياليّاً مجموعات جديدة غير موجودة في السينما، بل على أرض الواقع. إنهم رجال أمن الزعيم الجنرال الحقيقي نفسه، الذين تنتشر مراكزهم وحواجزهم ودوريّاتهم حولي، في كل مكان من عالمي الخارجي، وصولاً إلى قدرتهم على اقتحام عوالمي الداخلية. كنت أتحيّن الفرصة في عتمة الليل، وأنا مختبئ في فراشي تحت اللحاف، كي أقنصهم أو أفجّر مراكزهم، بل وأعذّبهم، كما يفعلون هم مع معتقليهم.

والمشكلة التي كانت تواجهني هي أنني إن قتلت واحداً منهم في الخيال، ازدادوا عشرة في الواقع.

ساديّة جنسيّة

فيما كنت أهيّئ نفسي في طفولتي كي أصبح زعيماً جنرالاً – تسندني بالطبع نبوءة جدّتي –، لم أكن أدرك أن من أهم مؤهّلات نجاح تشكل شخصيتي أن أكون ساديّاً، وبعمق.

ولم أكن طبعاً بقادر في طفولتي على فهم معنى الساديّة أصلاً، ومعرفة تداعياتها في حياة الأشخاص، ولا استيعاب الارتباط بين الساديّة الجنسيّة، بمعناها المادّي المباشر، والساديّة السياسيّة، بمعناها الرمزي، فمثل هذه المصطلحات والأفكار كانت أكبر من عقلي الصغير.

وفيما كنت أظنّ أنّني أسير على خطى التحوّل إلى زعيم جنرال – حسب نبوءة جدّتي، التي للأسف لم تتحقق –، كانت الغرابة، إن لم نقل الشذوذ، تشوب تفتّح حياتي العاطفيّة والجنسيّة في طفولتي وعتبة مراهقتي.

في الصفّ السادس الابتدائي، قرّرت بمنطق السلطة التي كانت تنمو في داخلي، ألّا أحبّ إلّا الفتاة الأجمل، الأكثر اجتهاداً والأصعب منالاً، التي تجلس بعيداً عنّي في المقعد الأوّل. هكذا، وقع اختياري على نادية، دون أن أهتمّ بالنمش الأسود على خدّيها السمينين، ولا بشعرها المجعّد الذي تهمل دائماً تسريحه، ولا بأنفها الذي يسيل باستمرار.

كانت نادية متكبّرة ومتعجرفة جدّاً، تتحدّث بأنفة مع الجميع، يغذّي هذه المشاعر العدائيّة لديها نيلها أعلى العلامات في الامتحانات باستمرار، وبالتالي حظوتها لدى إدارة المدرسة، فيما كانت تزداد ترفّعاً إزائي مع نيلي علامات متوسّطة وما دون. ما إن تمرّ من قربي حتّى ترميني بنظرة استعلاء، وتتمتم: «أنا لا أتحدّث مع الكسالى البليدين».

ومع ذلك، قرّرت أن أحبّها، طبعاً ذلك الحبّ الذي لا يتجاوز غالباً وشوشات التلاميذ في ما بينهم، إذ أعلنتُ: «نادية لي، لا أحد يقترب منها».

ولكنّ نادية كانت صعبة المنال، فأخذت أبحث عن مواطن الضعف لديها، كي أتسلّل منها.

وجاءت الفرصة في شهر رمضان، حيث يزداد عدد المُصلّين الفلكلوريّين، الذين يرتادون المساجد مساءً لصلاة التراويح. وعلمت أن نادية تذهب إلى مسجد البلدة الصغير مع أختها الكبرى بعد الإفطار، لتشارك النسوة صلاة الجماعة وراء الإمام، وهو ما كان يحدث في مكان خلفيّ منعزل بعيداً عن صفوف الرجال. كنت لا أهتمّ بالصلاة، ولا بالطقوس الدينيّة الأخرى، لكنّني قرّرت ارتياد المسجد بعد الإفطار حتّى أفوز بقلب نادية، فقد أجد شيئاً مشتركاً يجمعنا معاً، يجعلها تتقبّل عواطفي.

عندما ذهبت في المرّة الأولى إلى المسجد، سألني والدي: «إلى أين أنت ذاهب؟».

أجبت: «إلى المسجد، إنّه شهر رمضان».

نظر إليَّ والدهشة تعلو وجهه، ثمّ غمغم: «ممتاز، اذهب فربّما تصبح عاقلاً، وتتخلّى عن شيطنتك، فترتاح يدي من ضربك، لكنّني أشك في ذلك».

فوجئت بأنّ مكان النسوة في المسجد معزول تماماً على شرفة مرتفعة، تغطّيها ألواح زجاجيّة معتمة حاجبة لا تشفّ شيئاً ممّا يحدث وراءها. مع ذلك، وقفت في الصفّ الخلفي للرجال الخاشعين الذين كانوا يتّجهون بأبصارهم إلى القبلة في الأمام، فيما أنا أتلفّت طوال الوقت إلى الخلف، لعلّ نادية تلمحني...

استمرّت الصلاة طويلاً، وأنا أتخيّل النسوة ينحنين ويركعن ونادية بينهنّ. بالتأكيد لمحتني وأنا هنا، في الصفّ الخلفي. التفتُّ صوبها مبتسماً. سأفوز بقلبها أخيراً. وما إن انتهت الأمسية الطقوسية أخيراً حتّى لوّحت لها مودّعاً، متمتماً: «أراكِ غداً صباحاً في المدرسة».

في اليوم التالي، ذهبت مسرعاً متلهّفاً إلى نادية، وقلبي يسبقني إليها، وهو يخفق بشدّة، وبادرتها الحديث: «كنت البارحة في المسجد مثلك، ولوّحت لكِ مودّعاً بعد الصلاة».

فأجابت بهدوء وكبرياء وهي تبتعد عنّي: «البارحة لم أكن في المسجد، لم أذهب إليه، كنت تعبانة».

امتعضت بشدّة منكسراً، فكيف خُيّل إليّ أنّني شاهدتها حتّى كادت رقبتي تنخلع، وأنا أتلفّت إليها، بل وودّعتها ملوّحاً! إلّا أنّني لا أتراجع. ينبغي أن أفوز بقلبها. لذلك سألتها: «ستذهبين اليوم بعد الإفطار، أليس كذلك؟».

أعاود الذهاب إلى المسجد. اليوم سألمحها بالتأكيد. أتخيّلها في العتمة خلف الزجاج، في هسهسة الثياب، وهي تنحني وتركع بين النسوة. اليوم سوف تراني وتتقبّل حبّي بالتأكيد.

في اليوم التالي، أسألها بلهفة: «كنتُ هناك، بالتأكيد شاهدتِني؟».

أشاحت بوجهها عنّي، دون أن تفارقها سيماء العجرفة والكبرياء: «كان هناك شباب كثيرون، فكيف لي أن أميّزك بينهم؟!».

وابتعدت عنّي... ومن وقتها أقلعت مباشرة عن شيئين اثنين، حبّ نادية ذات النمش الأسود على خدّيها، والصلاة المعقّدة بطقوسها، وتركت أبي يعاود ضربي من جديد.

ومع أنني أخذت أقتل الكثير من النمل، بأنواعه المختلفة، وأكسر كلّ لوح زجاج معتم يمكن أن يخفي ما وراءه، فقد تحيّنت الفرصة لأنفرد بنادية ذات يوم، وأرميها في حوض صغير مليء بالماء، يقع خلف باحة المدرسة، ولمّا حاولت إخراج رأسها دفعته إلى الأسفل بكلّ قواي حتّى اختنقت وماتت.

وذات مرّة، كنت أسير وراءها في الشارع، وبما أننا كنّا وحيدين، فقد استغللت فرصة مرور شاحنة ضخمة بالقرب منّا، فدفعتها بسرعة تحت دواليبها، ومرّت من فوقها، وهرستها حتّى الموت.

وفي مرّة ثالثة، كان تلاميذ صفّنا في نزهة، وعندما وقفتْ وحدها على رأس تلّة تنظر إلى البعيد، غافلتها ودفعتها من الخلف، فسقطت إلى الأسفل، يلحقها صوت موائها المُرتعب، وماتت للمرّة الأخيرة... فتلك آخر محاولة قتل لها، إذ انتقلت بعد ذلك إلى مدرسة أخرى في المدينة.

حدثت حكايتي مع نادية في تلك الأيّام من طفولتي التي كانت فيها أعواد ثقاب الكبريت من ماركة «المدفع» لا تشتعل، والمدافع لا تستطيع إطلاق النار إلى الأمام على العدوّ، ولا إسقاط الطائرات المعادية في سمائنا. وقتها، أخذ المواطنون يلجأون إلى حلم يقظة جماعي واحد، ينتصرون فيه بسهولة على العدوّ، ويسقطون له الكثير من الطائرات في خيالهم. وقد تفرّع حلم اليقظة الجماعيّ إلى أحلام يقظة فرديّة، ينتصر فيها كلّ مواطن بسهولة على أعدائه الشخصيّين في مشاكله اليوميّة. ومع أنّني كنت لا أزال صغيراً حينها، فلست أدري إلى أيّ درجة كنت متأثراً بهذه الأجواء، وخاصّة في شعوري بالهزيمة أمام نادية التي أهانتني بعدم قبول حبّي لها، ثمّ بالهزائم المتتالية التي ستنالني بكثرة في الواقع.

وعلى الرغم من انكساري مع نادية وانتقامي منها، كانت هذه بداية صغيرة، لا يمكن التعويل عليها كثيراً في بناء شخصيّة زعيم جنرال معقدة في ظروف الهزيمة التاريخيّة أمام العدوّ، ولنقل إنّها المحاولة رقم صفر، فلا يمكن أخذها في الحسبان على مستوى تفتّحي العاطفي والجنسي.

حتّى السينما لم تؤدِّ دوراً كبيراً في طفولتي على هذا المستوى، بالرغم من سيل أفلام المغامرات الكبير التي شاهدتها في تلك المرحلة من ستينيّات القرن الماضي. وهي أفلام كانت تنتهي دائماً بإنقاذ البطلة الحسناء من الوحش أو العصابة الشرّيرة، إلّا أنّ القبلة التي تمنحها للبطل الشجاع المنقذ لا تتجاوز الثانيتين في تلك اللحظة التي تأخذ فيها الأنوار في الصالة بالاشتعال، معلنة نهاية الفيلم.

وإذا ما حدث وظهرت ركبة البطلة عارية في الفيلم، فإنّ سيل التصفيق، والصفير، والزعيق، والتعليقات البذيئة من المشاهدين الشبّان في الصالة كان يفسد لحظة العري الجميلة تلك.

على عكس السينما، كانت الكتب والمجلّات هي التي مارست بقوّة التأثير الكبير عليّ. وللحقيقة، ليست الكتب والمجلّات بالضبط، بل الأجواء والحوادث المرافقة لقراءاتي، وأوّلها زياراتي الغريبة للسيدة الصغيرة، وقد كان عمري لا يتجاوز العشر سنوات.

فقد زُوّجت في ذلك الوقت قريبتي البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً بسائق شاحنة تجاوز عمره الثلاثين، يقطن في أحد الأحياء القديمة من المدينة. وعُقِد الزواج طبعاً وفق التقاليد القديمة، بحيث لم تُسأل العروس عن رأيها. أمضى العروسان أكثر من شهرين في سرير العسل والغرام حتّى آن الأوان كي يعاود الزوج العمل على شاحنته، فأصبح يخرج من البيت صباحاً ولا يعود إلّا مساءً.

ولكن، كيف سيترك الزوج السيدة الصغيرة وحيدة طوال النهار، ولا أحد من النساء أو الأقرباء المحارم يقطن معها في البيت القديم؟ فالمرأة الوحيدة في الأحياء القديمة لا يؤمن عليها، ولا منها. وهكذا، تداول أهل العريس والعروس الرأي:

– دعوا الصغير يقيم عندها خلال الصيف إذ ليس لديه مدرسة، فهو يسلّيها نهاراً وينام باكراً، ولن يزعج العروسين ليلاً.

– سيعرف الجميع أنّ هناك شابّاً في البيت، فلا يجرؤ أحد على التلصّص عليه.

– ثمّ إنّ العروس تحبّه ومتآلفة معه منذ أن كان طفلاً صغيراً، كانت تحمله باستمرار بين ذراعيها، تناغيه وتهدهده، فيطمئنّ لها.

وكنت أنا الصغير البريء الذي ينام باكراً، والشابّ الذي سيعتني بالعروس، ويبعد عنها عيون المتلصّصين في غياب الزوج.

وكان لي أن أمضيت أيّاماً صيفيّة يزيّنها هديل الحمام في البيت القديم بالمدينة عند العروسين؛ بيت أرضي مع فسحة في وسطه مفتوحة للسماء، تحوي أريكة قديمة طويلة أنام عليها، وسطح مسوَّر بألواح خشبيّة عتيقة تجمعها ألواح مهترئة من التوتياء. هناك، في طرف مهمل من السطح، وجدت كنزاً لا يُقدَّر بثمن، برميل كبير صدئ مليء ببقايا كتب ومجلّات وجرائد قديمة يغطّيها الغبار، نصف مهترئة، نصف ممزقة، وقد ارتمت فوقها بقايا أشياء قديمة مستهلكة.

كنت أقف على كرسيّ بجانب البرميل، وأغطس فيه برأسي ونصف جسدي باحثاً منقباً. هناك وجدت فيه مجلّات «سوبرمان»، و«الوطواط»، و«المغامر»، و«بساط الريح»، و«تان تان»، و«سمير»، و«ميكي»، وكتيّبات عن «أرسين لوبين»، و«شرلوك هولمز»، الذين أشعلوا خيالي

الزعيمي... مغامرات ومغامرات، لكن دون بطلات ينقذهنّ الشجعان، إذ إن القصص المصوّرة كانت موجّهة للأطفال، ولا مكان للقبلات في نهايتها كما في الأفلام.

وقعت في يدي قصّة مصوّرة عن طرزان، رجل الغابة الأبيض الذي ينقذ الحسناء الشقراء من أيدي آكلي اللحوم البشريّة من الزنوج... كنت أقرأ النصّ بشغف، وأتأمّل رسوم أشخاص الغابة الزنوج شبه العراة، وبالذات البطلة الحسناء البيضاء الجسد، التي كانت ملابسها تقتصر على حمّالة نهدين وسروال قصير بالكاد يغطّي وسطها. وبخيال الطفولة كانت أحلامي تنصبّ خاصّةً على سروال البطلة في إحدى الصور، وقد مدّدها آكلو لحوم البشر على مذبح حجري، تشتعل حوله النيران... كان ذلك السروال هو النقطة الفاصلة للقيام بقفزة ميليمترية خارج خيال الطفولة.

قضيت أيّامي الأولى في تقليب المجلّات المصوّرة نصف الممزقة نهاراً، والنوم باكراً على الأريكة في طرف الفسحة السماويّة، غير بعيد عن غرفة نوم الزوجين. وكان الزوج الهمام الذي يحضر مساءً من عمله، يقضي ليلة رجوليّة مع زوجته، فارساً مغواراً، قبل أن يستيقظ باكراً، ويمضي بسيّارته إلى السوق.

وأنا أنهض من النوم في الصباح متأخّراً بعض الشيء، لأشاهد فوضى المعارك الليليّة في كلّ مكان، كلّ شيء مجعّد متراكم الطيّات، الأغطية على السرير، الملابس على الأرض، رائحة الليل والجنس في فضاء الغرفة. والسيدة الصغيرة بملابس نومها الصيفيّة القصيرة الفاضحة، تتمطّى وتتمطّى، تنهض متأخّرة بتكاسل، وتبتسم لي، أنا الصغير البريء. تسحرني ابتسامتها، فأشاهدها حسناء الغابة، وأتحوّل إلى طرزان الذي سينقذها بعد أن يلفّ ذراعاً على خصرها، بينما يمسك بالأخرى غصناً طويلاً يتأرجح به، متنقلاً في الغابة بين الأشجار. لكنّها كانت حسناء الغابة التي لا ينكشف سروالها أمامي بسهولة كما في المجلّة، مع أنّ غلالة نومها القصيرة جداً بالكاد تغطّيه، لكن لا تكشفه.

أمسك بقصّة طرزان، أفتح على صفحة الحسناء الممدّدة على المذبح الحجري، وينتقل تفكيري إلى السروال. ليس سروال الحسناء في المجلّة، بل سروال السيّدة الصغيرة، التي تنهض بهدوء وبطء من السرير، وهي تترنّم بأغانٍ عاشقة لفريد الأطرش والشحرورة صباح.

تنهض السيّدة الصغيرة وهي تغنّي وتتراقص متمايلة، تبتسم لي، وتسألني: «هل نمت جيّداً؟».

طبعاً نمت، إلّا أنّ تركيزي الآن أصبح منصبّاً على سروالها المختبئ تحت الغلالة الرقيقة.

وبما أنّ الجوّ حارّ، فقد كانت السيّدة الصغيرة تسفح الماء على أرض الفسحة، حيث أتمدّد على الأريكة متكاسلاً متناوماً، ثمّ تأتي بمقشّة لتشطف المياه، ولتبدأ عندئذٍ رقصة حسناء الغابة شبه العارية، الرائعة الجسد. تنحني، تذهب وتجيء، تنخفض وتنهض، فألاحق سروالها الذي يخاتلني، يظهر لثوانٍ ويغيب وراء رفرفة قميص نومها المنشلح في الهواء مع تراقص الألحان التي تغنّيها،

وأنا أنزلق متمدّداً أكثر على الأريكة حتّى أحصل على زاوية نظر سفليّة أفضل، فيما لا تفارقني قصّة طرزان والحسناء الممدّدة على المذبح الحجري.

ثمّ رأيته... كان نبيذياً تغفو تحته الأحلام، ويتألّق مختالاً على جسدها الحليبي؛ نبيذياً يكاد ينفجر منه الدم – هكذا تخيّلت، فزوجها قد اغتصبها على الأغلب، لأنّني سمعتها تتأوّه في الليل، وهذه بقايا الدماء – واشتعلت الطفولة على عتبة التفتّح الرجولي الباكر.

كنت أنام باكراً، كما في كلّ يوم كالعادة، فيطمئنّ الزوجان إلى نومي. لكن، من يوم اكتشافي السروال النبيذي، سرعان ما كنت أصحو بعد فترة من غفوتي، منبّه داخلي يوقظني، إلّا أنّني أبقى في مكاني هادئاً لأستمع إلى سيمفونيّة القبلات، والتأوّهات، والتنهّدات، والرعشات، تتخلّلها مقاطع من أغاني فريد الأطرش والشحرورة صباح.

يمضي الليل، وأنا أحلم بحسناء طرزان التي أصبحت ترتدي سروالاً نبيذيّاً، وتتمدّد في الفراش إلى جانبي، بدلاً من استلقائها على المذبح الحجري، أمسح الدم عن سروالها وأغفو على عناقها.

إلّا أنّه مع ارتفاع غناء الجسدين المشتعلين، اشتعلت بي أنا أيضاً نار غريبة أخذت تأكلني، فالسيدة الصغيرة هي لي، أقضي معها النهار كلّه، وهذا الزوج الأسمر الشرّير يأتي مساءً فقط ليغتصبها منّي.

الزوج الأسمر هو الآن زعيم رجال الغابة السود المتوحّشين الذين اختطفوا السيّدة الصغيرة، مدّدوها بسروالها النبيذيّ على المذبح الحجريّ، وأشعلوا النار حولها، وأخذوا يقفزون برقصة الموت على قرع الطبول، وصراخ وحشيّ يتعالى منهم. وأنا طرزان، أنقضّ عليهم أنا وصديقاي المخلصان، النمر والغوريلا، نهجم عليهم لننقذ السيدة الصغيرة حبيبتي. أقترب من الزوج وأنتزع السيف من يده، وأخنقه بكلتا يديّ العاريتين، فينفر الدم من فمه، ثمّ أحمل حبيبتي وأتأرجح على الأغصان الطويلة، فارّاً بها حتّى أصل إلى كوخي الذي أقمته في أعالي أشجار الغابة. هناك، أمدّدها على سرير من القشّ، وأتأمّل سروالها النبيذي بعد أن أمسح الدم عنه.

أفاجأ صباحاً بأنّ الزوج لا يزال حيّاً، يستعدّ للذهاب إلى العمل. يغلق الباب ويذهب، لكنّه سيرجع مساءً ويختطف منّي حبيبتي. أتحوّل عندئذٍ إلى سوبرمان، ألاحق سيّارته، وأنفخ ناراً من فمي لتحرقها. وفي اليوم التالي، أتحوّل إلى الوطواط، وأدفع بسيّارته إلى وادٍ عميق لتنفجر به.

يبدو أنّ محاولاتي ستنجح أخيراً في إبعاد الزوج عن السيّدة الصغيرة، فقد احترقت سيّارته بانفجار في أحد شوارع بلد مجاور لنا، كان ينقل إليه حمولة خضار. طبعاً، لم يتدخّل في العمليّة سوبرمان، ولا الوطواط، لكن صودف انفجار عبوة ناسفة في مكان مرور سيّارة الزوج، فالبلد المجاور كان يشهد وقتها حرباً أهليّة دامية... لكنّي فكرت كثيراً في ما بعد كيف تتوافق الأحداث الواقعيّة مع تخيّلاتي، هل كان هذا مصادفة، أم أنّ نبوءة جدّتي في طورها للتحقّق؟

على كل الأحوال، مات الزوج، وترك السيّدة الصغيرة التي لم تنجب له أطفالاً.

من وقتها وعشق السراويل – وخاصّة النبيذيّة – يرافقني ويثيرني دائماً، ليس بالمعنى الفيتيشي، بل بقدر ما يذكّرني بسروال السيّدة الصغيرة، والإيحاءات الأولى التي تركها لديَّ.

في طفولتي، كان عالم النسوة من حولي سرّياً، مبهماً، غامضاً، مفعماً بالهسيس، والنشيج، والحفيف، والهمسات، والآهات، والتأوّهات، والتنهّدات. نسوة أراهنّ، كيفما تحرّكن، بغلالتهنّ الرقيقة الشفّافة وملابسهنّ الداخليّة، المرتخية بتكاسل عفويّ على الجسد الناعم، عالم الشلحات والسراويل لنسوة يتراقصن كأجساد شبحيّة، هلاميّة، أمام طفل يحسَبن أنّه ما زال صغيراً، بريئاً، فيما كانت أنامل حلمه تكشف نضجه العاطفي والجنسي، الممتلئ دهشة وذهولاً ممّا تُظهره تلك الملابس وممّا تخفيه.

تقول لي والدتي: «اذهب واطلب من جارتنا، خالتك أم ناصر، أن تحضر إليَّ سريعاً، كي تشاهد الملابس الجديدة التي اشتريتها».

تتكرّر الطلبات منّي يومياً عدّة مرّات في عالم سيّدات منازل لا يشغلهن إلا اللقاء والثرثرة التي لا تنتهي، فيما الأزواج مشغولون عنهنّ بأوراق اللعب والنرد، طوال فترة ما بعد الظهر، بعد العودة من أعمالهم، وبالتدرّب على أسلحة صيد قديمة في مركز «الجيش الشعبي» أيّام العطل، استعداداً لمعارك وهميّة مع «العدوّ المغتصب».

أُسرّ بطلبات والدتي في عالم لم تدخله بعد أجهزة الهواتف، وأؤدّي فيه أنا دور المراسل الشفهيّ بين النسوة.

أقف في الممرّ على عتبة الصالون الصغير عند الخالة أم ناصر. الباب منفرج بوضوح على الصالون، الصالون مفتوح على غرفة النوم، وباب غرفة النوم مُشرَّع للنظرات الحائرة. تقف أم ناصر بمواجهتي هناك، أمام الخزانة، بقميص نومها. ينفتح باب الخزانة الذي تمتدّ على طوله مرآة كبيرة، فتنعكس صورتها جسداً يتألق على السطح المصقول، أرى جسداً حقيقيّاً يمتدّ إلى تألّقه بجسد أكثر التماعاً، جسد بجسدين.

تقول لي: «انتظر، سأغيّر ملابسي سريعاً ونذهب معاً».

فتلاحق عيناي الصغيرتان اللتان تخطّت براءتهما تفاصيل ما تفعله الخالة أم ناصر. تشمّر قميص النوم الضيّق الرقيق الذي ترتديه حتّى وسطها، وتنزعه بصعوبة حتّى خفت أن يتمزق لرقته. تلقي به على السرير، فينفتح أمامي مشهد جسدها الحليبي، بشلحتها الداخلية الوردية الشفافة التي تصل إلى فخذيها، وهي بالكاد تخفي سروالاً أبيض حريرياً، صغيراً ضيّقاً يرتسم بوضوح تحتها. تمسك بثوب الخروج الليلكي وتدخله برأسها، ينزلق بصعوبة، وينزل بهدوء، تشدّه إلى

الأسفل، تشدّ الثنايا التي تجعّدت على الخصر، فيما تختال في الأسفل أطراف الشلحة متراقصة بخفة، حتّى ينزل أخيراً ويستقرّ على جسدها.

تتناول جوربيها الشفّافين، ترفع قدمها على كرسيّ، يخاتل سروالها الأبيض الحريري من تحت ثنايا الثوب الهفهاف، يريد أن يرتسم في الجوّ طليقاً ويبقى كذلك، لكنّ الثوب يذهب ويجيء، يكشف وينسدل. تدسّ رأس قدمها في الجورب، تنزلق فيه، تشدّه برؤوس أصابعها، يذهب معها منساباً حتّى منتصف الفخذ، وأنا أستمع إلى طقطقة النايلون الصادرة من تسلّقه، تشدّ فوقه مطّاطة بيضاء حتّى لا ينزلق. تُنزل قدمها، يحزن السروال لاختفائه عن النظر، إلّا أنّه يُسرّ من جديد مع معاودة الحركات نفسها في أثناء إدخال الجورب الثاني في قدمها الأخرى.

تتأمّل أم ناصر نفسها في المرآة وهي تدور ربع دورة في الاتّجاهين. جميلة، أنيقة، تمنحني نظرة بريئة ودودة، لكنّها ساحرة.

«ناولني الكندرة من جانبك»، تقول لي.

أُحضر الكندرة. أنحني، أضعها أمام قدميها، وفي أثناء إدخالها أسمع هسيس ملابسها، تأتيني وشوشة سروالها، وشلحتها، وجوربيها، تحتكّ كلّها بموسيقى ثوبها الليلكي الهفهاف، وهو يتلاعب في الهواء.

– «هيا لنذهب» تقول لي.

مشهد يستمرّ لخمس دقائق، لكنني أستعيده لساعة، لساعتين، لمرّة، لمرّتين، لخمسين مرّة، إذ إنّني أصبحت أتسلّل إلى بيت أم ناصر كلّ يوم صباحاً، بعد أن يذهب زوجها الشرّير إلى عمله، وفي أيّام العطل إلى مركز «الجيش الشعبي». أتسلّق الجدار وأنزلق إلى غرفة النوم، أتمدّد على السرير، وأطلب من أم ناصر أن تخلع أمامي ملابسها البيتيّة بهدوء، قطعة قطعة، وترميها بقربي على السرير، ثمّ تقوم وترتدي ملابس النوم ببطء، وتأتي لتتمدّد إلى جانبي.

وذات يوم عطلة فاجأنا زوجها الشرّير، وقد تسلّل هارباً من التدرّب على السلاح في مركز «الجيش الشعبي» باكراً جدّاً. كانت أم ناصر متمدّدة إلى جانبي في السرير بثوب نوم وردي، إلّا أنّني، بطبيعتي الحذرة، كنت محتاطاً لمثل هذه المفاجآت، فوضعت سكّيناً على طاولة صغيرة بقرب السرير، أطعنه بها فور أن يدخل إلى الغرفة. وبما أن الرجال لا يتعلمون شيئاً في مركز «الجيش الشعبي» من فنون الدفاع عن النفس في مواجهة «العدوّ المغتصب»، ويقضون وقتهم مجبرين في الثرثرة وشرب الشاي، فإنّه سرعان ما ارتمى على الأرض مضرّجاً بدمائه. أمسح دماء السكّين بسروال أم ناصر الأبيض، فيتحوّل إلى اللون النبيذي فتزداد الإثارة لديَّ. أرمي السكّين، ونعاود التمدّد على السرير بهدوء، فيما الجثة مرميّة على الأرض.

ولكنّ مشاهد النسوة، وهنّ يبدّلن ملابسهن، ليست دائماً بنفس جماليّة مشهد الخالة أم ناصر، فأم شاهر جاهزة دوماً للخروج بملابس المنزل التي تنام بها، وأم سامر لديها مؤخّرة ضخمة، يعادل حجمها سبعة أضعاف من مؤخّرة أم ناصر، أهرب بسرعة منها بمجرّد إبلاغي لها رسالة والدتي، قبل أن تطلب منّي أن أناولها الكندرة، فأسمع من جسدها ما لا يسرّني.

ذات مرة، وفي لحظة ضعف، تسلّلت إلى غرفة نوم أم سامر كنوع من الفضول، وما إن خلعت ملابسها الداخلية العملاقة حتّى هجمت عليَّ أرطال من اللحم، جلست فوقي وغمرتني، بحيث كادت تخنقني. يومها رجع زوجها إلى البيت باكراً على غير العادة وفاجأني، لكنّ يدي الضائعة تحت مؤخّرة أم سامر لم تستطع الوصول إلى السكين بقربي. إلّا أنّ زوجها لم يهجم عليَّ، بل جلس يضحك، ثمّ تركنا وغادر الغرفة، فصمّمت على قتله في أول فرصة مناسبة، لأنّه أهانني ولم ينقذني من أرطال اللحم الجاثمة فوقي.

جعلتني مشاهد النساء بغلالاتهن الرقيقة أتجاوز عتبة الطفولة، لكنّها لم تصل بي إلى مرحلة الانطلاق في مراهقتي، وكان ينبغي أن أصل إلى الثانية عشرة من عمري حتّى أقترب من جسد أنثوي حقيقي، وبالضبط مع قريبتي ناهد التي تكبرني بأربعة أعوام، فهي التي جعلتني أكتشف معنى اللمسات الحميميّة للجسد.

ترتبط تجربتي مع ناهد، القصيرة، ولكن الممتعة، بإدخال أجهزة التلفزيون الأولى إلى البلدة مع بدايات سيطرة العسكر على السلطة؛ أجهزة لا تلتقط إلّا محطة يتيمة رسميّة وطنيّة، تدفع بنا إلى الملل والضجر بالخطابات والأغاني الحماسيّة المستمرّة عن «الثورة وشهدائها» في معارك الصراع على السلطة. لكنّنا كنا نتحايل في الأمسيات بتدوير اللاقط البدائي على السطح باتّجاه بث محطات دول مجاورة لنا، لا ثورة لديها ولا شهداء، كي نشاهد مسلسلات فكاهيّة.

وكنت محظوظاً، إذ إنّ والدي استطاع شراء واحد من هذه الأجهزة الأولى في الحارة، ما جعل جيوش النسوة والأطفال من الأقارب والجيران تزحف إلى بيتنا في العشيّات، لمتابعة المسلسلات التلفزيونيّة على مدار أيّام الأسبوع، فقد كنت خبيراً في اكتشاف الزوايا التي أوجّه إليها اللاقط للوصول إلى المحطّات اللاوطنيّة، فيما كان الرجال ينزوون بعيداً ليتسلّوا بأوراق اللعب وطاولة النرد.

وكان أكثر ما يثيرنا المسلسل الفكاهي أبو سليم، الذي تتخلّله الدعايات الإعلانيّة باستمرار، ومن أشهرها إعلان بيرة ماركة «لذيذة» التي كان يشربها الشباب في الاحتفالات العائليّة والنزهات، إذ لم يصلنا بعد في وقتها مدّ التحريمات الصحراويّة.

كان جميع المشاهدين من النساء والأطفال يجلسون أرضاً، على فُرُشٍ صغيرة موزّعة على مدار جدار الغرفة الصغيرة، يتزاحمون فيها ويتلاصقون حتّى تتّسع لأكبر عدد منهم، عشرة،

عشرون... فلا يتركون شبراً إلّا ملأته مؤخّرة امرأة أو طفل، والأنظار كلّها مشدودة إلى التلفزيون. وبما أنّ مسلسل أبو سليم كان يُعرض خريفاً، والعشيّات باردة، فقد كانت الأغطية والبطّانيّات ترتمي بكثافة على أرض الغرفة، لننزلق تحتها ونتدفّأ بها، ونحن نشاهد التلفزيون.

وكانت قريبتي ناهد تنسلّ بقربي تحت غطاء صوفي عريض، فيلتصق نهداها الناضجان حديثاً بي، ويحتكّان بطراوة ونعومة بكتفي ومرفقي.

ومع تقافز الأجساد بضحكاتها كانت ملامسات ناهد الحميميّة تحت الغطاء تزداد، لتبتسم لي بإشراقة وجهها في أثناء الإعلانات، وأردّ الابتسامة لها ولنهديها، دون أن أعرف ما عليَّ أن أفعل أكثر من ذلك، فقد كنت صغيراً. إلّا أنّ ناهد كانت كبيرة بما يكفي لكي تمدّ يدها الناعمة الرقيقة من تحت البيجاما إلى أكثر المناطق حميميّة في جسدي، وتذهب أصابعها بالمداعبة بعيداً وبعيداً، فيما الضحكات تجلجل حولنا، فأنسى المسلسل والضحكات والناس حولي، ولا أعرف من العالم شيئاً سوى يدٍ تداعبني بنعومة. وعندما كان الإعلان عن بيرة «لذيذة» يظهر على الشاشة، كانت يد ناهد تعتصر عضوي بشدّة حتّى كنت لأظنّ أنّ رغوة البيرة ستنبثق منه.

أصبحت أنتظر السهرات حتّى تحضر يد ناهد الناعمة لتداعبني وتعتصرني... ففي النهار، إذا ما انفردت بناهد صدفة في زاوية منعزلة، وحاولت تلمّس جسدها واكتشاف ألوان ملابسها الداخلية، كانت تتملّص منّي بخفّة، وتتحوّل إلى فتاة لعوب ساخرة، قائلة «هناك من يحبّني، وسيتزوّجني قريباً».

أخذت أشعر بالغيرة، فحبيبها هو الذي لا يسمح لها إذاً بأن تكشف لي عن لون سروالها، وخلع ملابسها قطعة قطعة أمامي، كما تفعل الخالة أم ناصر. ولذلك، ما إن انفردت بها ذات مرّة في البستان، بعيداً عن الأعين في ظلال شجيرات رمّان تسترنا حتّى طلبت منها أن تخلع ملابسها أمامي، وتكشف لي أسرارها الحميميّة، ضحكت ودفعتني بيدها وقالت بلهجة غنج وتمنع «لا، لن أخلعها إلّا أمام حبيبي الذي سيتزوّجني قريباً».

كنت أشعر بإثارة غريبة لوجودنا وحيدين هذه المرّة بعيداً عن أعين الناس، ودون غطاء يسترنا، وسرعان ما غضبتُ بشدّة بسبب تدخّل حبيبها المستمرّ في أمورنا الشخصيّة، فما كان منّي إلّا أن مددت يدي إلى قميصها وفتحته بعنف، بحيث تقطّعت أزراره. وبما أنّها لم تكن ترتدي حمّالة ثدي في تلك المرّة، فقد اندلق ثدياها الصغيران فجأة إلى الخارج، وانسكبا في الهواء كحمامتين صغيرتين تطيران للمرّة الأولى. ازدادت الإثارة لديَّ، فاقتربت منها أودّ معانقتها ومداعبة الحمامتين، إلّا أنّها دفعتني بقوّة، وهي مذهولة من العنف المفاجئ الذي بادرته نحوها.

ألحّ على تقبيل ناهد بقوّة فيما هي تمانع. صدمت أسناني شفتها الرقيقة السفلى، فجرحتها، وسال بعض الدم منها، فتحوّلت إلى نبيذيّة. تمنّيت عندئذٍ لو أنّني أستطيع امتصاصها، كنوع من

المواساة بالتأكيد، ولكن كانت قد اشتعلت لديَّ في الوقت نفسه رغبة في اختبار إثارة جديدة، حرّضتها رؤية الدم، تحت تأثير الخطب الحماسيّة في الراديو والتلفزيون التي كانت تلحّ باستمرار في تلك الأيّام على أنّنا «لن ننسى دم الشهداء من الثوّار»، دون أن أدرك ما علاقة ذلك بدم الشفاه بالنسبة لمراهق صغير مثلي.

وعلى كلّ الأحوال، نهضت ناهد، وهي تبكي، تلملم قميصها وتمسح شفتها المدماة، ومضت مسرعة، وهي تهدّدني بشهقات «سأخبر حبيبي بكلّ شيء، وسينتقم منك».

قرّرت أن أنتقم من ناهد وحبيبها ياسين، النجّار المشهور في بلدتنا، الذي سيتزوّجها، فتسللت إلى بيته ليلاً، وقطعت له عضوه الكبير بينما هو نائم في سريره حتّى لا تداعبه كما كانت تفعل معي في العشيّات، وهي تتدرّب بعضوي الصغير. ثمّ تسلّلت إلى بيت ناهد في الليلة نفسها، وقطعت لها ثدييها بينما كانت نائمة أيضاً حتّى لا يستمتع هو بمداعبتهما عندما يندلقان خارج قميصها. إلّا أنّني قبل أن أخرج من غرفتها تأكّدت وهي نائمة من أنّ سروالها ليس نبيذيّاً، وأنّ شفتها لم تكن مجروحة، فلم تعد تثير اهتمامي، ومضيت دون أن يدري أحد بما فعلت.

بعد أسبوع تزوّجها حبيبها النجار، وسافر بها إلى بلد صحراوي، وضحكت في سرّي، وتخيّلت ماذا سيحدث لهما عندما يخلعان ثيابهما في ليلتهما الأولى هناك، ستجده دون عضو تعتصره له، وسيجدها دون ثديين، فينفر كلّ منهما من الآخر. وبالرغم ممّا فعلته بهما، فإنّ ناهد حملت بطفلها الأول بعد نحو عام، دون أن أدري كيف، مع أنّ زوجها لم يكن لديه عضو، كما لم أفهم كيف أرضعت ابنها، وهي بدون ثديين.

أمّا أنا فلم يبق لي سوى خيالات محمومة، تُثار كلّما شاهدت إعلان بيرة «لذيذة».

ويبدو أنّه مع ناهد ستنتهي مرحلة ناعمة مخمليّة من نضوجي، لتلاحقني بعد ذلك خيبات الأمل والإخفاقات في المشهد العاطفي الجنسي.

لست وسيماً بما يكفي كي أجذب الفتيات إليَّ بكثرة، إلّا أنّني في المقابل لست قبيحاً أيضاً لدرجة أن ينفرن منّي، بحيث أجد صعوبة في تفسير حالات الفشل المتتالية، وخيبات الأمل المتراكمة، في إقامة علاقة طبيعيّة مع إحداهن.

حصلتُ ذات مرّة على موعد غرامي في البستان بالقرب من حارتنا مع سامية الصهباء الجلد إلى حدّ البشاعة، والقصيرة القامة إلى حدّ أنها تبدو قزمة بمؤخرة مفلطحة. وسامية يُشاع عنها بين الفتية في الحارة أنّها تلتهم من تعطيه موعداً بالقبلات الملتهبة، وتداعب له المناطق الحميميّة بجرأة، بحيث يطير صوابه.

انتظرتها طويلاً في طرف البستان تحت مطر خريفي غزير متواصل، بحيث أصبح من الممكن عصر ثيابي، لكنّها لم تأتِ، لأكتشف لاحقاً أنها كانت على موعد غرامي مع شابّ آخر

منافس لي في الطرف الآخر من البستان.

وعندما قابلت سامية في الشارع عاتبتها بتذمّر، فهزّت كتفيها لامبالية ونظرت إليَّ بشبه احتقار، دون أن أعرف السبب. ولا أدري من أين خرج صديقها المنافس لي فجأة في تلك اللحظة، شابّ ضخم عريض المنكبين بشاربين كثين، أطول من شجرة السرو التي تقع على رأس الشارع، نعرفه جميعاً في الحارة بشراسته، إضافة إلى شهرته بدورات «الصاعقة» القتاليّة، التي نفّذها مع الفدائيّين، وطبّقها مع زعران الحارة.

لم يمهلني أيّ فرصة للحديث. بمجرّد رؤيته لي مع سامية، اقترب منّي، وفي لحظة خاطفة لوى يدي اليمنى بعنف شديد وراء ظهري، وهو يقول «هذه المرة سأكتفي بكسر يدك، كما تعلّمنا في دورة الصاعقة، وإذا تحدّثت مع سامية مرّة ثانية، فسأقصّ لسانك، كما تعلّمنا في دورة العاصفة، وأكسر رقبتك، كما تعلمنا في دورة الإعصار».

طبعاً، في المساء كمنت له في رأس الحارة، وما إن لمحته حتّى ضربته على رأسه بعصا غليظة، محاذراً ضربة مفاجئة منه تعلّمها في دورة الصاعقة، فشققته. وفي اليوم الثاني، طعنته بمدية حادّة، محاذراً مهاراته التي اكتسبها في دورة العاصفة، فسقط يتلوّى على الأرض. وفي اليوم الثالث، رميت به أمام شاحنة مسرعة، فمرّت من فوقه وانتهيت منه، محاذراً قفزة مفاجئة تعلّمها في دورة الإعصار، وخسر الفدائيّون العديد من المعارك مع العدوّ بسبب فقدانهم له... إلّا أنّني في المرّات الثلاث التي هزمته فيها، لم أستخدم يدي اليمنى، لأنّها كانت مكسورة ومضمّدة برباط معلق في رقبتي.

ستتكرّر خيبات الأمل أيضاً مع الفتيات اللواتي التقيت بهنّ في الجامعة، فقد كنّ بلهاوات، حمقاوات، وغبيّات أكثر من بنات البلدة. لم يُقدّرن ما أختزن لهنّ من عواطف نبيلة، وما أخبّئ لهنّ من إثارة ملتهبة. بديعة كانت صديقة فقط، هكذا تعلن لي دائماً، مع أنّ كلّ اهتمامي كان منصبّاً فقط على ثدييها وسروالها المرتسم بوضوح تحت بنطالها الضيّق، الذي تكاد مؤخّرتها تخرج منه. وعندما تشجّعت ذات مرّة وسألتها عن لون سروالها، فهمت قصدي سريعاً، وأجابتني بعفويّة وبراءة أنّ الجنس بالنسبة إليها شيء مقرف، يذكّرها بدرس تشريح الجهاز التناسلي عند الضفادع والأرانب في المدرسة الثانويّة.

ورانيا لا تخرج معي خطوة واحدة خارج الكافتيريا خوفاً على سمعتها. وقد اشترطت عليّ مباشرة أن أمضي أنا وأهلي كي نطلب يدها من أهلها منذ اللقاء الثاني معها، وعندئذٍ ستسمح لي باكتشاف جسدها.

وفاتن ودودة معي عندما ترغب في أن تستعير منّي المحاضرات التي تغيب عنها بسبب عملها الصباحي، ما إن تأخذ الأوراق حتّى كانت تمنحني قبلة حبّ طائرة، وتطير مسرعة متعللة بانتظار

أخيها لها عند بوّابة الجامعة، وتختفي لأكثر من أسبوع. ثمّ اكتشفت أنّ من كان ينتظرها على البوّابة هو حبيبها، وأن ليس عندها إخوة.

عندما أسررت إلى زميل يكبرني بالعمر وشكوت له سوء أحوالي العاطفيّة، فاجأني بردّه: «أعتقد أنك أنت الأبله والأحمق، لا الفتيات».

وزميلي هذا دخل الجامعة منذ ستّ سنوات إلى كليّة العلوم السياسيّة، وما زال في السنة الثانية، وذلك بسبب تفرّغه لعمله الحزبي النضالي في «الاتحاد الوطني للطلبة»، وما يستتبع ذلك من مهامّ «اصطياد» للفتيات، كما أسرَّ لي.

شعرت بالصدمة من قوله، فقرّرت أن أبحث عن أسباب فشلي في المجال العاطفي، أو بالضبط لماذا أنا أبله وأحمق هنا.

بحثت طويلاً حتّى استقرّ الرأي لديَّ على أنّ أسباب الفشل تكمن في طريقة تفكيري وتصرّفي مع الفتيات، فمنذ الثالثة عشرة من عمري كنت قد قرّرت استغلال الأساليب الشاعريّة من أجل الإيقاع بفتياتي. قرأت الكثير من الشعر الحديث، وحفظت مقاطع عديدة منه، ومن وقتها بدأت أرى العالم بالمقلوب، إذ صرت أبحث في عالم الخراب والفوضى الذي يحيط بي وقتها في البلدة، عن بحيرات زرقاء، ومطر ربيعي ناعم، وقوس قزح، وقلوب مشتعلة.

لكنّها لم تكن إلّا أدوات للوصول إلى شيء أكبر، أو بالأحرى كانت فخّاً، كي تستسلم لي الفتاة بجسدها بعد أن تثق بشاعريّتي. ولا أدري من أين أتتني فكرة أنّ امتصاص شفتيْ فتاة بعمق وشدّة، سيجعلهما تنفجران دماً في فمي، وأنّ الدم سيتفجّر من الثديين، إذا ما تمّ امتصاصهما بشبق شديد ولمدّة طويلة.

لا أعرف من أين أتتني فكرة الانتشاء بالدم. يبدو أنّ رؤية شفة قريبتي ناهد تنزف أحدثت إثارة قويّة لي، إلّا أنّني لم أختبر امتصاص الدم منها، كما أنّ أفلام مصّاصي الدماء لم تكن منتشرة بعد، إلّا في حدود ضيّقة.

يبدو أنّ لديَّ شيئاً غريباً، بدائيّاً، ينبع من الأعماق، يربط الدم بميول غريزيّة متوحّشة، تجد شبقها في الانتشاء بالأجساد الدامية، متعة دمويّة وجنسيّة في الوقت نفسه. وسيزداد هذا الشعور الغريب لديَّ كلّما شعرت بقوّتي، وبنوع من السلطة المسيطرة التي بدأت تظهر جذورها منذ استمتاعي بقتل النمل.

للأسف، لم تثمر طريقتي الشاعريّة بنتيجة، فلم أجد ما يجعل العالم مقلوباً في العيون لدى أيّ فتاة صادفتها، كما أراه أنا. كانت تقنيّة فاشلة تماماً، أوصلتني إلى الإخفاق مع الفتيات، بل وإلى رسوبي المتكرّر في الجامعة التي أنهيتها بضعف مدّة الدراسة، بالرغم من أنني لم أنتمِ إلى «الاتّحاد الوطني للطلبة»، بل بسبب انشغالي بالبحث عن عالم مقلوب.

وذات مرّة استمعت إلى فتاتين في إحدى الاستراحات بين المحاضرات تتحدّثان عنّي، فيما أنا منزوٍ بعيداً عن أنظارهما:

– أعتقد أنّ هذا الشاب مريض نفسيّاً، مختلّ العقل، مجنون بالكامل.

– وكيف عرفت ذلك؟

– من طريقة نظراته الحمراء المخيفة إلينا، جميع الفتيات يتحدّثن عنه، يبدو أنك لم تقعي طريدة له بعد حتّى تكتشفيه، حاذري أن تلتقي عيناك بعينيه.

– ينبغي أن ننتبه منه، فهؤلاء المختلّون نفسيّاً هم الذين يغتصبون عادة الفتيات في زوايا الشوارع، ثمّ يقتلونهنّ، كما في الأفلام الأميركيّة.

عندما سألت من جديد زميلي هل يستطيع تفسير ما يحدث معي، فاجأني من جديد قائلاً: «ما زلت أبله وأحمق».

وعندما تشجّعت وسألته لماذا، ردّ عليَّ بخبرته الطويلة: «الفتيات بحاجة لمن يحدّثهنّ، ويسليهنّ، ويضحكهنّ، ويعدهنّ بالزواج، ولو كذباً. ومع مرور الوقت يسمحن بعشقهنّ ومداعبتهنّ. البحيرات الزرقاء، والمطر الربيعي، وقوس قزح، موجودة فقط في خيالك المريض، أيّها الزميل الأبله والأحمق، لو انتميت إلى الاتحاد وناضلت في الحزب معنا لعرفت هذه الحقائق مباشرة».

كثير من الحقائق اكتشفها متأخّراً، وعلى الأغلب بعد فوات الأوان. وعندما تعلّمت كيف ينبغي أن أصل إلى فتاة بطريقة طبيعيّة كان الزمن قد مرّ سريعاً، ولم ينتظر صحواتي المتأخّرة للانتماء إلى الاتّحاد والحزب.

في حقول الصيف، كنّا صغاراً مشلوحين في شمس الطفولة، ليس هناك ما يحمينا من التجارب الشاذّة القاسية سوى الصدفة، أو ردود الفعل الغريزيّة. في عالم الحقول، لم يكن الطفل يعيش في عالم أنداده الصغار فقط، بل عليه أن يخالط أيضاً فتيان السوء الكبار في وحشة الظهيرات الحارّة، حين يهجع الأهل غالباً إلى الظلّ في منازلهم. هناك، سأخضع لأوّل تجربة تحرّش قاسية من أحد أقاربي، الذي تجاوز وقتها التاسعة عشرة من عمره، فيما كنت أنا لا أزال في الحادية عشرة.

كان قريب العائلة أبو العبد – كما كنا نسمّيه نحن أطفال الحقول لاسمراره الشديد – يستغلّ وجودي وحيداً معه في الحقل عند الظهيرة. يشعل سيجارة فيها حشيشة مخدّرة، تعلّم تدخينها من شباب فرن البلدة في أثناء عمله معهم ذات شتاء، ثمّ يستند إلى جذع شجرة الجوز الضخم، ويخرج عضوه الأسود المخيف من بنطاله أمامي، ويأخذ بفركه بأصابعه. يسألني متأوّهاً، والسيجارة في فمه ونظره لا يحيد عنّي: «إنه يؤلمني، فماذا أفعل؟».

أشيح بوجهي عنه، وقد شعرت بالخوف والقرف من فعله، إذ إنَّ هذا أوّل اصطدام لي مع عالم الرجال السرّي، وخاصّة أنّ لمسة فخذي من الجنديّ، الذي ترك الطائرات المعادية تمرّ بسلام فوق

حقولنا، كانت عابرة.

لكنّ أبو العبد يلاحقني قائلاً: «ألا تساعدني قليلاً، كي أتخفّف من الألم، فأعطيك نفساً من السيجارة؟».

يتقدّم منّي وعضوه الأسود المنتصب يسبقه، أبتعد قليلاً، يقترب أكثر يريد محاصرتي، فأتحوّل عندئذٍ إلى صبيّين، يلتقط واحداً منّا، ويمسك به بعنف، فيما أطلق أنا الثاني ساقيَّ للريح وأركض بعيداً، أريد أن أهرب من كلّ الحقول.

يضحك قريبي أبو العبد ساخراً وقد اصطحب الصبيّ الأول المرتعد إلى قرب السياج، ويصرخ عليَّ وأنا أبتعد: «إلى أين أنت هارب، سنلتقي هنا غداً، وفي كلّ يوم، عسى أن نجد طريقة لتخفّف من آلامي».

أحاول أن أشرح لوالدي تحرّش قريبي أبو العبد بي، لكن لا أعرف لماذا يتطاير شرر الغضب من عينيه باستمرار عندما أقترب منه، فهو في حرب شرسة دائمة مع كلّ العالم، لتنصبّ النتائج عنفاً عليَّ، وكأنّني سببها. أتراجع، ستنقصني الكلمات والأدلّة لشرح ما أعاني، وعلى الأغلب، سأثيره، ويضربني حين أبدأ بالحديث.

وحتّى أتخلص من كابوس أبو العبد قرّرت أن أواجه مشكلتي بنفسي معه.

كانت أمامي طريقتان، تحوّلت في إحداهما أنا نفسي إلى أبو العبد، حيث أخذت الصبيّ الذي بقي معي من يده ودفعته خلف السياج، لكنّ متعتي بالوصال معه كانت ناقصة، لم يعجبني فيها سوى ارتعاده من الخوف. وفكّرت أنّ من الأفضل أن أجد أنداداً قريبين من عمري لنتبادل المتعة السريّة معاً، بدلاً من هؤلاء الصبية الذين لا يتوقفون عن الولولة والصراخ بمجرّد ملامستهم، لذلك اتّجهت إلى أبو نادر صاحب الخبرة الشهير في التعامل مع الجسد الرجولي.

يبدو أنّ التجربة التي اختبرتها بواسطة أبو العبد لم ترضني، إذ لم أجد فيها إثارة برغم سمة العنف الذي مارسته على الفتى الصغير، والانسجام الكبير الذي وجدته مع أبو نادر. فقد ظلّ مواء الفتيات ودماء الشفتين والثديين والسروال النبيذي أكثر إثارة بالنسبة لي.

أمّا الطريقة الثانية للتخلص من كابوس أبو العبد، فكانت استنجادي بالجنود الذين احتلّوا حقولنا لأنتقم منه.

ذات مساء، قلت للجندي الذي سمح لي بقيادة السيّارة: «إن كنتم ترغبون في مؤخّرة بيضاء رائعة، دون أن تتسبّب لكم بمشاكل، فإنها تنتظركم تحت شجرة الجوز».

ركض ستّة منهم وهم يظنّون أنّهم سيجدون جارتنا الفلّاحة التي كانت تعمل في الحقل مساءً. ولحسن حظهم، فإن أبو العبد كان قد خلع بنطاله ليداعب عضوه الذي يؤلمه كعادته كلّ مساء، فتدافعوا فوقه بالتناوب بالرغم من اكتشافهم أنه ليس الجارة، لكنّهم عرفوا بذلك متأخرين.

أمّا أنا، فقد قدت السيّارة العسكريّة باتّجاههم، توقفت مقابلهم، وأشعلت أضواءها التي أنارت كلّ الحقل، بحيث فضحت أبو العبد.

سافر أبو العبد إلى بلاد النفط ليشتغل هناك عامل بناء، أصبح متديّناً بلحية طويلة، دون أن يتخلى عن سيجارته التي تكاد تحرقها. إلّا أنّه كان، عندما يحضر صيفاً إلى البلدة في إجازة، ينزل من سيّارته الأميركيّة العريضة ويسير في الحارة، فيما لا يزال عضوه الأسود يسبقه تحت دشداشته البيضاء الشفّافة التي تفضح سواده، ويمضي ليزور صديقه أبو نادر، برغم السهرات الحمراء التي كان يقضيها في الملاهي الليليّة بالمدينة ريثما يعود إلى بلاد الإيمان.

لكنّ أبو العبد لم يعد يقترب منّي أبداً، بالتأكيد خوفاً من العسكر الذين سلطتهم عليه.

كنت أظنّ أنّ قريبي الشاب هو حالة شاذة استثنائية، إلّا أنّني كلّما ابتعدت عن الطفولة، وأوغلت في المراهقة، اكتشف عوالم غريبة تصدمني، فكثير من الرجال الذين يبدون وقورين ومحترمين حولي يصبحون غريبي الأطوار إذا ما انفردوا بالأطفال، ينفلتون بنزوات مجنونة، وكلّ هذا يحدث في السرّ.

عندما كنت صغيراً اكتسبت صفة غير طبيعيّة ميّزتني عن بقيّة الأطفال، وساعدتني على معرفة كثير من الغرائب ممّا يحدث حولي، فقد كنت أنام دون أن أغفو. نتج هذا من حادثة قديمة، عندما ضربني والدي في لحظة غضب اعتياديّة بطريقة غير اعتياديّة، رفعني من أذنيّ عالياً بخفّة في الهواء مثل الأرنب، ثمّ ضربني عليهما بشدّة بكفّيه القاسيتين، فيما كنت أهبط بتثاقل على الأرض كالسلحفاة. ومن شدّة الضربة، شعرت لعدّة ساعات بالصمم الكامل مع طنين غريب في الرأس، ما إن غادراني حتّى حلّ مكانه شواش دائم في رأسي، يشتدّ عندما أنام، فلا أغفو.

أنام، ويظنّ الآخرون الكبار أنّني غفوت ونمت بعمق، فيتبادلون عندئذٍ الأحاديث السريّة قربي بهدوء وثقة، وبطريقة تعلو فوق الهمس، غير آبهين لوجودي، ولأذنيّ اللتين تصلان إلى أقصى تمدّد لهما في أثناء النوم.

وعندما يشتطّ الجالسون في الحديث، يتساءل أحدهم متردّداً: «ولكن الصغير هنا؟».

فيردّ الآخر: «لا تخف، إنه نائم في سابع نومة».

وعندها يبدأ مسلسل الفضائح التي يسجّلها عقلي بدقة، الفضائح التي لا أفهمها كثيراً في وقتها، لكن سيأتي يوم وسأدرك خفاياها، وأحللها بدقة.

وهكذا، امتلكت الكثير من الحكايات الغريبة الشاذة عمّا يحدث في البلدة، لأناس أعرفهم وأشاهدهم كلّ يوم يعيشون حياتهم الطبيعيّة، الحكايات التي لا ينبغي في العادة للصغار أن يعرفوها.

وكنت أتأكد من الوقائع عندما أرى النسوة في كلّ يوم ينشرن غسيل حكاياتهنّ على الأسطح والشرفات، فأعرف خباياها وتداعياتها من نوعيّة الملابس المنشورة وألوانها...

جميع الحكايات الغرائبيّة التي سمعتها عن الناس حولي، وإن على دفعات، وركّبتها في ما بعد في عقلي لتتكامل صورتها، كانت تبقى مقبولة لي ما دامت لا تمسّ دائرتي العائليّة. أمّا أن تصل إلى الأهل والأقارب، فقد كان هذا ذروة العبثيّة واللامعقول، إذ كنت أظنّ أنّ ما يتعلق بنا، يبقى محصوراً دائماً في إطار أخلاقي مقدّس، يتعالى بعيداً عن الشبهات المشبوبة بالنزوات الشاذة التي يعيشها الآخرون، لكن كان عليَّ في النهاية أن أقبل الوقائع، فكلّنا كنّا حكايات.

وهكذا، كم كان غريباً عليَّ اكتشاف أنّ السيّدة الأرستقراطيّة، الأنيقة والمحترمة وصاحبة الخيلاء، سليلة المدينة بعاداتها المخمليّة من بقايا برجوازيّة ما قبل «الثورة»، قد انفرد بها ذات مساء في عتمة المساء الفلّاح الفحل أبو إسماعيل، عضو «اتحاد فلاحين الثورة» في البلدة، الذي تشتهيه سيّدات البلدة، لجسده الممشوق في شرواله الأسود، وابتسامته الساحرة التي يزرعها في القلوب.

كانت السيّدة الأرستقراطيّة تتمشّى ذات مرّة في نزهتها اليوميّة بين البساتين على أطراف البلدة، لكنّها وحيدة هذه المرّة، وقد بدا عليها نوع من الكآبة النزقة في وحدتها. لمحت أبو إسماعيل من بعيد في بستانه، واقفاً تحت شجرة التوت الشامي يقطف ثمارها، فتذكّرت التوت الذي يحضره دائماً إلى البيت ليقطر دماً في فمها، والنظرات المتألّقة التي تحمل الشهوة لها، واليد التي تتطاول لتحاول لمس مرفقها بحركة تريد أن تبدو عفويّة، وهو يناولها سلة التوت، فسارت إليه كالمنوّمة بدعوى تحيّته، ابتسم لها، فردّت بابتسامة خفيفة، التقطها بسرعة.

وحدثت الأمور بعد ذلك بسرعة كبيرة، إذ تخلّت السيّدة الكبيرة عن خيلائها البورجوازي أمام سحر ابتسامته الثوريّة، فيما ذكرى طعم التوت في فمها، أمّا أبو إسماعيل فقد كان عمليّاً جداً، فجعلها تنحني على أحد أغصان الشجرة الهابطة إلى الأسفل لتبحث عن حبيبات التوت الناضجة، ودفعها قليلاً بحيث ضاع رأسها ونصف جسدها بين الأوراق الخضراء، وبقيت مؤخّرتها في الهواء الطلق. وقف وراءها ورفع ثوبها الورديّ المدينيّ المكشكش في أسفله بتطريزات حمراء فاتحة، دون أن تبدي أيّ اعتراض بدعوى انشغالها بالبحث عن الثمار، ثمّ أتبعه بشلحتها الناعمة الورديّة، فبان سروالها الأحمر الصغير الرقيق الذي انزلق بنعومة بين قدميها، فبدت مؤخّرتها البيضاء الرجراجة وكأنّها انبثقت من بين غصينات الشجرة، وأخذها واقفاً بسرعة، دون أن يخلع شرواله.

كان أبو إسماعيل يهزّهم معاً، السيدة المخمليّة وشجرة التوت وشرواله، بإيقاع يتصاعد نحو الذروة، ويصفعها بين لحظة وأخرى بكفّه القاسية على مؤخّرتها الطريّة العارية، ليستمتع بصوتها

المعترض بغنج والذاهب نحو النشوة. وفي أثناء ذلك، تمضغ السيّدة المخمليّة حبيبات التوت الذي انسكب عصيره على شفتيها، وتئنّ بصوت متأوّه، وهي متشبّثة بالأغصان، مردّدة بتقطّع «هزّ التوتة يا توّات، تحت التوتة في بنات».

وفي ذروة الهزّ تساقط الكثير من ثمار التوت الناضجة الممتلئة دماً على ثوبها الوردي وعلى عشب الأرض، فما إن انتهيا حتّى امتدّ تحتهما بساط من الثمار الناضجة المتألقة بحمرتها التوتيّة، فيما زحفت البقع النجميّة التوتيّة على ظهر الثوب الوردي وزيّنته، وسال عصيرهما الدمويّ على مؤخّرتها البيضاء، المحمرّة هنا وهناك من شدّة الصفعات.

أسمع السيّدة الأرستقراطيّة تهمس لصديقتها، فيما أنا نائم دون أن أغفو: «كان أبو إسماعيل معي ثوريّاً عنيفاً، شعرت بالإثارة الشديدة التي لم أختبرها من قبل، كلّما صفعني بقوّة على مؤخّرتي بيده الخشنة الرائعة، ووصلت معه إلى ذروة كثيفة شديدة، خلت أنّني أحلق في سماء صافية توتيّة اللون».

تضحك الصديقة بإثارة، وهي تهمس: «وأنا حلّقت أيضاً في سماء صافية، لكن برتقاليّة اللون، فقد أخذني ذات مساء تحت أغصان شجرة المشمش».

ومنذ أن عرفت بتلك الحكايات أخذت أتسلّق كلّ يوم شجرة التوت بدعوى قطف ثمارها اللذيذة، لأكمن عالياً بين الأوراق الكثيفة مختفياً عن الأنظار، وأنتظر مترقّباً، فتأتي سيّدات البلدة القادمات من المدينة، الأنيقات والمحترمات والمخمليّات، ينحنين بالدور على أغصان الشجرة، ليأخذهنّ الفحل أبو إسماعيل بشرواله الأسود، وهو يصفعهنّ بشدّة على مؤخّراتهنّ البيضاء الرجراجة التي اصطبغت بعصير التوت.

أكبرُ فجأة وأصبح أنا أبو إسماعيل الفحل، لكن دون أن أصبح عضواً في «اتّحاد الفلّاحين»، فآخذ سيّدات البلدة المخمليّات بفساتينهنّ الأنيقة، والفلّاحات الشبقات بثياب الحقل المعفّرة بالتراب، وهنّ مستندات إلى غصن شجرة التوت، ويغنّين بأصوات عذبة «هزّ التوتة يا توّات»، فيما أصفعهنّ بعنف على مؤخّراتهنّ، بحيث يكاد الدم ينفر من احمرار الجلد ببقع توتيّة. وعندما أنتهي، تكون يداي وشفتاي تقطر بعصير التوت الشاميّ، النبيذيّ الشهيّ.

أخذتُ أيضاً المعلّمات النحيلات، وهنّ منحنيات تحت شجرة المشمش، والموظفات الممتلئات الجسد تحت شجرة الخوخ، وكانت سراويلهنّ تهبط بين القدمين بألوان مختلفة، وعندما ننتهي ويرفعنها، تصبح نبيذيّة.

حدث هذا بعد تجاوزي حكايات الغلالات النسائيّة لجاراتنا الخالات اللواتي كنت أنقل إليهنّ الرسائل، عندما بدأت أعي عالم النسوة حولي بطريقة مغايرة.

وكم كانت المفاجأة كبيرة لي عندما مسّت الحكايات الجديدة زوج السيّدة الأرستقراطيّة نفسه أيضاً، السيّد الأرستقراطي، سليل بقايا العائلات الإقطاعيّة في البلدة، الذي انضمّ إلى الحزب الثوري شكليّاً، لكنّه بقي إقطاعيّاً حتّى العظم في روحه وعاداته.

فقد علمتُ أنّ السيّد الأرستقراطي، الغاضب دائماً أمامي، قد تحوّل إلى عصفور متسامح عندما نام مع أم إسماعيل البريئة البسيطة، وهو يناغيها بأعذب الكلمات، في غرفة التنّور الطينيّة. كان قد فاجأها وحيدة، وهي منحنية على مصطبة تقطيع العجين، ترّقه لترميه في فتحة التنّور، فشدّ بلطف إلى الأسفل مئزرها الذي بهتت ألوان زهيراته الحمراء تحت طبقة من غبار الطحين، فسقط على الأرض متكوّماً عند قدميها، وانكشفت مؤخّرتها مباشرة في الهواء الطلق، إذ كانت دون سروال.

أضاءت الجمرات المتأجّجة لهباً في فتحة التنّور مؤخّرة أم إسماعيل السمراء الممتلئة، بتدرّجات الألوان الناريّة المتراقصة، من الأصفر إلى البرتقالي، ما أثار السيّد الكبير بانتصاب شديد، لم يختبره من قبل. أنزل بنطاله والتصق بها، فشعر بدفء النيران المتراقصة عليها، التي سرعان ما انتقلت إليه، فاشتعل فيها، فيما كانت هي تموء منحنية، وتقول: «ألا ترى أنّني أعمل، العجين في التنّور، وسأتأخّر بتحضير الخبز للغداء».

يبدو أنّ هذا الوضع سريع التطبيق في الحالات الطارئة، وليس بحاجة إلى تعقيدات طقوس خلع الملابس والحديث وجهاً لوجه، كما أنّ من السهل تعلّمه من مراقبة الحيوانات في المرعى. لكنّ زوج السيّدة الأرستقراطيّة لم يضرب أمّ إسماعيل على مؤخّرتها في هذا الوضع، على الرغم من شراسته ومشاكسته الدائمة للجميع، بل إنّه كان شاعريّاً في تلك اللحظات، فلم يكد يبلغ ذروة المتعة حتّى أخذ بتعفير مؤخرتها بالطحين، ثم رش قبضات منه في فضاء التنّور، وهو يغمغم بكلمات عشق مبهمة. أمّا هي، فقد كانت تئنّ تحته، وقد انتابها سعال خفيف من ذرات الطحين التي دخلت رئتيها، فيما انطبع جانب وجهها على قطعة عجين وهو يذهب ويجيء عليها، وتفتتت قطعة ثانية بين أصابع يديها من النشوة.

وبالرغم من وصول السيّد الأرستقراطي إلى ذروة اللذّة، لم يخرج عضوه منها، بل أخرج من جيب سترته زجاجة مليئة بالنبيذ، قلبها في فمه دفعة واحدة، وهو يتأمّل بنشوة جمرات النار في التنور، وقد تحوّل العجين فيه إلى خبز متفحّم.

يبدو أنّ السيّد الأرستقراطي كان متفرّغاً للانقضاض على النسوة في غياب أزواجهنّ الفلّاحين في الحقول، والأفضل في اجتماعات «اتّحاد الفلّاحين»، التي تطول بثرثرات لا تنتهي عن القضاء على فلول الإقطاعيّين. يأخذهنّ سريعاً، وهنّ منحنيات بملابسهنّ الريفيّة المزركشة بألوان فاقعة، وذلك ليس فقط في التنّور، بل وتحت عريشة العنب، وقرب قنّ الدجاج، ووراء خوابي المؤونة،

وفي أيّ مكان يفاجئهنّ فيه. ويختار دائماً تلك الوضعيّة الجنسيّة التي تُشعره بأنّه ذكر حيواني يسيطر على إناث القطيع، وتذكّره بأنّه كان السيّد الإقطاعي الكبير ذات يوم.

إلّا أنّ القدر كان ينتقم من السيد الأرستقراطي. فبالإضافة إلى أبو إسماعيل، أخذ العديد من هؤلاء الأزواج الفلّاحين المناضلين زوجته الكريمة، المحترمة والمعطاء دون حدود، في الوضع نفسه في البساتين التي تحبّ أن تتمشّى فيها في ظلال عصر كلّ يوم...

مات اللحّام أبو عبدو الذي لطالما أطعم البلدة لحم حمير على أنّه لحم غنم ممتاز، تاركاً خلفه أرملة خمسينيّة وحيدة تماماً بعدما غادرها ولداها، فأحدهما كان يعمل في تهريب المخدّرات، ما إن يخرج من السجن لعدّة أشهر حتّى يرجع إليه سريعاً، أمّا الثاني فمخبر أمنيّ، سرعان ما قتله قبضايات الحارة.

نامت أم عبدو الشبقة بعد موت زوجها الباكر مع عدد لا بأس به من رجال البلدة، بمن فيهم زوج السيدة الأرستقراطيّة، إذ كان جسدها الذي حافظ على لدونته ووهجه لا يرتوي، كبئر عميقة لا تمتلئ.

ولكنّها كانت صاحبة مزاج، تتغنّج طويلاً أمام شريكها بخبرة عمر مديدة ومتراكمة، وتثيره حتّى الجنون ليصبح سهلاً مطواعاً لرغباتها ونزواتها، فلا تسمح له بأن يقترب منها إلّا بعد أن يزحف على الأرض أمامها ويقبّل قدميها، ثمّ تعتليه، إذ كانت لا تسمح لأحد بأن ينام فوقها. هي التي تمتطي شريكها دائماً، لتتمكّن من صفعه بسهولة راغبة في إذلاله وإهانته، كما تقول، وهو لم يكن إلّا ليصمت منتظراً أن تسوح به في عالم لم يختبره أبداً مع زوجته الباردة، كما يقول...

وبالرغم من مغامراتها السريّة مع العديد من الرجال المحترمين، والفاسقين، والعابرين، والمناضلين في الحزب واتّحاد الفلاحين، كانت في الحقيقة تفضّل النوم مع النساء، فبعد أن جرّبت كلّ شيء في مجال الجسد، وجدتهنّ أفضل ليناً وعريكة، يأتمرن بما تتطلّبه من نزوات سريعاً.

ولكنّ الخطورة في أم عبدو أنها كانت تفضّل النسوة الصغيرات على الكبيرات، الصبايا ذوات الأجساد الغضّة اللواتي لم يخضن تجربة الجسد مع الرجل، فهنّ بريئات يتقبّلن نزواتها دون اعتراض. لذلك امتنعت العائلات التي تعرف بعضاً من أسرارها عن استقبالها في بيوتها، متحاشية إيّاها بخوف غريزيّ. إلّا أنّ أم عبدو كانت ذكيّة وخطِرة، فقد كانت لها القدرة على الطيران. تحوم طويلاً حول البيت الذي تشتهي صبيّة فيه، منتظرة الفرصة السانحة بصبر، وما إن ترى نافذة مفتوحة فيه حتّى تتسلّل منها وتنقضّ بلهفة وشهوة شبقة على ضحيّتها، التي سرعان ما كانت تنساق وراء نزواتها مشلولة الإرادة.

في تلك الأوقات التي وصلت فيها أنا إلى ذروة خيبات الأمل مع فتيات البلدة ورفيقات الجامعة، كنت أتتبّع أخبار جارتنا أم عبدو مدهوشاً، بين المصدّق والمكذّب، مسحوراً بتفاصيل

تقنيّاتها في استلاب العقول والأجساد.

وذات مساء انفردت بي أم عبدو تحت ظلّ العريشة في فسحة دارها المقابلة لبيتنا، حيث كانت تجلس على كرسيّ قشّ صغير تمتصّ دخان سيجارتها بعمق، وتنظر إليَّ بشرود، وقد أقعيت على مصطبة بقربها. تجرّأت وسألتها بودّ: «غريبة الحكايات التي يروونها عنك يا أم عبدو، لكنّني لا أصدّقها فأنت تبدين طبيعيّة محترمة».

تلتفّ يدها على كتفي، وهي ترنو لي ببسمة ماكرة، وتقول: «طبعاً أنا طبيعيّة ومحترمة، خاصّة مع الشباب الصغار الرائعين الغضّين مثلك، الذين أحبّهم من قلبي».

تسحبني أم عبدو وراءها من يدي إلى داخل منزلها العابق برائحة أجساد الحكايات عنها، فأذهب وراءها كالمنوَّم مغناطيسيّاً. تدخلني غرفة نومها، وتجعلني أتمدّد على سريرها، بعد أن تعرّيني هي بنفسها. وإلى هنا كانت الأمور طبيعيّة، لكنّها بعد ذلك أخذت منحىً غير طبيعي، فقد أحضرت حبلاً، وأخذت تكبّل يديَّ وقدميَّ إلى قضبان السرير النحاسيّة، بينما كنت أنظر إليها مذهولاً شبه متمنّع، لكنّني ما زلت مشلولاً تحت تأثير تنويمها المغناطيسي. قالت لي: «لمَ أنت خائف؟ ألا تثق بي؟ ألا تريد أن تصبح رجلاً حقيقيّاً؟ انتظر قليلاً، وستعيش متعة لم تذقها في حياتك».

لم تكتفِ أم عبدو بتقييدي، فقد أحضرت عصابة سوداء ربطت بها عينيَّ، فلم أعد أرى شيئاً حولي، ثمّ سمعت هسيس ملابسها وهي تخلعها، تبعه صوت عود كبريت يشتعل ورائحة شمع تملأ الغرفة، فيما لا تزال أم عبدو تهدهدني بأصوات عرّافات تتنبّأ: «ستذوق متعة الجنس الحقيقيّة».

لم أدرِ إلا وقطرات شمع ذائبة تنصبّ على جسدي، تسقط على صدري وبطني وفخذيّ، فتحرقني وأتلوّى من الألم، دون أن أستطيع فعل شيء سوى قول: «ماذا تفعلين، أيّتها المجنونة! ».

تحوّلت أم عبدو في أثناء ذلك إلى ساحرة تفحّ فحيحاً وقد اعتلتني، تأتيني همساتها من عالم سرّي يلتبس عليَّ، فلا أدري أين أنا، وماذا يحدث معي.

واجتاحتني موجة متعة جديدة غريبة مع الخمسينيّة أم عبدو، حيث ذقت لأوّل مرّة في حياتي طعم جسد حقيقي، مع امرأة لعبت بدلاً منّي الدور السادي الذي كنت أرغب في اتّخاذه على طريق تأسيس شخصيّة الزعيم الجنرال.

ترك الشمع الذائب ندوباً على جسدي لوقت طويل، لكنّ التجربة تركت لديّ ذكرى أعمق، فقد ذقتُ للمرّة الأولى الألم الجسديّ الذي لطالما أذقته للآخرين جنياً لمتعتي في أحلام اليقظة.

غصت عميقاً في تجربتي الشخصيّة التي اختبرتها عندما كنت أودّع الطفولة وعلى عتبة المراهقة، واستعرضت ما حدث لي مع الجميع. كانت الظروف والأجواء تهيّئني نحو الساديّة

الجنسيّة، ومن ثمّ الساديّة السياسيّة، فالزعيم الجنرال... لكن، في لحظة ما، حدث انقطاع، وتوقّف تحقّق نبوءة جدّتي.

القسم الثالث

انتفاضة

المنتفضون

أستيقظ من كابوس مروّع يهزّ أوصالي، والعرق يتصبّب منّي غزيراً، أشعر بصرختي مدوّية في الغرفة، بحيث أرتجف مرتعباً من صداها... وأصحو.

لا أدري منذ متى أخذت تلاحقني هذه الصورة المجنونة الوحشيّة في أحلامي الليليّة؛ صورة أربعة شباب يلاحقونني بنظراتهم الوحشيّة المرعبة، وأحدهم يمسك مسدّساً فضّياً يصوّبه باتّجاهي. ثمّ أرى يده، وقد أصبحت يدي، تمسك المسدس الفضّي نفسه، أوجّهه إلى صدغي، وإصبعي على الزناد. ولا تتوقّف الصورة هنا، بل تذهب إلى مداها، إذ ينتابني الشواش الغريب، ويتصاعد إلى أعلى درجاته وكثافته في تلك اللحظة، فيضغط الإصبع بثقة ودون تردّد على الزناد، لتخرج الطلقة وتخترق دماغي. أصحو عندئذٍ مذعوراً على دويّها العالي، وعلى الألم الحقيقيّ الذي تسبّبه...

أجلس في سريري، وأتلمّس الأشياء حولي، حتّى أتأكّد من أنّني حيّ، بل بالأحرى حتّى أتأكّد من وجودي حيّاً في عالمي هنا. أمسح عرقي الذي أصبح بارداً بشكل مزعج بغطاء السرير، أسترخي متمدّداً، وأستعيد بعضاً من أنفاسي، على الرغم من الصداع الشديد الذي ينتابني بعد الكابوس.

أحاول أن أتذكّر بعضاً من تفاصيل الحلم الذي ينقلب إلى كابوس مروّع. أتذكّره بصعوبة وكأنّني كنت أغوص في عالم بعيد، ضبابي، مشوّش، ضائع، فأرى نفسي في غرفة غريبة، شبيهة بشقتي هذه، لكنّها كئيبة، بجدران كالحة مسودّة، تغطّي ثقوبها الكثيرة صور بشعة متنوّعة لزعيم جنرال عابس السحنة، تتراكب معها بغرابة وبشاعة صور لي. وفي زاوية من الغرفة، ينتصب سرير عتيق ضيّق صدئ، يرتمي أمامه على الأرض بساط رمادي كالح، مهترئ، مليء بالثقوب، مجعّد الأطراف.

أحاول أن أغوص أكثر في ضبابيّة المنام، كي أستعيد بعض تفاصيله... أذكر زوجة ضخمة، سمينة، جسدها مليء بالهضاب اللحميّة، تتعرّق دون توقف، وتتذمّر دون نهاية، لكنّها اختفت. وكأنّي أشعر بنظرات الجيران المريبة تحدجني بسخرية خفيّة، دون أن أعرف السبب، حتّى أسرَّ لي أحدهم عمّا يجري تناقله عنّي خلسة من وراء ظهري في الحارة:

«يقولون إنك مجنون. زوجتك هربت منك ومن جنونك مع عشيقها أبو ياسين الأكتع. ويقولون إنّك غبيّ، فالأكتع كان يزور بيتك باستمرار، متظاهراً بأنّه صديقك، فيما أصبحت زوجتك عشيقته، وأنت لا تدري بشيء».

وأذكر أيضاً شيئاً مبهماً تقوله لي إحدى الجارات، وكأنها تعزّيني: «مسكين حتّى أطفالك الثلاثة غادروك، ركبوا درّاجاتهم الهوائيّة ومضوا باتّجاه الجنوب».

أجادلها مُصرّاً: «عن أيّ أطفال تتحدّثين؟ ليس لديَّ أطفال! فأنا وزوجتي مصابان بالعقم منذ أن تزوّجنا».

تشيح الجارة بوجهها عنّي متحسّرة: «مسكين، ضاع عقله، لا فائدة من الحديث معه».

ثمّ يهاجمني الشواش في تلك اللحظة، وتأتيني صورة الشباب الأربعة، لينتهي الكابوس بطلقة مسدّس تمزّق رأسي، فأصحو.

يخترق ضجيج الشارع القادم من الشرفة شواش عوالمي الضائعة المبعثرة، ويعيدني إلى عالمي هنا، عالمي الحقيقي... أم هو وهميّ؟ موازٍ؟ وعالمي الحقيقي هناك، في الكابوس؟

هنا، أسكن في أحد الأحياء الحديثة من البلدة، في شقة جميلة تقع في الطابق الثالث، وتطلّ على الساحة الرئيسيّة. وأعمل، أنا، الرجل الأربعيني، مديراً للسجلّ المدني في البلديّة. مدير، لكن دون أهمّية رسميّة تُذكر.

ولديَّ هنا زوجة ناعمة، ذات جسد جميل ورشيق، ليست ضخمة ولا سمينة، ولا تتعرّق باستمرار، ترتدي في المساء قميص نوم ورديّاً شفافاً يثيرني، ولديَّ أيضاً أطفالٌ أربعة رائعون، لكن ليس لديهم درّاجات هوائيّة. وزوجتي الجميلة غادرتني، تركتني، ومضت، لكن ليس مع عشيقها، بل أخذت الأطفال وذهبت تقيم عند أهلها في العاصمة.

قالت لي: «تعبتُ، لم أعد أحتمل الحياة معك، فأنت لستَ رجلاً طبيعيّاً، تستيقظ دائماً منتفضاً من كابوس لتدخل في آخر، وعندما أحدّثك أجدك تائهاً في عالم بعيد، أو أنّك تحدّثني عن أشياء غريبة لم أسمع بها أبداً، كأنّها حدثت في عوالم أخرى».

زوجتي تظنّ أنّني أصبحت مجنوناً، خاصّة عندما أهذي في نومي متحدّثاً عن أنني الزعيم الجنرال. تسألني: «من هذا الزعيم الجنرال الذي تتلبّس شخصيته، وأنت نائم في كلّ ليلة، وكأنّك

تقف على شرفة قصر تحيّي مسيرة مؤيّدين مجانين مثلك، حتّى إنّك ترفع يدك في السرير لتحيّتهم، وأنت نائم».

أنظر إليها مثل الأبله، فاغراً فمي من الدهشة، فأنا لا أتذكر شيئاً ممّا تقوله لي!

ويبدو أن أكثر ما يزعج زوجتي، هو رغبتي في أن تحكّ لي ظهري باستمرار، في منتصفه إلى اليمين قليلاً، في منطقة لا تطالها يدي. تنتابني هذه الرغبة خاصّة في لحظات الوصال الجنسي معها، ونحن في أعلى درجات الشاعريّة، وهي تحاول أن تنتشي معي، فألحّ عليها بجنون أن تحكّ ظهري، فتتوتّر، وتذوب شهوتها. تدفعني عنها، وتهرب منّي باكية، دون أن أفهم ما المشكلة في ذلك... ففي تلك اللحظات يهاجمني حقيقة الحكاك في ظهري بشكل مسعور.

ومع أنّني أحبّ زوجتي، وأُسَرُّ بشرب القهوة معها صباحاً، مثلما أستمتع بجسدها الناعم الجميل في الفراش ليلاً، لكن في الفترة الأخيرة، هي التي أخذت تزعجني كثيراً، فقد بدأت أشعر بتوتّر شديد، وأنا أسمعها تصرخ بصوت عالٍ، متذمّرة باستمرار، دون أن أعرف الأسباب الحقيقيّة التي تدفعها إلى ذلك.

«لماذا تستمرّ في لبس سترتك السوداء العتيقة المجعّدة المتآكلة الأطراف منذ زمن بعيد، وفي كلّ الفصول، ألا تخجل بها؟».

«لماذا تمسح دائماً طاولة الطعام بالصفحة الأخيرة من الجريدة الرسميّة؟».

لماذا، ولماذا، ولماذا؟! تسألني دون توقف.

تستغلّ أفعالاً اعتدت عليها منذ زمن بعيد، حتّى قبل أن تتزوّجني، لتجد أسباباً واهية للنزاع معي.

وعندما يتكاثف التوتّر في داخلي من تذمّرها، وأكاد أصل إلى درجة الانفجار، أشعر بأنّ الشواش الذي يرافقني دائماً كخلفيّة في رأسي قد طفا إلى السطح، ووصل إلى درجة يكاد ينسفه فيها، أنهض عندئذٍ مسرعاً إلى الغرفة الثانية، وكلّ ما أرغب فيه هو الهروب من البيت، ومن زوجتي.

في الحقيقة، إنّ تكاثُف الشواش في رأسي، الذي أظن أن تذمّر زوجتي وزعيقها هو ما يحرّضه، يدفعني للفرار إلى غرفتي الصغيرة المنعزلة في شقتي الواسعة التي يحسدني الجيران على موقعها في البلدة، وإطلالتها على الساحة، والأهم على «لمسة زوجتي السحريّة» فيها.

فقد رتّبت زوجتي في الشقة الأثاث الحديث الفاخر بشكل أنيق جداً، وفق أحدث الوصفات في مجلّات الديكور والموضة، الملوّنة والغالية الثمن، بحيث أصبحتُ أشمئزّ من جماله، بطريقة تشبه كرهي لقالب حلوى مزيّن السطح بطبقات الكريما الكثيفة التي تثير فيّ الإقياء... لوحات لمشاهد طبيعيّة قبيحة منسوخة، مشدودة في إطارات خشبيّة محفورة، تملأ الجدران، ثريّات ضخمة، مذهّبة

فخمة، تتدلّى من الأسقف، أرائك ملوكيّة غير مريحة للجلوس والاستلقاء، زجاجيات كريستال تملأ الخزائن البلوريّة. الأماكن جميعها محشوّة بالأشياء الغالية الأثمان، بحيث لم تبقَ فراغات ترتاح فيها العين، وزوجتي تطارد طوال النهار فلول الغبار الذي قد يتجمّع عليها، وتزعق باستمرار بالأطفال الذين يلوّثون بلهوهم رتابة المكان.

وقد انتظمت حياتنا اليوميّة بجداول زمنيّة دقيقة لتناول الطعام، وشرب القهوة، واستقبال الضيوف بمواعيد وبروتوكولات رسميّة. حتّى ممارسة الجنس محكومة ببرنامج دقيق، مرتبط بفجوات تتخلّل حملات التنظيف الليليّة في نهاية الأسبوع.

لا يزعجني كثيراً نظام زوجتي، ما دمت أجد وجبات الطعام جاهزة، وما دامت تهتمّ بالأطفال، وتمنحني جسدها الشهيّ الجميل، وإن بأوقات متباعدة. وقد تركت لي غرفتي الصغيرة، كي ترتاح من الفوضى التي أثيرها كيفما تحرّكتُ، كما تقول. هنا تتكدّس الكتب والمجلّات على الأرفف والمكتب والأرضيّة، وهنا تسمح لي بأن أعلّق لوحات سريالية بشعة على الجدران، لا يفهمها إلّا المجانين أمثالي، كما تقول للجارات اللواتي يزرنها.

ورغم جميع محاولات زوجتي اللجوجة التي وصلت إلى حدّ النزاع الشديد معي، لم تستطع التخلص من بساطي الممدود في الغرفة، البساط الرمادي الأجرد المليء بالثقوب الذي يرافقني في حياتي منذ زمن بعيد، بحيث لم أعد أذكر منذ متى هو عندي، وكيف حصلت عليه.

في غرف زوجتي، أقضي أقصر وقت ممكن، في الطعام والنوم. أمّا هنا، في غرفتي، فأعيش أجواءً طبيعيّة معظم نهاري، وألجأ إليها هروباً من رتابة البيت وأناقته، ومن زعيقها الذي لا ينتهي. كان تذمّرها منصباً في السابق على الفوضى التي أثيرها أينما تحرّكتُ، كما تقول، أمّا الآن فأصبح مرتبطاً بالجنون الذي أصابني، كما تعتقد.

ما إن أخطو في الغرفة الثانية وأعبر بابها حتّى تحدث حولي حالة عجيبة من التحوّلات في المكان والزمان، تطال جسدي أيضاً. وكأنّني أجتاز في ثوانٍ معدودة بوابة مشعّة بأنوار باهرة تعمي الأبصار، يرافقها ضجيج وأزيز يصمّ الآذان، فأصبح أنا لا أنا، أنا آخر. ثمّ تختلط الأمور، فأجد نفسي شابّاً في العشرينيّات يقطن غرفة طينيّة واسعة قديمة، لكنّها جميلة ومرتبة، تقع في أحد الأحياء القديمة من البلدة.

ولا أدرك هذه التحوّلات بين العالمين إلّا للحظات عابرة فقط، عند بوابة العبور المشعّة، التي ما إن أجتازها حتّى أعيش في أحد العالمين بطريقة طبيعيّة متناسياً الآخَر.

في النهاية، أصبحت أتقبّل ما يحدث هنا وهناك بنحو طبيعي، ولا أعير أيّ اهتمام لبعض الأشخاص القريبين منّي، وهم يتحدّثون عن جنوني. وإن كانت بعض تصرّفاتي في الواقع تدلّ على اقترابي من حافة الجنون، فإنّني في داخلي لست مجنوناً، ولست مصاباً بانفصام في

الشخصيّة. كل ما هناك أنّني أحيا في عالمين مختلفين في الزمن نفسه، وهو ما أصبحت أتقبّله في النهاية، وأتعايش معه.

ولكنّ ما لم أستطع تقبّله هو تلك الومضات الغريبة التي تأتيني من عوالم أخرى، بعيدة مجنونة، أنوس فيها بين شخصيّات مختلفة، ربّما هي أحلام يقظة! مع أنّني متأكّد من أنّها حدثت لي في عوالم ما.

انفصلت باكراً عن بيت أهلي الريفي القديم المبنيّ من الحجر والطين. كان محاطاً ببستان جميل نعتاش من جني مزروعاته، وتمتدّ وراءه بقايا حقول البلدة التي كان يسقيها في زمن بعيد نهر غزير المياه، تحوّل الآن إلى ساقية صغيرة، لا تكاد تروي الأشجار حولها. وانتقلت إلى غرفة طينيّة واسعة في الطرف الآخر من البستان، تتشابك بالأحلام مع بيوت الأحياء القديمة للبلدة الممتدّة أمامها، وتمرّ من أمامها الساقية التي يتمّ اجتيازها بجسر خشبي قديم يتحدّى الزمان.

يومها قال لي والدي العجوز الذي طحنته التجارب والسنون: «أصبحت شابّاً، ولديك حياتك الخاصّة وأصدقاؤك العابثون، اذهب وابنِ عالمك الخاصّ في هذه الغرفة الجانبيّة... لكن ستبقى قريباً منّا، تحنو علينا، ونهتمّ بك».

تمتلئ الرفوف الطينيّة ذات الحواف المسنّنة بمثلثاتها، والغارقة في الجدران المطليّة بالكلس الأبيض، بصحون دائريّة ومستطيلة من البورسلين الأصلي، تقف على حرفها بخيلاء، تتغاوى برسوم شعبيّة قديمة ملوّنة تزيّن أرضيّتها البيضاء، وقد برعت في رسم حكاياتها جدّتي التي لم ترتجف يدها حتّى نهاية عمرها، فيما توزّعت بين الرفوف سجّادات صغيرة مشغولة على أنوال بدائيّة برسوم ذكريات الجدّات، ولوحات قماشيّة مطرّزة بأحلام نسوة بلدتنا العاشقات، ذات زمن، عندما كانت البلدة لا تزال قرية صغيرة وادعة، على ضفة نهر غزير المياه.

أمّا على الجدران، فقد تناثرت أدوات قديمة نادرة، معلّقة ما بين الحكايات المرسومة والمشغولة والمطرّزة، تكاد تنطق بأرواح من استخدمها في الأزمنة البعيدة؛ ملاعق نحاسيّة وخشبيّة متنوّعة الأحجام، وصحون خشبيّة ونحاسيّة مزخرفة بنقوش شرقيّة، وفؤوس تحطيب، ومناجل حصاد، وسيوف قديمة منقوشة النصال تعشّق الزمن فيها، وخناجر محنيّة الرؤوس، خرجت من أغمادها في أيّام الرؤوس المرفوعة بإباء، وبنادق صيد قديمة، ومزمار ورباب وطبل من أيّام الأعراس القرويّة، وفوانيس أضاءت الليالي بالأحلام والآمال، وسبحات ملوّنة تلمع حبيباتها في الظلام، وغلايين، ومناظير وحيدة العين، وجلود غزلان وأرانب، وساعات جداريّة قديمة، ومفتاح كبير بطول ذراع، يُقال إنّه كان لبوابة قلعة تحرس القرية في زمن الحكايات، عندما كان فيها نهر غزير المياه.

وتحت زجاج صندوق خشبي قديم مُطعَّم بالصدف، يحتلّ إحدى الزوايا، انتظمت في أشكال هندسيّة نقود معدنيّة وعملات ورقيّة قديمة من بلاد بعيدة في الزمان والمكان، وميداليّات فضّية وذهبيّة، وإلى جانبها ألبوم طوابع قديمة، كان جدّي قد بدأ بجمعها، وأكملها والدي الذي تنقّل كثيراً قبل زواجه في بلاد بعيدة بحثاً عن العمل، ثمّ سلّموني إيّاها أمانة كميراث من ذاكرة عائلتنا، وذكرى وفاء لتاريخ قريتنا العاشقة لغرائب الحكايات من بلاد بعيدة.

فوق الصندوق، عُلقت ثلاث صور قديمة نادرة بالأبيض والأسود لبيوت القرية القديمة المبنيّة من الحجر والطين، التُقطت في بدايات القرن الماضي، عَلّتها صورة جدّي في شبابه، هو ورفاق له في الجبال، عندما كانوا يقاتلون الغزاة.

في زاوية أخرى من الغرفة يشتعل موقد قديم، لا تخمد نيران أحطابه طوال أيّام السنة، إذ لا يفارقه إبريق الشاي الضخم وقطع البطاطا والبصل المشويّة للعشاء، فالشباب لا يأتون إلّا جائعين باستمرار. الأرض كانت مكسوّة ببسط ملوّنة زاهية مشغولة بالأنوال القديمة، أصبحت مليئة بالثقوب لاهترائها.

وفي إحدى الزوايا، تنتصب خزنة صغيرة مقفلة باستمرار، هي الوحيدة التي لا أسمح لأحد بفتحها، فهناك أخبّئ مسدّسي الفضّي الثمين الذي حصلت عليه من أحد معارفي الذين يشتغلون بالتهريب عبر الجبال.

وإضافة إلى مدخل الغرفة الرئيسي الذي يقود إليه الجسر الخشبي فوق النهر، انتصب باب جانبي يفضي منها إلى حديقة صغيرة، فيها نباتات زينة وورود ملوّنة، تنبثق من بينها أشجار مثمرة، وتحيط بها على امتداد سور حجري أشجار سرو باسقة.

في هذه الحديقة، أخذت أكدّس مقتنياتي الحجرية والفخارية، فتناثرت هنا وهناك قطع أثريّة قديمة، حصلت عليها من أطراف الجبل القريب، من بقايا مدينة مطمورة عاشت قبل ألفين من الأعوام؛ قطع من أعمدة، وتيجان بتوريقات نباتيّة، وكسرات حجريّة مزخرفة من واجهات منازل، ولويحات حجريّة خُطّت عليها كلمات سحريّة من لغات الماضي الغارق في الأسرار. وفي وسط الحديقة، انتصب تمثال حجري بطول ثلاثة أمتار لإلهة خصب قادمة من أحد الأزمان البعيدة، بثديين ناهدين ضخمين، يكاد الحليب يتفجّر منهما، ما إن أنظر إليها حتّى تراودني صور حقول مشبعة بالخضرة والنماء، تمتدّ وتمتدّ إلى الآفاق المترامية دون نهاية.

وفي إحدى الزوايا وضعت طنبراً خشبيّاً قديماً، بدولابين مروحيّين كبيرين وذراعين طويلين، كان محطّماً متداعياً في أحد الحقول، لكنّي أعدت إصلاحه ودهنه وتزيينه، بحيث لم يبق إلّا أن أُحضر حصاناً ليجرّه، تتكدّس فوقه صبايا جميلات، يذهبن لبيع الخضار في الأسواق.

وعندما كنّا نسمع أنا والأصدقاء أنّ أحد الفلّاحين الذين هبطت عليهم ثروة من السماء أخذ يهدم بيته القديم ومعه ذاكرة الأيّام، لتنهض مكانه بناية حديثة دون صدى الأحلام، نسارع لنحضر بقايا الأنقاض، التي غالباً ما كانت تُرمى في أطراف البلدة كنفايات... جرن حمام، جرن لهرس اللحوم، جاروشة حبوب، معصرة زيت حجرية، خوابٍ كانت تُستعمل للمؤونة، أباريق فخاريّة تُعلّق على أغصان الأشجار، نوافير حجريّة، مزاود طعام الماشية وسقايتها، طناجر كبيرة من النحاس، وأحجار مسطّحة نستخدمها كراسيَ وطاولات.

هنا، في هذه الحديقة، نجلس في الصباحات الشفيفة الضياء، والعصريّات الذهبيّة الضياء، نشرب الشاي أنا والأصدقاء، ورائحة الرطوبة تملأ القلوب حنيناً إلى زمن عشق وكرامة نستوقفه بالكلمات، فيشتعل أمامنا الحجر الذي يكاد ينطق آمالاً للمستقبل.

بدت الغرفة الطينيّة وحديقتها قصراً سحريّاً من عالم حكايات الجدّات القديمة، فيما كُرّست أنا ملكاً على أسرار الأحلام، والأصدقاء حولي حاشية من النبلاء بأخلاقهم الفروسيّة ونخوتهم العفويّة، التي كانت تندثر أكثر فأكثر مع اختفاء بيوت البلدة المبنيّة من الطين والحجر، ونهرها الغزير المياه.

لكن لا أحد يدري لِمَ بقي في إحدى زوايا الغرفة تلفزيون يعمل باستمرار، كأحد الضيوف الدائمين الغليظين غير المحبوبين، دخل وحده، وجلس على طاولة صغيرة، يحاول إغراءنا بصور ملوّنة تحت دعوى عدم انقطاعنا عمّا يحدث حولنا، وبقي هناك.

عندما خرجت من غرفتي الصغيرة، كانت زوجتي تنظر إليَّ باستغراب شديد، فحاولت أن أعتذر، لكنّني كنت كالعادة شارد الفكر مبلبل اللسان. قلت لها وأنا أحاول أن أتذكّر بومضات مبهمة: «كنتُ هناك، في الأحياء القديمة، أقصد في زيارة عند... لا أدري من زرت، كنت أزور نفسي هناك! لكنّني تأخّرت، فأنا آسف، لم أرد أن أتركك وحدك، أنتِ والأولاد... هل تناولتم العشاء؟».

تنفجر زوجتي باكية: «مجنون، أنت لم تغادر البيت، كنت تجلس في الغرفة الثانية بين كتبك المهترئة وأوهامك المهلوسة طوال الوقت، ناديناك كي تتعشّى معنا، فلم تجبنا، تقفل الباب على نفسك، وتبقى منزوياً هناك... مللت من زياراتك الخياليّة للأحياء القديمة وغرفتك الطينيّة، أنت لا تفهم أنك لا تغادر الشقة أبداً».

أحاول تهدئتها، فأقترب منها لأضمّها مواسياً، إلّا أنّها تنتفض وتدفعني بعدائيّة، وتجلس بعيدة عني منتحبة. بعد قليل، يخفت بكاؤها وتهدأ، ثمّ تقول مشفقة عليَّ: «اذهب إلى المطبخ، تركنا لك العشاء على الطاولة».

– لست جائعاً.

– لماذا؟ كيف ستنام دون عشاء؟

– تعشّيت هناك.

– أين؟

– في غرفتي الطينيّة بالأحياء القديمة مع الشباب.

ليلتها كسَّرَت زوجتي كلّ الأطباق والأواني في المطبخ، وأنا مذهول ممّا يحدث أمامي، لا أعرف ماذا عليَّ فعله، قالت: «هذه هي النهاية، لم أعد أحتمل جنونك، ولا الجنون الذي تعيش فيه، ولا الجنون الذي تسبّبه لي كيفما تحرّكت».

حملت الحقيبة، وجرَّت الأولاد وراءها ليلاً، وغادرت البيت نهائيّاً لتقيم عند أهلها في العاصمة.

ذهبت زوجتي وأصبحت وحيداً، يبدو أنّها غادرتني نهائيّاً هذه المرّة، ومع أنني حزنت لفقدانها، وخاصّة لفنجان القهوة معها ولجسدها الجميل، فإنني شعرت بالراحة، ليس فقط لأنني تخلصت من صراخها وتذمّرها، بل أيضاً لأنّني أصبحت أدخل إلى غرفتي بحرّية، دون أسئلتها اللجوجة.

في غرفتي الطينيّة، يحضر أستاذ التاريخ فارس دائماً في وقت متأخر، ونحن نتحلّق حول صينية القشّ على العشاء، يتربّع مباشرة على الأرض بجانبنا بعد أن يلقي بحمولته من الفلافل والحلويات، يتعشى ويشرب الشاي.

وأستاذ التاريخ فارس الأربعيني كان ذات زمن بعيد فارساً حقيقيّاً، شابّاً يمتطي حصانه الأبيض الجميل ذا الغرّة الملكيّة، ويعدو به على دروب معشوشبة في فضاءات الصباحات والمساءات بين الحقول الخضراء، يعدو بحرية وزهو وخيلاء، وقد رمى على عنقه شالاً أزرق، يترك طرفيه الطويلين مُشرَّعين للريح، يتطايران وراءه كراية لعشق الحياة، فتهفو إليه قلوب الصبايا بالحنين المختزن في أشواقهن لأمير يطير بهنّ إلى الأحلام، ويُلوّحن له بالمناديل الملوّنة بتطريزات عاشقة.

كان فارس بطل الحكايات التي تنسجها قلوب الحالمين، وهم يجلسون على المصاطب الطينيّة تحت ظلّ شجرة جوز في عصريّات الصيف، وحول المواقد المشتعلة في ليالي كستناء الشتاء.

وفجأة، اختفت حكايات السهرات، ومعها الفتيات الحالمات، فقد سادت فجأة في ليلة ظلماء مكان الحقول الخضراء مواقع دفاعيّة عسكريّة سرّية، بسبب اقتراب العدوّ المحتلّ من البلدة. ومَنَع العسكر فارس من العدْوِ بحصانه الأبيض في الحقول لأسباب تتعلّق بالأمن الوطني، ثمّ صادروا حصانه عندما لم يمتثل للمحظورات العسكريّة.

وبانتظار دفع جيشنا العقائدي للعدوّ بعيداً عن حدود البلدة بقيادة زعيمنا الجنرال الغريب الأطوار، صاحب الموهبة العبقريّة في الخطابات الحماسيّة المليئة بالانتصارات، وهو ما طال كثيراً دون أمل بالأفق، تحوَّل والد فارس بعد أن فقد حقله مؤقتاً – كما قالوا له – من فلّاح يعيش بكرامة إلى عامل بناء يومي يعيش بكرامة مهدورة.

في لحظة موته أوصى أبو فارس ابنه قائلاً: «ذهب الحصان الأبيض الشامخ الجبهة مع الحقول الخضراء، وذهبت معه الحكايات وأيّام الرخاء والعز والكرامة. أخذ العسكر كلّ شيء يا بنيّ، وتركوا لنا بيوت صفيح دون أحلام، وصحوناً نحاسيّة صدئة نتسوّل بها بقايا الطعام من معسكراتهم... قاتل يا بنيّ حتّى تسترجع الحصان الأبيض، فتستعيد كرامتنا، بدونها لن نرفع رؤوسنا أبداً».

فقد فارس الحقل الأخضر، والحصان الأبيض، ووالده المقهور من انتصارات الخطابات الحماسيّة، وأصبح أستاذاً يعطي في الصباح دروساً عن أمجاد تاريخنا المهترئ دون كرامة، في مدرسة تكسّرت مقاعدها، وشحب زجاج نوافذها بالنسيان، واهترأت أحذية تلامذتها الذين يحضرون إليها، وقد تجمّدت أصابعهم المتشنّجة المشدودة على كتب ممزقة دون حقائب. وبما أنّ راتبه الشهريّ كان مثل رواتب كلّ الموظفين شحيحاً، لا يكفيه حتّى منتصف الشهر، فقد اضطرّ لأن يتخلّى مؤقتاً عن فكرة استعادة حصانه الأبيض، وامتطى بدلاً منه سيّارة أجرة صفراء، يعمل عليها سائقاً بعد الظهر.

يتأمّل الأستاذ فارس الذكريات المعلّقة على الجدران، وهو يسند ظهره إلى الجدار، كأنّه يراها دائماً لأوّل مرّة. يثبّت بصره بعد نزهته الجداريّة على مفتاح بوّابة القلعة القديمة التي كانت تحرس قريتنا، ويذهب بعيداً في خياله، ويحدّثنا عن حصانه الأبيض الجميل الذي يعدنا بأنّه سيعود ذات يوم قريب شامخاً. نستمع إليه، نحن الشباب، ونحلم بحقول خضراء، وأحصنة بيضاء، وصبايا يلوّحن بمناديل مطرّزة.

أناول فارس كوباً ساخناً من الشاي، وأسأله متودّداً كي ينسى تعبه: «كيف هي الأحوال اليوم أستاذ فارس؟».

– في الصباح أم في المساء؟

– لنبدأ بالصباح.

– في المدرسة، لا يزال تاريخنا المهترئ يُفرّخ زعماء جنرالات، يملأون حاضرنا خراباً وخواءً... ونجعل منهم آلهة بصمتنا وخنوعنا. هم رجال عاديّون، يأكلون ويشربون مثلنا، إلّا أنّهم متميّزون بإبداعهم العبقريّ في سرقة الوطن من أناسه البسطاء، وتحويله إلى مزرعة خاصّة لقبيلتهم.

– وكيف هي الأحوال في المساء؟

– معظم زبائني المسائيّين يطلبون إيصالهم بالتاكسي إلى ملهى الدعارة في كتف الجبل، لكنّني أرفض... عجائز فاسدون من البلدة انتفخت جيوبهم بالأموال المنهوبة من عرق جبيننا. لقد حوّل أبو عصام البلدة برعاية الزعيم الجنرال إلى بيت دعارة كبير، فيما وصلت شبكة توزيع مخدّراته إلى أحيائنا الفقيرة، ونحن ننظر إليه.

كانت الأوضاع المعيشية الصعبة قد استفحلت في البلدة، خاصّة في أحيائنا الفقيرة التي أخذت الحياة فيها تنحدر إلى القاع أكثر فأكثر، مُنبئة باقتراب انفجار المحتقنين بالاختناقات اليوميّة. فما كان من سلطتنا الذكيّة، المُعرِّشة بقمعها على الأنفاس والأيّام والأحلام، إلّا أن سارعت إلى حلّ مشاكلنا، فتغاضت عن نصب لواقط المحطّات الفضائيّة التلفزيونيّة بكثافة على أسطح البيوت الطينيّة الآيلة إلى التداعي مادّياً وروحيّاً، كي نجلس ونشاهد – بموافقة أمنيّة رسميّة – عوالم ورديّة مُرَّفهة، نتماهى معها في الحلم، فتُحلّ أزماتنا دفعة واحدة، ونحن متمدّدون على البسط الرماديّة الكالحة المليئة بالثقوب.

يقول لنا الأستاذ فارس: «صور خروتشوف، وماو تسي تونغ، وتشرشل، وديغول، وعبد الناصر، وتيتو، التي كان يبثّها التلفزيون بالأبيض والأسود، أصبحت بالية. وتظنّ سلطتنا الذكيّة أنّ الصورة التلفزيونيّة الملوّنة الجديدة تحمل على العكس منها الأحلام الورديّة، صور أجساد نسائيّة عارية، مأكولات شهيّة، عطور، ملابس أنيقة، سيّارات فارهة، وقصور عامرة. لكنّ هذه الصور الملوّنة الخادعة تسرق أحلامنا الحقيقيّة، تريد أن تلهينا عن زعماء المافيات الجدد الذين يتاجرون من خلف الستار ببلادنا كلها».

يسأله كاسر: «أليس فيها صور أحصنة بيضاء؟».

– بلى فيها، لكنّها ليست حرّة شامخة، فقد أخذوها إلى حلبات سباق الخيل، وروَّضوها لكسب النقود في مراهنات القمار.

– وحصاننا الأبيض ذو الغرّة البيضاء؟

يجيب الأستاذ فارس بثقة، وهو ينظر إلى روح بلدتنا المعلقة على جدران غرفتي: «لا أحد يستطيع انتزاعه منّا ما دمتم أنتم الشباب تحلمون به يركض على دروب معشوشبة بين حقول خضراء، تنتظركم فيها صبايا بمناديل مطرّزة».

كلنا هنا شباب نحلم به يا أستاذ فارس، واجتمعنا معاً من أجل هذا الحلم.

وفؤاد كان أكثرنا إيماناً بذلك الحلم، بعدما شعر بإهدار كرامته جراء فقدان عمله بطريقة مهينة. فهو نجّار ماهر ورث مهنته وأسرارها من والده شيخ النجّارين، الأشهر في البلدات والقرى المترامية على كتف الجبل، لكنّه لا يجد عملاً منذ أشهر، حتّى ولو تصليح أثاث يتآكله السوس، كما

يقول، فالأثاث الذي يستورده التجّار الجدد وشركاؤهم من العسكر ملأ الأسواق بأسعار لا يمكن منافستها، بالرغم من سوء تصنيعه، ما جعله يغلق وكر الأخشاب الذي يعمل فيه.

ترك فؤاد منزل أهله القديم قرب الكنيسة، وأصبح يقيم معنا باستمرار في الغرفة الطينيّة، ولم يعد يفارقني أبداً. وجد مكاناً لفراشه قرب إحدى الزوايا، علَّق صليبه فوقه على الجدار، بين الربابة والمزمار تحت الطبل، وقرّر النوم هناك: «حتّى تنجلي الأزمة، التي لن تنجلي»، كما يقول.

يمتلك فؤاد جسداً قويّاً مفتول العضلات، بعدما عارك الخشب سنين طويلة، إلّا أنّ قلبه ممتلئ بالرقة والشاعريّة، يقول ما يفكّر فيه مباشرة، ببساطة وعفويّة.

يقول لي ضاحكاً أمام الجميع: «أحبّك بجنون، شبيه بالجنون الذي يضرب رأسك باستمرار، لذلك أحضرتُ كلّ الخشبيّات القديمة في بيت أهلي ومن مشغلي، وعلّقتها على الجدران، هنا ستأخذ قيمتها في العيون التي تبحث عن الحلم».

يسأله كاسر: «لكن، عن أيّ جنون تتحدث؟».

يجيب فؤاد ساخراً: «لو تعيش معه مثلي أربعاً وعشرين ساعة في النهار لاكتشفت جنونه بسهولة، فهو يحدّثني دائماً عندما يستيقظ عن زوجة جميلة في الأحياء الحديثة، ينام ويستمتع بجسدها المثير الرائع طوال الليل، فيما كان شخيره المزعج يعلو بقربي طوال نومه».

يعلق كاسر: «وما علاقتك أنت بزوجته الجميلة، فلينم معها عندما يريد وكيفما يرغب».

– جنونه لا يقتصر على أوهامه النسائية، بل إنه يوقظني في الليل ويطلب مني أن أحكّ له ظهره في منطقة لا تطالها يده.

– وما المشكلة في ذلك، يمكن أن تحكّ له ظهره ببساطة.

– أنتم لا تعرفون كيف تأتيه هذه الرغبة المجنونة، فهو يأمرني بصوت غريب لا أعرفه، وكأنه زعيم جنرال يعيش في معسكر، يقول: «أيّها القائد أبو عدنان، اهرش لي ظهري». وعندما أحكّ له ظهره يتأوّه من المتعة، وكأنه يمارس الجنس مع امرأة أخرى غير زوجته، عشيقة أجنبية أكثر إثارة.

– كيف عرفت أنّها أجنبية، وأكثر إثارة؟

– عندما يطلب منّي التوقف عن الحكّ، يكون كمن وصل إلى ذروة لذّته، ويقول هامساً بنشوة: «كم أنتِ لذيذة يا ماريلا».

ينفضّ الجميع عن فؤاد ساخرين، فيما كاسر يبتعد عنه قائلاً: «لا أعرف من الذي يتوهّم، ومن هو المجنون، أنت أم هو».

لكنّ فؤاد ينهي حديثه قائلاً: «لكنّني أحبّه، فهو أكثرنا شجاعة، لقد فتح قلبه وغرفته الطينيّة، أقصد قصره، للجميع».

يكاد كاسر لا يفارقنا ليل نهار، يتذمّر دائماً لأنه لا يجد عملاً ثابتاً، يعمل يوماً في البناء، وعشرة يمضيها في الغناء. يجلس معظم الوقت تحت شجرة الجوز قرب الساقية يغنّي بصوت نشاز، شبيه بنعيق الغربان، فيما يرافقه خالد بمزمار خشبيّ مكسور متآكل الثقوب، لا يكاد يدخل فيه الهواء المنفوخ، حتّى يخرج أزيز صفير يخربش الآذان.

يحاول كاسر أن يقنع أبو سويلم بالسماح له بمرافقته إلى العراضات الشعبيّة، كي يغنّي معه مجّاناً، ولكنَّ منشدنا يرفض طلبه قائلاً: «صوتك جاروشة، يكسر كافة الألحان الشعبيّة، ستقطع برزقي من أول عراضة معك».

فقدت عائلة كاسر حقولها الخضراء في قضيّة احتيال التجّار والعسكر الشهيرة لسرقة الأراضي في البلدة، وتحوَّل والده وأعمامه من فلّاحين إلى سائقي شاحنات مستأجرة. يروي لنا كاسر حكايات طفولته مع العسكر بين الضحك والمرارة: «ذات يوم، كنت أعمل أنا ووالدي في الحقل، فجأة دخلت علينا خمس شاحنات عسكريّة كبيرة مليئة بالجنود، تجرّ مدافع مزيّنة بالشحوم السوداء، وانتشروا في كلّ مكان بعدما ملأوا الفضاء دخاناً أسود كريه الرائحة. وعندما سألهم والدي الذي امتعض من مرورها فوق زرعنا عن سبب اختيارهم لحقولنا في القرية، ونحن نعيش منها، أجابوه بأن أشجار الجوز العالية والكثيفة الورق تخفيهم عن أعين الطائرات المعادية، والزمن الآن زمن مؤامرات على الوطن».

«وماذا حدث بعد ذلك؟!»، يسأل فؤاد مستعجلاً النهاية.

– لا شيء، كلما أردت دخول الحقل، طلب منّي الحرس كلمة السرّ العسكريّة خوفاً من تسلل الأعداء، فالزمن زمن مؤامرات كما يدّعون، وأنا أقول لهم إننا عشنا هنا دائماً دون أسرار ودون مؤامرات.

– وماذا أيضاً؟ فلقد مللنا من هذه الحكايات، عليك أن تنهيها يا كاسر قبل أن أبكي حزناً على حبّات الجوز المكسّرة التي كان من الممكن التهامها مع الشاي.

– ثمّ استقرّ العسكر في الحقل منذ ذلك الوقت حتّى قامت مكانه مزرعة راحة واستجمام لقائدهم، ومن وقتها أكرههم.

– وأنا أيضاً أكرههم بعدما حرمونا من الجوزات.

زوّار غرفتي الطينيّة كُثُر. حسين طالب يدرس الطبّ في السنة الثانية، قُتِلَ والده الذي كان يعمل مديراً في الدائرة العقاريّة على أيدي عصابات سرقة الأراضي. جهاد حدّاد شرس، لا أعرف متى يُحضر نحاسيّاته الصدئة إلى غرفتي ليعلقها على الجدار، ومتى يسترجعها بعد أن يتنازع مع كاسر على غلي الشاي. علي لديه وكر لتصليح الدرّاجات الهوائيّة والمدافئ، يحضر دائماً متّشحاً ببقع السواد على وجهه، تخصّص أخيراً بتحضير العشاء والشاي معي فضّاً للمنازعات. حيدر

يدرس في السنة الثالثة من كليّة الحقوق، يحضر دائماً مع كتبه الضخمة الثقيلة ليدرس عندنا، لكنّه يتعشى، ثمّ ينام دون أن يفتحها. ياسين بائع أدوات زينة نسائيّة جوّال، يعرض بضاعته التالفة على عربة صغيرة بغطاء قماش، كي تقيه المطر والشمس في أثناء الجدال الطويل مع النساء. خالد عازف المزمار، لا عمل له سوى معاكسة الفتيات والحديث عن مغامراته الوهميّة معهنّ خلف الأسيجة. إلياس أنهى دراسته في المعهد الكهربائي، دون أن يفقه شيئاً في الكهرباء. وماهر، وسامر، وطوني، وأحمد... وكلهم عاطلون من العمل في معظم الأيّام.

يأتون يوميّاً إليَّ في وقت العشاء، يُحْضر كلّ منهم شيئاً من الطعام، يتعشّون، يشربون الكثير من الشاي، ويسهرون طويلاً، وهم يتصايحون بمرح. وإذا ما تأخّر أحدهم ينام في أول زاوية يجدها فارغة حتّى الصباح، بحيث لا أكاد أجد في أحيان كثيرة مكاناً أرتمي فيه لأنام.

يقول كاسر: «أخذت مزارع راحة واستجمام المسؤولين تنتشر بكثرة حول البلدة في هذه الأيّام، بأسوارها العالية التي تخفي ما يحدث في داخلها، بعيداً عن روائح أكوام النفايات في أحيائنا، وعن تذمّرنا نحن الفقراء. وبدلاً من السطو بأحلامنا على هذه المزارع، سمحت لنا السلطة بأن نتلهّى بما تعرضه المحطّات الفضائيّة الملوّنة، كي ننساها، بعدما عاش أهلنا زمناً طويلاً على بثّ المحطّة الثوريّة الوحيدة بانتصاراتها المجيدة على الأشباح».

يعلّق أبو سويلم ساخراً: «لماذا أنتم منزعجون يا شباب، التلفزيون بمحطّاته الفضائيّة الملوّنة يسمح لنا، ونحن متمدّدون على البسط الكالحة الممزقة والمليئة بالثقوب في غرفنا الآيلة للسقوط، بامتلاك السيّارات السوداء بزجاجها «الفوميه»، والتمتّع برائحة شواء اللحوم، وإراقة الويسكي والنبيذ والشمبانيا على أجساد الفتيات العاريات كما يحدث في تلك المزارع».

يسأل فؤاد متذمّراً: «أستاذ فارس، أتظنّ السلطة حقاً أننا لا نعرف ما يحدث في مزارع كبار المسؤولين والضبّاط والتجّار من حاشية الزعيم الجنرال حول البلدة؟ متى ستنجلي الأزمة خارج المزارع؟».

يردّ الأستاذ فارس منفعلاً: «لن تنجلي ما دمنا نتمدّد أمام التلفزيون كلّ يوم من أجل أن تمتلئ رؤوسنا بالأوهام».

– وماذا علينا أن نفعل؟

يصرخ الأستاذ فارس بتحدٍّ، وهو يرفع قبضته في الهواء: «أن نحطّم الأوهام، وننتفض نحن والبلدات المجاورة».

وكما يحدث في الحكايات، لم ينتظر فؤاد، نهض فجأة، وحمل التلفزيون الذي يعمل وحده طوال الوقت في طرف الغرفة ويبثّ صوراً ملوّنة دون انقطاع، رفعه عالياً فوق رأسه ورماه أرضاً بقوّة، محطّماً إيّاه إلى عشرات القطع التي تناثرت على أرض الغرفة، وهو يصرخ وسط

ذهولنا: «أنا لا أريد أن أعيش في الأوهام، وها أنا أحطّمها، أريد وطناً دون مزارع وأحلام تلفزيونيّة، أريد كرامة دون زعيم جنرال، لقد تجاوزت القضيّة حكاية خبزنا اليومي المسروق، لتصل الآن إلى كرامتنا المهدورة».

صرخ كاسر عالياً، الأوّل الذي تجاوز صدمة الذهول بسرعة: «طبعاً، لا نريد الأوهام، نريد استعادة خبزنا المسروق، وكرامتنا المهدورة، وحرّيتنا المخنوقة».

نهض حسين بجسده الصغير فجأة، وكأنّه تذكّر والده المقتول، وأخذ يدور، وهو يقفز متراقصاً حول جهاز التلفزيون المحطم ويصرخ: «خبز، كرامة، حرّية».

أنفعل وأنهض أنا الآن وأهتف: «نريد خبزاً، وكرامة، وحرّية». أفتح الباب، أخرج إلى الحارة وأهتف من جديد بصوت عالٍ دون خوف... ظننت نفسي وحيداً أريد التنفيس عن غضبي، فإذا بالشباب يخرجون ورائي ويردّدون الهتاف بعدي بأصوات تزأر.

مضينا إلى رأس الحارة، خمسة عشر من الشباب، كانوا يسهرون عندي، ونحن نهتف: «خبز، كرامة، حرّية»، وسط ذهول الأحلام.

كنّا نشتعل غضباً بعدما حطّم فؤاد جهاز التلفزيون وأوهامه، خرجنا وهتافاتنا أشبه بـ«عراضة شعبيّة» لعرس صغير، فلم نثر انتباه أحد.

في الليلة التالية، انضمّ إلينا خمسة وثلاثون من شباب البيوت الطينيّة المجاورة، دون أن أعرف من أين ارتفع العلم الوطني فجأة. حمل فؤاد بجسده القوي أبو سويلم ورفعه فوق كتفيه، بينما أخذ يُنَوِّع هتافات الخبز والكرامة والحرّية بنشوة، وهو يرى الحماسة تضجّ حوله.

وما إن وصلنا إلى ساحة البلدة حتّى اشتعل الفضاء بهتافاتنا الناريّة التي خرج الناس على دويّها إلى الشرفات، يدفعهم الفضول ليستطلعوا ما يحدث، فربما هناك شيء جديد يكسر رتابة حياتهم اليوميّة المملّة. وجدونا شبّاناً صغاراً نحمل علماً وطنيّاً كبيراً، فظنّوا للوهلة الأولى أننا ذاهبون لاحتفال رسمي لتدشين مشروع برعاية الزعيم الجنرال. وكادوا يعودون إلى أعمالهم الرتيبة لولا أن خربشت آذانهم هتافات غريبة، وكأنهم سمعوا «خبز، كرامة، حرّية»، فاستغربوا، وقالوا في أنفسهم «ربّما هذا تصوير لمسلسل تلفزيوني للأطفال»، والتفتوا إلى مشاغلهم.

في المرّة الثالثة، تجاوزت أعدادنا الثلاثمئة، والعلم الوطني المرفرف في الهواء أصبح أكبر، وحملنا معه لافتات. خرج المتفرّجون إلى الشرفات مذهولين غير مصدّقين، توقفوا عن أعمالهم وتفرّجوا طويلاً، إذ يبدو أن هذا ليس تصويراً لمسلسل تلفزيوني، تهامسوا في ما بينهم: «هؤلاء الشباب، كيف يجرؤون!».

تكدّس مؤيّدون للزعيم الجنرال في شارع جانبي يطلّ على الساحة، بدوا متوتّرين بغضب شديد عند رؤيتنا قادمين، يشعلون الكثير من السجائر بأصابع مرتجفة، ويرمونها بعصبيّة قبل أن

تنتهي، تحادثوا بحدّة: «أين رجال الأمن، كي يعتقلوهم ويرموهم في السجن، هؤلاء الحثالة المنفلتين؟».

من بعيد، لمحنا سيّارة الأمن المعروفة في البلدة بلونها الطحيني تلاحقنا بهدوء، وقد تكدّس فيها خمسة من أفراد الدوريّة ببنادقهم البارزة من نوافذها، يراقبوننا بصمت. كان رئيسهم يتحدّث بجهاز اللاسلكي. أظنّه يتّصل برئيسه في المركز الأمني.

في المرّة الرابعة لم أعد أعرف أعدادنا. أصبحنا كثراً. نخرج بضعة شباب، وينضمّ إلينا منتفضون جدد كلما مررنا في شارع. يحيّي بعضنا بعضاً وكأننا أصدقاء قدامى، نتكاتف صفوفاً متراصّة ونسير كتلة واحدة قويّة متماسكة، تجمعها الهتافات المدوّية. يومها سدّت فرق «مكافحة الشغب» الزعيميّة الشوارع بتروسها، فيما تراقصت العصيّ المطاطيّة بأيدي عناصرها المختبئين تحت خوذهم الرماديّة، فمحت ملامح وجوههم الحجريّة، وتوزّع رجال أمن قنّاصة على سطوح بعض المنازل، بحيث كنّا نستطيع أن نلمح سبطانات بنادقهم تلاحقنا كطرائد صيد.

يومها تركونا محتشدين في الساحة نهتف، ريثما يندسّ المخبرون بيننا، ويتعرّفوا أكثر إلى الناشطين الذين يقودوننا.

ويومها تجمّع مؤيّدو الزعيم الجنرال في الساحة الثانية، وقد بلغوا ذروة غضبهم، هتفوا بحياته، وتنادوا «إن لم تتدخّل القوى الأمنيّة وتقمع أفراد العصابات المنفلتين هؤلاء، فسنعود إلى تشكيل ميليشياتنا القديمة المسلحة، وننظف الشوارع من هذه الحثالة... فعلناها منذ زمن بعيد مع آبائهم، ويمكن أن نعيدها الآن مع الأبناء من جديد».

لم يكن أبو سويلم وأعضاء فرقته يحضرون إلى التظاهرات إلّا بملابسهم الشعبيّة الفلكلوريّة، وبكامل أناقتهم. لمس استغرابنا عندما سألناه: «يا أبو سويلم أنت لست قادماً إلى عرس ينتهي بعشاء دسم وحلويات، هذه معركة سياسيّة».

استنكر موقفنا وهو يفتل شاربه الأيمن العريض قائلاً «أليس عرساً وطنيّاً ذلك اليوم الذي كسرنا فيه حاجز الخوف من الزعيم الجنرال، وخرجنا فيه بحثاً عن الحصان الأبيض؟ سنشعل عراضة وطنيّة كبيرة في هذه المناسبة تهز البلدة كلّها».

لا يكتفي أبو سويلم بملابسه الأنيقة، بل يعطّر نفسه بأجمل عطوره، فالمناسبة ليست عراضة صغيرة لعريس شابّ، بل عراضة وطنيّة لكلّ الشباب الذين سيُزفّون إلى الأحلام... كان كلّ شيء يعلن استيقاظ نخوتنا التي اختنقت ذات يوم تحت أقدام العسكر، ولم يتركوا منها إلّا فرقاً فلكلوريّة للأعراس ومناسبات تمجيد الزعيم الجنرال.

ارتفع أبو سويلم على كتفي فؤاد، لوَّح بخيزرانته المزيّنة بالنقوش الشرقيّة، وكأنه مايسترو يقود الجموع، وأخذ يهتف بصوته العذب القويّ شعارات: «الشعب يريد إسقاط الزعيم الجنرال»،

«الشعب يريد حرّية».

وقتها، اكتشفنا كيف يهتزّ ويرتجّ فضاء الساحة تحت هدير الأصوات وعزم التصفيق، ما أمدّ الشباب بشحنة من العزم والتصميم، ووقتها انهالت علينا حفنات الأرز وشلحات الورد من النوافذ والشرفات، من نسوة تزيّنت ثغورهنّ بالزغاريد، هنا امرأة وبناتها الثلاث، في عمر الورد، وهناك عجائز مسحن الزمن الذليل عن تجاعيد الوجوه والقلوب، فأشعلن الجوّ حماسة وهنّ يردّدن «منصورين يا شباب».

المرّة الخامسة لم تكن كسابقاتها، إذ إنَّ الأجواء حولنا بدت ملبّدة بغيوم القلق والترقب، والهدوء المريب يخفي وراءه سعاراً مجنوناً سينفجر خلال لحظات من اقترابنا من الساحة. فرجال الزعيم الجنرال صمتوا يوماً، وصبروا فيه طويلاً، لكنهم سيتحرّكون بالتأكيد الآن، فقد تمادينا كثيراً، وتجرّأت حناجرنا كثيراً على مزرعته الشخصيّة التي ابتلعت الوطن كله.

ما إن وصلنا إلى الشارع الذي يقود من الحارات القديمة إلى الساحة الرئيسية حتّى فوجئنا بحصار فرق «مكافحة الشغب» لنا من طرفيه، وقد بدا أفرادها مثل كائنات فضائيّة كريهة بملابس زيتيّة وأقنعة غريبة على وجوهها، هبطت علينا بعدما تربّصت بنا في الخفاء، بانتظار وقوعنا في الفخ. ودون سابق إنذار، ألقيت علينا القنابل المسيلة للدموع، وعصفت زخّات من الرصاص الحيّ فوق رؤوسنا.

شعرت مثل كلّ الشباب بالاختناق، وبحريق اشتعل في رئتيّ، وحرقة شديدة استقرّت في الحلق، فيها طعم حموضة لاذع، لا يفيد السعال في التخلص منها، فيما أخذت عيناي تلتهبان بشدّة، وقد نفرت الدموع اللاذعة منهما. وفي أثناء ذلك، أخذت موجات الرصاص تقترب أكثر فأكثر منّا، وأصبح الجوّ حولنا مجنوناً مليئاً بالأزيز والدخان والريبة، فيما أخذت تلويحة الموت تحلّق حولنا في محاولة اقتناص عشوائي لطريدة منا.

تقدّم أفراد الكائنات الفضائيّة نحونا في صفوف متتالية من طرفي الشارع، واثقي الخطوة، وهم يهزون بأيديهم عصيّهم المطاطيّة، يتسلّون بمداعبتها على أكفّهم الجلدية ريثما يصلون إلينا، كأنّهم يمارسون عليها عمليّات إحماء حتّى تكون ضرباتها موجعة أكثر. وفي لحظة ما أتاهم أمر الهجوم من ضابط يسير خلفهم، تراكضوا إلينا كالثيران الهائجة لينهالوا علينا بالضرب المبرّح، وهم يتلذذون بفعلهم أكثر ممّا يرغبون في تفريقنا.

كنّا نحن في الأصل قد تبعثرنا تحت تأثير الغاز المسيل للدموع، وزخّات الرصاص الحيّ، دون أن نفكّر في الاشتباك معهم، إذ لم نتوقع أيّ هجوم علينا ما دمنا نسير مسالمين، فتنادينا للفرار، لكن إلى أين؟

كان الأستاذ فارس يخاطبنا: «اهربوا إلى الحارات والأزقة، وتسلّلوا منها بعيداً».

سقطتُ على باب أحد المنازل، وأنا أحاذر الاصطدام بمتظاهر هارب باتّجاهي، فإذا به مفتوح بشكل موارب، دفعته لأدخل فإذا بفؤاد وكاسر وأبو سويلم ورائي، تراجعت قليلاً وأخذت أدفعهم إلى الداخل قبلي: «ادخلوا بسرعة».

يعترض فؤاد، وهو يسأل: «لماذا نهرب، ألسنا رجالاً؟».

يدفعه كاسر بعنف إلى الداخل، وهو يسخر منه: «احتفظ بالعنتريات لوقت آخر».

وفي لحظة الفوضى هذه من الجنون، لمحت رجلاً شبه مخبول على شرفة الطابق الثالث لبناء يطلّ على الساحة من الطرف الثاني، ينظر إلى المعركة ببلاهة، ويتابعها كاحتفال كرنفالي أو فيلم سينمائي، لا يعنيه البتّة ما يحدث أمامه في الواقع إلّا كونه متفرّجاً... كأنّ عينيّ التقتا بعينيه لثوانٍ، وأنا أدفع الأصدقاء إلى الداخل، فانتابني شعور فيه مزيج من الحقد والإشفاق عليه. وكأنّي قلت له «أعرفك جيّداً، اذهب واختبئ في الفراش تحت اللحاف مثل الجبناء، أو انزل إلى الشارع وواجه الظلم مثلنا».

وفي اللحظة التي هممت فيها بالدخول، سمعت أزيز رصاصة تمرّ قرب كتفي تماماً وتصطدم بالباب، منتزعةً خشبه. شعرت بوخز خفيف في كتفي. لمسته، شددت عليه، لا شيء، فتجاهله وأسرعت في الدخول رغم شعوري بألم بسيط، على الأغلب رضّة خفيفة جراء الاصطدام بالباب، وسيزول سريعاً... لكن لماذا يهاجمني الشواش في هذه اللحظة بالذات، بل ويحكّني ظهري بجنون أيضاً!

أغلق الباب فيسود الصمت، وكأننا انفصلنا عن عالم مجنون في الخارج. نجد أمامنا درجاً طويلاً معتماً مفضياً إلى كوّة نور في الأعلى، حيث تراءت لنا أربعة أشباح تومئ لنا بالصعود.

تركنا وراءنا في الشارع صراخ الثيران، وأزيز الرصاص، ورائحة الدخان، صعدنا الدرج ودخلنا في صمت غرفة جانبيّة شبه معتمة، فإذا نحن بمواجهة امرأة وثلاث فتيات، كأنهنّ قادمات من الحلم، تزيّن وجوههنّ ابتسامات ودودة. ناولننا شراباً غازيّاً، غسلنا به حلوقنا وعيوننا من آثار الغاز المسيل للدموع، ثمّ جلسنا على أريكة خشبيّة عتيقة تهتز تحتنا، وقدّمن لنا شاياً ساخناً.

قال فؤاد بحكم مهنته: «هذه الأريكة بحاجة إلى إصلاح».

لكزه كاسر قائلاً: «هذا ليس وقت صفقاتك التجاريّة».

جلسنا هادئين في العتمة، وفؤاد يقول: «سنبقى هنا ريثما تنجلي الأمور، ليتني أحضرت معي صليبي».

فيردّ كاسر مبتسماً: «ستنجلي بعد قليل، لا تحلم بالإقامة هنا».

داهمنا شعور بالخجل أمام المرأة والفتيات بسبب هروبنا من المواجهة في الشارع، لكنهنّ كنّ يبتسمن باستمرار، فيما كانت الصبيّة الكبرى لا ترفع عينيها عن أبو سويلم بلباسه الشعبي الجميل،

الذي لم يتخلَّ حتّى عن طاقيّته في أثناء هروبه، رغم أنّ غرّته أصبحت مشعّثة، وملابسه متّسخة، وفي فوضى شديدة.

أقول للمرأة: «من حسن حظنا أنكنّ نسيتنّ الباب مفتوحاً ونجونا نحن، لكن لا ندري ماذا حدث لبقيّة الشباب، وخاصّة للأستاذ فارس؟».

يأتيني صوت من بعيد كما في الأحلام، فإذا بالفتاة الصغرى تنظر إليَّ بعمق، وهي تقول: «لا لم ننسَ الباب مفتوحاً، عندما شاهدنا الهجوم عليكم من الشرفة، فتحناه قصداً لهاربين يلتجئون إلينا، وبالتأكيد فعل الجيران الذين يحبّونكم مثلنا».

ترتعش نظراتي إليها بالدهشة، لا أستطيع رفعها عن وجهها، وقد هربت منّي الكلمات.

يوقظني صوت كاسر وهو يقول لهنّ: «إذاً أنتنّ من كنّ يرششن الأرزّ والورود علينا في الشارع!».

يتدخّل فؤاد: «وأنا كنت أزغرد وراءكنّ بدلاً من ترداد الشعارات وراء أبو سويلم».

تقترب الصغيرة منّي كثيراً كخيال هامس، ألتقطه برعشات القلب، وهي تناولني كوباً ثانياً من الشاي، أتأمّل ملامحها في العتمة الخفيفة، وكأنّني أعرفها منذ زمن بعيد. خجلت من نفسي، إذ كدت أقول كأنني قبّلت ثغرها ذات مرّة، وطعم شفتيها العذبتين ما زال في روائح ذاكرتي.

فجأة، علت الدهشة وجهي، وأنا أرى وجه الصغيرة اكتسى رعباً غريباً، جمدتْ مكانها لا تستطيع أن تنطق بكلمة، وكاد كوب الشاي يسقط من يدها.

انتبه الجميع إلى أنّ الصبيّة الصغيرة كانت تشير بإصبعها إلى كتفي، كانت هناك بقعة كبيرة من الدم قد توسّعت على قميصي، عند الكتف تماماً، لم ينتبه إليها أحد في العتمة، هنا حيث شعرت بالوخزة والألم الخفيف عند دخولي البيت. لقد جرحتني الرصاصة إذاً في كتفي قبل أن تستقرّ في الباب، وأنا أستغرب البلل الخفيف الذي أصاب قميصي، ثمّ ما لبثت أن نسيته أمام استقبال الصبايا غير المتوقع في قلب الجنون.

اقتربت الأم وفكّت القميص، وابتسمت قائلة: «بسيطة، إنّه جرح صغير، سأضمّده بنفسي».

وفيما هي تداويني، أسأل: «من أنتنّ حتّى تفتحن لنا بيتكنّ وقلوبكنّ، تسقيننا شاياً وتضمّدن جراحنا؟».

تقول المرأة بفخر: «أنا زوجة صبري، وهؤلاء بناتنا الثلاث».

يسأل كاسر: «وأين صبري والشباب؟».

تبتسم بحزن، وكأنّها تقول بغصّة مختنقة في الحلق :«ألا تعرفون صبري؟! الزعيم الجنرال يحبّه كثيراً، لذلك جعله شبه مقيم في السجن لديه، وقد لحق به ابننا ليزوره هناك لفترة طويلة».

نظرت المرأة عبر النافذة، بعدما أزاحت الستارة قليلاً، وقالت: «أرخى الظلام سدوله، والشارع خالٍ من رجال الأمن، تستطيعون الخروج والعودة إلى منازلكم... انتبهوا في الطريق».

نزلنا الدرج بهدوء، فيما ودّعنا من كنّ أشباحاً عند رأسه، لكنّ شيئاً خفيّاً دفعني إلى أن ألتفت إلى الفتاة الصغرى، فألمح ألقاً مضيئاً مشعّاً في عينيها، وهي تنظر إليَّ، سألتها: «ما اسمك؟».

أجابت مبتسمة وهي تلمس الضمادة بنعومة: «آلاء... وأنتَ؟».

وسرعان ما ومضت في رأسي صورة فتاة قادمة من ضباب بعيد، ترتّب باقة ورد في مزهريّة، ثمّ تجلس قربي على السرير في غرفة بيضاء... فقلت لها مرتبكاً «أنا! هذا أنا».

لكنّ فؤاد دفعني مستعجلاً وهو يقول: «هل هذا وقت غراميّاتك من جديد؟».

ظلّت تلوّح لي عن رأس الدرج، بينما نتسلل تحت جنح الظلام إلى بيتي الطيني.

عدنا إلى الغرفة الطينيّة مع أصدقاء جدد كثر، ارتمينا على الأرض هنا وهناك منهكين، كان البعض لا يزال يسعل وعيناه حمراوان من تأثير الغاز المسيل للدموع، فيما أخذ البعض الآخر يروي ضاحكاً كيف استطاع أن يفلت من رجال الأمن بين الأزقّة الضيّقة، أمّا فؤاد فقد ملأ الغرفة ضجيجاً صاخباً وهو يصرخ: «أين الشاي يا علي؟».

يطلق أبو سويلم موّالاً حزيناً عن صبيّة جميلة كانت ترشّ له الورود والأرزّ في التظاهرات، فتذكّرتُ الفتاة الغامضة آلاء.

يخاطبني ربع الطبيب حسين: «جرحك سليم أيّها المحظوظ، لو نزلت الطلقة بضعة سنتيمترات قليلة إلى الأسفل لأصابتك في القلب».

يحضر عليّ الإبريق الكبير ويملأ الكؤوس الصغيرة بالشاي، فيما يقول كاسر: «في المرة المقبلة سأجعل عمّي أبو علي يُحْضر أكواماً من أحجار المكاسر بشاحنته، ويوزّعها على رؤوس الشوارع والحارات والأزقة أينما نسير في تظاهراتنا».

عندما أسمع بأكوام الحجارة أصرخ غاضباً: «أيّ أكوام حجارة يا غبيّ، ماذا تنفع حجارتك مع بنادق رجال الأمن، في المرّة المقبلة سأُحضر مسدّسي الفضّي. ومن الآن، علينا أن نحصل على أسلحتنا من المهرّبين في الجبال، ونتدرّب عليها هنا في البساتين من أجل الاستعداد لمواجهتهم».

يفاجئنا الأستاذ فارس، وهو يصرخ بغضب أكبر ممّا أبديته أنا «لا أسلحة ولا عنف في تظاهراتنا، نحن أعلنّاها سلميّة، وسنبقى حتّى النهاية سلميّين».

ننظر إليه جميعنا مذهولين، فأسأله بلهجة تراوح نبرتها بين الاحترام والتحدّي: «لماذا يا أستاذ فارس، سيقتلنا رجال الزعيم الجنرال مثل الطرائد، ونحن ننظر إليهم، كادوا يجهزون عليَّ وعليك اليوم».

يجيب بثقة: «هذه المرّة خرجنا ثلاثة آلاف، في المرّة المقبلة سنخرج ستة آلاف، وبعدها عشرة آلاف، سيخيفهم عددنا ويضطرّون للابتعاد».

يتدخّل كاسر: «يا أستاذ فارس حتّى لو خرجنا عشرة آلاف فسيجمعون قواهم ويبيدوننا في ساعات».

يردّ بحزم: «لا لن يستطيعوا، لأنه عندما تنتفض جميع البلدات معاً، فإن قواهم ستتبعثر هنا وهناك».

يتدخّل عليّ وهو يحمل إبريق الشاي متنقلاً بيننا: «هذا صحيح، وماذا بعد ذلك؟».

يجيب الأستاذ فارس «سنبقى نخرج في تظاهرات حتّى يسقط الزعيم الجنرال ونظامه».

– وإن لم يسقط الزعيم الجنرال ونظامه بعد كل هذا؟

– وقتها سننتقل إلى العصيان المدني والإضراب، ونترقى بنضالنا إلى درجة أعلى في الفعل الثوري، أمّا العصيان المسلح فلن نلجأ إليه إلا استثنائياً وفي نهاية المطاف.

أصرخ منفعلاً ودون وعي: «سنكون مجانين، إذ إنه بانتظار ذلك يموت المئات منّا، ونحن نطبّق هذه النظريّات غير الفروسيّة».

يردّ الأستاذ فارس: «وهذا ما يرغب فيه الزعيم الجنرال، هو الذي يرغب في جرّنا إلى العنف، لأنّه يعرف أنّه الأقوى في هذه الحالة».

يزداد انفعالي متجاوزاً الاحترام له بعدما وجدت أن لا فائدة من النقاش: «لم نكن أبداً جبناء نخاف من المواجهة... ليصوّت الشباب مع الرجولة والشجاعة أم مع التخاذل والهروب»، وأردفُ بهدوء ساخراً: «والأقليّة ستلتزم برأي الأكثريّة».

أرى وجوه الشباب حائرة بين شجاعتي التي برزت فجأة وبين عقلانيّة فارس ومحبّتهم له ولأحلام الفروسيّة التي يثيرها لديهم. لا يبدون ردّة فعل، يبقون صامتين، كأنّهم لم يرغبوا في وصول النقاش إلى هذه الحدّة، ومع ذلك فأنا واثق من أنّهم كلّهم معي.

وحتّى أجعل موقف الأستاذ فارس ضعيفاً مخجلاً، أسأل الجميع بهدوء وثقة، والابتسامة الساخرة تعلو فمي: «على كلّ الأحوال يجب أن نحسم، من يؤيّد الأستاذ فارس ليرفع يده».

كنت شبه متأكّد من أنّ أحداً لن يرفع ذراعاً لمصلحة الأستاذ فارس، إلّا أنّني فوجئت بالجميع يفعلونها، ويرفعون أيديهم مؤيّدين له، فأصابني الذهول. ماذا يحدث؟ وكأنّ موازين العالم انقلبت، لا أصدّق! كنت أظنّ أنني صاحب الرأي الأوّل، وأنّني الأكثر شجاعة، وأنا الذي فتحت بيتي للجميع، هؤلاء الذين يحبّونني لا يؤيّدونني! أين اندفاعهم ورجولتهم؟

أستشيط غضباً وجنوناً، لا أرى بعينيّ شيئاً، كأنّ غمامة تلفّني وتتركني تائهاً في ظلام دامس، يصعد الشواش في الرأس عالياً، ويطفو كثيفاً قاسياً. كنت أظن أنّه توارى إلى العمق منذ فترة، لكنّه

يعود يضرب رأسي ويكاد ينسفه.

أنهض كالمجنون، دون أن أعي ماذا أفعل، أتّجه إلى الباب الموصل إلى الحديقة مهتاجاً لأهرب من الشواش، أعبره، وكأنّ هناك بوابة أهرب منها، أخطو بداخلها، فتفاجئني أنوار باهرة تعمي الأبصار، وضجيج شديد يصمّ الآذان، أتجاوزها إلى...

الساحة الرئيسية أمام شرفتي بشوارعها العامّة والفرعيّة هي مثل كلّ الساحات الرئيسيّة في البلدات الأخرى، فعوالمها تستيقظ في الصباح الباكر، تضجّ بالحياة، وتستمرّ بنشاطها حتّى ساعة متأخّرة من الليل، خاصّة على الشرفات. تفتح المحالّ التجاريّة أبوابها، وينادي الباعة الجوّالون على بضاعتهم الرخيصة، وهم يدفعون عرباتهم الخشبيّة الصغيرة المهترئة، وينتشر الناس لشراء حوائجهم، ويتسكّع المتعطّلون على أطرافها للثرثرة دون نهاية، وهم يلاحقون بنظراتهم الشهوانيّة المؤخّرات الممتلئة للفتيات اللواتي يمررن أمامهم. وفيما لا ينقطع سيل السيّارات والدرّاجات الناريّة من شوارعها، يتقافز الأطفال دائماً هنا وهناك في الأزقّة والحارات، بين السيقان المتراكضة والسيّارات العابرة باستمرار، وكأنّه لا سيقان ولا سيّارات.

أنهض كلّ يوم صباحاً من كابوسي الوحشي المقيت على الضجيج المبهم من الأصوات القادمة من الساحة عبر الشرفة... ضجيج يوميّ اعتياديّ، يجعلني أصحو وأنفصل شيئاً فشيئاً عن آثار كابوسي، ويدخلني في عوالم البلدة وحركتها اليوميّة الطبيعيّة، فأستعدّ للذهاب إلى العمل في البلديّة.

استيقظت اليوم متأخّراً جدّاً، لأنّ الشمس كما تبدو تجاوزت كبد السماء، ومالت نحو العصر. الشواش ينسف رأسي بقوّة، كأنّ كابوسي طال هذه المرّة، وانتهى بعدّة طلقات تمزّق رأسي، أو كأنّ مشهد الطلقة الواحدة تكرّر عدّة مرّات.

يخفت الألم في رأسي بمقدار صحوي وابتعادي عن كابوسي ووميض عوالم الأحياء القديمة المبهم الغريب، ينسحب الشواش إلى داخلي شيئاً فشيئاً، ليحتلّ مكانه الضجيج القادم من الساحة.

تذكّرت أن زوجتي غادرتني نهائيّاً هي وأطفالي الأربعة إلى العاصمة، فعليَّ النهوض إذاً وتحضير القهوة بنفسي، كي أشربها على الشرفة.

أشمّ رائحة غريبة، رائحة خانقة فيها طعم حموضة حارقة لاذعة تستقرّ في حلقي، وتترك دموعاً حارقة في عينيّ، كأنّها قادمة من باب الشرفة لتملأ فضاء الغرفة. أصغي قليلاً من قلب الشواش الكثيف في رأسي، فأسمع ضجيجاً غريباً يصدر من الساحة والشارع الرئيسي من الجهة التالية لشقتي. ضجيج مغاير هذا اليوم، وكأنّ فيه صراخَ خوفٍ وهرجاً ومرجاً، تزيّنه إيقاعات تضبط عماءه وتلملم أشلاءه. كأنّ هذه الإيقاعات هي أصوات إطلاق نار حيّ تصدر من الساحة والشارع المجاور، زخّات طويلة متتالية من بنادق رشاشة، وأزيز رصاصها يصطدم بأغلاق المحالّ التجاريّة، فيترك صدى معدنيّاً يختلط بأصوات طلقات جديدة. وكأنّ الأصوات ليست لباعة

جوّالين، بل لشباب يطلقون صيحات فيها تحدٍّ، أو ربّما خوف، لا أدري. أصيخ السمع، غريب، كأنّهم يزأرون «خبز، كرامة، حرّية».

أنهض، أقترب بحذر من باب الشرفة، أفتحه وأطلّ برأسي. تنفتح الرائحة الخانقة وأصوات الصراخ وأزيز الرصاص عليَّ دفعة واحدة، تهاجمني فتجعلني أصحو بالكامل. أتقدّم بحذر من حافة الشرفة، فأشاهد معركة حقيقيّة في الساحة والشارع الرئيسي في الطرف الآخر، أشعر بالذهول، وأبقى مُسمَّراً في مكاني.

هذه ليست تظاهرة كما في المرات السابقة، فقد انتقلت من المسير الضاجّ إلى الاشتباكات العنيفة. أرى قنابل مسيلة للدموع يرميها بكثافة على شباب متظاهرين عناصرُ «مكافحة الشغب» الذين يرتدون أقنعة مضادّة للغازات. قنابل تفلت غازها الأبيض غمامات، وتنشر سمومها في الفضاء، فيما يحاول بعض الشباب ركلها بعيداً، لكن دون فائدة. ثمّ تنقضّ عليهم موجات كثيفة من العناصر الأمنيّين بهراواتهم الغليظة، يضربونهم خبط عشواء، فيما هم يتبعثرون متراكضين، ويتفرّقون هاربين في الحارات والأزقة.

أشعر بالأمان هنا عالياً، مشاهداً من الشرفة، لا متظاهراً في الشارع، كما أنني لم أعلن تحدّياً للزعيم الجنرال، وإن كانت تتناوبني نحوه مشاعر متناقضة معقدة من القبول والبغض، فعلامَ الخوف؟

ولكن هؤلاء الشباب، كيف يجرؤون على تحدّي الزعيم الجنرال، من يجرؤ في هذه الأزمنة على هذا الفعل، والصمت والخوف يخيّمان على البلدة منذ سنين بعيدة!؟

الشباب يركضون فارّين هنا وهناك، ألمح أربعة منهم ينسلّون إلى بيت صبري، وأحدهم – ويا للسخرية – يحضر إلى تظاهرة يترصّد فيها الموتُ المشاركين مرتدياً ملابس عراضة شعبيّة أنيقة. أبتسم بسخرية، هل كان يظنّ أنّه قادم إلى عرس شعبي، وتحوَّل إلى عراك بين عائلتي العريس والعروس؟ أليس مجنوناً؟!

وكأنّ الشاب الرابع الأخير الذي يدفع الثلاثة الآخرين إلى داخل المنزل يقف لحظة، ويرمي باتّجاهي نظرة نسر ثاقبة تجعلني أرتعد في شرفتي، وإن من بعيد. تلتقي نظرة تحدّيه بابتسامة السخرية البلهاء على فمي، التي لا أعرف كيف أداريها. أشعر بالارتباك والاضطراب، ولا أدري ما عليَّ فعله، هل أبقى تحت مرمى سهام نظراته الحارقة أكثر من القنابل المسيلة للدموع، أم أنسحب هارباً؟ وكأنّني أسمعه يقول لي: «أعرفك جيّداً، اذهب واختبئ في الفراش تحت اللحاف مثل الجبناء، أو انزل إلى الشارع وواجه الظلم مثلنا نحن الشجعان».

في اللحظة التي يدخل فيها الشاب عبر باب منزل صبري، وأتخلّص من نظراته المخيفة، أسمع صليات رصاص جديدة تتصاعد من كلّ مكان في الساحة والشارع. أضحك وأنا أرى الشابّ

يلمس كتفه متألماً، وهو يدلف إلى الداخل. لقد أصابته رصاصة بالتأكيد، هذا جزاء نظراتك الوقحة إليَّ. أنا هنا فوق، وأنت هناك تحت، أنا لم أزعج الزعيم الجنرال مثلك، فمن الطبيعي أن أشاهد أنا وتهرب أنت. صحيح أنّني أشعر بودّ خفيّ غريب لك، لكنّك أزعجتني بنظراتك، وكأنّك تحتقرني.

وفجأة، أحسّ بألم شديد في كتفي اليسرى فوق القلب قليلاً، في اللحظة التي سمعت فيها أزيز رصاصة مرّت قرب أذني، يبدو أنها أصابتني، أين؟ في كتفي!... لماذا يحدث هذا!؟ أنا لست ضدّ الزعيم الجنرال، لماذا تطلقون النار عليَّ، أنا هنا أشاهد فقط، كما يحدث في السينما. تدور المعركة حولنا والقتلى يتساقطون، بينما نغطس نحن بالعتمة في مقاعدنا الوثيرة... يبدو أنّ هذا دم، دم على كتفي، بقعة دم تكبر، يتلوّث قميصي، أنا جريح، النجدة، سأموت، أنقذوني، أنا لم أفعل شيئاً، أنا لست ضدّ الزعيم الجنرال، كنت أشاهد فقط، دم، ساعدوني... أرجوكم، ظهري يحكّني بجنون ولا أحد بقربي، والشواش يتصاعد في رأسي.

صليات الرصاص تزداد... زخات رصاص، موجات رصاص، عالم من الرصاص والجنون.

أنا الزعيم الجنرال، أحيي وأميت

انفجرت التظاهرات في البلدة قبل أسبوعين، بأعداد من المشاركين كانت تتزايد في كلّ مرة. أراقبها من الشرفة صامتاً، وكأنّها احتفال كرنفاليّ أو فيلم سينمائيّ لا أكثر...

أعرف باقتراب التظاهرة من الساحة من خلال تغيّر مسارب السيّارات في الشوارع، وتقافز أصحاب المحالّ التجاريّة والمتسكّعين في الزوايا لاستطلاع قدومها، وضجيج الهتافات المبهمة القادمة من بعيد. وسرعان ما تنبثق بعد انتظار لا يطول، فتتزيّن الساحة بالأعلام الوطنيّة، بينما تغصّ الأرصفة بالمشاهدين الذين يضيعون في زحمة المشاركين، لتبدو الأعداد وكأنّها أكبر. وتمتلئ الشرفات بالفضوليين الثرثارين، الذين يصدرون حركات مسرحيّة مفتعلة بأيديهم للتعبير عن دهشتهم الكبيرة ممّا يحدث، وهم يقولون: «كيف يجرؤون؟».

في المرة الرابعة، تجاوز العدد ألفي مشارك، ما جعل الشرفة تحتي تهتزّ من هدير هتافاتهم وشدّة تصفيقهم، والفضاء يتخلخل حولي.

حشود كبيرة، أعلام متراقصة، هتافات ناريّة، وأنا على الشرفة في أعلى طبقة من البناية... يجتاحني المشهد، يستحوذ على سمعي وبصري، وتأخذ تأثيراته السحريّة الخفيّة بالتسلّل إلى داخلي، يهزني، فتشتعل الحماسة بي ويصعد الانتشاء إلى رأسي، يخالجني عندئذٍ انفعال مبهم برغبة الانتماء إلى المتظاهرين، وتتحرّك في داخلي رغبة النزول إليهم ومشاركتهم.

وما إن أصل إلى ذروة الاقتناع بضرورة النزول من الشرفة وانضمامي إلى المشاركين في التظاهرة حتّى يهاجمني الشواش بكثافة كبيرة، بعدما طفا على السطح من جديد، يتداخل مع الحماسة الملتهبة، ثمّ يطغى عليها. يزداد الألم الذي يكاد ينسف رأسي، فيما يزداد السعار المجنون برغبة حكّ ظهري في المنطقة التي لا تطالها اليد... يشتدّ الألم والحكاك، وأقترب من حافة الجنون، دون أن تفارقني الحماسة، فأنسى أين أنا، أنفصل عمّا حولي، وأذهب في عماء ضبابي.

تمرّ لحظات، وكأنّي اجتزت فيها بوّابة ضبابيّة غريبة، وحدث تحوّل غريب في الزمان والمكان، طال بعضاً منّي. لكنّني عدت إلى الشرفة، أو ربّما لم أغادرها، فأنا ما زلت فيها، إلّا أنّها الآن شرفة فخمة، تليق بالزعماء العظماء، أعمدتها وحجارتها من المرمر الملوّن، وسقفها عالٍ تزنّره نقوش شرقيّة أخّاذة، وتزيّن جنباتها الزهور الملوّنة التي يفوح شذاها بعطور تسكرني، وكأنّ الزهور الرائعة انبثقت من عظمة المرمر.

أفتح بصري على مشهد رائع، أمواج من الجماهير الهادرة تنادي بحياتي، أنا الزعيم الجنرال المناضل، الأوحد، العبقري، ذو الصفات المئة والعشرين القدسيّة المجيدة. وهذه الجموع زحفت إلى القصر لتحيّتي، من المدن والبلدات والقرى، من الأحياء الحديثة المرفهة، ومن الحارات القديمة والأزقة الملتوية ببيوتها الطينيّة الفقيرة، ومن بيوت الصفيح ومضارب الخيام... وهذا الإيديولوجي الرائع في الحزب، «ثائركان»، متخصّص عبقري بإقامة المسيرات، يستطيع ببساطة أن يحشد الآلاف، الملايين، ويسوق الجميع كالأغنام المطيعة، ليهتفوا لي أنا راعيهم، بصوت واحد وقلب واحد «يعيش الزعيم الجنرال الخالد».

هذه مسيرة مليونيّة، مليون شخص يهتفون، مليون علم وطني بألوان النبيذي والليلكي ترفرف في كلّ مكان من الساحة. هذان اللونان الساحران أوحت لي بهما الرائعة ماريلا، لون سروالها الداخلي النبيذي، ولون ثوبها القصير الليلكي، فجعلتني أبتعد عن الألوان الكامدة التقليديّة التي ميّزت تراث عائلتنا المجيدة.

ما إن ألمح هذه الأعلام بلونيها حتّى يخفق القلب وأشعر بالإثارة والانتصاب، النبيذي والليلكي هما سرّ الأسرار، وسحر الطقوس، ورمز المطلق، وانفلات اللانهائي، ومفجّر الشبق البدائي العميق.

أرى الآن أمواج الجماهير الهادرة التي زحفت إلى قصري، أراهم بوضوح تحت الشرفة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، نسوة ملتحفات بالسواد يرين العالم حولهنّ في عتمة دائمة، ونسوة عاريات إلّا من ورقة توت تتأرجح بنسيمات الشارع، رجال بلحى يصل بعضها إلى الأرض، وآخرون حليقو الرؤوس واللحى، بل وألمح بين الهاتفين رُضّعاً يزحفون على الأرض، تركوا صدور أمّهاتهم وحضروا خصّيصاً لتحيّتي، وحتّى الأموات قدموا أيضاً، أخذوا إجازة من مقابرهم، جاء بعضهم بالأكفان، وآخرون هياكل عظميّة، يدهشني أيضاً وجود حمير، وبغال، وثيران، وكلاب، وأبقار، ودجاج، وأرانب، ووفود أجنبيّة أيضاً من كوكب المرّيخ... لم أكن أدري أنني محبوب عند شعبي إلى هذه الدرجة.

أرى سعار الجماهير المجنون يشتدّ كلّما اقتربت من الشرفة، يهتفون، يغنّون، يصرخون، يصيحون، يزأرون، يعوون، ينبحون، يموؤون، ينهقون، يصهلون، يزقزقون، يبقبقون، يثغون،

يخورون... أشعر عندئذٍ بسحر الكلمات وفتنة الصورة التي تمجّدني عالياً في السماء، بنشيد الإنشاد الكوني يتغنّى بعرشي.

يحكّني ظهري، أرفع يدي لأحكّه، لا أطالُ الموضع، يقترب قائد المرافقة المسلحة أبو عدنان بهدوء من خلفي، يحكّ لي ظهري من فوق البذلة العسكريّة. يهتز ظهري نشوة، وتهتز معه الأوسمة الوطنيّة والإقليميّة والدوليّة، المزروعة في بذلتي، من قبّعتي إلى قدميّ.

وبما أنّني رفعت يدي لأحكّ ظهري، فقد ظنّت الجماهير المحتشدة أنّني أحيّيها، يشتدّ هياجها عندئذٍ إلى أعلى درجة، ويشتدّ معها هياجي إلى ذروته، وخاصّة بتلويحات النبيذي، التي تذكّرني بسروال ماريلا المثير. ينتصب عضوي، ويتسلّل من بين الأوسمة المتساقطة من بذلتي، وأشعر بالرغبة المجنونة تجتاحني، لكن ليس من المعقول أن أترك الجماهير المحتشدة لأجلي هنا في الساحة بهذا الهياج وأذهب إلى ماريلا... فلتأتِ هي إذاً إلى الشرفة.

– أبو عدنان، لتأتِ ماريلا إلى هنا.

يتنادى أفراد الحرس الزعيمي حولي جميعهم، وهم يتراكضون بنشاط وحيويّة: «ماريلا، لتحضر ماريلا بسرعة، الزعيم الجنرال يطلبها إلى الشرفة».

لا تمرّ لحظات قليلة حتّى تحضر ماريلا إلى الشرفة عجلى، مستغربة طلبي لها في هذه اللحظة التاريخيّة من مصير الوطن، أمام الجماهير العظيمة التي تزيّن الساحة، وهي تعرف مدى انشغالي ومتعتي بحشودها. تقف بباب الشرفة مذهولة، وقد هالها منظر الجماهير المليونيّة المحتشدة أمامي، تراها تهوج وتموج وتفور، راعدة وصاعقة وناعقة، فيما تمرّ قطعانها أمامي أسراباً أسراباً لتحيّتي.

يدفع أبو عدنان ماريلا المشدوهة أمام المشهد: «هيّا ماريلا، الزعيم الجنرال يطلبك».

تتقدّم ماريلا بهدوء وحذر. تقف ورائي متردّدة. لا تريد أن تقطع متعتي وانشغالي بالجماهير الغفيرة، وهي تراني ألوّح لها باليد اليُمنى. ودون أن ترفع عينيها عن الحشود تسألني: «زعيمي الجنرال الرائع، كيف تستطيع السيطرة على هذه القطعان الكثيفة المنفلتة من الغاب؟».

أتلقّاها بيدي اليسرى، وأنا أبتسم: «ماريلا، لقد أثارتني جماهيري المحتشدة، هذه القطعان الرائعة، انتقل هياجها البدائي إليَّ، أشعر بانتصاب شديد مذهل لم أختبره من قبل، ولن يروي ظمأه سواكِ».

أدفع ماريلا باليد اليسرى أمامي، تستند بيديها إلى حافة الشرفة الرخامية، كأنها أصبحت منوّمة مغناطيسياً بهتافات الحشود العظيمة. يربكها المشهد الآن، بعدما أصبحتْ بمواجهته مباشرة، وبصعوبة تزيح نظرها عنه لتلتفت إليَّ، فترى عضوي منتصباً عموداً من المرمر، وقد تسلّل من

بين الأوسمة الهاطلة من بذلتي العسكريّة، تتردّد قائلة: «زعيمي الجنرال، هل ترغب بي حقيقة في هذه اللحظة التاريخيّة من مسيرتك المجيدة؟».

– لقد دفعتُ بهؤلاء المنوَّمين إلى ذروة الغليان، نحو مسيرة بناء عظمتي الكونيّة، والآن لا أحد يستطيع أن يخفّف من هياجهم سوى زعيمك الجنرال، بشرط أن يرتاح هو من هياجه.

أجعل ماريلا تحني ظهرها، فينسدل شعرها الأشقر الناعم الطويل على حافة الشرفة، ويصبح مشهد الجماهير أمامي أكثر شاعريّة من خلال تلويحاته مع النسيمات العابرة. أرفع ثوبها الليلكي القصير الأنيق باليد اليسرى حتّى منتصف ظهرها، فيما لا تزال اليد اليمنى تلوّح للجماهير... آه، ماريلا الرائعة، ها هي قد أتت بسروالها النبيذي الشفّاف، الذي يملأني إثارة بمجرّد رؤية تخاريمه في الأعلى وانشداده الخفيف عند الحواف، فكيف وأنا في هذه الحالة من الهياج الوطني... الليلكيّ لون ملكيّ أنيق فيه شاعريّة وفخامة، يخفي تحته النبيذيّ، لون الدم المثير الذي هيّج الجنون على مدى العصور.

وبدفعة صغيرة من إصبعي ينحل سروالها النبيذي، ويسقط بين قدميها بحفيف بالكاد يُسْمع، فتنفتح مؤخّرتها بيضاء شهيّة أمامي، تتلاعب بها النسيمات التي هبّت عليلة لأجلي في هذا اليوم من تاريخي النضالي. وما إن تنكشف مؤخّرتها الناعمة حتّى يزداد تصفيق الجماهير، وتشتدّ هتافاتهم مدوّية بحياتي وشجاعتي أنا، المستعدّ دائماً للنزال في المعارك الكبيرة.

تنحني ماريلا على حافة الشرفة أكثر، وترفع مؤخّرتها قليلاً في الهواء، فيظهر عضوها المثير في الأسفل، رطباً لزجاً، يفوح منه عبق إفرازاته الدمويّة التي أعشقها، وسرعان ما أدخل فيه بعنف حتّى النهاية، فيزداد هدير المتظاهرين أمامنا: «يعيش الزعيم الجنرال البطل الخارق».

تسحرني ماريلا، فهي جاهزة في أيّ لحظة للتجاوب معي، وللتمزّق المتجدّد لبكارة اصطناعيّة صمّمها لي الشيخ الفقيه الرائع على طريقة حوريّاته. جاهزة باستمرار، كما هي جماهيري المحبّة الودودة التي نزفت لأجلي، وهي تخطّ بدمائها كلمات التأييد في رسائل محبّة لا تنقطع. وبسبب ركض ماريلا المفاجئ من أجل الحضور بسرعة، ارتفعت حرارة جسدها، وتعرّقت، مثل الذين يصرخون ويتقافزون ويتشقلبون دون توقف في الساحة، ما جعل عضوها من الداخل دافئاً. وسرعان ما تحرّض بدخولي فيه بحركاتي الشبقة البارعة، فأصبح دمويّاً حارّاً، ثمّ مشتعلاً بحريق أرجواني، ما لبث أن انتقل لهيب ناره إلى جسدي، وانتشر فيه، حتّى وصل إلى اليد اليمنى الملوّحة عالياً للجماهير. أصبحتُ ناراً ملتهبة.

تحوّلت اليد اليمنى إلى شعلة نار أرجوانيّة متراقصة، تقود جموع المتظاهرين أمامي كالمايسترو، بينما كانت اليد اليسرى تعبث بمجون بخصر ماريلا وطرف مؤخّرتها. أخذت ماريلا تهزّ مؤخّرتها بحيويّة سحريّة في كلّ الاتّجاهات الكونيّة، لتقودني إلى حافة الجنون الاهتزازي،

وأخذت أهذي من المتعة بالانسجام مع تراقصها. وسرعان ما انتقل الهذيان إلى الجماهير التي اندفعت تتقافز برقصة الغابة البدائيّة، وهي تنادي بحياة رئيس القطيع... توحّدت ماريلا عندئذٍ بالجماهير العظيمة، وشعرت بأنّني أعانقهما معاً، وأخترق الاثنين في الوقت نفسه بعضوي الناهض نحو المجد.

أخذ الجميع يتماوجون الآن بحركة اتساق كوني سرمدي؛ أنا الزعيم الجنرال، وعضوي المنتصب إلى الذروة متألقاً، ويدي المشتعلة نيراناً أرجوانيّة، وماريلا الملتهبة بركاناً مشتعلاً، والجماهير المتفجّرة زلزالاً مدمّراً... وفي هذه الأثناء، ارتسمت الابتسامات على شفتيَّ انسجاماً مع التحيّات. ابتسامات عفويّة، مرحة، رصينة، راضية، عابسة، قدسيّة... أنا الزعيم هتلر، الزعيم موسوليني، الزعيم فرانكو، أنا الرفيق ستالين، الرفيق ماو تسي تونغ، الرفيق كيم إيل سونغ، الرفيق كاسترو، أنا الديمقراطي تشرشل، المحرّر ديغول، أنا البطل الأممي غيفارا، أنا معبود الجماهير عبد الناصر، أنا النبي بوش، أنا ملك الملوك، أنا الإمبراطور الأعلى، أنا الأوحد في الأرض، أنا الأعلى في السماء، وعلى الأرض السلام، أنا الكون السرمدي، أنا الحقيقة المطلقة.

تتسارع المتعة الآن مع ماريلا نحو الذروة. ألاحقها بجنون، والجماهير تلاحقها معي، وفي لحظة ما لا أعود أتحكّم بما أتصرّف أو أتفوّه به، يصبح كلّ ما أفعله هذياناً يصدر من عمق غابة وحشيّة، وأصبح أنا نفسي وحشيّاً، أغرز أظافري في الجسد أمامي الذي لم أعد أدري أيّ جسد هو، يقترب فمي من الكتف وينهش منه قطعة، أصبح مسعوراً.

وبالتناغم مع ما أفعل، ينفجر سعار الجماهير معي، يتقافز بعضهم على بعض، يمارسون الجنس بشبق بدائيّ، فينهشون، يمتصّون الدماء، ويقرمشون العظام، لا فرق بينهم، تمّحي الفروق الطبقيّة، لا فرق بين رجل وامرأة وطفل، ميّت وحيّ، ثور ودجاجة، أرضيّ أو مرّيخيّ، كلّهم منطرحون بعضهم فوق بعض، يخترقون أيّ ثقب يتلألأ أمامهم، يهزّون، ويهتزّون، ويتقلبون، ويلهثون، في كتلة هلاميّة واحدة. تتصاعد عندئذٍ موسيقى فرق الجيش النحاسيّة عالياً من تحت الشرفة، كي تجعل المشهد أكثر سحريّة وحماسيّة، ويهرول جنود الحماية في أسفل الشرفة على إيقاعها بانفعال قويّ، كي يجعلوا الاستعراض أكثر حيويّة.

وبقدر ما أصعد إلى الذروة وأقترب من الانفجار، يتصاعد جنون الجماهير المسعورة أكثر فأكثر، ويتعالى معها إيقاع الموسيقى الحماسيّة، وتزداد سرعة هرولة الجنود، تحدث جميعها في مظهر استعراضي أخّاذ. يقترب عندئذٍ قائد المرافقة أبو عدنان ويحكّ لي ظهري بشدّة من فوق بذلتي العسكريّة... ونصعد إلى الانفجار معاً جميعاً، أنا، وماريلا، والجماهير، والموسيقى. ننتشي جميعاً، فتهدر الأصوات بأقصى ما لديها من طاقة على الإيقاع المتسارع للفرقة النحاسيّة التي

أخذت تعزف السيمفونيّة التاسعة لبيتهوفن، «سيمفونيّة الانتصار»، تطلق المدفعيّة إحدى وعشرين طلقة، وينفجر البركان في عضو ماريلا الساحر.

وبما أنني بلغت ذروة النشوة، فقد وصلت إلى مستوى التعبير البليغ عن عظمة هذه المناسبة ببضع كلمات سحريّة، تجعل الجماهير المحتشدة تتلقف بعشق في هذه اللحظات التاريخيّة كلّما أهمهم، وأغمغم، وأرطن به. أصرخ بصوت جهوري: «أيّتها الجماهير العظيمة، لقد حققنا انتصاراً جديداً في هذا اليوم على التخلف، والرجعيّة، والاستعمار، والإمبرياليّة، والعولمة، والعدوّ المغتصب، والفيتيشيّة، والتروتسكيّة، والتفكيكيّة، والتكعيبيّة، ووصلنا إلى ذروة النجاح، وها نحن نعيش نشوته... وإلى اللقاء في نجاحات جديدة نصل فيها إلى ذروات أعلى فأعلى».

أسحب الآن عضوي من ماريلا، وسط هالة كبيرة من التصفيق والصفير الحماسي وهتافات النصر، ومع أنه لا يزال صلباً، ولا يزال ينضح كالعادة بقوّة متجدّدة، أتوقف الآن رأفة بهما، بماريلا النازفة دماً، وقد ارتمت منهكة على حافة الشرفة، وبالجماهير المسكينة المنطرحة على أرض الساحة، فهما بحاجة إلى وقت وراحة ريثما تتجدّد قواهما.

تصمت الموسيقى الحماسيّة، ويتوقف الجنود عن هرولتهم، وتهدأ الجماهير.

أرى الجماهير الغفيرة الآن أشلاءً مرتخية، محطّمة، مشلوحة على الأرصفة، تتسلّل زاحفة بصمت عائدة إلى البيوت، وقد تفرّغت طاقة الهياج البدائي في داخلها، فيما الأعلام التي كانت ترفعها عالياً أصبحت منكّسة ذابلة، مجرورة على الأرض، أو ملفوفة تُرْكَنُ تحت الإبط... لقد انتهت المسيرة المظفّرة.

الآن ينتظر هؤلاء المناضلون منّي مبادرة على حسن سلوكهم طوال ساعات، ينتظرون منحة ماليّة، أو أكياساً من الأرزّ والسكر، أو ربّما من الأفضل أن أرسل لهم صورهم، وهم يحيّونني في المسيرة، عن طريق المحطّات الفضائيّة التلفزيونيّة الوطنيّة، تتكرّر لعدّة أسابيع تذكاراً لانتشائهم الوطني. وبانتظار أن تتراكم الضغوط اليوميّة والوطنيّة، ويشتدّ التوتّر داخل نفوس الجماهير الصابرة، وقبل أن تفكّر بتحرّك جديد ضدّي، يكون الإيديولوجي «ثائركان» قد هيّأ لمسيرة قادمة، تهتف بعظمتي السرمديّة، لتمتصّ طاقتها من جديد، وتبدّدها في الصراخ والرقص.

أشعر بتأفّف ماريلا واشمئزازها منّي دون أن تجرؤ على الإعلان عن ذلك، لكنّني ألاحظهما بوضوح على وجهها الشاحب المنهك، وفي تصرّفاتها العصبيّة، وفي شعورها بالإرهاق والضجر والنزق. ما زالت منحنية أمامي على طاولة المكتب الفخمة المصنوعة من خشب الأبنوس، مكشّرة بألم، وشعرها الأشقر الناعم الطويل مبعثر على سطحها، ومؤخّرتها الناعمة البيضاء مكشوفة مشرَّعة للهواء، وقد تبعثرت الوثائق الرسميّة أمامها، تمزّق بعضها أو تكوّر، حسب انفعالات الألم التي تعانيها، وهي تتمسّك بها وتعتصرها.

أنظر إلى عضوي الذابل المنكسر الذي بذلت ماريلا مجهوداً كبيراً كي ينتصب، دون نتيجة. يبدو مثل الرايات الوطنيّة التي انتكست إثر الهزائم الشنعاء التي ينالها الآن جيشي العظيم. يتصبّب من جسدي عرق غزير، وأشعر بالخذلان، والإخفاق، والإحباط، ويتزايد لديَّ إحساس بالاختناق من الهواء الفاسد في الغرفة. تحاول ماريلا أن تقف، وقد لاحظتُ أن حرف المكتب الخشبي الحادّ ترك خطّاً أحمر أسفل بطنها، يكاد الدم ينفر منه بسبب محاولاتي الفاشلة في الدفع العنيف داخلها. تحاول أن ترفع سروالها النبيذي الممزّق، وأن ترخي ثوبها الليلكي المجعّد.

تقول لي: «يبدو أنّه لا فائدة اليوم أيضاً يا زعيمي الجنرال، لن ينهض كما في الأيّام الغابرة بمجدها العظيم... ربّما يجب أن ترتاح لفترة من الزمن، أن تقضي عطلة في الجبال الخضراء، أو على شاطئ البحر الأزرق، وربّما نسافر معاً إلى بلدي سلومانيا حيث الغابات تمتدّ دون نهاية، كي نمضي رحلة استجمام طويلة بعيداً عن مشاغلك الرسميّة... فقد يتجدّد نشاطك هناك، وتعود إلى طبيعتك وانتصاراتك المجيدة».

أثور بغضب شديد كالعاصفة: «يا مجنونة، كيف أسافر في هذا الوقت، والبلاد تشتعل كلها ضدّي بالتمرّد. هؤلاء الرعاع، المجرمون، الإرهابيّون، المنفلتون من القانون، يريدون إزاحتي عن كرسيّ العرش واحتلاله مكاني، والغبي أبو عدنان الذي كنت أعتمد عليه في القضاء على المؤامرات، لا يستطيع أن يخمد تظاهرة بضعة متمرّدين حتّى تكاثروا واشتدّت شوكتهم، وانتشروا في طول البلاد وعرضها، وكادوا يصلون إلى العاصمة ويحتلّون ساحاتها».

تسألني بنبرة غير مبالية: «وماذا ستفعل الآن؟».

أمسكُ رأسها الصغير بقبضتي الكبيرة وأهزّه بعنف: «أنتِ قولي لي: ماذا سنفعل الآن؟ سنفعل، سنحاول من جديد حتّى ينتصب، وستحاولين أنتِ بالذات حتّى تنجحي، أستغرب أنّك لم تعودي قادرة على إثارتي كما في السابق... يجب أن ينتصب من جديد، عليَّ أن أستعيد انتصاراتي وأمجادي، يجب أن أهزم هؤلاء الرعاع المنتشرين في الشوارع، وإلّا فسأحرق الأرض بمن عليها».

يرتجف صوتها: «لقد لبست أجمل ملابسي الشفّافة المغرية، ولجأت إلى أقصى مهاراتي الرياضيّة لابتكار أوضاع غريبة جديدة لإثارة شهوتك، استعملت مؤهّلاتي الفمويّة، الشرقيّة والغربيّة منها، ولم نصل إلى نتيجة. وللحظة ظننت أنّنا نجحنا، فقد سمعتك تلقي خطاباً بصوت جهوري وأنت تحاول الدخول بي، قلتَ: «أيّتها الجماهير العظيمة، لقد حققنا انتصاراً جديداً اليوم....»، وفيما أنت تلوّح بيدك للجماهير المتخيَّلة، أخذت تعدّد أسماء أصدقاء لك لم تُعرّفني إليهم سابقاً، مثل الرجعيّة، والاستعمار، والإمبرياليّة، والعولمة، والتفكيكيّة... هؤلاء الذين ساعدوك سابقاً ثمّ تركوك وحيداً. لكن يبدو أنك لم تحقق الانتصار العظيم الموعود، ظننتَ أنّك كدت تحقق

انتصاراً، فكان وهماً يا زعيمي الجنرال. أنت لست على الشرفة ولا جماهير محتشدة أمامها، بل في المكتب، وحيداً، وعضوك مرتخٍ، لا ينتصب أبداً».

أردّ بجلافة محاولاً التبرير في الوقت نفسه: «لم أحقّق انتصاراً بسبب المعلومات الخاطئة التي وردتني من الغبيّ أبو عدنان، ومن الإيديولوجي المجنون «ثائركان»، فقد ضلّلاني».

– ربّما يا زعيمي الجنرال المشكلة فيك، لا في من حولك؟

أصفعها صفعة شديدة ترمي بها أرضاً، فتنزف شفتها: «كيف تتجرّئين على قول هذا، لولا اللحظات الجميلة التي قضيتها معك لذبحتك بيدي... اغربي عن وجهي».

– سأذهب ريثما تهدأ وتطلبني من جديد... هل تسمح الآن برفع سروالي النبيذي، وإرخاء ثوبي الليلكي؟

أجلس الآن وحيداً، أفكر بتطوّر الأحداث في البلاد، وكيف وصلت إلى هذا المنحى الخطير من التهديد لسلطتي. أحاول أن أبحث عن الأسباب، فتتّجه مباشرة إلى أسرتي الحاكمة المُعظَمة... أتذكّر عبث زوجتي، السيدة الأولى، وهي تنهب جميع المشاريع الحيويّة في البلاد، تغتصب نسبة مئويّة عالية من الأرباح حصّة شخصيّة لها ولأقاربها، مقابل ضمان استمرارها.

تقول زوجتي لي باستمرار: «التفت أنت إلى أمورك الشخصيّة يا عزيزي الزعيم الجنرال المحبوب من النساء، اذهب واستمتع بسروال ماريلا النبيذي، وبالسراويل الملوّنة للمناضلات اللواتي يُثرن الإيحاءات في خيالك ليلاً لحلّ المشاكل الوطنيّة. ما أفعله هو ضمانة تاريخية للعائلة الفاسدة التي ترأسها، أنا أفعلُ ما أستطيع لإنقاذها أمام تردّي أوضاعها، بسبب عبثك وتبذيرك لثروات مزرعتنا الوطنيّة في هلوسات عن مشاريع اقتصاديّة وخدماتيّة لمصلحة الرعاع الثائرين ضدّك. انظرْ ماذا تفعل زوجات الزعماء الآخرين من تبذير، وسترى كم أنا اقتصاديّة، وأتصرّف باعتدال واتّزان، وتهمّني المصلحة الوطنيّة العليا للمزرعة أكثر منك».

مجنونة هي زوجتي، ألا يكفي أنها أصبحت باستمرار ممتلئة بأطنان من اللحوم على جسدها، ومن الماكياج على وجهها، وتعبق بروائح عطور تدفعني للتقيّؤ، بل وأخذت تتدخل هي وأقاربها بطريقة إدارتي الشخصيّة للبلاد. وإذا ما نبّهتها إلى تماديها، تهدّدني بأنها ستزعق عالياً أمام وسائل الإعلام الإقليميّة والأجنبيّة، وستفضح أسراري الشخصيّة... أين منها تلك الزوجة الصغيرة الجميلة التي كانت تقف إلى جانبي، وأنا أبني سلطتي.

سأكشّر عن أنيابي القديمة من جديد حين أنهي أزمة تمرّد الرعاع في الشارع الذين سأحرقهم أحياءً. سأدسّ لها السمّ في الطعام، كما فعلت قديماً مع أخي العابث الذي حاول إلصاق تهمة الجنون بي لانتزاع السلطة منّي، أو أفجّر سيّارتها بعمل يبدو تخريبيّاً قامت به «عصابات الظلال»، كما حدث مع العديد من الأصدقاء الذين تجرّأوا على سلطتي... وأجعلها شهيدة الوطن.

ولكن لمَ أجعلها شهيدة؟ فلتمت كالكلبة مع أحد عشّاقها من ضبّاط الحرس الزعيمي، في أحد الأوضاع الإباحيّة الشنيعة في غرفة نومه، حيث تتسلّل إليهم أثناء غيابي عن البلاد في زيارات رسميّة. ولتتسرّب صور الفضائح إلى وسائل الإعلام الأجنبيّة، وأبدو أنا زعيماً جنرالاً مشغولاً بقضايا البلاد الوطنيّة، فيما هي تخونني وتخون مبادئ الثورة والوطن.

ولمَ لا، فربّما أتخلص أيضاً بالطريقة نفسها من أهلها جميعهم، وأُلحق بهم أولادي المعربدين الذين لم أنهِ شرورهم وتماديهم على سلطتي، بالرغم من توزيعي الثروات الوطنيّة والمهامّ القياديّة بينهم.

أشعر بالضيق من الأفكار السوداء التي تراودني، شيء ثقيل يضغط على صدري وصداع قاسٍ يهاجمني، تزداد شدتهما وأنا أتذكّر إخفاقاتي مع ماريلا، وهزائمي أمام الرعاع المتظاهرين. لماذا أخذت وتيرة هذه الإخفاقات والهزائم تزداد في هذه الأيّام وأنا ما زلت قويّاً، وما زلت الزعيم الجنرال الممجّد ذا الصفات المئة والعشرين المقدّسة، هل من الممكن أن يحدث هذا وأنا في كامل قواي العقليّة والجسديّة؟

أنهض وأحضر مسطرة، أُخرج عضوي كي أقيسه دون انتصاب، تخيفني مواجهة الحقيقة، لقد أصبح أقصر، وإذا ما استمرّ هكذا بتناقص طوله، وترافق أيضاً بصغر محيطه وليونة شدّته عند الانتصاب، فهذا يعني تراجعاً في قواي العقليّة وقدراتي التنظيميّة في السيطرة على مجرى الأمور حولي، وبالضبط بداية انهياري وانهيار سلطتي. وإذا ما تسرّبت أسرار الدولة هذه إلى المواطنين، فستنكشف مواطن الضعف في سلطتي، وتتكوّن فجوات خطيرة يمكن للأعداء أن يتسللوا منها... وقد يجدون زعيماً جنرالاً آخر لديه مقاييس عملاقة لعضوه ينافسني بها.

أفتح زجاج النافذة التي تطلّ على حديقة القصر، كي أهرب من الأفكار السوداء، وأتنسّم بعض الهواء، تفاجئني رائحة خانقة تتسلّل إلى الحلق، أحسّ بها لاذعة حارقة بطعم أقرب إلى الحموضة، تدفع للتقيّؤ. تترافق الرائحة بأصوات غريبة، قادمة من وراء الحديقة، من الساحة العظمى أمام القصر، وكأنّ مجموعات كبيرة من الجماهير تهتف بحياتي، لكن بكلمات مبهمة لا أستطيع فهم معناها.

لكن إن كانت هناك جموع تهتف بحياتي، فلماذا هذه الرائحة الخانقة الشبيهة برائحة القنابل المسيلة للدموع؟

أطلب قائد المرافقة أبو عدنان، وأسأله مستغرباً: «ما هذا؟ ماذا يحدث حول قصري؟».

يتلعثم: «كما ترون سيّدي الزعيم الجنرال، وصل المتآمرون بزحفهم إلى الساحات الرئيسيّة في العاصمة، وها هم يتقدّمون إلى الساحة العظمى أمام القصر».

أنفجر غضباً وأصرخ: «ولماذا لا تطلقون النار عليهم؟».

– إننا نطلق النار، ولكن في الهواء لإخافتهم.

يزداد غضبي: «لماذا لا تطلقون النار عليهم مباشرة، تحصدونهم بالرشاشات، وتقصفونهم بالدبّابات والصواريخ والطائرات؟».

يتلعثم بشدّة أكبر: «تحريك قطع عسكريّة بمثل هذه الأسلحة يحتاج إلى أمر مباشر منكم سيّدي الزعيم الجنرال، لا أحد لديه الصلاحيّات بذلك سواكم، وإلّا فسيبدو الأمر انقلاباً عسكريّاً على سلطتكم».

أهدأ قليلاً، أعود وأسأله ببعض الهدوء: «ولماذا لم تخبرني بذلك منذ لحظة وصولهم؟».

يتشجّع قليلاً عندما يشاهد بعضاً من الهدوء قد عاد إليَّ: «أغلقتم باب مكتبكم على نفسكم منذ الصباح، عندما دخلت لعندكم العزيزة ماريلا، وفي تلك اللحظة أخذ المتآمرون المجرمون يقتربون من الساحة، وأنتم لا تسمحون لأحد بالدخول عليكم في مثل هذه الساعات الحميميّة خوفاً من انكشاف مؤخّرتها أمام أحد، ومعرفة ألوان سراويلها الداخليّة، وقد تنقطع رعشاتكم المتأوّهة الغالية على قلوبنا... حتّى لو قصف العدوّ القصر ممنوع الدخول، كما قلت لي ذات مرّة، إلّا إذا استخدمتم الزرّ الأحمر لطلبي».

أذهب في التفكير بعيداً وأسأله ساهماً: «منذ متى تتداعى الأمور حولي وتتدهور إلى هذه الحالة؟».

– منذ زمن طويل، التقارير اليوميّة التفصيليّة كلها موجودة على مكتبكم، لكنّني أراها مكوّرة وممزقة... سيدي الزعيم الجنرال، يبدو أنّكم لم تجدوا الوقت لقراءتها.

– إن لم أجد الوقت، فلماذا لم تخبرني بها مباشرة؟

– حاولت كثيراً سيّدي الزعيم الجنرال لفت انتباهكم إليها، لكن يبدو أنه ليس لديكم الوقت. ففي الليل أنتم غارقون مع مناضلاتنا الكريمات، تحاولون إيجاد حلولٍ لمؤامرات خطيرة تحيق بالوطن، وممنوع أيضاً إزعاجكم في هذه اللحظات الحميميّة الحسّاسة.

– وفي النهار؟

أراه يهمس الآن: «آسف سيّدي، تنامون معظم النهار بتأثير التعب والسهر الليلي، تعبّون الكثير من الويسكي، ولا تكادون تصحون مساءً إلّا وتغطسون في مهامّكم الليلية».

أقلده هامساً: «لكنّني أطلبك أحياناً كثيرة في النهار عندما أصحو، وأسمح لك استثنائياً بالدخول لعندي بوجود ماريلا، إذ جعلت لك زرّاً أحمر».

يزداد همسه وهو يقترب من أذني: «نعم تطلبني لمهمّة سريّة لا يمكن الإفصاح عنها لأحد، لأنّها من أسرار الدولة الخاصّة جداً».

– لا أتذكر ذلك، ما هي؟

– تطلبني كي أحكّ ظهركم في منطقة لا تطالها يدكم في لحظة وصولكم للنشوة.

أحتدّ الآن بصوت عالٍ: «ولمَ لا تحدّثني في تلك اللحظات؟».

لكنّه يستمرّ هامساً: «لا تسمحون لي سيّدي الزعيم الجنرال، أنتم الذين تتحدثون فقط، وأنا أحكّ الظهر، تقولون لي إنكم تفتقدون أناساً قريبين إليكم، ولا تجدون أحداً مخلصاً سواي. لا أفهم ما تحدّثونني عنه بالضبط، شيء ما عن شواش يطفو في الرأس ويتكاثف إلى درجة الانفجار، شيء يكاد ينسفه، ويجعلكم تتنقلون بين... لا أدري، بين عوالم على ما أظنّ! ».

أعود أنا إلى الهمس: «وهل تفهم ما أقوله لك؟».

– هنا تكمن سيّدي الزعيم الجنرال سرّ عظمتكم، أنتم وعوالمكم السريّة، تتحدّثون بأشياء إعجازيّة تأتيكم كالوحي، لسنا بمستوى فهمها... أنا أتفهّمكم بعكس زوجتكم الكريمة، فقد أسرّت لي ذات مرّة، وقد جاءت إلى غرفتي بقميص النوم، أنّ الجنون يعصف بكم. أنا آسف هي قالت ذلك، ولست أنا، وهي أتت من تلقاء نفسها لعندي بقميص النوم، وكانت عارية تحته، ولم أعرف لون سروالها الداخلي، إذ إنّها أتت بدونه، ولكنّها بالتأكيد لا تتفهّم أنّ ما تقولونه هو شيفرة سريّة ترتّبون فيها أفكاركم السريّة.

أعود إلى الصراخ: «لكن قبل قليل كانت هناك جماهير محتشدة في الساحة العظمى أمام القصر، خرجت تهتف بحياتي... كانت هناك مسيرة مليونية، مليون حنجرة تهتف، مليون علم يرفرف».

– آسف سيّدي الزعيم الجنرال، أخاف أن يكون هذا مرتبطاً بالشواش الذي يضرب رأسكم، شيء متعلّق بالأوهام التي يثيرها، منذ فترة طويلة لم تعد تخرج مسيرات مؤيّدة. في المرّة الأخيرة، كانت هناك مسيرة مجموعات صغيرة من المؤيّدين، اندسّ فيها الحرس الزعيمي بعدما خلعوا ملابسهم العسكريّة الرسميّة، حتّى تبدو ضخمة أمام وسائل الإعلام. الآن، البلاد كلّها تشتعل بتظاهرات الرعاع المجرمين ضدّنا، والإيديولوجي «ثائركان» لم يعد يستطيع إقناع المواطنين بازدياد المؤامرات على الوطن وإخراج مسيرات مؤيّدة لكم.

– هذا غير صحيح. كانت هناك مسيرة مليونيّة، ولقد كانت ماريلا معي على الشرفة، كنت أنا وهي والحشود مسرورين جميعاً، ووصلنا معاً إلى ذروة النجاح بعدما حققنا انتصاراً مدوّياً.

– ماريلا خرجت من مكتبكم باكية قبل قليل، وقد تمزّق ثوبها الليلكي الأنيق، وظهر من تحته سروالها النبيذي، الذي تمزّق أيضاً، بحيث رأيت مؤخّرتها البيضاء.

– وأين هي ماريلا الآن؟

– ذهبت وهي حزينة، وأغلقت باب غرفتها على نفسها في الطابق العلوي.

– سأرى ماريلا للحظات، وسأتولى قيادة عمليّات قمع الرعاع مباشرة أنا بنفسي.

أمضي إلى مخدع ماريلا المنعزل في الطابق العلوي، المخصّص لها بعيداً عن أعين الفضوليّين من الحاشية. في العادة لا أصعد إلى هناك، بل أطلبها لعندي، يزداد استمتاعي بجسدها الشهيّ ضمن أجوائي العسكريّة في مكتبي الرسمي، بدلاً من الأجواء الشاعريّة الناعسة التي اصطنعتها في مخدعها.

أشعر برغبة في تطييب خاطرها قبل أن أخوض معركة شرسة مع الرعاع المتآمرين... هذا ظاهرياً، لكنّني في الحقيقة بحاجة لتحقيق انتصار معها – أو بالأحرى عليها –، كي أتحرر من عقدة الإحباط والخذلان التي ترافقني هذه الأيّام. فربما ينتصب عضوي هذه المرة في أجواء مغايرة شاعرية، وأحقق انتصاراً مدوياً بين فخذيها، قبل بدء معركتي الثانية الشرسة في الساحة.

أقترب من باب غرفتها بهدوء حتّى أفاجئها بحضوري، فقد أجدها نائمة كملاك في سريرها، وربما تُسَرّ وتتجاوب معي باندفاع. أقترب من الباب المشقوق، أنظر، فيذهلني ما أرى! ظننت أنّني أخطأت المكان، أو أنّ العالم انقلب ولم أعد زعيماً جنرالاً. أدقق النظر، فأتبيّن جسدين عاريين يتعاركان بجنون على السرير، ولهاثهما الشبق يملأ فضاء الغرفة. يطير صوابي عندما أرى سكرتيري الخاصّ، الناعم واللطيف والمحبوب، والذي أثق به بالكامل، يستلقي فوق ماريلا بنشوة عميقة، يمتطيها كفارس مغوار، يروح ويجيء على صهوة جواده بحيويّة، فيما التفّت هي عليه بيديها ورجليها كالحرباء، ناشبة أظافرها الطويلة في ظهره، وقد غرق وجهها في صدره.

شعرت بالمهانة أكثر، وأنا أرى بذلة سكرتيري العسكريّة المزيّنة بالنجوم والأوسمة التي منحته إيّاها تستلقي أيضاً على الثوب الليلكي والسروال النبيذي المرميَّين أرضاً، يتعانقان، كأنّهما يشاركان في الخيانة العظمى.

تصاعد الدم إلى رأسي وطفا شواش كثيف فيه. أُخرجت مسدّسي الفضي، وصوّبته نحوهما. لكن قبل أن يخرج ظلّي من عتبة الباب لأطلق النار، توقفت قليلاً... لا أدري لماذا. كان منظر الجسدين المتعاركين مثيراً، والأكثر إثارة مؤخّرة سكرتيري السمراء، وهي تعلو وتهبط بإيقاعات منتظمة فوق ماريلا، تتباطأ وتتسارع حسب نشوتهما. توقّفت أتأمّلهما بمتعة سريّة، وأحسست بالدم يغلي في عروقي ويُلهب جسدي، وشعرت ببعض الانتصاب، وكدت أذهب معهما في نشوتي الخاصّة، عندما انفجرت الغرفة بضجيج ذروتهما.

أتأمّل الآن الجسدين الهادئين المسترخيين، وقد غادرني الذهول وعدت إلى رشدي، وقبل أن أقدم على أيّ عمل، أسمعهما يتحدّثان بهمسات ناعمة.

يقول لها: «يبدو أننا نسينا الباب مفتوحاً، فقد يحضر أحد ما ويكتشف وجودنا هنا معاً، ونقع في فضيحة مجلجلة، نخسر بها حياتنا».

تقبّله في أذنه، وتجيب بغنج من بين القبلات: «لا تخف، لا أحد يحضر إلى هنا، بمن فيهم زعيمكَ الجنرال المجنون الذي يشمئزّ من الأجواء الرومانسيّة الحالمة في غرفتي».

ينظر إليها بشغف ويقول: «زعيمي الجنرال مجنون في عقله، أمّا أنا فمجنون بكِ، بمخدعكِ الرومانسي الحالم، وبجسدكِ الأبيض المثير الرائع، وبمؤخّرتك البيضاء المكوّرة. منذ زمن بعيد وأنا مجنون بثوبك الليلكي الأنيق عندما يتطاير في الهواء، وكلما تأمّلتك وأنت تقفزين في الحديقة، ألمح خيالات سروالك النبيذي الشفّاف من تحته».

– هل يذكّرك اللون النبيذي بالدم أيضاً ويثيرك كما يثير الزعيم الجنرال؟

– لا. يذكّرني بالعشق والثمالة، بجسدك الناعم وأنا أسكب النبيذ عليه، ثمّ ألعقه، فأبدو كقط يموء تحت قدميك، أكره الأجواء العسكريّة الرسميّة، والنجوم والأوسمة.

تقبّله الآن قبلات متتالية في عنقه وهي تقول: «جنونك يأخذني إلى رعشات متتالية لم أعشها منذ زمن بعيد، أمّا جنونه فغريب، شواش وصداع وطنين، وصراخ قادم من عوالم غريبة، وعضو لم يعد ينتصب، يجعلني أعيش متوتّرة وفي حالة انهيار مستمرّة. وفوق كلّ هذا فإنّ حكاكاً غريباً في ظهره لا يفارقه، وخاصّة في ذروة نشوته، فيضغط على الزرّ الأحمر ويطلب أبو عدنان ليحكّ له ظهره».

يبدو أنّ ملامح وجه السكرتير تستنكر ما تقوله، فيقول بصوت مرتجف: «هذه أسرار وطنيّة خطيرة، كيف تتجرّئين على الحديث بها... مثل هذه المعلومات تُصنّف تحت درجة سرّي للغاية حتّى أنا لا أعرفها».

– أيّ أسرار وطنيّة هذه! ماذا سيحدث إذا انكشف أنّ ظهره يحكّه باستمرار، وأنّ عضوه لم يعد ينتصب؟

– هذا معناه أنه مصاب بإعياء جسدي، ونفسي، وسياسي، وعسكري.

– فليُصَب، هذه مشكلته، لكن ماذا يعني إعياء سياسي وعسكري، هذه أول مرّة أسمع بها؟

يقول لها بصوت أقرب إلى الهمس: «هذا يعني أنه محبط سياسيّاً أمام التمرّد الشعبي العام الذي يجتاح البلاد كلها، ويبدو أنّه سيدمّر نظامه بالكامل، إلّا إذا حدثت أعجوبة سياسية ما».

– لا تبدأ بالحديث مثل الحاشية سرّاً عن التظاهرات، والانتفاضات، والتمرّد، والانقلابات العسكريّة، التي يرون أنّها ستدمّر نظامه.

تزحف يداها الآن متسللة بين ساقيه وهي تقول له: «أرى أنّ جنونك الجميل قد عاد إليك، ها هو ينتصب من جديد للمرّة الرابعة، ما الوضع الذي ترغب فيه الآن؟».

يقلبها على بطنها، ويستلقي فوق مؤخرتها، وهو يقول: «حتّى تعرفي أنّي لست محبطاً، لا جسديّاً ولا نفسيّاً، ولا سياسيّاً ولا عسكريّاً، أستطيع أن أقمع كلّ التظاهرات في البلد، وأقمع معها

الجيش الزعيمي نفسه، وأصبح أنا زعيم الزعماء، وجنرال الجنرالات».

– لقد أتعبني اليوم زعيمك الجنرال وهو يحاول معي بكلّ الأوضاع، بحيث بدا في النهاية عسكريّاً صغيراً دون رتبة، والآن ادخل بي من الخلف بعمق، وأظهر لي كيف ستكون أنت زعيم الزعماء، وجنرال الجنرالات، وانتقم لي منه.

أستمعُ إلى هذه المحادثة بصمت حتّى أعرف ما يقال عنّي وراء الأبواب المغلقة، لكنّي لم أعد أحتمل انفضاح أسرار الدولة العليا إلى هذه الدرجة، وخاصّة سماع هذا التحدّي الواضح لسلطتي في الفراش وعلى الدولة، بل ومنافستي على ألقابي الوطنيّة من رجل صغير، أنا رعيته حتّى كبر بضعة سنتيمترات.

أشعر بالظلمة تحيط بي، لم أعد أدري أيّ شواش، أو صداع، أو حكاك، أو جنون، أو سعار، تملّكني، فأطلقت النار من مسدّسي الفضّي في كل مكان من الغرفة. ذهِل الاثنان من المفاجأة، ولم يستعيدا صوابهما إلّا وأخذا يرتجفان كأوراق الخريف، لكنّي لا أريد إصابتهما، لا أريد أن يموتا بسرعة.

أصرخ بغضب شديد، والزبد يخرج من فمي: «لن أقتلكما الآن، سأجعلكما تتعذّبان عذاباً لم يسمع به أحد على مرّ الأزمان، سأجعل الكلاب تنهشكما، والأفاعي والعقارب تلسعكما، والديدان تفقأ عيونكما، سأرشّ الملح على جراحكما، سأمزقكما قطعاً وأنتما حيّان بيديَّ هاتين، وأتلذّذ بشيّها وأكلها أمام ما بقي منكم وأنتما ترتعشان، سأحرقكما وأنتما حيّان، سأميتكما وأحييكما من جديد، كي أتلذّذ بتعذيبكما باستمرار دون نهاية».

في هذه اللحظة المجنونة يحضر أبو عدنان والحرس الزعيمي على صوت إطلاق النار، يقف الجميع مذهولين أمام مشهد الخيانة العظمى متسائلين برهبة:

– كيف يجرؤان على المسّ بكرامة الزعيم الجنرال الشخصيّة، رمز الوطن؟

كيف يمكن لبذلة السكرتير العسكريّة أن تستلقي فوق الثوب الليلكي والسروال النبيذي على أرض الغرفة؟

وفي أثناء ذلك يقترب منّي أبو عدنان هامساً: «سيّدي الزعيم الجنرال، أنا آسف على قطع نوبة غضبكم المقدّس، لكن عليَّ أن أخبركم أنّ عصابات الرعاع في الخارج قد اقتربت من سور القصر الخارجي، وتكاد تتجاوزه. لقد أصبح الوضع خطيراً، ماذا نفعل؟ ننتظر أوامركم».

أصرخ صيحة الحرب، وألوّح بمسدّسي في الهواء: «هيّا بنا إلى الشرفة، لنرى إن كنت منهاراً سياسيّاً وعسكريّاً».

أرفع مسدّسي الفضّي لأطلق رصاصة بدء الهجوم على الساحة، لكنّ أبو عدنان يتدخّل ويسألني: «سيدي الزعيم الجنرال، كيف سنبدأ بقصف الساحة وعناصرنا من الأمن يقومون

بواجبهم فيها، هم متداخلون ومتشابكون مع الرعاع، علينا أن نسحبهم قبل أن...».

أبلغ ذروة غضبي وأصرخ مهتاجاً: «يبدو أنك تتدخل كثيراً في التعليمات التي أصدرها، لا وقت لدينا، سنسحب جثثهم في ما بعد، سيموتون فداءً للوطن».

أرفع الآن مسدّسي من جديد لأطلق رصاصة بدء الهجوم، وأطلقها أخيراً، لكن في رأس أبو عدنان، الذي تخاذل أمام الرعاع فأوصل التمرّد إلى هذا الحدّ، ونام على الأغلب مع زوجتي يوم حضرت إليه بقميص النوم بدون سروال، وتساهل في مراقبة ماريلا حتّى امتطاها سكرتيري الشخصيّ الذي استغلّ الظروف الوطنيّة والدوليّة الصعبة التي أمرّ بها.

يسقط أبو عدنان على أرض الشرفة، فيما زاغت عيناه في الفراغ، يرتعش ويختلج عدّة مرات، ويرحل عن الحياة. هذه الطلقة هي بداية خطّتي الجهنميّة، وهؤلاء الذين تجرّأوا على سلطتي من الرعاع، وأولئك الذين راودهم الشك بقيادتي من بطانتي، أصحاب الكروش الممالئون، لم يعرفوا بعد من هو الزعيم الجنرال.

أسأل الضبّاط القياديّين المتحلّقين حولي، وأنا أضع قدمي على الجثة: «هل لدى أحدكم سؤال عن الهجوم على الإرهابيين؟».

كلهم يومئ برأسه أن لا، كأنّهم وُلدوا بدون ألسنة، لا يستطيعون رفع أنظارهم عن جثة أبو عدنان، ينفضّون عن الشرفة وينسحبون متراجعين إلى الخلف، ليمضوا إلى غرف عمليّاتهم في الحديقة، ولا يبقى بجانبي إلّا بضعة عناصر من حرسي الخاصّ.

أسأل الضابط أبو علي الحوت من الحرس الخاص: «هل تعرف كيف تحكّ ظهري؟».

– طبعاً سيدي الزعيم الجنرال، أنا الذي أحكّ بطريقة رائعة، وخاصّة في أوقات الأزمات الوطنيّة، وخلال حالات الشواش الشعبي.

– إذاً ستصبح من الآن قائد المرافقة المسلحة أبو علي الحوت، وعندما تنجلي المعركة عن انتصاري، ستجهّز فرق الإعدام للمتآمرين من قادة الرعاع، وللخونة من صفوفنا... هذا، إذا بقي أحد حيّاً حتّى ذلك الحين.

تتساقط القذائف والصواريخ على الساحة من كلّ اتّجاه، فتهزّ الانفجارات بدويّها العالي الفضاء وتخلخله، وتشتعل حرائق كبيرة، يرتفع لهيبها عالياً في السماء، ثمّ ما تلبث سحب الدخان أن تتكاثف، ويصبح الهواء ثقيلاً مشبعاً برائحة البارود والموت.

جنون ورعب وهذيان تسود الساحة كلّها. الجميع يتساقطون، تأخذهم رحى الموت، تذرّهم أشلاءً يختلط بعضها ببعض، فلا تعرف بقايا الرؤوس والأرجل والأيدي أجسادها، ويذهب كلّ منها منفرداً إلى أجله. وحتّى تكتمل روعة المعركة، تدخل المدرّعات وتفرم بجنازيرها كلّ ما تجده في طريقها من أجساد وبقاياها، فيما تصطاد الحوّامات الطرائد المتلطّية في الزوايا.

تتسلل روعة المشهد إلى داخلي، تصعد إلى رأسي وتملأه بالنشوة، فأشعر بالانتصاب، ينهض عضوي من بين الأوسمة الوطنيّة جميلاً متألقاً، عموداً من المرمر، أفكّر، لا يروي ظمأ هذا الانتصاب إلّا ماريلا، لكنّها الآن خائنة، وستنال جزاءها بعد انتهاء المعركة، هي وسكرتيري النذل، فماذا أفعل؟

لا أدري لماذا تداعت إلى ذهني الآن صورة السكرتير الخائن. كان لطيفاً باستمرار، لا يجرؤ على رفع رأسه أمامي، ويتحدّث همساً من شدّة الاحترام، فماذا حدث له حتّى يخونني؟! ها هو دمي يفور من جديد وأنا أتذكّر صورته عارياً فوق ماريلا، ومؤخّرته الناعمة السمراء الطريّة تقفز فوقها، تعلو وتهبط... نعم، أتذكّر مؤخرته الرائعة.

تزداد حدّة الانفجارات أمامي، ينتصر الرعب ويتكاثف الجنون أمامي، فيشتدّ الانتصاب لديَّ، تهاجمني صورة سكرتيري الشخصي عارياً، تتركّز على مؤخرته الجميلة.

أعطي أمراً سريعاً «أبو علي الحوت، أحضروا السكرتير الشخصيّ إلى هنا بسرعة».

يتنادى الحرس الزعيمي جميعهم، وهم يتراكضون مسرعين: «السكرتير الشخصي، ليحضر السكرتير الشخصي بسرعة، الزعيم الجنرال يطلبه إلى الشرفة».

ما إن تمرّ لحظات حتّى يتم إحضار السكرتير الشخصي مكبّل اليدين بأصفاد حديديّة ثقيلة، يرتجف من الذعر لمرآي، ويكاد يسقط أرضاً لولا الحرس الذي يسنده.

يبربر، يغمغم، يهمهم، بالكاد أفهم منه شيئاً: «هي، هي التي دفعتني كي أدخل إلى غرفتها سيّدي الزعيم الجنرال، كانت تبكي بحرقة شديدة، فرقَّ قلبي لها، هي التي خلعت وحدها ثوبها الليلكي وسروالها النبيذي، وكانا ممزّقين، فاضطررت لأن أخلع بذلتي العسكريّة فوقهما كي أستر مزقهما، ولم أستطع الاحتمال وأنا أشاهد جسدها الأبيض المرمري عارياً أمامي. هي التي ألقت بي على السرير، عانقتني والتفّت عليَّ كالأفعى، وأخذت تهتزّ تحتي مشتعلة كالممسوسة. قالت، وهي تلتهم شفتيّ، إنها ظمأى بعطش شديد لجسدي، لعضو حقيقي يخترقها دون أن يُصاب بالإعياء. هي التي كشفت أسرار الدولة عندما أخذت تهذي قائلة إنّ عضوكم المقدّس والمبارك لم يعد ينتصب، وإنّكم تتركونها مشتعلة بالرغبة المجنونة، وقالت إنّكم لا تستطيعون هزيمة الرعاع وأنتم في هذه الحالة الصعبة... بكت وتأوّهت، فأثارتني».

أمسكته من قميصه بعنف، جعلته ينحني أمامي على حافة الشرفة، ومزّقت بنطاله من الخلف بقسوة، وأنا أقول: «سأريك كيف أنّ عضوي لا يزال ينتصب، وكيف سأهزم هؤلاء الرعاع، سأريك من هو زعيم الزعماء، وجنرال الجنرالات».

تنكشف مؤخّرته الجميلة الناعمة الطريّة، تتلاعب عليها نسيمات الهواء العليلة، أدخلها بعنف شديد، يتألّم، يكبت ألمه ويقول بخجل: «أنا رجل سيّدي الزعيم الجنرال، لم يفعل بي هذا أحد في

حياتي كلها، اقتلني الآن ولا تطعنّي في كرامتي... هي التي أغوتني».

أستمرّ بطعن طريدتي بعنف، فيما يعلو صوت الانفجارات حولي، تتناثر الجثث أمامي في كلّ مكان، أشعر بالمتعة وأنا أشمّ رائحة الدم والموت الرائعة، فيزداد شبقي وأطعن أكثر... أشلاء دمويّة، نيران مشتعلة. الرعب الجميل، أنا نيرون، أنا جنكيز خان، وتيمورلنك، أنا الحجّاج، وأبو جعفر المنصور السفّاح، أنا هتلر، وستالين، وبينوشيه، أنا كلّ هؤلاء الأبطال الذين يتألقون تحت نصال سيوفهم ونجومهم العسكريّة.

يحاول سكرتيري أن يتماسك ويصمد تحتي، يحاول أن يكبت ألمه وخجله، يكاد يقتل شهوتي بهدوئه وصمته، فيهاجمني الشواش ويحكّني ظهري بسعار شديد. أطلب من أبو علي الحوت أن يحكّه لي من فوق سترتي العسكريّة، لكنّه لا يشفي غليلي.

ينظر إليَّ أبو علي الحوت متسائلاً: «ماذا أفعل حتّى تستعيد حيويّتك ومتعتك سيّدي الزعيم الجنرال العظيم؟».

– هل تحمل سكّينك؟

يبتسم: «جاهزة دائماً».

أقول له: «اقطع عضو السكرتير، هذا الذي خانني به، وأنا رمز الوطن».

وقبل أن يفهم سكرتيري الشخصي ماذا يحدث له، كانت يد أبو علي الحوت الماهرة تقطع العضو بنشوة غريبة ملأت وجهه، فيما علا صراخ الجسد تحتي متألماً، وقد نفر الدم منه بغزارة. أسمع صراخه المذعور، فيعاودني الانتصاب أكبر، وأكثر، وأقوى، وأشدّ، وأعظم، وبمقدار ما كان يتكاثف ألمه، كنت أشعر بالنشوة الكثيفة. ثمّ هدأ قليلاً تحتي، إذ بدا أنه سيُغمى عليه من الألم، فأخرجت مسدّسي الفضّي من حزامي وأطلقت بيدي رصاصة على ساعده، صرخ بألم شديد، فانتصب عضوي أكثر، وشعرت بمتعة أكبر.

أرى أمامي أشلاء جثث تتطاير مع انفجار قذائف جديدة، فأطلق رصاصة ثانية على فخذه، يصرخ أكثر، ينتصب عضوي أكثر، أطلق على كتفه، على خاصرته، على قدمه، ينفر الدم من كلّ الجهات، يصعد نحو الأعلى ويهبط عليَّ رذاذاً دمويّاً، فيما أنتصب أنا عموداً في السماء.

تتناثر الآن في كلّ مكان من الساحة أشلاء الرؤوس المهشمة، والأيدي والأرجل المقطوعة، والبطون المبقورة، تتجمّع في أكوام عالية لتصل إلى الشرفة، أشعر بالدم يزيّن وجهي برذاذه الدافئ، ألعق طعمه، فأثمل به... أنا ملك الموت، أنا إمبراطور الجحيم، أنا الشيطان الأعظم، أنا الشرّ الكوني.

وفي لحظة أخيرة، أطلق رصاصة في رأسه، فيتوقّف الجسد عن الارتعاش، تهدأ المعركة في الساحة، أبلغ أخيراً ذروتي... لقد انتصرت على الرعاع.

ثمّ أسمع صوت انفجار كبير، وكأنّ القيامة التي يتحدّث عنها الشيخ الفقيه قد قامت، وقد طرت أنا في الفضاء.

لا أرى حولي على الشرفة سوى أشلاء جثث بين الركام، ولا أشمّ سوى رائحة الموت والدخان. أين حرسي الشخصي؟ كأنّ القصر حولي فارغ، وأنا مغطّى بالدماء والغبار!

أبو علي الحوت أين أنت؟ لماذا لا يرد عليَّ، المفترض أنه يرافقني كظلّي!

أتحرّك على الشرفة بين الركام، أرى جثّة أبو عدنان، وجثّة السكرتير الشخصي، وجثثاً كثيرة من حرسي الخاصّ، وأرى أخيراً جسد أبو علي الحوت، ما زال ممسكاً بسكّينه وبالعضو المقطوع، وما زال حيّاً يتنفّس لحسن الحظ، ولكنّه مُدمى من شظايا قذيفة... لقد كانت معركة كبيرة، لا أدري من قصف من، ولا من قتل من؟ هل حدث انشقاق في جيشي وفتك بعضهم ببعض؟! ليفتكوا، وليذهبوا إلى جهنّم جميعاً ما دمت أنا حيّاً.

أنا وحيد الآن. لا أحد حولي. كأنّ القصر فارغ! أين ماريلا؟

لا، يبدو أنّني لست وحيداً، فها أنا أرى أربعة شباب ينهضون من بين أشلاء الجثث في الساحة، أربعة شباب أحياء، كيف نجا هؤلاء!؟ لا بدّ من أنّهم يمتلكون عدّة أرواح حتّى استطاعوا الخروج من هذه المعركة المروّعة أحياءً. كأنّهم منتصرون، إذ يرفعون رؤوسهم بتحدٍّ، ويتّجهون نحوي بأقدام واثقة وأنظارهم مثبّتة عليَّ. ألمح بينهم شابّاً يرتدي ملابس فلكلوريّة، أين كان يظنّ نفسه ذاهباً، إلى عرس شعبيّ ينتهي بنزاع بين أهل العريس والعروس؟!

وكأنّني أرى أحدهم ينظر إليَّ بتحدٍّ، يده ترتفع نحوي، إنّه يحمل مسدّساً فضّياً شبيهاً بمسدّسي... أعرفه، إنّه أنا، أنا الذي يكرهني، لا أجد مجالاً للهروب، إنّه يصوّب عليَّ، يطلق رصاصة تمرّ من قرب كتفي، تصيب باب الشرفة وتنغرز فيه. أشعر بوخزة صغيرة في كتفي أثناء مرور الرصاصة، أضع يدي الملوّثة بدم السكرتير عليه. لكن لا، هذا دم جديد، طريّ، إنّه دمي، إنّني أنزف، لقد أصبت في كتفي، إنها محاولة اغتيال، إنّهم يحاولون قتلي، قتل الوطن.

ينهض أبو علي الحوت متثاقلاً، يتحامل على جراحه، ويمسك بيدي ليسحبني من هول مفاجأة محاولة قتلي، يقول لي: «هيّا بنا نهرب، الحوّامة تنتظركم على سطح القصر سيّدي الزعيم الجنرال، لنذهب إلى القلعة المحصّنة في الجبل».

أتركه يجرّني، وأنا أرى الشبّان الأربعة يلاحقونني بنظراتهم الوحشيّة المروّعة، أركب الحوّامة مع أبو علي الحوت، فيما أمسكُ بكتفي متألّماً. نعلو فوق القصر، لكنّني ما زلت أرى ثماني عيون تلاحقني. أغمض عينيّ حتّى أهرب منهم، أجدهم في ظلمة داخلي، أحاول أن أختبئ منهم، لكن أين؟

تمضي الحوّامة فيما أبو علي الحوت يقول لي: «حضَّرت لك فرق الموت لإعدام المتآمرين من قادة الرعاع، والخونة من صفوفنا، وعلى رأسهم ماريلا. سنحتفل بانتصارك العظيم، ونصوّر فيلماً وثائقياً خاصّاً بهذه المناسبة في القلعة».

أتمدّد شبه غافٍ على جانبي الأيمن في السرير، أسمع لغطاً مبهماً ورائي لأصوات نسوة عجائز لا أعرفهنّ، يتحدّثن بكلمات مبهمة، لا أتبيّن معناها. أحاول أن أنقلب على ظهري، لا أستطيع، يهاجمني ألم شديد في كتفي اليسرى، أشعر كأنّ هناك ضمادة جرح عليه، ماذا حدث؟!

أنفلت قليلاً من غمامة ضياعي، وأحاول أن أتذكّر ماذا حدث لي، فأنا في شقّتي بأحد الأحياء الحديثة من البلدة، وأتذكّر أنّني كنت واقفاً على الشرفة. كأنّني كنت أشهد مطاردة متظاهرين ضد الزعيم الجنرال، كانوا يتراكضون في الشارع المؤدّي إلى الساحة كالأرانب المذعورة، وفرق مكافحة الشغب تطلق عليهم قنابل مسيلة للدموع وتضربهم بالهراوات، وكانت هناك أصوات رشقات من الرصاص الحيّ تُطلق عليهم.

وأتذكّر أنّه خدشتني فجأة رصاصة عند كتفي اليسرى، بالتأكيد كانت عشوائيّة، فأنا لا أشارك في أيّ نشاط معادٍ للزعيم الجنرال، لكنّني شاهدت دماً ينزف من كتفي... ومن بعدها لم أعد أعرف ما حدث.

وبينما أنا بين اليقظة والمنام، أسمع ما يدور حولي من حديث بين النسوة العجائز، كأنهنّ يقرمشن الكلمات بين شفاههنّ:

– مسكين جارنا، يعيش وحده في هذه الشقة الجميلة بعد أن هجرته زوجته، وليس هناك من يعتني به.

– هجرته زوجته الجميلة لأنّه مجنون، هكذا يُقال، أخذت أولادها الأربعة وسافرت إلى أهلها في العاصمة.

– لا أدري إن كان هذا صحيحاً، فهو يبدو رجلاً طيّباً، يحيّينا دائماً بتهذيب، عندما يلتقينا في الطريق.

– هو طبيعي في مظهره الخارجي، لكن هناك من يحدّثه من عالم آخر، هكذا يقولون.

– يعني ممسوس، ركبه شيطان.

– لا. الشياطين اختفت في هذه الأيّام. أصبحت تخشى دوريّات أمن الزعيم الجنرال. هو يتحدّث مع نفسه.

– على كلّ الأحوال حظه كبير، إذ إن الرصاصة خدشت كتفه فقط، الطبيب قال إنها لو نزلت بضعة سنتيمترات لأصابته في قلبه.

– لا أعرف لماذا يخرج دائماً إلى الشرفة عندما تجري اشتباكات خطيرة في الساحة، وخاصّة عند إطلاق النار...

– جميع الفضوليّين يخرجون هكذا برغم الخطر، يظنّون أنّهم يشاهدون فيلم سينما.

– لا ليس فضوليّاً، إنّه من مؤيّدي المتظاهرين، يخرج لتحيّتهم من الشرفة، إذ إنه مريض بالقلب، لا يستطيع أن يسير معهم طويلاً.

– هذا ليس صحيحاً، إنّه من مؤيّدي الزعيم الجنرال.

– لا، إنّه من مؤيّدي المتظاهرين، أراه يرفع يده دائماً ويحيّيهم عندما يمرّون من أمام الشرفة.

– لا، يرفع يده كي يحكّ ظهره، فتظنّين أنّه يحيّيهم.

– لا هذا ولا ذاك، أنا متأكّدة من أنه مجنون، فهو يظن نفسه زعيماً جنرالاً، وقد سمعته ذات مرّة يصرخ بصوت عالٍ: «أيّتها الجماهير العظيمة، لقد حققنا انتصاراً جديداً في هذا اليوم على التخلف، والرجعيّة، والاستعمار، والإمبرياليّة، والعولمة، والعدوّ المغتصب... ووصلنا إلى ذروة النجاح، وها نحن نعيش نشوته... وإلى اللقاء في نجاحات جديدة نصل فيها إلى ذروات أعلى فأعلى».

أبو عصام

تسكن عائلة أبو عصام في شقة صغيرة، في الطابق الأول من بناء يطلّ على الساحة الرئيسيّة من الجهة الغربيّة. في الواقع، الشقة ليست صغيرة، لكنّ العائلة هي الكبيرة، وضيوفها كثر، لا ينقطعون ليلاً ونهاراً، رغم غياب أبو عصام شبه الدائم عن عائلته. تعجّ الشقة باستمرار بما لا يقلّ عن خمسة عشر شخصاً. وبما أن الغرف لا تتّسع للجميع، فإنّ معظمهم يهرب إلى الشرفة الضيّقة التي تتكدّس فيها أعداد صاخبة منهم، بحيث تبدو أنّها آيلة للسقوط بين لحظة وأخرى تحت ثقلهم المتماوج بالضجيج والحيويّة. وأستطيع من طرف شرفتي الجنوبي رؤية الجنون المتكدّس في الشقة بوضوح، لا على الشرفة فقط، بل أيضاً في الغرف ذات النوافذ المفتوحة دائماً، والمشرَّعة للنظرات الفضوليّة...

في مقابل غياب زوجها، أم عصام حاضرة باستمرار في البيت، إذ لم تعد تستطيع الخروج منه، فهي ثقيلة الحركة، بطيئة التنقل، بسبب تضخّم غريب غير طبيعي أصاب جسدها، فبدت كأحد الديناصورات التي قضت عليها بالكامل الكارثة الكونيّة، عندما سقط على كوكب الأرض نيزك كبير ملتهب منذ ملايين السنين، لكنّ أحدها نجا بأعجوبة مقدّسة، وقفز إلى زماننا، فإذا به أم عصام.

تقضي أم عصام معظم وقتها في الشرفة، فهي بحاجة مستمرّة للهواء النقي بسبب ضيق في تنفسها، وهي على الرغم من ذلك لا تتوقف عن ابتلاع أطنان من المأكولات والمشروبات، بحيث لا تتوقف ماكينة فمها عن النهش، والجرش، والطحن، والعجن، والبلع. وإذا ما انقطع من أمامها الطعام، دخنت نارجيلة بأنفاس عميقة، فيتصاعد الدخان متثاقلاً من شعرها الكثيف بتجعّداته كأشواك، حتّى ليظنّ العابرون من تحت الشرفة أن هناك حريقاً في الشقة، فيتراكضون لطلب إطفائية البلديّة.

تستعيض أم عصام عن عدم حركتها بزعيقها الذي يهز أركان الساحة بموسيقى الأوامر اللجوجة لبناتها السبع «يا بنات، أين صحن حلويات الكنافة، والمدلوقة، والقشطة؟ أحضرن إلى جانبه الفواكه، ولا تنسين الموز، والفريز، والرمّان... اغلين لي ركوة قهوة كاملة، لتكن حلوة زيادة كما هي العادة... أين نارة النارجيلة؟... مللت طعام البيت، اشترين لي فرّوجين مشويّين، أتسلى بهما على الشرفة حتّى يحين وقت العشاء... هل بقي لدينا جوز، ولوز، وبندق، وفستق حلبي، للقرمشة؟».

تتجاوب معها البنات بإيقاعات الصراخ والزعيق نفسها، واحدة تلو الأخرى: «لمَ أنا دائماً؟»، «لمَ لا تقولين لوالدي أن يُحضر لنا خادمتين، واحدة للطبخ وتنظيف البيت، والثانية لتلبية طلباتك التي لا تنتهي»... فتجيبهنّ وقد استشاطت غضباً «لكي ينام معهنّ يا ملعونات، والدكنَّ يحرث كلّ ما يجده في طريقه».

تسأل الصغيرة: «أمّي، أبي ليس فلّاحاً، فماذا يحرث؟».

تجيبها الأم بنرفزة: «يحرث أبوك الحقل يا حبيبتي، بعد أن تتمدّد أمامه على التراب عشرون امرأة عارية».

تشكّل أصوات أم عصام وبناتها سيمفونية من الأصوات المتنافرة، المشاكسة والمتذمّرة، والمتنازعة دائماً، بحيث تبدو الشرفة منصّة لعرض مسرحي في الهواء الطلق، تراجيدي وكوميدي معاً، يستمرّ مجّاناً في الليل والنهار، لكل العابرين في الشارع، والمتفرجين من البيوت المجاورة.

لا تستيقظ شرفة منزل أم عصام صباحاً، بل على العكس، تنام مع انبلاج الفجر، وتصحو في العادة ظهراً، أو حتّى عصراً. يحاول أناس الشرفات الأخرى النوم، يحكمون إغلاق النوافذ ويستلقون في فرُشهم، لكنّهم يعجزون، فزعيق أم عصام، ومشاكسة البنات لها، وثرثرة الضيوف الضاجّة، تمنعهم.

مع توسّط شمس الظهيرة كبد السماء، تبدأ الفتيات بالانزلاق من الأسِرّة إلى الشرفة مباشرة بغلالات النوم المنحلة الأزرار، فيما تتأخر أم عصام بنومها الديناصوري حتّى العصر، بسبب تعب اليوم الفائت من الزعيق وابتلاع الطعام. سبع فتيات، أصغرهنّ في العاشرة، ما زلن يستيقظن كل يوم على نفس الإيقاع. أمّا الصبيَّان الصغيران، فما يزالان يعيشان في الشارع منذ أن ختما مرحلة الحبو مباشرة، ما إن يصحوان حتّى يمضيا للّهو والركض بين السيقان والسيّارات، يشاكسان القطط والحمام، فيما اختفى الابن الثالث عصام منذ زمن في الحارات القديمة، اختطفته دون أن يهتمّ أحد لأمره.

تجلس الفتيات على الشرفة، يغسلن وجوههنّ بأشعة الشمس بدلاً من الماء، يتمطّين بكسل شديد متأوّهات، دون أيّ رغبة في الكلام، ويأخذن غفوة على الكراسي المتزاحمة تحت دفئها، فما زال

بهنّ بقيّة من نعاس. وإذا ما صدر ضجيج غير اعتيادي من الشارع، يفتحن إحدى العينين، بالكاد نصف فتحة، ينظرن، لا يجدن شيئاً مثيراً للاهتمام، فيعاودن الإغفاءة متململات، لا يدرين لماذا استيقظن باكراً عند الظهر.

يصحو الجميع، لكنّ النهار الحقيقي لا يبدأ في البيت إلا في اللحظة التي تزحف فيها أم عصام بكتلتها الديناصوريّة إلى الشرفة. وما إن تستقر على عرشها، في طرف الشرفة، حتّى تتسلّم قيادة المجموعة كالمايسترو، وتصرخ بقبيلة عسكرها: «أين القهوة وصحن الحلويات يا بنات؟».

تصطفّ فناجين القهوة على رخامة حائط الشرفة، فنجان عملاق أمام أم عصام، وسبعة صغيرة أمام البنات اللواتي جلسن بانتظام لممارسة أول طقوس ما بعد الاستيقاظ.

على الرصيف المقابل للشرفة يُحْضر المتعطلون، والمتسكّعون، والعابرون، الذين يتكدّسون في الساحة منذ الظهر، كراسيّ قش، يستعيرونها من مقهى غير بعيد، يجلسون عليها ويشربون الشاي، ويشاهدون العرض المجّاني لزعيق أم عصام وبناتها الذي سيستمرّ إلى ما بعد منتصف الليل.

يُقال إنَّ أم عصام كانت نحيلة جداً عندما تزوّجت، حتّى كان من الممكن أن تنقصف من منتصفها إذا ما سارت وانحنت لتلتقط شيئاً من الأرض. واستغرب الجميع وقتها كيف استطاع أبو عصام التوافق معها جسديّاً بنحولها الشديد، وهو بحجم جمل ذي سنامين عريضين، وتساءلوا كيف تمارس معه الجنس في السرير، هل تتمدّد تحته، فتنهرس، وتضيع في صوف الفراش، أم تمتطيه، فتطير في الفضاء كريشة منفلتة مع أول اهتزاز.

لكنّ السرّ في زواجهما لم يكن يعرفه إلا القليل، إذ يُقال إن أبو عصام كان عشيقاً لوالدتها الأرملة الحزينة التي تكبره بأعوام عديدة، فترضعه دائماً في السرير من ثدييها العامرين. يتردّد عليها سرّاً في الأمسيات الباردة والدافئة، عندما يشعر بالملل من عصبته، المقيمة دائماً في المقهى العتيق الذي يمتلكه، وحوّله إلى وكر للعب القمار وتدخين الحشيشة. وكثيراً ما تتردّد أقاويل، من الصعب التأكد من صحّتها بسبب ابتعاد أصولها في الماضي البعيد، عن أن الشابّ عمر الذي يرافق أبو عصام في الليل والنهار، ويتابع أعماله غير الشرعية كافة، هو ابنه غير المُعلَن من الأرملة الحزينة الوالدة... ومن هنا تبدأ الحكاية.

ذات ليلة حضر العشيق إلى الأرملة الحزينة باكراً على غير عادته، فوجد ابنتها الصغيرة، التي لم تكد تدخل مراهقتها، وحيدة في البيت. راودته نفسه للنوم معها، مستغلاً براءتها وسذاجتها، فأخذها مستمتعاً بجسدها الفتي النحيل، وهي لا تدري ما يحدث لها مع الجمل الكبير سوى نزف صغير عابر بين فخذيها. لكن أبو عصام، الذي ملَّ والدتها العجوز وثدييها المتهدّلين، كان لطيفاً مع الصغيرة إلى أقصى الحدود، فعاودت النوم معه مرّات ومرّات، مستمتعة دون أن يعرف أحدٌ

بعلاقتهما، وقد تعلّقت به بشدّة في غياب والد مات وتركها صغيرة جداً. كانت تركبه كحمار القرية، تدور به الغرفة طويلاً، كي تستمتع بطفولتها، ثم ينقلب فوقها، ويخترقها بنعومة، كي يستمتع بأنوثتها.

وقد استطاع الجمل الكبير في هذه الأثناء أن يتناوب بدهاء بين الناقة الكبيرة والناقة الصغيرة، إلى أن جلجل البيت بفضيحة حمل مبكّر عند الصغيرة.

فوجئت الأرملة بما حدث، فأصبحت شرسة ولم تعد حزينة، وقد وجدت نفسها في وضع غريب، فلديها ابنها عمر الذي أصبح صبيّاً كبيراً، ولا تستطيع الإعلان عنه خوفاً من الفضيحة، ولديها أيضاً ابنتها التي ترفض التخلص من جنينها، متعلقة بوالده الذي سلبها إرادتها بخبرته الناعمة في السرير، فأدمنت عليه، وقد تفتّح جسدها باكراً.

تقول الصبيّة لوالدتها بتحدٍّ: «لديكِ ابنكِ، ولديَّ ابني، هل طلب أحد منك التخلّي عن ابن الحرام الذي تسمّينه عمر؟».

تردّ الوالدة وقد طار صوابها: «هذا أخوكِ يا مجنونة، كيف تتحدّثين عنه بهذه الطريقة؟»، فتجيبها: «وهذا ابني أيضاً، وسأجعله ابن حلال».

وجد الجمل فرصته أخيراً للفرار من الناقة التي تهدّل ثدياها العجوزان، بحيث تطاولا إلى الأرض، فتزوّج الصغيرة النحيلة ذات الثديين الصغيرين المكوّرين الناهضين إلى الأعلى، وانتقل بها إلى بيت مستقلّ في الساحة الرئيسية... وجاء عصام الابن الحلال إلى جانب عمر، الأخ والخال في الوقت نفسه، لكنّه بقي الابن الحرام.

وللغرابة، فإن جسد الزوجة الصغيرة امتلأ بوضوح بعد ولادتها الأولى لعصام، فيما ذاب زوجها أيضاً بوضوح في أثناء ذلك. ويتحدّث الجيران عن أسباب كثيرة لهذه الغرابة، ولكل واحد رأيه، لكنّ الأكثر تداولاً أنها تنام تحته في السرير كل ليلة، وتمتصّ حيويته شيئاً فشيئاً بشبقها الغريب، فلا تفلته إلّا منهكاً فارغاً.

يهرب منها، وهي تسأله: «كنت تشبع أمّي ونصف نساء الحارة، ألا تستطيع إشباعي وأنا واحدة؟».

يجيبها: «أنت بئر لا يمتلئ، أنتِ جرّة مثقوبة، جوع مجنون منفلت لا يمكن إسكاته».

ومع أنَّ سرّ أم عصام يكمن في الخشية من انفلات زوجها إلى عشيقة أخرى – فهي تعرفه جيداً –، إلّا أن هذا الإصرار على امتصاصه انقلب عليها بنتائج وخيمة، إذ أخذ حجم جسدها يتضاعف مع كل ولادة، فيما كان زوجها يذوب أكثر فأكثر. وما إن فرغت من ولادتها العاشرة حتّى تلبّست بالكامل جسد الديناصور الذي انفلت هارباً من الكارثة الكونيّة، وأصبحت ضخمة ثقيلة، كرة من اللحم تتدحرج، بحيث ينكسر شيء ما حولها أينما تحرّكت، وتحتلّ نصف الشرفة

وحدها عندما تجلس فيها، وإذا ما أضاعت الفتيات شيئاً ما في البيت، يجدنه بعد جهد طويل، وقد ربضت فوقه، دون أن تدري.

أما أبو عصام فقد استطاع أن ينقذ نفسه من الذوبان في لحظة حاسمة. باع المقهى الذي كانت خدماته تقتصر على تقديم الشاي، والقهوة، ومغلي الزهورات، وأنشأ مطعماً سياحياً على كتف الجبل منذ الولادة الرابعة لزوجته، وانتقل للعيش هناك وحده بعيداً عنها، بدعوى إدارته في الليل والنهار.

وبما أن المطعم كان يقدّم كلَّ ما لذ وطاب من المأكولات الشهيّة، فقد استطاع أبو عصام أن يحافظ على وزنه عندما حوَّل نصف الوجبات إليه، والنصف الآخر إلى الزبائن. ولم يعد يزور بيته إلا مرة كل عدّة أشهر من أجل الاطمئنان على الأولاد، تحتال فيها زوجته لينام معها، وتأخذ منه بذرة مولود جديد حتّى يبقى مرتبطاً بها.

تترجّاه: «هذه الليلة فقط، آخر مرّة في حياتي».

يرقّ لها قلب أبو عصام، ويشترط: «آخر مرّة، لكن دون أن تركبي عليَّ كحمار القرية».

وفي الصباح ينهض فارغاً، منهكاً أكثر من عشرة حمير في القرية تدور طوال النهار حول نواعير المياه، ينسحب من سرير تحطّم تحتهما ليلاً، ليفرّ سريعاً إلى مطعمه فيعوّض ما امتصّته منه، فيما ترسل هي في طلب النجّار لإصلاح السرير.

مع الولادة العاشرة انقطع عن زيارتها نهائيّاً، إذ لم يعد من الممكن لجمل صغير أن ينام مع ديناصور كبير.

منذ أن استقرّ أبو عصام في مطعمه على كتف الجبل، حرم زوجته من المأكولات الشهيّة التي كان يستمتع بها وحده، فهو يعرف شهيّتها المجنونة للطعام بقدر رغبتها الشبقة للجنس. أخذ يشعر بالقلق من تضخمها الغريب، وما يتكلف بنتيجته من تغيير أثاث مكسور في الشقة باستمرار، والتعاقد مع خيّاطة خاصّة من أجل تفصيل الفساتين العملاقة، ولحظة الركوب على ظهره كحمار القرية.

لكنّ أم عصام كانت أذكى منه، فقد زوّجت كبرى بناتها، الصغيرة جداً في العمر والجسد، بمالك الفرن الواقع في زاوية من الساحة تواجه شرفتها، والشهير بصلعته الملساء ومعجّناته الشهيّة، وعينها على شهرته الثانية. وقد كان صاحب الفرن هذا يراود الفتاة الصغيرة منذ أن نقل طاولة إدارته إلى مقابل الشرفة، يقضي نصف نهاره وهو يحادثها على الهاتف المحمول، ويلوّح لها بيده حتّى خلب لبّها بوعوده وتلويحته الماكرة.

تقول الأم للفرّان: «لكن البنت صغيرة، لم تتجاوز السادسة عشرة».

يجيبها: «سأدلّلها وأجعلها أميرة المعجنات، وأسمّي الفرن باسمها».

تضحك الأم الممتلئة: «وماذا سأستفيد أنا؟».

فيطمئنها: «سأشبعك يا حماتي بدلاً من أبو عصام الذي حرمك من الطعام والجسد، وسأسمح لك بمداعبة صلعتي كلما اختلينا معاً، فهي الطريق إلى قلبي وفرني».

وتمّت الصفقة، فانهالت المعجّنات الشهيّة على البيت مقابل زواج الصغيرة بالفرّان: صفائح اللحم بدبس الرمّان، وفطائر اللحم بالبندورة الناعمة، فطائر محشوّة بلحم الدجاج، بسطرمة، شرائح على العجين تسيل من أطرافها الدهون الذائبة، مناقيش زعتر، مُحمَّرة، فطائر بالجبن، وبالسبانخ، وبالبطاطا والبصل، وبالزيتون، بيتزا إيطاليّة، وفرنسيّة، وأوكرانيّة، وتايلنديّة، وأوغنديّة.

وتحقق الشق الأول من الصفقة المتعلق بالمعجنات، أمّا الشق الثاني الجسدي المتعلق بالنوم معها، فكان من الصعب تنفيذه في ظل الازدحام المروري البشري في الشقة. ثم تبيّن لاحقاً أنّ الزوج الجديد ليس من هواة النوم مع الديناصورات، بل يفضل الغزالات النحيلات، يسمح لهن بمداعبة صلعته الملساء، لكن بشرط أن يمتلكن مؤخرات ممتلئة، مكوّرة وناعمة، تذكّره بكتل العجين الطريّة في فرنه، وهو للأسف ما كانت تفتقده العروس الجديدة.

وعلى كل الأحوال، عاشت العائلة بسلام، ورخاء، وسرور، دون أن تتحسّر على حرمانها من ارتياد المطعم السياحي على كتف الجبل، بعدما استعاضت عنه بفرن المعجّنات. وفي أثناء ذلك، أخذت بقيّة الأرانب التسعة في البيت تنمو بأحجام قياسيّة بالنسبة إلى أعمارها، ما دامت المأكولات الساخنة الشهيّة متوافرة.

وحدها الأخت الكبرى لم تعش بسلام، ورخاء، وسرور، فزوجها شبه مقيم في الفرن، وقد بلغَها أنه يحبّ مداعبة كتل العجين الطريّة قبل إدخالها إلى بيت النار، يحيطها بعناية بكامل كفّه، ويدغدغها بأناقة برؤوس أصابعه، ثم يدعكها بشهوة. وإذا ما انفرد بزبونة داخل المحلّ، يغريها بابتسامته الماكرة، وسرعان ما تتسلّل يده الماهرة إلى ما تحت ثوبها، ليمسك بإحدى كتلتي مؤخّرتها، ويداعبها مثل كتلة العجين الطريّة قبل أن يدخلها إلى بيت النار، ويسألها فيما هي ترتعش: «ما هو سمك العجين الذي ترغبينه لفطائرك؟».

عرفت الزوجة الصغيرة بهذه الحكايات من اللحّام الذي يراقب كلّ ما يحدث أمامه، فهو أيضاً يهتمّ بنوعيّة اللحم الذي يحضره للمعجنات، لكنّه لمّح لها هامساً ذات مرّة: «أنا رجل عملي، أحب دخول اللحم باللحم مباشرة، فما رأيك؟».

تحايلت زوجة الفرّان ذات الستّة عشر عاماً على مرآة الخزانة لتتأمّل مؤخّرتها، فهالها صغر حجمها، وضعف تكوّرها، وقلة طراوتها مقارنة بكتل العجين التي يداعبها زوجها في الفرن، فقرّرت أن تقيم مع والدتها طوال النهار وأطراف الليل، حتّى تستفيد من خبراتها في التحوّلات الجسديّة الممتلئة، فتنافس العجين ومؤخّرات الزبونات.

أمّا أبو عصام، فلم يعد يهتم بشؤون العائلة، تركها لزوجته تديرها من عرشها الملكي على الشرفة، وتفرّغ لمشاغله الخاصة... فهو يراقب الأوضاع جيداً، وخاصّة التحوّلات التي تحدث برعاية الزعيم الجنرال.

منذ أن ساءت سمعة المقهى الشعبي القديم الذي يمتلكه أبو عصام في وسط البلدة، وهو يفكر في التخلص منه، ومن زبائنه القدامى القادمين من قاع البلدة، إذ إن «طاولة النرد»، و«أوراق اللعب»، و«الدومينو»، لم تعد تستطيع إخفاء رائحة ألعاب القمار التي تجري تحت ستارها، ومشروبات الشاي والقهوة والزهورات لم تعد تغطي على ارتخاء زبائنه المخبولين من تدخين الحشيشة، وذلك على الرغم ممّا يُخصَّص من هدايا نقديّة لرئيس المخفر وعناصره، من أجل غضّ الطرف عمّا يحدث فيه.

لكنَّ ما كان يدفع أبو عصام في الواقع للتخلص من المقهى هو رغبته الشديدة في الابتعاد عن عصبته القديمة، التي أصبحت مهترئة، هي وكراسي القش المثقوبة فيه، وقد أخذ يشعر بالملل والاشمئزاز من رفقتها في جلسات تحشيش ما بعد منتصف الليل، فهي تسقط بهذياناتها إلى الحضيض أكثر فأكثر، بينما هو يتطلع بأحلامه إلى الأعلى أكثر فأكثر... فقرّر أن يبيع المقهى.

أثارت أبو عصام الحكايات الغريبة عن الثروات التي «هبطت فجأة من السماء» على محتالين في البلدة، لا يمكن مقارنة إمكانيّاتهم بمواهبه في النصب والسرقة. حكايات عن المضاربات والسمسرة بالأراضي والعقارات أصبحت الحديث اليومي للناس.

كانت المواقع العسكريّة الدفاعيّة تغطي أراضي البلدة لضرورات وطنيّة استراتيجية، بسبب قربها من الحدود مع العدوّ، إلا أنه بالرغم من الهدوء والاستقرار الذي يسودها منذ عدة عقود، اندلعت الحرب فجأة. لكنّها حرب من نوع غريب لم تعرفه البلدة سابقاً، إذ استيقظت ذات صباح على ضجيج معركة مشاريع سياحيّة وتجاريّة أخذت تغطّي أراضيها، أتوستراد سياحي، مشروع خط تلفريك يربط البلدة بالجبال، مولات تجاريّة، مزارع استجمام وشبكة طرق معبّدة تصل إلى مداخلها.

لا أحد يدري كيف انبثقت هذه المشاريع، وانتشرت وازدهرت بسرعة، أمام دهشة فلاحي البلدة الفقراء، وقد فقدوا أراضيهم، دون أن يحتلها العدو الإمبريالي الذي كانت تحدّثهم عنه قيادة «اتّحاد الفلّاحين الوطني» في اجتماعات استنفار طارئة مستمرّة، ويتدرّبون في معسكرات «الجيش الشعبي» على مقارعته بالمعاول الوطنيّة، بل عدوّ جديد هلامي غير معروف، تسلل إلى البلدة من خلال وسطاء من محتاليها.

يقول أبو عصام لابنه غير المعلن الذي شَبَّ وأصبح ذراعه اليمنى في أعماله ونشاطاته جميعها: «أترى يا عمر، الصراع الاستراتيجي مع العدوّ تحوّل من المجالات العسكريّة إلى

المجالات الاقتصاديّة».

يسأله عمر: «ومن هو العدوّ الجديد؟».

يضحك أبو عصام ساخراً: «لا يهمّ الآن من هو العدوّ، المهمّ أن نتحرّك نحن أيضاً ونغيّر زاوية أهدافنا، وسيكون بوصلتنا الزعيم الجنرال الذي سنقاتل معه بشراسة ضدّ أعدائه أيّاً كانوا... كلنا فداء للزعيم الجنرال».

أبو عصام يرى نفسه رجلاً ذكيّاً ومتميّزاً طوال حياته، وتبدّى هذا منذ أن كان يتسلل وهو شابّ إلى الأرملة الحزينة، واستطاع بدهائه أن ينام مع الوالدة والابنة معاً، ولو كان لديه الوقت لاستمرّ مع الابنة الثانية، وابنة العمّة، وابنة الخالة، والجارات، والصديقات... وإن كان لا ينسى حلاوة جسد الجارة الثلاثينيّة التي تلقفته ذات ليلة، وهو خارج من عند الأرملة، قالت له: «جرّبني هذه الليلة، وسترى العجائب السبع في فراشي».

وجرّبها وشاهد العجائب التسع بدلاً من السبع، وكاد ينقلب إليها باستمرار، لولا طعم جسد صغيرة الأرملة الذي لم يستطع التخلي عن متعة خفّتها وهي تمتطيه... عندما كانت لا تزال ريشة تطير مع أول اهتزازة.

كان يعرف كيف يستمتع بعمق، وهو يختبر العوالم الحقيقيّة اللذيذة، فيما كانت عصبته تدوخ في وكر مقهاه، تسترخي في الأوهام والخيالات.

وأبو عصام ذكيّ أيضاً في علاقاته التي عقد أواصرها في البلدة، فهو لم يعد يقتصر بها على شباب المخفر البسطاء الطيّبين، الذين يستطيع إرضاءهم بعدّة زجاجات من الويسكي، بل أخذت تنمو لديه شبكة من الزبائن «الأصدقاء» المتنفذين، الذين يعتمدون عليه لإمدادهم بالحشيشة، وبسريّة تامّة خوفاً على مناصبهم الرسميّة وسمعتهم الأخلاقية. بدأت الشبكة في البلدة برئيس البلديّة ومعاونه، ورئيس الجمعية الفلاحيّة، ومسؤول الجمعيّة الخيريّة لمساعدة الفقراء والأيتام، ثم توسّعت إلى تجار أغنياء، وضبّاط كبار، وموظفين بمناصب عليا، ومناضلين قياديّين من حزب الزعيم الجنرال، وزبائن نساء مومسات يعملن في بيوت متناثرة في الأحياء القديمة والحديثة على حدّ سواء، هذا دون ذكر ازدهار تجارته بين المتبطلين القادمين من قاع البلدة.

وفي الآونة الأخيرة، اتسع نطاق تجارته المزدهرة التي لم تعد تقتصر على الحشيشة، لتمتدّ إلى أنواع أخرى من المخدّرات، وصولاً إلى حبوب الهلوسة، السهلة التوزيع والاستخدام. وارتبط هذا الاتساع بانتشار مزارع الراحة والاستجمام التي تناثرت في السهول المحيطة بالبلدة وصولاً إلى سفح الجبل، مع تميّز للزبائن من مالكيها، هم وضيوفهم القادمين من العاصمة بمناصبهم العالية وثرائهم الفاحش.

يتحدّث أبو عصام مع عمر مستغرباً: «منذ زمن بعيد كان زبائننا من الشاذّين جنسيّاً وأصحاب السوابق الأخلاقية، تغيّرت الأحوال الآن، أصبحوا من الطبقة الراقية والمتنفذين في السلطة... لا أعرف لماذا يرغبون في الهروب من الواقع بالمخدّرات، مع أن أوضاعهم مزدهرة بوجود الزعيم الجنرال!».

يجيبه عمر بلامبالاة: «أنا أعرف فقط أنه يجب أن نبيع».

استشرف أبو عصام آفاق المستقبل في البلدة، واستكشف اتّجاهات النصب والاحتيال التي تسير فيها. لم تعجبه المضاربات والسمسرة في الأراضي والعقارات التي تشغل الجميع في هذه الأيّام، فهي عمليّات تفتقد روح المخاطرة والجرأة والتحدّي التي تميّز الاتجار بالمخدرات. ومثل هذه الأعمال ستجعله يحتاج إلى المسؤولين والمتنفذين في البلدة، يتذلل إليهم بالهدايا النفيسة، واقفاً على أبواب مكاتبهم يترجّاهم تسيير أعماله في مؤسسات الدولة الفاسدة. وهو بالعكس، يريد أن يحتاج إليه الجميع ويطلبوا رضاه لتسيير أمورهم الشخصيّة السريّة، فلماذا يغادر أرضه، وهو السلطان الجالس على عرشه منذ زمن بعيد؟

يسأله عمر: «لماذا لا نفتح مصنعاً، يعمل به العشرات من العمّال، ويدرّ علينا الكثير من الأرباح؟».

يجيبه أبو عصام ساخراً: «لم يعد أحد من الغباء في هذه الأيّام ليفكر ببناء مصنع، فمن هو المجنون الذي سيضع أمواله في مشاريع تحتاج إلى عمل مضنٍ وخبرات، ولا تعطي أرباحاً إلّا بعد عشر سنوات، وهي غير مضمونة أصلاً في ظلّ تسلط حاشية الزعيم الجنرال على الأخضر واليابس».

يحتدّ عمر: «أتظنني بهذه البساطة! تخبّئ السفوح بين الجبال مساحات واسعة مخفيّة، يمكن زراعة الخشخاش فيها، ما أتحدّث عنه هو معمل صغير فقط لتصنيعه وتحويله إلى مخدّرات».

استغرب أبو عصام نباهة عمر المبكرة. لم يخطئ عندما جعل منه ساعده الأيمن. يجيبه، وهو يقصد تعليمه أسرار اللعبة: «الظروف المحليّة والإقليميّة غير مناسبة الآن، يرغب الزعيم الجنرال في أن يكون عصريّاً منفتحاً على العالم، وأن يبدو نظامه أخلاقيّاً محققاً لكرامة المواطنين وفق المعايير الدوليّة. إذا أنشأنا مثل هذا المشروع، فستفضحنا بسرعة وسائل الإعلام الدوليّة، ونسيء إلى سمعته الوطنيّة، وهو ما لا يرغب فيه... سنتناغم معه بطرائق أخرى».

– وكيف سنحقق ذلك؟

– المطاعم والملاهي الليليّة تشكل غطاءً ممتازاً للمتاجرة بأجساد النساء الحسناوات، وتوزيع المخدّرات، ولعب القمار. والزعيم الجنرال لن ينزعج منا، لن نعطل مشاريعه الأخلاقيّة المعلنة، ما

دمنا نساعده بتلبية احتياجات الناس الذين يريدون الهروب من الضغوط اليوميّة والأخلاقيّة والسياسيّة. وإضافة إلى ذلك فهذه مملكتنا التي نعرف أزقتها ودهاليزها السريّة المعتمة.

لكن بقيت قضية كبيرة شائكة تؤرّق أبو عصام وتشغله، وعليه أن يجد لها حلاً قبل أن يقدم على تطوير أعماله، فإن كان عليه أن يوسّع نشاطه إلى خارج حدود البلدة، فسلطة رئيس المخفر لن تكفيه لأنه سيكون عاجزاً أمام الصفقات العابرة للحدود... عليه أن يجد ضامناً من فوق.

أسرَّ أبو عصام بهمومه التي تؤرّقه إلى صديقه الجديد أبو ليلى، أحد أصحاب مزارع الراحة والاستجمام بالقرب من البلدة، ومن متنفذي العاصمة.

نصحه أبو ليلى قائلاً: «ليس لك إلّا معلمنا أبو علي الحوت من حاشية الزعيم الجنرال الأقوياء، وهو من العسكر الذين يحلون ويربطون في هذه الأيّام».

يسأله أبو عصام مباشرة، وهو يدرك أسرار اللعبة: «وهل النسبة التي يطلبها على الأرباح عالية جداً؟».

– بالطبع عالية جداً، وماذا يحدث إذا تنازلت عن بعض الأرباح مقابل ضمانة الاستقرار والاستمرار والازدهار في الأعمال، أم ترغب في الركض وراء المسؤولين في إدارات الدولة، أو صغار العسكر من خارج الحاشية، مقابل منحهم نسبة صغيرة من الأرباح؟ هؤلاء الذين لا يضمنون أنفسهم مع أول هزة سياسيّة، ويطيرون معها، فكيف يضمنون غيرهم... لنتوجّه إلى العقل الكبير مباشرة.

والتقى أبو عصام بأحد الضبّاط الكبار من الحاشية المحيطة مباشرة بالزعيم الجنرال على مائدة عامرة بالطعام والشراب، قرب حوض السباحة في مزرعة أبو ليلى.

«معلمنا أبو علي الحوت، الرجل الثقة واليد القويّة للزعيم الجنرال في زرع الأمان والاستقرار في البلد كله»، هكذا قدّمه أبو ليلى، وأردف وهو يغمز بعينه: «معلمنا أبو علي الحوت كبيرنا جميعاً، نحن نعتمد عليه في المصاعب والأزمات، وهو شريك لكل الأذكياء من أمثالك في البلدات الأخرى».

يجيب أبو عصام بابتسامة ودودة: «سمعته الطيّبة تسبقه أينما تحرّك، هو معلمنا دون أن نتعامل معه، فكيف إذا شملنا برعايته وعطفه، وخاصّة أنّه من طرف زعيمنا الجنرال المحبوب».

– اسمع يا أبو عصام، معلمنا أبو علي الحوت أحبّك منذ أن سمع عن روح الجرأة والمخاطرة والتحدّي في عملك الوطني عبر الحدود وفي البلدة، وخاصّة أنك تجعل الناس يذهبون إلى الأحلام اللذيذة بهلوسات صغيرة لا تضرّ الوطن، فينسون همومهم ويشعرون بالاطمئنان فيه، ما يجعلهم مواطنين نموذجيّين صالحين، لا يفكّرون بزعزعة الرخاء الذي نعيش فيه برعاية الزعيم الجنرال.

ويصبّ هذا بالنتيجة في استقرار الأوضاع الأمنيّة التي يتابعها معلمنا أبو علي الحوت بنفسه، فعملك بالنتيجة يتكامل معه، وهو لذلك يحبّك ويرحّب برغبتك في أن تكون شريكاً له.

– لنا الشرف أن يحبّنا...

أخيراً، يتحدّث أبو علي الحوت مقاطعاً إيّاهم بنوع من العجرفة: «دعوكم من المجاملات السخيفة، ما هي النسبة التي ستدفعها يا أبو عصام؟».

– 40% من أرباح كافة النشاطات التجاريّة والخدماتيّة الوطنيّة التي أديرها، السريّة والعلنية منها.

يتأفف المعلم أبو علي الحوت قائلاً: «قليل. هناك منافسون كثر، لكن هذا المحتال أبو ليلى هو الذي يحبّك، واقترح أن تتعامل معي... يبدو أنّك لست على المستوى».

فيسارع أبو ليلى لإنقاذ الموقف: «50% لمعلمنا أبو علي الحوت، 5% لي، والباقي لأبو عصام، مقابل امتداد شبكة نشاطاته الخدماتيّة المتنوّعة إلى البلدات المجاورة، دون أيّ منافس».

– اتفقنا.

يكمل أبو ليلى: «ولا تنسَ يا أبو عصام، لا نريد لاسم معلمنا أن يتلوّث بأيّ شيء. سمعته الزعيميّة مقدّسة، فهو لديه مهمّات وطنيّة كبرى إلى جانب زعيمنا الجنرال المحبوب، الذي يقود البلد نحو العدالة، والرخاء، والازدهار... كما أنه مرشح لتسلّم منصب قائد المرافقة المسلحة الشخصيّة له».

يجيب أبو عصام بثقة: «إذا حدث شيء طارئ خارج إرادتنا لاعتبارات بروتوكوليّة في العلاقات بين البلدات، فلدينا أسماء جاهزة لتلويثها».

يبتسم أخيراً أبو علي الحوت: «يعجبني ذكاؤك يا معلم أبو عصام».

يبتسم أبو عصام، ويقول في سرّه: «أنا دائماً رجل ذكيّ».

يبتسم أبو علي الحوت من جديد، ويقول في سرّه: «كنتم أذكياء دائماً ونحن الأغبياء، لكن سنرى يا أبو عصام منذ الآن من هو الذكيّ».

اختار أبو عصام موقع مطعمه السياحي على كتف الجبل، قريباً من الاتوستراد الجديد الذي يغلي بحركة مروريّة كثيفة إلى المزارع، وغير بعيد عن محطة التلفريك المزمع إنشاؤها قريباً، بعد أن اطّلع على المخططات السريّة المخبّأة في أدراج البلديّة. لكنّ أهمّية الموقع كانت خاصّة بقربه من مسارب التهريب مباشرة، عبر الدروب السريّة في الجبال، وهذا ما سيريحه.

وبما أن الوقت من ذهب، سرعان ما ارتفع بناء المطعم عالياً، مشرفاً على سهول البلدة التي انفتحت أمامه باتّساعها، وأصبح قبلة أنظار أصحاب الصفقات المريبة التي يتوّجونها بسهرات عامرة بما لذ وطاب من المأكولات الشهيّة والمشروبات الروحيّة، وبما يسرّ العين من مناظر

نهاريّة وليليّة جميلة، تريح النفس المتعبة من المجادلات وخطط النصب والاحتيال اليوميّة. واستطاع أبو عصام عن طريق مطعمه التخلص من زوجته التي تمتصّ حيويّته بشبق شديد، ومن الأرانب التي تتناسلها دون توقف، بدعوى ضرورة البقاء الدائم فيه من أجل إدارته.

أمّا رفاق السوء القدامى الذين كانوا يقيمون لدى أبو عصام في المقهى الشعبي القديم، فبالتأكيد سيلطخون سمعته الجديدة بالركض وراءه أينما تحرّك، بأسمالهم البالية وعقولهم التائهة بالهلوسات، ولن يجد طريقة للتخلص منهم نهائياً أفضل من الوشاية بهم لرئيس المخفر، والاتفاق معه على ترتيب التهم الجاهزة والموثقة عن تهريب الحشيشة وتدخينها، وممارسة اللواط، وإغواء الأطفال الصغار. وحسناً فعل، كما يفعل السياسيّون من حوله، إذ إنه سياسي بالفطرة، فقد نال الرفاق أحكاماً طويلة بالسجن، وارتاح منهم، وأراحوا هم أيضاً مَن حولهم. لكن بما أن أبو عصام صاحب قلب طيّب، فإنه لا ينسى الأصدقاء القدامى، فقد زارهم مباشرة في السجن حتّى يطمئنّ على أحوالهم.

يسأل الأصدقاء القدامى: «يا معلمنا أبو عصام، علاقاتك طيّبة مع من هم فوق، فمتى ستخرجنا من هنا؟».

– أقسم لكم، لقد وضعت لكم أفضل المحامين في البلدة، وهم يعملون للدفاع عنكم ليل نهار، لكن التهم ثابتة عليكم، فعليكم بالصبر قليلاً... والآن خذوا هذه الحلويات حتّى تنسوا آلامكم وأيّامكم الطويلة في السجن.

– يا أبو عصام، نحن لا نحتاج إلى حلويات، نكاد نُجنّ من أجل الحصول على سيجارة «ملغومة»، نشمّ رائحتها على الأقل.

– سأعطيكم القليل منها الآن مجّاناً، لكن في المرة المقبلة ستدفعون، هذا ليس لأنني لا أحبّكم، بل كي تنشطوا وتستغلوا خبراتكم في التوزيع داخل السجن، فقد تبقون فيه طويلاً، وعليكم أن تتدبّروا أموركم بأنفسكم.

– متى سنراك يا أبو عصام في المرة المقبلة حتّى نسمع الأخبار الطيّبة؟

– سأحاول قريباً، إذ إنني مشغول في هذه الأيّام بتصليح أثاث المقهى، فقد أصبح عتيقاً، وبأم عصام المريضة كما تعرفون بضيق تنفسها، وبالأولاد الذين تناسلتهم ولا يوجد من يطعمهم.

– وكيف ستزوّدنا بالبضاعة؟

– اطمئنّوا، ستصلكم عن طريق أحد رجال الشرطة في السجن من عملائي.

منذ افتتاح المطعم وأبو عصام يطوّر الخدمات المقدّمة إلى زبائنه المتميّزين نحو الأفضل. نجح في إقناعهم بنقل مركز قيادة نشاطاتهم في النصب والاحتيال إليه، من خلال تأمين الأجواء الملائمة من الراحة والمتعة والأمان والسريّة، فأصبحت الصفقات تُعقد عنده، وتُشرب أنخاب

الشمبانيا بإبرامها فيه وبرعايته الروحيّة، بعد أن تراق نصف الزجاجات أرضاً. وأبو عصام رجل ذكيّ، يحب الأذكياء مثله والتعامل معهم، وسيجذبهم أكثر بمنحهم مسرّة العين والقلب والجسد، فيسمع طلباتهم:

«يا أبو عصام نحن مسرورون عندك بمتعة الدوار التي يجلبها كأس، وهلوسة الطيران التي يغذيها مخدّر، لكن الأذن تُسرّ بسماع صوت عذب شجيّ يثير المشاعر معهما، والعين أيضاً تتمتع بمرأى راقصة فاتنة تتمايل على هذا الصوت العذب».

«يا أبو عصام، لقد مللنا زوجاتنا العجائز، والقلب يريد أن يرتعش بمرأى صبيّة حسناء صغيرة، تتقلب معنا في السرير ليلاً، قرب نافذة تطل على هذا السهل العامر بالأنوار، وفهمكم بيكفي».

ويجيبهم: «لعيونكم يا شباب، طلباتكم كلها أوامر لي، لا تحلو نهاية السهرة إلا بلقاء الساق بالساق».

انطلق أبو عصام في أرجاء البلاد، إلى القرى المتناثرة في السهول والصحراء البعيدة، وأحضر فلّاحات وبدويّات صغيرات، تعرَّف إلى مواهبهن الخفيّة بعين خبيرة في أرض غير محروثة. ومن أجل أن يكتسب سمعة دوليّة محترمة في عصر الانفتاح العالمي، استورد أيضاً بضاعة أجنبيّة لا تُنافس، نسوة حليبيّات من بقايا الدول الشيوعيّة، وشقراوات من الدول الغربيّة، وذوات عيون مشدودة من أطرافها من جنوب شرق آسيا. وأخضعهن جميعاً لدورات تأهيليّة وتدريبيّة في غرفة نومه، ليفجّرن خبراتهن التي اكتسبنها في خدمة الزبائن.

كان كلما مرّ أحد من أمام باب غرفة نوم أبو عصام بعد منتصف الليل، يسمع صوته وهو يلقنهنّ أصول التعامل مع الزبائن كفنّانات محترمات مبدعات، وهو يبذل مجهوداً استثنائيّاً بخبراته المتراكمة: «نامي على ظهرك يا صغيرة، افتحي فخذيك جيداً يا شاطرة، ارفعي الآن ساقيك قليلاً في الهواء، ممتاز... لنغيّر الآن الوضع، انقلبي على بطنك، ثم اركعي على ركبتيك، رائع، منظر مؤخّرتك مثير جداً... انهضي، واستندي إلى الجدار أو إلى الطاولة، نعم، وأنت واقفة، لكن انحني قليلاً، ساحرة، هذا وضع عمليّ سريع لا يحتاج إلى خلع الملابس. لننتقل بعد ذلك إلى الكرسيّ، اجلسي في حضني... وسأترك لك الآن حرّية ابتكار أوضاع غريبة جديدة، حسب قدراتك على التخيّل والتحمّل الجسدي... هل لاحظت كيف أصبحت تعرفين الأوضاع جميعها، وأصبحت خبيرة دولية في شؤون الحياة وفي غرائب منح المتعة؟».

وهكذا، كانت مواهب هؤلاء الفنانات المبدعات تتطوّر على سرير أبو عصام، ويُوزَّعن على الأعمال المناسبة بحسب نتائج دورات التدريب: نادلات للخدمة بين الطاولات أو وراء المشرب، مؤنسات للزبائن الضجرين من وحدتهم في الزوايا المختنقة بالظلال الملوّنة، مغنّيات بتأوّهات

شبقة، راقصات تعرٍّ. وبالرغم من اختلاف خدماتهنّ المقدّمة للزبائن، كنّ جميعهنّ ينتهين في الفراش، قرب نافذة تطلّ من كتف الجبل على السهول العامرة بالأنوار المتلألئة، يطبّقن معهم الخبرات التي اكتسبنها من الدورات المكثفة.

ينسحر الزبائن المستلبون، يطير صوابهم من الإثارة، ويرمون نقوداً على الصدور العارية والأقدام، والذي يكون مخبولاً أكثر يتخلى عن كلّ ما يملك من أجل ليلة يبرز فيها فحولته النادرة.

ثمّ قرّر أبو عصام أن يتقدّم خطوة جريئة في تطوير أعماله، ما دام المعلم أبو علي الحوت يحميه، فلماذا لا ينشط ويتوسّع في اتّجاهات عابرة للحدود بسمعته الطيّبة؟ والمنطقة التي ازدهرت سياحيّاً على نحو مفاجئ أصبحت قبلة أنظار أثرياء صحراويّين عجائز أخذوا يتوافدون إليها بكثرة ليستنهضوا أعضاءهم الجنسيّة الخاملة على رائحة ومرأى أجساد صبيّات صغيرات، مغتسلات بالشمبانيا، ومتعطّرات بالورود الفوّاحة.

هكذا تتطوّر الأعمال يا أبو عصام في ظلّ الرخاء والأمان والانفتاح الذي نعيشه في رعاية الزعيم الجنرال.

شاهد أبو عصام كيف ينثر الأمراء الصحراويّون الدنانير الذهبيّة هنا وهناك بكرم شديد على حقول أجساد الصغيرات، فتجعل الانتصابات واقعاً ملموساً في أحلام الهلوسة... شاهد كلّ هذا، لكنّه اكتشف بعين خبيرة أن أكياس الدنانير لا تفرغ، تعود معهم إلى الصحراء وما زالت مليئة.

فكّر أبو عصام طويلاً، وتساءل أمام عمر: «كيف نصل إلى تفريغ أكياس دنانير ضيوفنا بالكامل؟».

أجابه عمر: «نزيد متعهم بملذات جديدة، وبطرق تدعم الاقتصاد الوطني للبلدة، كي نبقى على علاقة طيّبة مع معلمنا أبو علي الحوت... لكن كيف سنصل إلى ذلك دون أن نزعجهم؟».

– لن ينزعجوا إذا ما تمتّعوا، إذ لن يضيرهم لو عادوا إلى صحرائهم بدون أكياسهم، فلديهم هناك ذهبٌ أسود لا ينفد، يتحوّل بأعجوبة صحراويّة مقدّسة إلى ذهب أصفر، يشتري كل البلد لو أرادوا.

لاحظ أبو عصام بذكاء أنّ العجائز الصحراويّين الذين يصحون من لياليهم الحمراء، وقد خملت أعضاؤهم بعد طرح سباياهم قتلى في خيام الملهى، سرعان ما يشعرون بالملل والضجر، ويرغبون في التسلية بشيء ما، وهم يداعبون دنانيرهم التي تحرق أصابعهم بانتظار ليلة بنفسجيّة جديدة مغايرة، فقرّر أن يفتتح مشروع أحلامه القديم، نادياً دوليّاً للقمار. ولمَ لا، وهو في الأصل لديه خبرة عُمْرٍ في هذا المجال، لكنّه سينتقل الآن من ألعاب البسطاء الأغبياء، الذين كانوا يتنافسون على صحن حلويات أو قبضة نقود معدنيّة صغيرة في مقهاه القديم، إلى آفاق أوسع في المراهنات، يعرف أين تبتدئ، لكن لا يدري أين تنتهي، إذ لا حدود أمام المقامر المحترف.

سُرّ عمر من الفكرة، وسأله: «كيف سنبدأ؟».

– سنتوسّع بالملهى، ونترك ألعاب «الطرنيب»، و«الباصرة»، و«التريكس» المحلية، المناسبة للصبيان الهواة في مقهانا القديم، وننتقل إلى «البوكر» و«ألعاب الروليت» للمحترفين. وقد نفتتح في المستقبل القريب مراهنات على سباق الخيل، وسأختار معظمها بيضاء.

– لماذا بيضاء؟

– منذ زمن بعيد، وأنا أحلم بالأحصنة البيضاء الشامخة التي سأدجّنها للمراهنات. في صغري، كنت أشاهد فارساً يمتطي واحداً منها بين الحقول، فتهفو قلوب الصبايا إليه، يلوّحن له بالمناديل المطرّزة، فيما أنا منزوٍ ألعب القمار على أرض ترابيّة في أحد الأزقة مع رفاق الأيّام الماضية الحقيرة على بضعة قروش، ولا تعيرني أيّ منهنّ أدنى انتباه.

ودارت عجلة الروليت... توافد المقامرون من كلّ حدب وصوب، وفوجئ أبو عصام بأن المقامرين الحقيقيّين هم من أهل البلدة المتنفذين أكثر ممّا هم من العجائز الصحراويّين. وقد أدخل هذا البلبلة إلى أفكاره عن المقامرين الصحراويّين الذين سمع أنّهم يملأون شواطئ الريفيرا، فإذا بهم لديهم منافسون محليّون حقيقيّون، لا يدري من أين يحضرون ممتلئي الجيوب.

«وماذا يهمّ، فليأتِ من يرغب، المهم أن تدور عجلة الروليت»، قال في نفسه.

تذكّر أبو عصام زبائنه القدامى في المقهى العتيق، الذين كانوا يقامرون طوال الليل على قبضة نقود صغيرة. الآن، يأتي إليه ممتلئو الجيوب المحليّون، أمراء إلى قصره هنا، وقد التفّ حول كلّ منهم سرب من صبايا الملهى، كي يجلبن له الحظ. يسكب الويسكي، كأساً لنفسه يلقيه في جوفه بجرعة واحدة، وكؤوساً لهنّ يلقينها في أقرب أصيص ورد دون أن ينتبه، فهو مشغول بجشع الربح الذي سيسقط فجأة من السماء، وهنّ يشجّعنه بعد كلّ خسارة «المرّة التالية ستربح بالتأكيد يا حبيبي».

وعندما تنفد النقود من المقامرين في خسارة وراء خسارة، يستدينون، فإذا ما أعيتهم الحيلة، راهنوا على ما يمتلكون، الساعة والملابس الخارجية والداخلية، والسيّارة والبيت، ثم الأراضي والعقارات، وإذا ما زاد جنونهم راهنوا على نسائهم وبناتهم الصغيرات، اللواتي سيخسرونهنّ بالطبع، وفي النهاية يراهنون على تأجير مؤخّراتهم... فالنادي نهض مشروعاً تنمويّاً لتفريغ الجيوب الممتلئة لمصلحة حاشية المزرعة الوطنيّة، وأبو عصام لديه من الذكاء بحيث وظّف محامين لتحضير عقود الشراء والبيع والرهن مباشرة في النادي، مباشرة قرب طاولات القمار...

ومرَّ بالبلدة ضيوف عابرون من وراء البحار، ليتذكّروا أمجاد استعمارهم القديم، فقرّر المقامرون الوطنيون من المسؤولين المناضلين الانتقام من هؤلاء المتغطرسين الأجانب على طاولة ألعاب القمار. «كيف يتحدّوننا في عقر دارنا، وقد هزمناهم بثوراتنا التحرّرية؟».

لعبوا معهم، لكنهم خسروا كالعادة، فقد أدمنوا الخسارة.

وبما أنّ هؤلاء الغرباء لا يقبلون الاستدانة، ولا يرضون إلا بالدفعات العينية، لم يجد المقامرون إلّا أن يراهنوا على حصتهم من الوطن، أوليسوا هم مواطنين في هذا البلد، ولهم قطعة فيه؟ كما أن اللعب بالوطن ليس مقامرة، بل مشروع وطني تنموي.

يقول أبو عصام في جلسة صفاء مع زبائنه المتميّزين: «لو لم يكن للبلدة مثل هذا المتنفس السياحي، الراقي والآمن، لهربت الصفقات التجاريّة ورؤوس الأموال إلى البلدات الأخرى».

يعلّق رئيس البلدية: «فضلكم كبير على البلدة معلم أبو عصام، نشكركم خاصّة على المعونات الإنسانيّة التي منحتموها لدعم مركز معالجة المدمنين على المخدرات، الذي يشرف عليه مستوصف البلدية».

يتابعه رئيس المخفر: «فضله كبير أيضاً بالوجبات المجّانية التي يقدّمها باستمرار لعناصري ذوي الرواتب الضعيفة... فمثل هذه الرواتب هي التي جعلتهم يقصّرون عن متابعة موزعي المخدرات».

ويضيف رئيس الجمعية الخيرية: «سنسمّي جمعيتنا باسمكم، بسبب رعايتكم لها وكرمكم في مساعدة الأيتام الذين يقعون عادة تحت تأثير مروّجي المخدّرات».

يبتسم أبو عصام قائلاً: «ولا تنسوا أنني أخفف أيضاً من مستوى البطالة في البلدة بنسبة كبيرة، عندما أفتح فرص عمل ذهبيّة للشباب».

في الواقع، إنّ من يتولى خلق الفرص الذهبيّة للشباب في البلدة من أجل العمل والترقي هو عمر، الذي أصبح اليد اليمنى لأبو عصام في جميع المهمّات، وخاصّة «القذرة» منها، التي يبتعد عنها «المعلم» حفاظاً على سمعته المحليّة والإقليميّة والدوليّة.

يختار عمر شباب عصبته من ذوي السوابق المشهورين الخارجين حديثاً من السجن، بعد أن أمضوا فترات طويلة فيه. يسألهم في امتحان القبول: «لماذا ترغبون في العمل معي؟».

يجيبونه: «ليست المشكلة في أننا لا نجد عملاً في اختصاصاتنا الإبداعيّة، فهو متوفر بكثرة في البلدة، لكن يسرّنا الانتماء إلى «عصابة محترمة» تُقدّر مواهبنا وخبراتنا القديمة التي تعبنا على تنميتها مع العصابات السابقة».

وسرعان ما يرفدهم عمر بأجيال جديدة من الشباب المتعطلين والمتسكّعين في البلدة، من ذوي أجسام الغوريلات الضخمة ورؤوس الأرانب الصغيرة، فيعلفهم بهرمونات خاصّة كي يتضخموا أكثر، ويطوّر مواهبهم بسرعة على دروب التهريب وفي أسواق المخدرات.

يتحوّل الجميع إلى «شبّيحة» مدرّبين مسلحين مطيعين لأوامر «المعلم عمر»، الذي ينفذ عمليّاته الخاصّة بعد التنسيق مع ضابط اتّصال من حاشية المعلم أبو علي الحوت، حتّى لا يقع

اصطدام برجال الشرطة، والأمن، والجمارك، والبلديّة. لكن أبو عصام لا يحبّ أن يحشر اسم المعلم في كلّ صغيرة وكبيرة، بل يجعل عمر يلجأ إلى ضابط الاتصال فقط في العمليات الكبيرة.

وعلى كلّ الأحوال، ما إن استقرّت الأوضاع حتّى تفرّغ أبو عصام لعلاقاته الاستراتيجيّة مع زبائنه الكبار، لكن دون أن يتخلى عن التخطيط لعملياته وإدارتها عن بعد من خلف الستار، وتكفّل عمر الذي دخل الآن في الثلاثينيّات من عمره بالأمور التنفيذية.

فعمر هو الذي يختار الآن شخصياً أفراد عصبة «الشبّيحة»، ويتولى الاهتمام بشؤونهم، وقد ازدادت أعدادهم بكثرة في الفترة الأخيرة مع تطوّر الأعمال وازدهارها، وهو الذي يشرف على عمليات تهريب المخدّرات عبر الجبال، وتوزيعها في أسواق المنطقة، ويؤمّن المرافقة للفنانات الاستعراضيّات العالميّات اللواتي يتعاقد معهنّ والده والعناية بهنّ، ويضمن الأجواء الأمنيّة الملائمة للاجتماعات السريّة التي تبرم فيها الصفقات الكبيرة.

وينفّذ عمر تعليمات أبو عصام بدقة بشأن التخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم، بناءً على توصيات من الأصدقاء الشخصيّين المتميّزين، ولو أدّى الأمر إلى إسكاتهم نهائياً. ويُقال همساً إنّ من قتل أبو حسين، المسؤول في دائرة البلدة العقاريّة ووالد رَبْع الطبيب حسين، هم هؤلاء الشبّيحة، بأوامر مباشرة من أبو عصام من أجل «عيون الأصدقاء المتميّزين». فقد تجرّأ أبو حسين على الانسحاب من العمليّات عندما اكتشف عدم قانونيّتها، فأسكتوه بعد أن عذبوه عذاباً شديداً ليصبح عبرة للآخرين، ورموه في الساحة جسداً مشوّهاً، إلّا أنّه استطاع أن يلفظ اسم أبو عصام في اللحظة الأخيرة قبل موته.

وبسبب المهمّات والصلاحيات الكبيرة المنوطة بعمر، فقد حاول أن يكتسب مظهراً استعراضيّاً لشخصيّة قياديّة تبدو مهمّة، فأصبح لا يتحرّك من مكان إلى آخر إلّا بوجود مرافقة مسلحة من عصبة «الشبّيحة»، تغلي حوله كالدبابير بأسلحتها من المسدّسات والبنادق الرشاشة، على الرغم من غياب أيّ تهديد له، فهو اليد اليمنى لأبو عصام، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منه، لكنّها ضرورة استعراضيّة لزرع الرهبة حوله، يطبّقها مثل كل أولاد المسؤولين من حاشية الزعيم الجنرال.

وعلى عكس والده ذي الجسد الممتلئ، يبدو عمر غريباً بنحوله بين أفراد قطيعه من «الشبيحة» العمالقة، وهم يحومون حوله بضجيج وصخب لحمايته من الذباب ونظرات الكلاب الشاردة. ولذلك، حاول أن يتميّز بينهم بمظهر جدّي مهيب، فأرخى لحية سوداء صغيرة يعتني بها كثيراً، واختبأ خلف نظارة سوداء، لا تسمح لأحد بالوصول إلى مكنونات أفكاره، وأخفى رأسه تحت طاقية صيد سوداء أيضاً، دون أن يسمح لنفسه بالابتسام أمام أحد.

وحتّى يبدو شابّاً حيويّاً وعمليّاً، ارتدى سترة جلدية سوداء، وانتعل حذاءً مطاطياً يلتفّ حول ساقيه، وينغلق عليهما بشدّة، ليقفز بهما من سيّارته كالغزال. وأعطى لنفسه أهمّية التحدّث بصوت عالٍ، ترافقه حركات مسرحيّة من يديه، ليلقي دون توقف أوامر عبثية لا تنتهي. وبسبب عبثيّتها يتراكض حوله الشبّيحة بصخب هنا وهناك، يضجّون بحركات عشوائيّة، لا يعرفون ماذا عليهم أن ينفذوا بالضبط.

بدا عمر بوجود دعم أبو عصام اللامحدود شخصاً لا يمكن الوقوف بوجهه، الجميع يهابه، وينفذ أوامره دون مناقشة. لكنّ شخصاً واحداً استطاع أن يهز كيانه باستمرار، دون رهبة منه ومن جميع أفراد مرافقته الاستعراضيّة... عصام الذي كبر فجأة، وأصبح شاباً صلباً في العشرين من عمره. يتحدّاه، ويجد هو فيه منافساً قويّاً له، فهو مرشّح دائماً لكسب ثقة أبو عصام والحلول مكانه، على اعتبار أنّه هو الابن الشرعي. لذلك، ما إن يلتقيان حتّى يتنازعا بشراسة لأتفه الأسباب، أو حتّى دون سبب.

يقول عصام لعمر: «ابتعد عن رجال عصابتك الحقيرة، وتعالَ واجهني وحدك، رجلاً لرجل، كي أحطّم وجهك القبيح ونظارتك السوداء التي تبدو غبيّاً بها».

يثور عمر ويصيح: «من أنت لتتحدّاني، اذهب لبيت أمّك الديناصورة، واختبئ بين أخواتك البنات حيث يدلّلنك، والدك لا يهتمّ بصبيّ مثلك».

– على الأقل، أنا لست ابن حرام، أمّا أنت فلا شيء يدلّ على أنّك ابنه، والدي عطف عليك فقط من أجل جدّتي.

يهتاج عمر أكثر ويصرخ كالمجنون: «أنتم كلكم عائلة أولاد حرام، أخواتك البنات أصبحن كلهن داعرات مثل أمّك، تنام كل واحدة منهن مع دزينة من الرجال، وسينجبن جميعهنّ قريباً أولاد حرام. من الأفضل أن تتعلم مهنة تحضير العجين من زوج أختك الحقير، فهذه المهنة تليق بعقلك القاصر، وأنبّهك أنّني سأكسر قدمك إذا اقتربت من المطعم على كتف الجبل».

– سأدمّر وكرك الحقير برائحته النتنة، التي أساءت إلى والدي.

يسحب عمر مسدّسه في الهواء، وقد أعماه الغضب، وهو يتفتف الكلمات: «والله لولا والدي ومعلمي أبو عصام لأنهيتك بطلقة واحدة من مسدّسي يا حقير».

يسحب عصام بالمقابل مسدسه ويقول: «أنا مَن سينهيك بطلقة من مسدّسي».

يتدخل «الشبّيحة» في هذه اللحظة، ويفصلان بينهما بحذر ومداراة، لكن بصعوبة شديدة... فهذه هي تعليمات المعلم أبو عصام، وإن كانوا يتمنّون الخلاص من عصام بطلقة طائشة لا يتحمّلون مسؤوليتها.

كان عصام يتمشى ذات مساء على درب صغير قرب الساقية حتّى ينسى همومه قليلاً، حين التقى بكاسر. جلسا تحت شجرة جوز في مدخل البلدة، وتحدّثا طويلاً، فانفتح القلب للقلب، وأصبحا صديقين.

«أريد أن أهرب من بيتنا المجنون ومن الملل الذي يحيط بحياتي، ولا أدري إلى أين؟»، قال لكاسر الذي أجابه بودّ ومحبّة: «لا تهرب إلى أيّ مكان، تعال إلى قلوبنا في غرفتنا الطينيّة، حيث نجتمع نحن الشباب، هناك ستكتشف نفسك بيننا، وستعرف كيف تواجه الخراب في روحك وفي البلدة».

يجلس عصام متربّعاً على بساط ملوّن في غرفتي الطينيّة، أينما ينظر يرى شباباً مبتسمي الوجوه والقلوب، نتحلق جميعنا حول صينيّة قشّ توزّعت عليها صحون الجبنة، واللبنة، والزيتون، والمكدوس، والزيت والزعتر، وخبز تنّوري مبخوخ بالماء كي يصبح طريّاً، مع إبريق شاي كبير. يأكل معنا بمتعة لم يعرفها من قبل، وهو يتأمّل مذهولاً كلّ ما يحيط به من أشياء قديمة، مصفوفة على الرفوف أو معلقة على الحائط.

يسألنا عصام لمَ ليس لدينا تلفزيون في الغرفة، فينظر بعضنا إلى بعض ونبتسم، ويجيبه فؤاد: «يا عصام، نحن حطمنا منذ زمن بعيد أجهزة التلفزيون».

– غريب، لماذا تحطمونها، ألا تلتقط المحطات الفضائيّة الملوّنة؟

– حطّمناها تحديداً لأنّها تلتقط المحطّات الفضائيّة الملوّنة، نحن لا نحبّ الأوهام.

– لكنّ ما ترونه ليس أوهاماً، بل أحلام تخفّف من التوتّر في داخلكم في هذه الأوضاع الصعبة التي تعيشونها.

– نحن أحلامنا أكبر وأسمى، نريد إسقاط الزعيم الجنرال، وتحطيم نظامه الفاسد الذي خرّب حياتنا، ونريد استرجاع حصاننا الأبيض.

يبدو عصام كأنه يرتعد ممّا يسمعه. يتصبّب العرق من جبينه، ويسأل متردّداً: «إذاً أنتم من تخرجون في... كيف تجرؤون، ماذا فعل الزعيم الجنرال لكم؟».

يجيبه الأستاذ فارس: «تحت رعاية الزعيم الجنرال، وبحماية مباشرة من المراكز الأمنيّة التابعة للمعلم أبو علي الحوت، خرَّب والدك البلدة ودمّر حياة شبابها».

يتلعثم عصام: «وكيف خرّب والدي كل هذا؟».

فنبادر جميعنا إلى الحديث بجمل تهطل عليه كالمطر:

«والدك نشر المخدّرات في البلدة كلّها حتّى وصلت إلى حاراتنا الفقيرة الطيّبة، يريد أن يخرب أرواحنا»، «حوَّل البلدة إلى بيت دعارة كبير، وأصبحت رهينة في نادي القمار»، «منذ الاتفاقيّة الشهيرة بين والدك وأبو علي الحوت الحقير، ازداد عدد الفقراء الذين يفتقدون الخبز والكرامة»،

«إنّه عرّاب الصفقات المريبة. برعايته، أصبح السماسرة يبيعون ويشترون أراضي البلدة والناس الذين عليها»، «والدك لا يُؤمَن له، وشى بأصدقائه القدامى، وأودعهم السجن حتّى يحمي نفسه»، «شبّيحة الحقير عمر انضمّوا إلى أمن الزعيم الجنرال بتوجيه من أبو علي الحوت وموافقة والدك، أصبحوا ينزلون إلى الشارع معهم في محاولة لقمعنا وإسكاتنا»، «عمر لم يعد مخبراً وعميلاً للأمن فقط، بل مرجعية كبيرة لهم، يستمعون إليه ويأخذون برأيه»، «نريد خبزنا المسروق، واستعادة كرامتنا المهدورة تحت أحذية العسكر ونهب التجار، نريد حرّيتنا المسلوبة».

يغلق عصام أذنيه بكفيه، يصرخ بجنون وهو ينهض كالملسوع، ماضياً باتّجاه الباب، فيسأله كاسر: «إلى أين يا عصام؟».

– سأذهب وأقتل والدي وعمر بمسدّسي.

يمسكه كاسر بقبضة قويّة ويقول: «لا، يا عصام، نحن أعلنّاها سلميّة. لا نؤمن بالعنف ولا نقتل أحداً وعندما تنتصر ثورتنا سنترك القانون العادل يحاسب المحتالين الذين امتصّوا دمنا. ثمّ ماذا ستستفيد من قتلهما؟ هناك المئات من أمثالهما».

– إذاً ماذا أفعل لأخمد النار في صدري؟

– تنزل معنا إلى الشارع، وتهتف معنا: خبز، كرامة، حرّية.

أتدخّل ساخراً وأنا مستند باسترخاء إلى الجدار: «نعم، نهتف جميعاً، كما في كلّ يوم... لو كانت الأغلبية معي لأخذت مسدّسي وذهبت معك لقتل أبو عصام وعمر، واثنين آخرين مثلهما، حتّى تعرف هذه الزمرة أنّ الدم لا يغسله إلّا الدم».

يحتدّ الأستاذ فارس: «لن تعرف...».

– بل ستعرف، ستعرف... لنستعدّ لأيّام صعبة سيكشّر فيها الزعيم الجنرال عن أنيابه أكثر.

يقول عصام: «وأنا لن أعود إلى البيت، سأبقى معكم... سأخرج غداً معكم، وسيكون يوم انتقامي».

وصلنا اليوم إلى الساحة بحشود كبيرة تتلاطم كأمواج البحر، هادرة كالعاصفة، وقد ارتفعت الأعلام الوطنيّة واللافتات كرنفالاً، نحلم بوطن دون زعيم جنرال، فيما حوَّل أبو سويلم هتافاتنا إلى غناءات تصدح بشكوى القلوب المقهورة من الظلم، انتظمت على إيقاعات العراضات الشعبيّة. اجتمعنا بالمئات، ومشينا كتلة متماسكة، تكتسب قوّتها من أصواتنا الهادرة بتحدّي الزعيم الجنرال ونظامه، والنفوس ممتلئة بالحقد والغيظ، إذ إننا لا نستطيع نسيان إطلاق الرصاص الحيّ علينا في المرّة السابقة.

انفصل عصام عن صفّه، أخذ العلم الوطني من أحد الشباب، أمسكه بثبات بساعديه القويّين ولوَّح به عالياً، وقد رفع رأسه شامخاً وشرع صدره للريح.

وكانت شاحنة العم أبو كاسر العملاقة، المخصّصة لنقل رمل البناء من المكاسر في الجبال تسير وراءنا، تصدر زعيقاً عالياً بمحرّكها العتيق، وتملأ الجوّ دخاناً أسود.

يحمل أبو كاسر حقداً كبيراً على العسكر والسماسرة الذين سرقوا أراضي عائلته، فتحوّل من فلّاح إلى سائق شاحنة، لكنّه لا يتخلى أبداً عن غطاء رأسه الأبيض المخطّط بالأحمر، وشرواله الأسود الذي يشدّه بحبلة بيضاء. يقول: «أنا فلّاح حقيقي، وسأرتدي ملابسي هذه حتّى لو أعطوني منصب وزير عندما تنجح الثورة».

تكاثرت اليوم السيّارات والدرّاجات الناريّة أمام التظاهرة وخلفها، تضجّ بزئير محرّكاتها، وهي تفتح طرقاً وتقطع أخرى لحمايتها وتسهيل مرورها، ورافقنا مسعفون بقيادة ربع الطبيب حسين لمعالجة الجرحى الذين قد يسقطون في الساحة، ريثما يتم نقلهم إلى مستشفى ميداني سرّي في الأحياء القديمة، يشرف عليه طبيب البلدة ياسر الذي انضمّ إلى الانتفاضة معنا. وفي أنحاء الساحة، وعلى رؤوس الحارات والأزقة، تكدّست أكوام الحجارة، فرشتها هناك ليلاً أنا وعلي.

أشعلنا أبو سويلم كعادته، ما جعل الشباب يتألقون بعراضة وطنيّة وراء إنشاده، ويرقصون بحلقات متتالية، فيما الأكفّ تصفّق بشدّة، وقد قرّروا اليوم الصمود في الساحة... أليس هذا عرساً وطنيّاً، وقد وحّدنا معاً حلم إسقاط الزعيم الجنرال.

فجأة تداخلت معنا أصوات نسوة قادمات من الشارع الجنوبي، تزغرد وتهتف «خبز، كرامة، حرّية، منصورين يا شباب»، وهنّ يرمين المتفرّجين على الشرفات بنظرات الشماتة والاحتقار، وينادين: «أين أهل النخوة، الوطن يغتصبه الظالمون، وأنتم تتفرّجون، انزلوا ودافعوا عن كرامتكم».

لقد فعلتها النسوة إذاً، ونزلن إلى الشارع بشجاعة، كانت مفاجأة لنا.

أثار قدوم النسوة وغناؤهنّ أبو سويلم، فأصبح يهتف الآن منشداً أجمل أغنيات الحبّ. تحوّلت حبيبته إلى وطن، والوطن إلى حبيبة.

لكن، أين تذهب عيناك يا حبيبنا أبو سويلم وتنخطفان بعيداً؟! ألاحق نظراته، أجدها تذهب إلى هناك، إلى النسوة المتجمّعات جانبنا في طرف الساحة. وأراهنّ، بنات صبري، يهتفن بحماسة، عيناك تذهبان إلى هناك إذاً، إلى الأخت الكبرى، المعجبة بك وبملابسك الشعبيّة. وأرى إلى جانبها أختها الصغرى، أراها آلاء، تنظر إليَّ من بعيد، وعندما تلتقي النظرات يشتدّ هتافها حماسةً، وترمي لي بتلويحة عاشقة، والبسمة لا تفارق ثغرها، فأشتعل أكثر.

ماذا تفعلين هنا يا آلاء، هل جعلتنا تلك النظرة الخاطفة عاشقين، أم لأنني أعرفك من غابر الزمان؟ نسيتُ أنّ الزعيم الجنرال حرمك من والدك وأخيك، وأنت معنا الآن هنا لتستعيديهما. أراك الآن بوضوح، وأرى عينيك وابتسامتك تفرشان الأحلام على الوطن، يصبح بهما أحلى وأجمل،

أرى وجهك في كلّ النسوة والفتيات هنا، وهنّ يهتفن، أنت وجه مئات المقهورات في الوطن، أنت وجه المئات بأحلامك وحنينك للحرّية... أنتِ الوطن، وأنا بركان سينفجر.

يظهر من بعيد رجال الأمن، يتقدّمون نحونا ببطء من طرف الساحة الجنوبي. لا أرى منهم إلّا خوذاً، وتروساً، وعصيّاً، وأحذية عسكريّة، تتقدّم صفوفاً صفوفاً، ماكنات وحشيّة، وكأنها تسير دون أناسها، أو ربما تتحرّك كآلات مُبرمجة على الضرب والسحل.

نراهم ولا نتوقف عن الهتاف بتحدٍّ واضح، البركان في داخلنا يشتعل، وسينفجر في أيّ لحظة. هجمنا جميعاً هذه المرّة، صدمنا الرجال الآليّين بأجسادنا التي أصبحت صلدة وقاسية كالصخر، وشعرنا كأنّ خوذهم أخذت تتكسّر على رؤوسهم، وعصيّهم تتطاير من أيديهم، وتروسهم تتحطّم على صدورهم، وها هم يفرّون مبعثرين هنا وهناك... هم الذين يهربون هذه المرّة، يهربون من أصواتنا، من هتافات الخبز، والكرامة، والحرّية، التي تصمّ آذانهم، خوفاً من أن تشجّ الكلمات رؤوسهم.

أرادوا إطلاق النار علينا، صدرت بضع طلقات عشوائيّة لا أكثر، إذ أخذنا نرميهم بسيل من الحجارة. لكنّ المعركة لا تنتهي، تصرخ بعض النسوة، يشرن بأيديهنّ إلى الطرف الآخر «يا شباب، هناك من هو قادم من الجهة الأخرى، انتبهوا».

ننظر في الاتّجاه الآخر، ينادي الأستاذ فارس: «شبّيحة أبو عصام قادمون من الجهة الغربيّة، اصمدوا يا شباب، هذا يومنا والساحة أصبحت لنا».

نحمل حجارة ونركض نحو القادمين الجدد وبجنون أكبر، فكلّ واحد منا يحمل حقداً شخصيّاً على الشبّيحة بالذات. نركض نحوهم، فيما الأستاذ فارس يصرخ: «سلميّة يا شباب حتّى النهاية، فرّقوهم فقط، لندافع عن الساحة».

سلميّة يا شباب، طبعاً سلميّة، لكن هؤلاء لا يفهمون السلميّة يا أستاذ فارس، سنقاتلهم بأيدينا العارية فقط، لأجلك هذه المرّة. سنقاتل وأرواحنا على أكفّنا، نموت والوطن في القلب والعينين... في المرة المقبلة سأحضر سلاحي، وسأشرب من دمهم.

ذهل شبّيحة عمر، ونحن نرميهم بحجارة تهشّم وجوههم، لم يصدّقوا كيف نجرؤ وننصبّ عليهم كسيل الحمم، وقد ظنّوا أنهم قادمون في نزهة لردع بعض الزعران المتطاولين على المعلم أبو عصام. تفرّقوا وتبعثروا قبل أن يفكّروا برفع أسلحتهم باتّجاهنا، فأطلقوا في السماء رصاصاً عشوائيّاً، وهربوا.

لن يصدّق عمر الجالس في سيّارته الفخمة ما يحدث أمامه، بالتأكيد فإن ضابط الاتصال تكلم معه على الهاتف المحمول، قائلاً له: «نحتاج إلى بعض الدعم منكم في الساحة الرئيسية في البلدة، فهناك بعض الزعران».

اليوم انقلبت الموازين، الساحة مجنونة، تغلي بمئات الشياطين الذين يتراكضون ويتقافزون في كلّ أنحائها، وسيتساءل عمر ما الذي أتى به إلى هنا. هل أتى يتفرّج؟ لا، فالسيل يتّجه نحوه الآن، تسبقه قذائف من الحجارة، يتحطم زجاج سيّارته الأسود، فيما يهرب رجاله، يتركونه بعد أن دفع لهم الكثير من المال. الشياطين يهزون سيّارته بعنف، يقفز منها في اللحظة الأخيرة، قبل أن تنقلب وتشتعل فيها النيران.

ما إن تحطّ قدم عمر على الأرض حتّى تفاجئه لكمة تطيح نظارته السوداء وقبّعة صيده السوداء، وتهشّم وجهه، فينفر الدم منه. وقبل أن يسحب مسدّسه، تكون اللكمة الثانية قد أوقعته أرضاً، هو ومسدّسه. ومن بين غشاوة الدم النازف على عينيه يرى عصام الذي أخذ ينهال عليه ركلاً بالقدمين بعد لكمتيه القويّتين، ركلة في الصدر «هذه من أجل ماخورك الحقير»، وركلة على البطن «وهذه من أجل نادي القمار اللعين»، وركلة على الفك «وهذه من أجل مخدّراتك التي تسمّم بها الناس»، وضربة قاسية جداً على الرأس «وهذه من أجل دم أبو حسين، وكلّ الدماء البريئة التي سالت تحت سكاكينكم، أنتم وزعيمكم الجنرال».

يتدخل فؤاد ليسحب عمر من تحت قدميْ عصام، إذ لم يبق بينه وبين الموت إلا ركلة أخيرة، ويهدّئ كاسرٌ عصام، فيما يصرخ الأستاذ فارس: «لا تقتلوا أحداً، فرّقوهم واجعلوهم يبتعدون عن ساحتنا فقط».

في هذه الأثناء نسمع صوت صلية رصاص تمرّ من قرب عصام، وتكاد تصيبه...

أصحو في فراشي في الشقة على ضجيج غريب، ليس هو بصخب الشارع الاعتيادي، لكن يبدو أنني أصبحت أعرفه، لقد عادت التظاهرات إلى الساحة من جديد.

أنهض من السرير متحاملاً على الجرح في كتفي، وأجرجر نفسي متثاقلاً نحو الشرفة. أفكر أنه لا ينبغي الخروج إليها، بعدما أصابتني في المرة الماضية رصاصة عشوائيّة، لكن أصوات الهتافات الهادرة تناديني من الساحة، تجعل الشواش في رأسي يتصاعد من جديد ويطفو على السطح، والحكاك يأكل ظهري كسعار مجنون. مع هذه الهتافات، لا أستطيع أن أمنع نفسي من الخروج، إذ إن الومضات الغريبة تأتيني وكأنّ هناك من يهتف لي، وعليَّ أن أردّ له التحيّة... أكره هذا الشواش الذي يخلخل حياتي، والحكاك الذي يجعل القريبين يهربون مني.

ما إن خرجت إلى الشرفة حتّى بهرني ضوء الشمس، بحيث جعلني أصحو تماماً من نومي، ومن عمائي، لأجد تظاهرة كبيرة في الساحة ضدّ الزعيم الجنرال. جعلتني هتافات إسقاطه الهادرة أعود إلى الواقع، فتذكّرت أنني كنت أسخر من أربعة شباب يتدافعون إلى بيت صبري في التظاهرة السابقة، وكأن من رماني بنظرة احتقار منهم أصيب بطلق ناري. لكن، يبدو أنني أنا أيضاً أصبت مثله.

ها هي التظاهرة تتكرّر اليوم، لكن يبدو أن المشاهد مغايرة هذه المرّة، أراها بوضوح من الشرفة، فالمتظاهرون هم الذين يهاجمون بمجموعات كبيرة متماسكة، ويرمون بسيل كثيف من الحجارة رجال الأمن، الذين يتبعثرون ويهربون، دون أن يجدوا الوقت اللازم لرفع بنادقهم وإطلاق رصاصها عليهم، وإذا ما استطاعوا فرصاصات عابرة عشوائيّة تنطلق هنا وهناك، ولا تخيف أحداً... غريب، كيف انقلبت المشاهد اليوم، وكيف يجرؤ هؤلاء الشباب على فعل ذلك.

أرى الشرفات اليوم تغصّ بالمتفرّجين الفضوليين، إلا أن معظمهم يقعي مختبئاً خلف جدرانها، أو يسترق النظر من أبوابها المشقوقة، فمع أن صوت الرصاص يخيفهم، إلّا أن سيطرة المتظاهرين على الساحة سمحت لهم بالفرجة... في شرفة أم عصام، احتشد ثلاثة أضعاف العدد الذي تتّسع له من المتفرّجين الواقفين، غير الآبهين بأيّ خطر، فلقد أغلقت الشرفة عروضها الاعتياديّة اليوميّة المجّانية، التي أصبحت باهتة أمام ما يحدث في الشارع بحيويّته.

كانت شرفة أم عصام ممتلئة بالمتفرّجين الفضوليين، بحيث بدت آيلة للسقوط تحت ثقلهم الكثيف، والمتكدّس، والمتراكب، والمتلاطم، والمتقافز، فبدت الأجساد فيها كتلة واحدة غريبة لوحش خرافي تتمركز في وسطه أم عصام، وحش ديناصوري، تنّين أسطوري، لديه عشرات الرؤوس المتأرجحة في كافة الاتّجاهات، وعشرات الأيدي المتراقصة بجنون.

أصبح الوحش الديناصوري على الشرفة هو الذي يقود نظراتي في الساحة، فقد تعالت الأصوات من الرؤوس وازداد تراقص الأيدي، كي تدلّ على المواقع الأكثر إثارة في الاشتباكات فيها. وفيما أنا أتابع الأحداث من خلاله، تحوّل الوحش بكامل رؤوسه وأياديه إلى شارع جانبي. أدير وجهي معه مستطلعاً، فإذا بكتلة من الرجال تظهر في غيمة من الغبار، يتراكضون نحو الساحة، وهم يحملون بنادقهم، يطلقون الرصاص منها معلنين قدومهم. عرفتهم مباشرة من أشكالهم الضخمة المشوّهة، ومن تراكضهم المجنون، إنّهم شبيحة شيخ المحتالين أبو عصام، الذين يقودهم السيّئ الذكر الحشّاش عمر، وها هي سيّارته السوداء الفخمة تسير وراءهم.

وعادت رؤوس الوحش وأيديه في نقلة واحدة باتّجاه الساحة، وهي تنادي جميعها بأصوات ملتاعة «عصام، عد إلى البيت!».

أرى عصام يتقافز شيطاناً بين المتظاهرين، راكضاً على رأس مجموعة كبيرة منهم باتّجاه شبيحة عمر، يركضون معاً غير آبهين لطلقات الرصاص العشوائيّة التي يطلقها هؤلاء صوبهم، فقد كان سيل الحجارة يمنع الشبيحة من التصويب على أهدافهم. ولم يدرِ الشبّيحة إلّا والشياطين السريعة الحركة والملتهبة بالنيران قد صدمتهم ورمتهم أرضاً، لا بل وأخذت تنتزع أسلحتهم منهم.

ألمح إلى جانب عصام الشباب الأربعة الذين رأيتهم يدلفون في المرة السابقة إلى بيت صبري، وأحدهم ما زال يرتدي ملابسه الشعبيّة، وكأنّه يحضر عرساً شعبيّاً، وذلك الذي رماني بنظرة

النسر الثاقبة، يبدو أنّه أكثرهم عنفاً وزئيراً وانفعالاً، وهو يشتبك مع عصبة الشبّيحة، يلقي بجسده بقوّة على ثور وبغل ويرميهما معاً على الأرض، ثمّ يأخذ بركلهما، ولا يكتفي بجنونه هذا بل أره ينتزع بنادق ومسدّسات من بعضهم، ويرميها لشابّ يجمعها ويتراكض بها ليخبّئها في مكان ما.

أحبّ هذا الشابّ المجنون بقدر ما أكرهه، كيف يستطيع القتال بهذه الشدّة، وقد أصابته طلقة ناريّة في المرّة السابقة؟ ولماذا أراه هنا قويّاً بقدر ما أشعر بنفسي ضعيفاً؟ تسطو عليَّ قوّته، فلا أدري إلّا وقد تماهيت معه، فأصبحت أقلّده على الشرفة بصوته وحركاته، كأنني أقاتل وأصرخ مثله، أو بالأحرى كأنني أصبحت في الساحة أقاتل منشبكاً في عراك مستميت بدلاً منه، أركل بغلاً في صدره، وألكم ثوراً في وجهه، وأرمي بنفسي على غوريلا، بحيث نسيت آلام جرحي في كتفي.

تنادت رؤوس الوحش الديناصوري وأيديه من جديد: «انتبه يا عصام، إنه يخرج...».

وبصعوبة ألمح في غبار المعركة عمر، ينسلّ من سيّارته التي قلبها المتظاهرون وأشعلوا فيها النيران، يخرج منها متمايلاً، وما إن تحطّ قدماه على الأرض حتّى تفاجئه لكمة عصام التي تطيح نظارته السوداء وتدمي وجهه.

وفي اللحظة التي يحاول فيها عمر إخراج مسدّسه، كان الصراخ يتصاعد ولولةً بارتياع شديد من رؤوس الوحش جميعها: «انتبه يا عصام، معه مسدّس».

ولكنّ لكمة عصام الثانية أطاحت به وبمسدّسه. أوقعه أرضاً، وأخذ يركله بقدمه، فيما الرؤوس تشجّعه هاتفة: «اضربه بقوّة أكثر يا عصام، فقد سطا على عقل أبو عصام وحرمنا مأكولات المطعم كلها».

تتجه الرؤوس من جديد، لكن نحو شرفة الشقة المقابلة التي تقطن فيها عائلة أبو وسام، أحد مؤيّدي الزعيم الجنرال المتعصّبين له. أرى هناك وسام، صديق عمر المخبول في جلسات التحشيش، يُخرج بندقيّة والده ويقفز إلى الشرفة هائجاً، يريد أن يطلق النار على عصام، فيما تحاول والدته أم وسام منعه باكيةً: «لا تطلق النار يا وسام، سيصعدون إلينا ويقتلوننا، إنّهم كثيرون وغاضبون، ونحن هنا وحدنا لا نستطيع فعل شيء».

يصرخ فيها وسام: «اتركيني يا أمي».

وأمام مشهد البندقيّة التي تتنازعها أيدي وسام ووالدته، يمور الوحش الديناصوري كله بالحركة مرتعباً، يتطاول منه جسد أم عصام، وهي تكاد ترتمي منه: «اترك التظاهرة يا عصام وعد إلى البيت حالاً، وأنت يا أم وسام خذي ابنك إلى الداخل، دعيه على التلفزيون، يعرضون الرسوم المتحرّكة الآن».

وفيما كانت أم وسام تشكو وتبكي، وأم عصام تنوح وتولول، اختلطت موسيقاهما مع زغردات أم حسين من إحدى الشرفات المقابلة، وهي تقول: «منصورين يا شباب، اصمدوا وانتقموا لأبو

حسين»، دون أن تتوقف عن رمي الأرزّ والورود عليهم، وعن رمي زجاجات الماء البلاستيكيّة للعطشى منهم.

لكن الدم كان قد صعد إلى رأس وسام الذي لم تنفع محاولات والدته معه في ردعه، بالرغم من تنازعها معه على البندقيّة، فانفلتت منه رشّة رصاص نحو المتظاهرين، وباتجاه عصام تحديداً. تولول كتلة أم عصام بصرخة رعب، وتتطاول إلى الأسفل لتطمئنّ على ابنها، فتتطاول معها الرؤوس جميعها، وسرعان ما تسقط كتلة كبيرة من الوحش الديناصوري إلى الأسفل، فإذا بها أم عصام معلقة بين السماء والأرض، تشدّها حوالى أربعين يداً من الشرفة تمكّنت من التقاطها في اللحظة الأخيرة من قدميها.

وبما أنّ الأربعين يداً كانت تشدّ أم عصام نحو الأعلى دون جدوى لثقلها الأسطوري، فقد انقلب ثوبها المُشجّر معكوساً نحو الأسفل حتّى رقبتها، فانكشف عن سروال أحمر عملاق، ضخم كخيمة كبيرة تستطيع أن تؤوي عدّة عائلات من حرّ الصيف وبرد الشتاء. لكنّ السروال كان بالكاد يغطي مؤخرتها لعظم حجمها، فبدت كتلتاها اللتان خرجتا من طرفيه هضبتين رجراجتين من اللحم، تكفيان لإطعام سكّان بلدتين في حالة مجاعة. وتدلّى ثدياها كجسديْ بقرتين مسلوختين، معلقتين على كلابات جزار ومعروضتين للبيع. أمّا جدائل شعرها المجعّدة، فقد تدلت أليافاً طويلة تغري الأطفال بالتعلق بها والتأرجح بمتعة.

كان الجسد الديناصوري يصعد ويهبط وأم عصام تلقي أوامرها: «انتبهوا لعصام، وإن كنتم لن تستطيعوا إعادتي إلى الشرفة بانتظار رافعة البلدية، فأرسلوا لي خروفاً مشويّاً أتسلى به هنا».

لا أعرف إن أصابت الطلقات عصام أم لا، إلّا أنّ الشابّ غريمي الذي أتماهى معه وأقلده، أخرج مسدّساً فضّياً من قميصه، وأخذ يطلق رصاصات متتابعة نحو شرفة وسام. توقفت عن تقليده، إذ لا مسدّس لديَّ، كما لا أحبّ إطلاق النار، بل لا أفهم لماذا يلجأ الناس إلى إطلاق الرصاص.

لكنّه فجأة ينظر إليَّ ومعه أصدقاؤه الثلاثة، وصوّب مسدّسه نحوي، فما كان منّي إلّا أن ارتميت في الداخل وأنا أتصبّب عرقاً، وأصرخ خائفاً: «أبو علي الحوت، أين أنت؟».

يجيبني أبو علي الحوت: «هيّا بنا نهرب سيّدي الزعيم الجنرال، الحوّامة تنتظرنا على سطح القصر، لنذهب إلى القلعة المحصّنة في الجبل».

بقيت في السرير حتّى اليوم التالي دون أن أجرؤ على الخروج، لا إلى الشرفة فقط، بل ومن تحت اللحاف. كنت خائفاً بشدّة من أن يُطلق عليَّ أحد ما الرصاص، فأصاب هذه المرّة في القلب بدلاً من الكتف.

أنام طويلاً، وإذا ما صحوت أسمع نسوة عجائز يتحدّثن حولي:

– يكاد لا يصحو من نومه، فالحمّى أتعبته نتيجة التهاب جرحه.

– يقول الطبيب إنه سيصحو بعد يومين ويتعافى قريباً، ونستطيع بعدها العودة إلى بيوتنا.

– دعينا منه، أكملي لنا الحكاية حتّى نتسلى.

– ... ثمّ وقع الديناصور من سفح جبل عالٍ، سقط وهو يصرخ ويزأر ويعوي، أحدث حفرة ضخمة صعد منها الكثير من الغبار، لكنّه نهض منها دون أن يصيبه أيّ مكروه، وعاد متسلقاً إلى الجبل ليكمل وليمته، الخروف المشويّ الشهيّ.

نعود إلى غرفتي الطينيّة... ما زلنا نحاذر أن تتلاقى نظراتنا، أنا والأستاذ فارس. عيناه تقولان: «لم نتفق على أن نستخدم سلاحاً».

وعيناي تجيبان: «طوال الوقت وأنا أحاول أن لا أستخدمه، لكنّهم أجبرونا. كانت القضيّة حياة أو موتاً».

ينتصب عصام خلفي واقفاً يبتسم، أنظر إليه معترضاً: «ما الذي أتى بك إلى هنا يا بطلنا، أظنّ أنّ الآن مناوبتك على الحاجز في مدخل الأحياء القديمة».

ما زال عصام يبتسم: «أتيت لدقائق، هناك من يحلّ مكاني».

وأومأ برأسه نحو الباب، فالتفتُّ، وكانت آلاء... فوجئت، وعلت الدهشة وجهي، وقبل أن أبدي أيّ ردّة فعل، تقدّمت تتبعها أختاها وجمع من الفتيات: «أتينا نضمّد الجراح ونعدّ الطعام».

تبتسم آلاء وتُعرّش ابتسامتها على صحون وأواني البورسلين، والسجّادات الصغيرة، واللوحات القماشيّة، والأدوات القديمة المعلقة على الجدران، ثمّ تفتح الباب الجانبي وتتأمّل مقتنياتي الحجريّة القديمة في الحديقة بدهشة. أراها ترتعش لمرأى تمثال الإلهة الحجرية.

أقول لها: «هنا نجلس في الصباحات الجميلة والأمسيات العليلة، نشرب الشاي أنا والأصدقاء، وعبق الأرض يملأ القلوب حنيناً إلى ماضٍ مبهم مجهول، لكنّه يشتعل أمامنا بالحجر الذي يكاد ينطق. وأنت قادمة من هذا الماضي البعيد نسمة حنين عاشقة نحو الحرّية... أحبّك يا آلاء، منذ آلاف الأيّام والأحلام».

أهالي البلدة

يسكن السياسي العجوز صبري في الطابق الثاني من إحدى البنايات الواقعة في الشارع المؤدّي إلى الساحة من الجهة الجنوبيّة. وفي الواقع، هو لا يسكنها، بل زوجته وأولاده فقط، هو زائر لديهم من وقت إلى آخر، أو بالأحرى، هو زائر عند الزعيم الجنرال معظم الوقت، إذ إنه شبه مقيم في المعتقل السياسي منذ زمن بعيد... فما إن أراه في الشارع حتّى أهنّئه بالخروج من السجن، وأسأله: «متى سنلتقي يا سيّد صبري لتحدّثنا عن حروبك في البلدان البعيدة، وعن تجربة المعتقل في الأيّام القريبة؟».

يجيبني بودّ: «مشغول في هذه الأيّام مع العائلة، اشتاقت لي بعد الغياب، أنتظر زيارتك لنا في الأسبوع المقبل».

في الأسبوع التالي، أزوره فلا أجده، تقول لي زوجته: «للأسف غير موجود الآن، عاد إلى ضيافة الزعيم الجنرال في السجن».

صبري مناضل سياسي محترف. التحق منذ بداية شبابه بتنظيم ثوري عربي متقلب التوجّهات، لا يُعرف متى هو يساري أو يميني السياسات، وكثيراً ما يخلط بين أعدائه الإمبرياليّين وأصدقائه الثوريّين، فيصبح الأصدقاء أعداءً، والأعداء أصدقاء.

ولما أفلست أمجاد التنظيمات الثوريّة وفقدت شعبيتها، بعد أن خلط قادتها بين «الثورة» و«الثروة»، عاد صبري إلى البلدة حزيناً، أشيب الشعر، محنيّ الظهر، ببذلة ثوّار مبرقعة، علقها نهائيّاً على المشجب، ليستقرّ هنا هو وعائلته. لكنّ خيبات الأمل والانكسارات العربية والأممية لم تجعله يتعب أو ينهار، ومرض الثورة الاحترافي يلاحقه دائماً، فقرّر الانتقال من النضال الثوري إلى التغيير الديمقراطي، إذ إنّ الظروف الدوليّة لم تعد تتناسب الآن مع عربدة البندقيّة الثوريّة وخطف الطائرات، بل مع التحوّلات المخمليّة للياقات الأنيقة باعتصاماتها الوطنيّة في الساحات.

دعاني لشرب الشاي أنا ومجموعة من مثقفي البلدة الذين يغفون على الكتب في العشيّات بدعوى قراءتها، وتساءل أمامنا بخبرته الطويلة ذات الآفاق الأمميّة: «لماذا يقتطع النظام ثلاثة أرباع رواتب الموظفين للمجهود الحربي، بدعوى الصمود بوجه الأعداء الإمبرياليّين؟».

ينظر بعضنا إلى بعض مثل البلهاء، ونجيب: «طبعاً هذه ضرائب وطنيّة، ويعطينا إيصالات رسميّة بها».

يجيب صبري بسخرية أبويّة: «لا، إنها تتحوّل إلى المجهود النضالي في الملاهي الليليّة، الوطنيّة والإقليميّة والدوليّة، ومن أجل الصمود بوجه الدوار الذي يسبّبه الويسكي المستورد من الأعداء الإمبرياليّين».

أفهم لماذا لا يستقرّ صبري طويلاً معنا. ما إن يخرج من السجن، حتّى يأتيه زوّار الفجر فجأة، ويصطحبونه لضيافتهم مجدّداً.

اقتصر السكن في بيت صبري أخيراً على زوجته وبناته الثلاث، إذ انضمّ إليه ابنه الشاب شاهر في السجن، بعد أن شارك في اعتصام معارض في العاصمة، رُفعت فيه لافتات عن بطالة الشباب. بالطبع، جاء رجال أمن الزعيم الجنرال، وفضّوا الاعتصام بالقوّة، لكن شاهر أعلن على خطى والده في مقابلة تلفزيونيّة خاطفة لمحطة معادية مُغرضة: «أنا أعرف بالضبط إلى أين تذهب الأموال المخصّصة لإيجاد عمل للشباب».

تسأله المذيعة بنيّة سيّئة: «إلى أين تذهب أيّها البطل الثوري؟».

يجيبها بالثقة التي يتحدّث بها والده: «تُحوَّل إلى المجهود الحربي، من أجل إقامة الملاهي الليليّة ومزارع الراحة والاستجمام، على المستويات الوطنيّة والإقليميّة والدوليّة».

اعتقلوا شاهر لحديثه، لكنّه أصبح بطلاً ثوريّاً مثل والده.

أعرف شاهر عندما كان يلعب الكرة في الحارات بين السيّارات، إلّا أنّني لا أعرف كيف أصبح فجأة بطلاً ثورياً! يبدو أنَّ بعض العائلات تتوارث المهن من جيل إلى جيل، ومن بينها المهن الثوريّة، بينما أنا لا أتذكّر من والدي سوى أنه كان عجوزاً بليداً، بزوجتين اثنتين دائمتَي التذمّر، يلاحق باستمرار مؤخرات النساء وهو نعسان.

أتذكر أن والدتي، وهي المتأففة الثانية من والدي، كانت تراني في صغري شارداً حالماً طوال النهار، فتنهرني قائلة: «يبدو أنك لم ترث من والدك إلّا بلادته، ولن تصبح في الحياة شيئاً يُذكر».

أردّ بعنف: «لا، أنا سأصبح زعيماً جنرالاً».

تركض بسرعة لإغلاق النوافذ وإرخاء الستائر، وتهمس: «اسكت يا مجنون، ليس هناك إلّا زعيم جنرال واحد، وكلّ ابن يرث أباه».

يبدو أنّ الزمن سرقنا ونحن نشاهد التلفزيون بانتظار أن نصبح أبطالاً ثوريّين وزعماء مناضلين وجنرالات عسكر، ونجترّ أحلام اليقظة باستمرار على الشرفات، فلا نعلم متى نعيش في الواقع، ومتى في أحلام الهروب...

لصبري ثلاث فتيات جميلات، أراهنّ عندما أزور والدهنّ في البيت، يشربن الشاي معنا، ويقاطعننا في الحديث، ويتساءلن بجرأة غريبة: «لماذا يتحدّث الناس في البلدة همساً، هل يخشون الزعيم الجنرال، وعربدة رجال أمنه ومخبريه؟».

تنظر إليَّ الصغرى بينهن، آلاء ذات الربيع الثامن عشر، والوجه الناعم البهيّ، وتقول كمن تتّهمني: «لأنهم ليسوا رجالاً. لأنهم عجائز، جبناء القلب والروح، فتغادرهم زوجاتهم وأطفالهم».

تلقي آلاء جملتها، تدير ظهرها لي، وتذهب متعللة بتحضير القهوة.

عابثة هذه الفتاة. لماذا تذكّرني بزوجتي التي غابت في النسيان، متعمّدة إغاظتي ومناكدتي باستمرار، تثير دائماً فيَّ ذكريات مجنونة بعيدة، لا أدري من أين تنبثق، وكأنّها تأتيني من عوالم بعيدة، لمحات غريبة مغلفة بشواش يندفع إلى رأسي عندما تحدّق بي، فتجعل أوصالي ترتجف!

كم شعرت بالغيرة والحنق عندما شاهدت الشبّان الأربعة يلتجئون إلى منزل صبري يوم مطاردة رجال الأمن للمتظاهرين، توجّست من أنّها ستجد بينهم شابّاً قويّ القلب والروح، يختطفها وتنسلّ منّي.

آلاء وأختاها متمرّدات مثل والدهنّ، ما إن يمرّ المتظاهرون المنتفضون أمام منزلهن حتّى يخرجن مع الوالدة بشعرهنّ الجميل المفرود على الكتفين إلى الشرفة، يلقين التحيّة عليهم برش الأرزّ ونثر الورود، تحيّة مزيّنة بتلويحة مناديل مطرّزة وزغاريد تنطلق من قلوبهنّ. أشعر بالغيرة، وأنا أرى الشباب يتوقفون أمام المنزل طويلاً، وقد علت هتافاتهم واحتدّت أصواتهم، مطالبين بإسقاط الزعيم الجنرال، وبالحرّية للمعتقلين السياسيّين.

تقف بنات صبري على الشرفة ويزغردن، فأجد هذا طبيعيّاً، لكن أن يجرؤن على النزول إلى الشارع ليشاركن المتظاهرين الهتاف، فهذا ما لم أتوقعه! بل ويتراكضن ويضعن في زحام اشتباك الشباب المميت مع رجال الأمن، بالتأكيد هنّ مجنونات، فقدن العقل على خطى الأب والأخ... وهذه الغرائبيّة آلاء، لماذا تملأني أفعالها جميعها بالتوتّر المستمر!؟

غير بعيد عن منزل صبري تقطن أم حسين، السيّدة الأربعينيّة الجميلة، في الطابق الأول من بناية تقع في الطرف الشمالي للساحة. وأم حسين أصبحت تخفي الآن جمال شعرها الأسود الناعم تحت غطاء أبيض، يلتفّ حول رأسها وينسدل على كتفيها وصدرها، مثل فلّاحات البلدة، لتُعبِّر به عن وفائها لزوجها الذي قُتل بشناعة على أيدي شبّيحة أبو عصام.

عندما تراني أم حسين في الشارع، تسألني متحسّرة: «يبدو أن زوجتك لن ترجع، لذلك تبدو حزيناً باستمرار، يا أستاذ أنت رجل محترم ومثقف أتمنّى لك الخير، وقفتَ إلى جانبي يوم قتل الحرامية زوجي، سأنتقم منهم ولو بقي في حياتي يوم واحد».

ما إن تصل التظاهرات إلى الساحة حتّى تخرج أم حسين إلى شرفتها، هي وولداها الصغيران، لتحيّي المتظاهرين، فيما يسير ابنها الأكبر حسين بينهم، وقد بدأ عوده يشتدّ. لا تكتفي برش الأرزّ ونثر الورود عليهم، بل وتلقي إليهم بزجاجات الماء البلاستيكيّة ليرووا ظمأهم الذي يشتدّ مع ارتفاع هتافاتهم. وفي أيّام الحرّ الشديد، أراها تُحضر خرطوم ماء موصولاً بالصنبور، وقد وضعت على طرفه بخاخاً ينثر الماء بعيداً، ترشّ به المتظاهرين المارّين تحت شرفتها حتّى تخفّف من شدّة القيظ عليهم.

أم حسين لا تزغرد عندما ترى المتظاهرين، لكنني أسمعها من شرفتي تصرخ من قلبها دامعة العينين: «منصورين يا شباب، اصمدوا وانتقموا لزوجي من كلّ الحراميّة الفاسدين في البلدة».

وعندما ترى ابنها حسين يهتف بصوت عالٍ بينهم، تناديه وكأنه يسمعها من بين الجموع: «لا تتركهم يا ابني حتّى النهاية، فإذا أصيب أحدهم فعليك أن تداويه، ستصبح طبيباً وبطلاً وترفع رأس والدك المقتول ظلماً وعدواناً».

وعندما رأتني أم حسين ذات مرّة في الطريق، سألتني: «أستاذ أعرف أنك تقف مع المظلومين دائماً، لكن لا أفهم لماذا لا تشارك الشباب انتفاضتهم، لست عجوزاً بعد لتنزوي على الرصيف، أو تجلس على الشرفة وتراقب... انظر إلى أبو كاسر، وأبو راوي، وأبو علي، هم أكبر منك سنّاً بكثير، لكنهم يعرفون كيف يحرّضون الشباب على الصمود».

أم حسين امرأة قويّة وشجاعة، لا تخفي حقدها الشديد في كل المناسبات على رئيس المخفر، ومن يقف وراءه من «الحرامية» في البلدة – كما تسمّيهم –، منذ قال لها أمام جثة زوجها: «يا أم حسين عليك أن تصبري، لم تؤدِّ التحرّيات لمعرفة الجاني».

تسأله من بين الدموع: «هل هو عفريت ابتلعته الأرض؟ لا، إنه يختبئ هناك في كتف الجبل، وأنت تعرفه».

ينهرها رئيس المخفر بعنف: «لا تخرفي يا امرأة، وإلّا أخذتك إلى مستشفى المجانين، انتهينا، لقد رُفِعت القضيّة وقُيّدت ضد مجهول».

وانتهت القضيّة فعلاً... قبل أن تبدأ.

كان الجيران قد وجدوا عند انبلاج الفجر جسد زوجها أبو حسين المدمى والمهشم الرأس، مرميّاً في الساحة قرب بيته، وقد ناله من الضرب وتكسير الأضلاع وطعنات سكّين، ما لم يترك

أيّ أمل بإنقاذه. رغم ذلك استطاع أن يهمس بصعوبة ببعض الأسماء قبل أن يموت. قال: أبو عصام، وأبو ليلى.

في ذلك اليوم، نزلتُ من الشقة على صراخ أم حسين. رأيتها تنتحب بجنون فوق جثة زوجها، فيما تحاول النساء رفعها عنها وتهدئتها، وقد تلوّث شعرها الجميل المنسدل بالدماء. ومع أن منظر الجثة الممزقة والنازفة الدماء كان يثير الرعب، لم أستطع رفع نظراتي عنها. هاجمني يومها شواش كبير، وداهمتني صور جثث ممزقة ومطحونة، فما كان منّي إلّا أن شعرت بالحاجة للهروب، لا أدري، من الذكرى الغريبة، أم من المواجهة مع المشهد الحزين والجثة المشوّهة... لكنّ صوت أم حسين ظلّ يلاحقني طويلاً، بالرغم من إخفاء رأسي تحت اللحاف.

تناقل الناس بعد حادثة الساحة أحاديث عن رفض أبو حسين تسجيل عقود بيع وهميّة في دائرة عمله العقارية لأراضٍ واسعة محيطة بالبلدة كان قد سيطر عليها الجيش لأهداف قيل إنها دفاعية، وانتقلت ملكيتها إلى بعض كبار الضبّاط ووجهاء البلدة بأسعار بخسة، بالنصب والاحتيال المغطى قانونياً، وقد تحوّل بعضها إلى مزارع تخفي أعمالاً مشبوهة منافية للقانون. ومن بين تلك الصفقات الأرض الدفاعيّة المتروكة على كتف الجبل، والمُعدّة كموقع استراتيجي لاصطياد مدرّعات العدوّ إذا اقتربت من البلدة، والتي بنى عليها أبو عصام مُجَمّعه السياحي المشهور، المُعدّ كموقع استراتيجي لاصطياد الزبائن الممتلئي الجيوب.

كان أبو ليلى يزور أبو حسين باستمرار في مكتبه، وفي يده هدايا «ممّا خفّ حمله وارتفع سعره»، ويسأله متودّداً: «يا صديقنا أبو حسين، هذه الأمور التي نطلبها منك لا تتجاوز التلاعبات اليوميّة البسيطة والوساطات التي تحدث في كلّ الدوائر الرسميّة كي تسير المعاملات فيها، فعلى الجميع إمّا أن يدفع أو أن يقبض، وأنت مدير الدائرة العقاريّة، لن يجرؤ أحد على أن يسألك عمّا تفعله».

وكان أبو حسين يجيب بأنفة: «لكنّ هذه رشى وهذا فساد، فيه سرقة لأناس بسطاء لا يعرفون القوانين».

فيقهقه أبو ليلى عالياً، وهو يقول: «لقد أضحى ما تقوله حكايات عجائز من أيّام النخوة الثوريّة التي أثبتت تخلفها. ما يجري الحديث عنه الآن هو تسهيل الأمور بعيداً عن تعقيدات القوانين التي تعرقل سير الحياة الطبيعيّة في الدولة».

ثمّ يقترب أبو ليلى منه هامساً بلهجة الناصح الأبوي، واضعاً ذراعه على كتفه: «يا أبو حسين هذه ليست سرقة، هذه شطارة... والشطارة هنا هي في القدرة على الالتفاف بذكاء على هذه القوانين، دون الوقوع في شراكها».

فكر أبو حسين بأن الجميع يقبضون. يأخذ حصّته مقابل تسهيل الأمور، والعمليّة تبدأ في الأسفل عند أصغر موظف يتلاعب بالأوراق الرسميّة، وتنتهي في الأعلى بتسهيل بيع الوطن من قبل حاشية الزعيم الجنرال وبرعايته الرسميّة، فلماذا لا يقبض هو أيضاً، بدلاً من أن يُحسب على هؤلاء المثاليّين المجانين الذين يعيشون طوال عمرهم في فقر مدقع؟ وهو لن يأخذ الكثير، لا يريد الاتجار بالأراضي، ولا إقامة مزارع استجمام، ولا إنشاء مولات تجاريّة، ولا المشاركة في أعمال مشبوهة مرتبطة بالدعارة أو تهريب المخدّرات أو السلاح، يريد أن يحصل فقط على بيت صغير لينتهي من مشاكل الإيجار والديون المتراكمة عليه.

يصحو أبو حسين من صمته على صوت أبو ليلى، وهو يحدّثه: «نحن لن نطلب منك الكثير الآن، نريد الاطلاع فقط على مخططات الطرق وتنظيم الأراضي المخبّأة في الأدراج، التي لن يُعلن عنها طبعاً إلا بعد أن ننهي صفقات بيعنا وشرائنا. ثمّ هناك طلب آخر بسيط، ستغلق الأبواب في وجه الفلّاحين البسطاء، مالكي الأراضي المستولى عليها لأعمال عسكريّة دفاعيّة، بدعوى استيلاء الدولة النهائي عليها، وستدفعهم للجوء إلينا، ونحن سنتفاهم معهم على تخليصها لهم».

لن يغوص أبو حسين حتّى لا يتورّط، بالرغم من أن مركزه في الدائرة العقاريّة يسمح له بالكثير من «الحلّ والربط»، سيبقى بعيداً... لكنّه لم يعرف أنّه تورّط بمجرّد معرفته أسرار الآلهة، ولم يكن هناك مفرّ من إسكاته.

يقول أبو ليلى هامساً لأبو عصام: «غريب أنّه لا يرغب بالتعاون معنا، بالرغم من كلّ الإغراءات التي قدّمناها له... كما أنه لم يعد يعرقل أعمالنا فقط، بل أصبح خطراً علينا وعلى نشاطاتنا، فهو ينصح الفلّاحين الأغبياء أصحاب الأراضي بعدم التعامل معنا».

يغمز أبو عصام بعينه اليمنى، ويمرّر طرف كفه على الرقبة، وهو يصدر أمر الذبح بفمه: «نتخلص منه، كما تخلصنا من غيره».

وكان أكثر من حَزِن على أبو حسين شيخ الشباب أبو كاسر وإخوته، فقد حاول مساعدتهم على عدم الوقوع في فخ المحتالين، إلّا أنّ الموت عاجله قبل أن يتمكّن من ذلك.

ينتمي أبو كاسر إلى عائلة فلاحية بسيطة، لم ينل أفرادها من العلم إلّا قسطاً صغيراً، يغلي قلبه وقلبا أخويه بالحقد على التجّار والعسكر الذين سطوا على أراضيهم الخصبة بالنصب والاحتيال في قضيّة أبو حسين الشهيرة، التي طالت في ما طالت قسماً كبيراً من أراضي البلدة المترامية حتّى سفح الجبل.

تحول أبو كاسر وأخَواه إلى مهنة قيادة السيّارات، بعدما خسروا أراضيهم الزراعيّة، دون أن يفهموا كيف أصبحت فجأة مواقع عسكريّة دفاعيّة، مسوَّرة بالأسلاك الشائكة، ومليئة بحفر الدبابات

الفارغة. تُسلب هذه الأراضي منهم، ثمّ يُترك لهم الخيار بين أن ينسوها، أو أن يقبلوا التخلي عنها رسميّاً بأسعار بخسة جداً.

يزور المحامي حسن والمخلص العقاري حسّون أبو كاسر. يجلسان معه على المصطبة الطينيّة أمام داره، يشربان الشاي، ويحدّثانه طويلاً بود عن الأوضاع الصعبة التي يعيشها العمّال الموسميّون في المدن، والفلّاحون في القرى.

وفجأة، يقول له المحامي حسن: «يا أبو كاسر، أراضيك التي استولى عليها العسكر ميتة، يبدو أنهم سيبقون فيها إلى الأبد، لكن يمكننا أن نحصل لك على إيجار متواضع مقابل ذلك، إذا رغبت في رفع دعوى قضائية صغيرة».

يقاطع المخلص حسّون الحديث: «إلّا أنّه لا قيمة فعلية لهذا الإيجار، فهؤلاء العسكر لا يدفعون إلّا القليل، وبعد حضور لجان متعدّدة للدراسة والتقييم، وهو ما يأخذ وقتاً طويلاً... اسألني أنا عن القضايا التي يغوص فيها هؤلاء المحامون دون نتائج تُذكر».

يستمرّ المحامي حسن: «صحيح أن بإمكانكم أيضاً بيعها والحصول على مبلغ معقول لكن سيكون من الصعب جدّاً إيجاد من يشتريها بسبب التعقيدات القانونيّة عليها، مثل علامات الحجز، والضرائب المتراكمة، وعدم وجود عقود رسميّة، والأسعار القديمة التي لا تتغيّر، والأهم من كلّ هذا أنّ الشاري لن يضمن استرجاعها حاليّاً من أيدي العسكر...».

لا يفهم أبو كاسر هذه الأحاجي القانونيّة، ينقّل نظراته بين الاثنين، وقد نسي أن يشرب كأسه من الشاي. هو يريد فقط أن يسترجع أرضه، مورد رزقه الوحيد، كي يعيش هو وعائلته بكرامة، فيسأل بمرارة: «وماذا سأفعل في هذه الحال؟».

يجيب المحامي حسن: «أعرف أصدقاء يريدون الخير للناس الطيّبين في البلدة، مثل أبو ليلى، رجل شريف وغنيّ وعينه شبعانة، يمكن إقناعه بشراء بعض الأراضي. هؤلاء الأصدقاء يعرفون أنّ مشروعهم خاسر، إذ لا يدرون متى يسترجعونها. لكن نحن، بقليل من الشطارة، بإمكاننا الحصول منهم على مبلغ معقول، بعد أن نأخذ توكيلاً شكليّاً منكم، على أن يتعاملوا هم، بمعرفتهم، مع الدولة، ويتكفّلوا بتحصيل حقوقهم منها. بالتأكيد، سيكلفهم هذا هدايا من هنا، ووساطات من هناك، موظفين وعسكراً ومسؤولين... أمور لا تعرف فيها أنت».

ويردف المخلّص حسّون: «أمّا أنا وأخي حسن فلا نريد أيّ أتعاب لنا، نحن سنساعدك مجّاناً، لأنك ابن بلدتنا».

بالتأكيد، لا يعرف أبو كاسر في مثل هذه الأمور... لم يدرِ إلّا وقد وقّع وبصم على كدسة أوراق مقابل مبلغ «معقول»، كما قالوا له، ولم تنفع تحذيرات المدير العقاري أبو حسين، فقد جاءت متأخّرة بعد التوقيع... ليكتشف الجميع بعد مرور وقت ليس بالطويل أنّ الأراضي فقدت

ضروراتها الاستراتيجيّة الدفاعيّة فجأة، ونهضت فيها مزارع استجمام وراحة، بأسوار عالية وحراسة مشدّدة.

لم تعد القضيّة لدى أبو كاسر والكثير غيره من الفلّاحين، قضيّة أراضٍ مسروقة بالاحتيال الرسمي فقط، بل كانت كرامة مهدورة بتآمر القانون الذي حوّلهم إلى سائقين، ومهنيّين، وعمّال مياومين وموسميّين، يجدون عملاً ليوم، ويجلسون عشرة أيّام بانتظار عمل آخر.

عندما ألتقي العجوز أبو كاسر، شيخ الشباب في الساحة، يسألني هامساً بودّ: «أنت أستاذ مثقف ومحترم، أكيد لا يرضيك ظلم الزعيم الجنرال وحاشيته، لماذا لا تخرج معنا في التظاهرات؟».

أتلعثم، لا أعرف كيف أجيب بالضبط: «أنا... كبير العمر... أقصد مريض، لا أدري!».

فيما يتحسّر أمثال أبو كاسر على أراضيهم التي طارت من بين أيديهم بأثمان بخسة، يتذكّر فلّاحون آخرون حقولهم التي يبست بعدما ضعف هطل الأمطار في البلدة ونشفت السواقي فيها، دون أن يستطيعوا حفر آبار وتركيب محرّكات عليها لسحب المياه وريّها، إذ لم يستطيعوا الحصول على تراخيص رسميّة لذلك، بدعوى الحفاظ على المياه الجوفيّة للشرب.

هكذا، يبس حقل أبو راوي ولم يعد يطعم عائلته، فاضطرّ لأن يعمل حدائقياً في إحدى المزارع التي أخذت تتناثر أكثر فأكثر هنا وهناك، في السهل وعلى كتف الجبل. يقول بحسرة: «يحفر أصحاب المزارع آباراً لا أفهم كيف لا تؤثر على منسوب المياه الجوفيّة، تخرج المياه منها شلالات لتملأ أحواض السباحة، ولريّ زهور الزينة والعشب الأخضر الذي يتمدّد عليه رجال ونساء بعد السباحة، مع نوافير لترطيب الأجواء. هناك يستلقون شبه عراة طوال الوقت، ويشربون مُسْكرات ألوانها أبيض وأحمر وأصفر، لا يستمتعون بطعمها إلّا إذا شاهدوا المياه تتناثر متطايرة من النوافير فوق العشب، لكنّهم لا ينهضون، كي يزرعوا خضاراً».

أشاهد أبو راوي في الساحة، فأسأله بودّ: «عم أبو راوي، لماذا لم نعد نراك مع عربة بيع الخضار التي يجرّها حمارك القوي؟ لم نعد نسمع صوتك مغنّياً وأنت تعلن قدومك، منادياً على خضارك الطازجة، فنتراكض إليك لشرائها».

ينظر إليَّ بحزن: «القلوب والأرواح يبست وانطفأت يا بنيّ، وليست الحقول فقط... المزارع فقط هي المشتعلة بالأنوار الملوّنة».

أسأله: «لكن لماذا لا يدافع عنكم الاتحاد الوطني للفلّاحين الذي يمثلكم؟ إنّه قويّ وتشمله رعاية الزعيم الجنرال وحمايته».

يدير أبو راوي ظهره ويمضي، وهو يقهقه: «لأنّه تحوّل إلى الاتحاد الوطني لتجّار الأراضي الزراعيّة التي لم تعد تُزرع بالخضار، ورغم ذلك بقي مشمولاً بالرعاية والحماية الرسميّة جداً للزعيم الجنرال».

من شرفتي، كنت أرى في أيّام الحرّ الشديد تراكتور أبو راوي العتيق، يجرّ صهريج ماء عجوزاً يزرب باستمرار، ويسير أمام التظاهرات. يمتطي الصهريج ابنه العابث راوي كفارس زمانه، وهو يمسك خرطوماً كبيراً مهترئاً، يرشّ به الطرقات المغبرّة أمام المتظاهرين حتّى يُرطّب الجوّ حولهم، قبل أن يتحوّل إليهم ويرشّهم بالماء ليرطّبهم. وفي إحدى لحظات مرحه، يختار شخصاً من المنفعلين بالهتاف، فيغسله بالماء وهو يضحك بعفويّة. يقول له: «أليس هذا أفضل من رشّاش إطفائيّة البلديّة الذي يجعلكم تطيرون عدّة أمتار في الهواء لتفريقكم؟».

أمّا أبو علي، الذي وُلد فقيراً، دون حقل يعمل فيه، فهو الأكثر مشاكسة وجنوناً بين العجائز الشباب الذين يشاركون في التظاهرات، فأينما وجدتَ كومة أحجار مرميّة، أو دواليب جاهزة للإشعال، تكون علامة على مروره من هنا. يجمع بشاحنته الصغيرة الحجارة من مكاسر الجبل، ويسرق الدواليب العتيقة من أمام أصحابها في محالّ تصليح السيّارات باسم الانتفاضة، يدور في شوارع البلدة ويرميها في طريق المتظاهرين، استعداداً لحواجز تُقام بسرعة، ولاشتباكات يراها قادمة لا محالة مع رجال الأمن. ومن وقتها، أصبحت شاحنته المملوءة دائماً بالحجارة والدواليب في التظاهرات علامة متميّزة، جاهزة لإلقاء حمولتها في مواقع استراتيجية من الشارع.

ما إن يسقط جرحى من المتظاهرين حتّى تتسابق السيّارات الصغيرة لنقلهم إلى المشفى الميداني السرّي، الذي يقع بين البساتين. أمّا شاحنتا أبو كاسر وأبو علي وتراكتور أبو راوي فتسدّ الطريق حتّى لا تستطيع سيّارات رجال الأمن ملاحقة الجرحى. فتجربة البلدات المنتفضة علمتهم أنّ من السهل اعتقالهم من المستشفيات الرسميّة، لكنّهم لا يرجعون إلى منازلهم إلّا جثثاً هامدة، مع تقارير طبّية تعلن موتهم جميعهم بأزمات قلبيّة حادّة مفاجئة، وبشرط دفنهم ليلاً دون جنازات، ودون عزاء.

في حملة الاعتقالات الأولى التي ضربت البلدة، هرب الكثيرون في اللحظة المناسبة إلى الجبال، ومنهم أبو كاسر وأبو راوي وأبو علي. ما إن حاصر رجال الأمن بيوتهم حتّى قفزوا من فوق جدرانها الطينيّة، وفرّوا. لا يحتمل هؤلاء الرجال الشجعان الاعتقال والسجن، اعتادوا على الحرّية التي لا يريدون أن يخسروها كما خسروا أراضيهم... وتواردت الأخبار عنهم بأنّهم لن يعودوا إلى البلدة إلّا مع بنادقهم.

غير بعيد من مسكن المناضل صبري، يقيم السيد أبو كميل في بناء من طابقين، يحتل الزاوية الجنوبيّة الشرقيّة من الساحة، ويطل عليها بشرفة شبه دائرية، تزيّنها أصص الزهور الملوّنة التي تحيطها أم كميل بالعناية المستمرّة. تفصل ما بين الجارين كنيسة البلدة، ببرجها القديم ذي الأحجار البيضاء الضاربة إلى اللون الوردي، وقد أصبح جرسه يُقرع كهربائيّاً بدلاً من شدّ حبله الطويل، الذي كان يرفع الأولاد معه إلى الأعلى ويؤرجحهم.

لا يلتقي هذان الجاران إلّا نادراً، بالرغم من إقامتهما في الشارع نفسه، فصبري شبه مقيم في السجن، وأبو كميل قلّما يغادر شرفته منذ خرج إلى التقاعد، إلّا أنّ عداوة سوداء شديدة اندلعت فجأة دون سابق إنذار بين العائلتين مع انفجار الانتفاضة في البلدة.

منذ أن غادرتني زوجتي، أصبحت أنزل في بعض الأحيان مساءً أتسكّع أمام محلّ كميل لبيع العطورات والماكياج، وما إن يراني أبو كميل حتّى يُحضر كرسيّين صغيرين من القشّ دون مسند، ويدعوني للجلوس، كي نتحدّث قليلاً.

يروي لي أبو كميل حكاية صبري على طريقته: «رجل ليس من بلدتنا، رمته الأقدار عندنا، لجأ إلينا بعدما أحرقته السياسة التي احترفها في تنظيم لا نعرف أصوله، فآويناه. كان صبري يتنقّل من بلد إلى آخر حسب ما تنفتح أمامه أبواب الارتزاق في النضال ضد الاستعمار والصهيونية. ولما خسر كلّ شيء في النهاية جاء واستقرّ هنا، وفتح بيته منتدىً سياسيّاً لإثارة الفوضى في البلدة».

– لكن يا أبو كميل، صبري لا يكاد يقضي بضعة أسابيع في البلدة حتّى يعود إلى السجن.

ينفعل أبو كميل محتدّاً: «هنا تكمن المشكلة، فخروجه منه لعدّة أسابيع هو بحدّ ذاته كافٍ لإثارة الشغب والفوضى في البلدة».

تتدخّل أم كميل في الحديث: «انظر يا جارنا إلى بناته الثلاث اللواتي يشاركن في التظاهرات، هنّ سيّئات السمعة وبدون تربية وأخلاق، ألا يكفي أنهنّ يخرجن مع الشباب الزعران ويهتفن معهم... أنا شخصيّاً لم أعد أسمح لابنتيّ بزيارتهنّ، أصبحت أخاف من سوء أخلاقهنّ».

مرّة، ونحن نتحدّث، توقفت سيّارة هوندا صغيرة لأحد الشباب المنتفضين. نزل واقترب منّا بهدوء... كان شابّاً وسيماً، أسمر لوَّحته الشمس، منتصب القامة، ويبدو من ملابسه أنّه يعمل في إحدى مهن البناء. تحدّث مع كميل بلهجة شديدة التهذيب، لكنّها حاسمة وواثقة: «نرجوكم إغلاق المحلّ، وإلّا فسيضطرّ المتظاهرون إلى إغلاقه بأنفسهم. البلدة كلها في إضراب عامّ تضامناً مع الجرحى الذين أصيبوا في تظاهرة البارحة برصاص الأمن».

ثمّ أقلع مبتعداً عنّا بسرعة، دون أن يسمح لأحد بمناقشته.

صرخ كميل مهتاجاً وغاضباً بعد أن ابتعد الشاب بسيّارته: «بسبب هؤلاء الشباب الطائشين تعطلت أعمال البيع في محلي، انقطعت أرزاق الناس، وتوقفت المشاريع الحيويّة في البلدة... ليجلس هؤلاء المشاغبون في بيوتهم ويستمعوا إلى مشايخهم في التلفزيون الذين يدعونهم إلى عدم الخروج مع العصابات المتآمرة. أليس من الأفضل لهم إقامة الصلاة بدلاً من زرع الفوضى في الشارع؟».

وعلّقت أم كميل بنزق شديد: «هؤلاء الشباب الطائشون، لا أدري من يلعب بعقولهم ويجعلهم ينزلون إلى الشارع، يثيرون الفوضى والخوف، أصبحت أخاف على بناتي، وهنّ ذاهبات إلى الكنيسة».

وتحدّث أبو كميل بعد صمت، بلهجة الواثق، وكأنه يلقي حكمة تتناسب مع وجهه المدوّر وصلعته التي غزت معظم رأسه، حكمة اكتسبها من خبرات عميقة في الحياة. قال لي: «انظر إلى هؤلاء الزعران القادمين من الأحياء الفقيرة، جميعهم بدون تربية، لو كان لديهم أهل واعون لضربوهم وأمسكوهم من آذانهم ودفعوهم للجلوس في البيت عاقلين... نحن واجبنا أن ننصحهم وندلّهم على الطريق القويم، لكنّهم لا يستمعون».

أمضى السيد أبو كميل ثلاثين عاماً من عمره موظفاً عادياً بعمل مكتبيّ بسيط في دائرة حكوميّة في العاصمة. سنوات امتصّت رحيق حياته، وخرج منها دون فوائد أو مكاسب، لأنه أراد أن يكون شريفاً حتّى النهاية، كما يقول. كان راتب الدولة مغرياً في البدايات، ما دفعه إلى إهمال العناية بكرم التين والعنب الذي ورثه من والده، تركه وأخذ يقضي وقتاً طويلاً في الذهاب والإياب إلى العاصمة يوميّاً من أجل وظيفته الرسميّة.

«لم أكن أذهب إلى العمل إلّا بعد أن أحلق ذقني، وأرتدي ملابس نظيفة مكويّة بعناية، وألمّع حذائي... وبالرغم من تقاعدي، ما زلت على هذه العادة، أمارسها كلّ يوم عندما أخرج من البيت إلى الكنيسة»، يقول لي أبو كميل.

ويتابع متحدّثاً بحزن: «ثمّ أصبح الراتب الحكومي الرسمي ضعيفاً، لا يغطّي المصاريف اليوميّة العاديّة للموظف حتّى منتصف الشهر. لكن لم أكن أستطيع التخلي عن وظيفتي بعد سنوات الخدمة الطويلة، إذ كان عليَّ الاستمرار فيها حتّى أحصل على راتب تقاعدي، فاضطررت للعودة إلى كرم العنب والتين والاعتناء به في فترة ما بعد الظهر وأيّام العطل لتغطية بعض المصاريف من جنيه».

كان أبو كميل قد ورث من والده إلى جانب الكرم بيتاً صغيراً بحديقة واسعة جميلة حوله، يُعرّش فيها الياسمين، في ذلك الوقت الذي كانت فيه البيوت الطينيّة القديمة بحدائقها المزنّرة بالورود لا تزال تحيط بالساحة. هناك أمضى طفولته، وهناك تزوّج. إلّا أن البيت أصبح آيلاً للسقوط بجدرانه الحجريّة القديمة، وسقفه الخشبي المغطّى بطبقة ترابيّة تفصل بينهما شوكيّات البَلّان اليابسة، حيث كان عليه أن يدحل السطح بمدحلة بيضاء كلما تساقطت الأمطار حتّى لا تنفد المياه عبره.

كبرت عائلة أبو كميل، ابن وصبيّتان ينمون بسرعة، والبيت القديم أصبح ضيّقاً، دون الحديث عن تكاليف الترميم المستمرّ له، فقرّر لاحقاً أن يبني بناية حديثة بطابقين على أنقاض البيت القديم،

مستغلاً مساحة الحديقة. وحتّى يحصل على نقود كافية لمشروعه، اضطرّ لأن يبيع كرم ذكريات طفولته، ليضيف إليه ما وفّره من نقود طوال عمره، وألحقتهما زوجته ببيع أساورها الذهبيّة التي كانت تتغاوى بها.

تعلل أبو كميل أمام زوجته ليبرّر بيع الكرم بأنّ «اليباس لحق به بسبب قلة الأمطار ونضوب البئر القديم، ونحن بحاجة إلى النقود».

فتدمع عينا زوجته وهي تقول: «إنه آخر ذكريات لقاءات عشقنا الأولى تحت جنح عتمة المساء الخفيفة... وستذهب معه أساوري الذهبيّة».

باع أبو كميل الكرم لكنّه ظلّ نادماً على فعلته بقيّة عمره.

يقول لي شاكياً: «عصابة تجّار الأراضي في البلدة احتالوا عليَّ، واشتروه منّي بثمن بخس».

أسأله: «عن أيّ عصابة تتحدّث؟».

– الجميع أصبح يعرفها... أنت لا تعرفهم، فهم لا يقتربون ممّن لا يملك الأراضي. يرسل المحتال الكبير أبو ليلى المحتالين الصغيرين، المحامي حسن والمخلّص العقاري حسّون، ولا يدري المرء إلا وقد وقّع أوراق التنازل عن رزقه.

– وكيف احتالوا عليك؟

– بعد عام من بيع الكرم، الذي يقع في الطرف الغربي من البلدة قريباً من سفح الجبل، ارتفع سعره عشرة أضعاف، بعد أن مرّ بالقرب منه الاتوستراد السياحي، ويُقال الآن إنّ خط تلفريك معلقاً باتجاه الجبل سيقام أيضاً غير بعيد عنه لتشجيع السياحة في المنطقة.

ويتابع أبو كميل متحسّراً: «سرقت الدولة زهرة حياتي، ثلاثين عاماً ولم أستفد منها بشيء سوى راتب تقاعدي شهري لا يكفينا أيّاماً، وسرقت عصابة التجّار التي كانت على دراية بالمخططات سلفاً الكرم بالنصب والاحتيال. ذلك الكرم كان آخر ما بقي لنا من ذكريات عائلتنا، كنّا نقضي فيه أوقاتاً جميلة على زمن والدي، نبيع عنباً وتيناً، ونحصل على الزبيب لأيّام الشتاء، ونعصر نبيذاً نشرب منه طوال السنة».

يسكن الآن أبو كميل وزوجته وابنتاه في الطابق الأول من البناء، فيما ترك الطابق الثاني لابنه كميل الذي تزوّج حديثاً بزوجة لجوجة، لا تنتهي طلبات الشراء لديها. وحتّى يضمن مستقبل ابنه، ترك له محلّاً تجاريّاً في الطابق الأرضي، فالموقع مناسب جداً في الساحة الرئيسية.

يبدو أنّ خيبات الأمل تتراكم عند أبو كميل مع مرور الزمن؛ ضياع عمره في الوظيفة، سرقة كرمه، تعثر أعمال البيع في محلّ الأكسسوارات الذي افتتحه ابنه، تأخّر زواج ابنتيه اللتين دخلتا في الثلاثينيّات. منذ زمن طويل لم يعد يبتسم، فهو كئيب، عابس، شارد الذهن، يشتعل غضباً

بسرعة، قلما يتحدث مع أحد. وكأنّ الخيبات والمرارة التي تراكمت في داخله انعكست حقداً على ما حوله. أصبح يُمضي نهاره الثقيل بين الشرفة والكنيسة ومحلّ ابنه.

أراه يستيقظ كلّ يوم باكراً ليشرب القهوة على الشرفة مع زوجته التي أصبحت في الخمسينيّات من العمر، ومازالت تلبس بنطالاً ضيّقاً بالكاد تنحشر فيه مؤخرتها الضخمة والثقيلة جداً...

يجلس طويلاً، مسنداً ظهره إلى كرسيّ لصق الجدار تماماً، بحيث يبدو مع صلعته الملساء كتمثال حجري قديم لا يتحرّك. ينظر باتّجاه واحد، في اللامكان وإلى اللاشيء. تشعر زوجته بالملل من صمته، فتشرب قهوتها بسرعة، وتترك مؤخّرتها معه، ربّما تسليه قليلاً، وتنصرف إلى أعمالها المنزلية، بينما يبقى فنجان قهوته ممتلئاً أمامه.

تستيقظ البنتان متأخرتين كالعادة، تخرجان بقميص النوم إلى الشرفة، مشرعتي الصدر للهواء الطلق، والنظرات العابرة من الشارع. تجلسان قرب والدهما، وتتمطّيان بدلال وكأنّهما في غرفتهما.

تشربان القهوة، وهما تنظران إلى فنجان والدهما الذي ما زال ممتلئاً، تسألانه: «لم تشرب القهوة حتّى الآن يا والدي؟».

«اتركاها، أحبّها باردة»، يجيبهما. ثمّ يصمت.

في المرّات التالية لم يعد حتّى يجيبهما. عند الظهر يتحرّك أبو كميل. يترك فنجان قهوته على الشرفة ويذهب إلى الكنيسة، حيث يجلس هو وبعض المتقاعدين المتذمّرين مثله مع الخوري عبدو الذي يحدّثهم عن لقائه الأخير مع صديقه ضابط الأمن المحقق. يعود منها ليجلس على الرصيف أمام محلّ ابنه الفارغ. لا يتحدّث معه بل يجلس فقط، يسند ظهره إلى مسند الكرسيّ لصق زجاج الواجهة الذي يرتسم عليه خيال صلعته الملساء، وينظر في الاتجاه نفسه الذي كان يراقبه في الصباح. وعندما يعود إلى شرفته، يكون قد حلّ المساء، يعود إلى فنجان القهوة الذي تركه صباحاً، فهو يحبّه بارداً، ولا يسمح لأحد بأن يتدخّل في عاداته الشخصيّة.

لكن أحوال أبو كميل ساءت أكثر بعد منذ اندلاع الانتفاضة في البلدة، يزداد قلقه وتوتّره مع كلّ حكاية يسمعها عن الشباب المنتفضين، وخاصّة من الخوري عبدو الذي يعطيه الأخبار الموثوق بها، بعد أن يسمعها من صديقه ضابط الأمن المحقق، ما انعكس على تصرّفاته التي أصابها الاضطراب والبلبلة. أصبحت أعصابه تثور بشدّة بمجرّد سماع هتافات المتظاهرين، ولو من بعيد، فيما يجعله سماع صوت إطلاق الرصاص على حافة الانفجار. ينهض مرعوباً عن كرسيّه في الشرفة ليقفز إلى داخل الشقة هارباً.

وفي الفترة الأخيرة، لم يعد أبو كميل يشتم جاره صبري، فهو شبه غائب عن البلدة في السجن. المُحرِّض الآن على الفوضى والشغب هو ابن الطائفة جورج.

«لم يعد ينقصنا إلّا جورج الذي خرج حديثاً من السجن بعد خمسة عشر عاماً، ويا ليته لم يخرج، عندما سمعت هذا لم أصدّق، فهو يلقي الآن باستمرار خطبه المجنونة على الزعران في الساحة، مع معرفته بخروجهم من المسجد. شيوعي ملحد قديم يذهب إليهم بدلاً من الصلاة في الكنيسة والتوبة عن أخطائه التي جرّته إلى السجن، ولا يكتفي بهذا بل يجرّ جماعته معه، وعلى رأسهم الخوري إلياس»، يقول أبو كميل بحقد لكلّ من يراه حوله.

لم يعد أبو كميل يجلس على الشرفة منتصب الظهر إلى الحائط كالتمثال، بل أصبح يروح ويجيء فيها دون توقف. يقفز هنا وهناك بمجرّد سماعه صياحاً أو نداءً حتّى لو كان صادراً عن عبث أطفال، يظنّ أنّ المتظاهرين قادمون من كلّ الاتجاهات في أيّ لحظة، يترقبهم بقلق، وتدور عيناه في الساحة وهو يبحث عنهم. ومع اشتداد التوتّر لديه، أصبح يتناول فنجان قهوته الصباحيّة ويشربه بجرعة واحدة، وبعد قليل يمدّ يده إليه فيجده فارغاً، فيملأ الشرفة صراخاً: «من شرب قهوتي؟».

تسرع زوجته، هي ومؤخّرتها، لتحضِّر قهوة جديدة، وتأتي بفنجان مليء.

وعندما تقترب تظاهرة بهتافاتها المدوّية من الساحة، يزداد اضطرابه، وتزداد حركة فناجين القهوة. وما إن تصل التظاهرة حتّى تفاجئه الكتل البشريّة الهائجة المائجة، فيقفز إلى الغرفة يختبئ، ثمّ يمدّ رأسه بعد لحظات من باب الشرفة، يخرج بالكامل، ليعود ويختبئ مجدّداً، وهو يظنّ أنّ نظرات جميع المتظاهرين مصوّبة إليه... ينتقل التوتّر إلى جميع أفراد العائلة، فيشربون معه الكثير من فناجين القهوة.

لم تعد أم كميل تترك مؤخّرتها على الشرفة وحدها، فقد يأتي المتظاهرون في أيّ لحظة، أصبحت تأخذها معها أينما ذهبت.

ولم تعد البنتان تخرجان إلى الشرفة بقميص النوم، بل أصبحتا ترتديان فوقه «كيمونو» فقد يأتي المتظاهرون في أيّ لحظة.

وما إن يسمع كميل هتاف المتظاهرين قادمين إلى الساحة حتّى يُسارع إلى إغلاق أبواب محلّه، ويحكم إقفاله، وسط ذهول أصحاب المحالّ الأخرى حوله من تخوّفه الزائد.

يصعد إلى شقته في الطابق الثاني، يقعي أرضاً، ويرفع رأسه على مستوى حافة الشرفة مراقباً الساحة، والشوارع، والسطوح، والشرفات، والنوافذ، والطيور العابرة، تثيره الهتافات الهادرة... فقد يتسلّقون، يحتلون، ويرمون بنا من الشرفات!

يعتبرني أبو كميل شاهداً عِياناً على ما يحدث في الساحة من تظاهرات، وهو يراني أراقبها من شرفتي العالية، فما إن يلمحني مارّاً بالقرب من محلّ ابنه حتّى يناديني منفعلاً: «هل رأيتهم يا

جاري؟ هؤلاء الزعران القادمين من الأحياء القديمة، هناك حيث يدخنون الحشيشة ويمارسون اللواط، إنّهم يحملون السكاكين، والخناجر، والبلطات، والسواطير، سيذبحوننا ويحرقون كنيستنا».

– يا أبو كميل لا أرى شيئاً معهم!

– إنهم يخفونها تحت ثيابهم.

– هل أنت متأكد من أنهم يخفونها تحت الثياب؟

– نعم متأكد، ما داموا يخرجون من المسجد، وهم يصرخون ويزأرون بوحشيّة.

– وهل قال لك أحد إنه رآهم يخرجون بهذه الأسلحة من المسجد؟

– نعم، الخوري عبدو قال لنا ذلك بعد اجتماعنا، أقصد بعد اجتماعه مع ضابط الأمن صديقه الذي أبلغه بوجود قبو في المسجد ممتلئ بالأسلحة البيضاء، يوزعونها على المتظاهرين بعد الصلاة.

– يا أبو كميل، منذ بداية التظاهرات في البلدة لم نسمع بالاعتداء على أحد، ورجال الأمن يستطيعون الدخول إلى المسجد عندما يريدون...

– لا تصدّق الإرهابيّين يا جاري، هذا كذب وتمويه.

– ... ثم إنَّ القليل منهم يخرج من المسجد، معظمهم يتجمّعون أمامه وينطلقون من هناك، المتديّنون والعلمانيّون، وجورج وجماعته أيضاً، والخوري إلياس لم يعترض على ذلك.

– هذا الملحد الحقير جورج، تخلى عن دينه من أجل اكتساب شعبيّة بين هؤلاء الزعران، وهو يقبض أموالاً من الغرب ومن الصحراء. ولم يكتفِ بجرّ جماعته معه، بل ضحك على خوري طائفته... كم أنت بسيط يا جاري، أنت تحبّنا، لكنّك لا تفهم في قضايانا. يبدو أنك لا تشاهد القناة الرسميّة في التلفزيون؟

– بلى، أشاهد فيها صباحاً الرسوم المتحرّكة، هل تعرض شيئاً آخر في المساء؟

– ألا تشاهد الجثث المشوّهة، المقطعة والمحروقة؟

– لا. لكن من الذي يقتل ويشوّه؟

– هم.

– من هم؟

– هم الذين يتحدّث عنهم التلفزيون.

هنا يتدخل كميل: «نحن لا ننام الليل، لا يغمض لنا جفن، كلما سمعتُ حركة في الساحة قفزت إلى الشرفة مرعوباً، أجلس في العتمة وأراقب منها».

أجيبه: «وأنا أسهر في الليل على الشرفة، أسمع حركات كثيرة، ولكنّها اعتيادية، حركات كلاب وقطط تنبش في أكوام القمامة».

– لكنهم سيأتون في أيّ لحظة.
– من هم؟
– هم، الذين يتحدّث عنهم التلفزيون.
– من أجل ماذا؟
– لا أعرف، لكنّهم سيأتون إلينا.

في حملة الاعتقالات الأولى التي طالت البلدة، كانت تتوالى قوافل المداهمة الأمنيّة عبر الساحة باتّجاه المركز الأمني في استعراضات احتفاليّة. تضمّ كلّ قافلة عدّة سيّارات تسير ببطء شديد، ومن بينها شاحنات صغيرة مكشوفة اعتلاها رجال أمن ومؤيّدون متعصّبون للزعيم الجنرال، تتراقص البنادق في أيديهم، ويهتفون «يعيش الزعيم الجنرال». وكانت تسير وسط كلّ قافلة حافلات مليئة بالمعتقلين، معصوبي الأعين ومقيّدي الأيدي، وقد حنوا رؤوسهم بين الكراسي، فيما خيّم الصمت الحزين عليهم... اليوم ليس دورهم في الهتاف.

كان ضجيج أفراد الأمن والمؤيّدين في القافلة يرتفع عالياً ويصبحون أكثر جنوناً عندما يشاهدون عابرين نادرين، فيطلقون صراخاً وحشيّاً، يترافق بإطلاق النار في الهواء. يهرب العابرون النادرون بسرعة من وجه القافلة، وإذا ما فاجأتهم ولم يجدوا مجالاً للانسياب نحو أحد الأزقة بهدوء، يضطرّون للتوقف والابتسام في وجه الجنون، ورفع شارة النصر بإصبعين مفتوحين مسايرة لعناصرها، فلا أحد يتوقع ما قد يصدر عن الأفراد المنفلتين بغرائزهم في تلك اللحظة... وما إن تبتعد القافلة حتّى يمسحوا عرق جبينهم الذي تصبّب بغزارة من الذعر، ويمضون مسرعين بصمت إلى منازلهم.

مرّت اليوم صباحاً قافلة ضاجّة من الساحة، فنظرت بحذر من طرف الشرفة إلى الجنون العابر ببطء، محاولاً ألّا تلتقي نظراتي بعينيْ أحد عناصرها حتّى من هذه المسافة البعيدة، فما أسهل اصطياد العصافير على الشرفات، ويقال عندئذٍ طلقات عشوائيّة أصابت أحدهم خطأً.

وما إن تجاوزت القافلة الساحة باتّجاه الشارع الشمالي حتّى فوجئت بضجيج مماثل لهتاف عناصرها، يخرج من الحارة المقابلة. ذهلت حين رأيت جارنا أبو حنا، وابنيه، وبناته الثلاث، وأزواجهنّ، وأطفالهنّ، بجمع تجاوز العشرين شخصاً، وهم يخرجون إلى رأس الحارة، يلاقون القافلة ويهتفون بحياة الزعيم الجنرال رافعين شارة النصر. وبينما الرجال يهتفون بحماسة شديدة، كانت النسوة والفتيات يتمايلن برقصات شرقيّة وكأنهنّ في حفلة عرس، والأطفال يتشقلبون على الأرض وينفخون بزمامير معدنيّة.

مرّت القافلة، لكنّ الحفلة العامرة بأغاني تمجيد الزعيم الجنرال والرقصات المرافقة لم تنتهِ، انتقلت إلى الفسحة السماويّة في منزل أبو حنّا، وهي تصدح من آلة تسجيل بمكبّرات صوت

ضخمة، لتشقّ حزن الحارة التي اعتُقل معظم أبنائها، وخُرّبت منازلها في المداهمات التي أصبحت شبه يوميّة. كانت الأغاني الحماسيّة تصدح من منزل أبو حنّا، فيما جلست أمّهات المعتقلين في البيوت دامعات خلف ستائر النوافذ، يترقبن الأخبار عمّا قد يحدث لأولادهنّ في المركز الأمني، فالأخبار تتوارد عن أن «الثيران» من رجال الأمن يتسلون بضربهم.

يومها قال لي أبو سليمان الذي اعتُقل ثلاثة من أبنائه بألم شديد: «لم يحترموا حزننا، ولم يتذكّروا يوم حملت نعش أم حنّا إلى المقبرة على كتفي، والدمعة لا تفارق عيني حزناً على موتها المفاجئ بأزمة قلبيّة. يغنّون مع هؤلاء العابرين، وينسون الخبز الذي اقتسمناه معاً في الأيّام الصعبة، كما فعل آباؤنا وأجدادنا. لقد خرّب الزعيم الجنرال حياة الألفة بيننا، يحاول أن يشعل أحقاداً بيننا، ليتلهّى بعضنا ببعض، ويتربّع هو على رمادنا».

في اليوم التالي أقام أبو طوني الذي يسكن في ملتقى الشارع الغربي بالساحة حفلة زفاف أحد أبنائه. حضر المدعوّون بسيّارات اختلطت زماميرها بزعيق سيّارات المداهمة التي لم تنقطع من الشوارع، وهي تنقل المعتقلين إلى المركز الأمني. ويومها، أقيمت وليمة عامرة، وشقّت سكون البلدة الحزينة المنكوبة أغاني هيفاء وهبي، وإليسا، ونانسي عجرم، بآهاتهنّ الشبقة عن العشق حتّى ساعة متأخّرة ليلاً.

تقول السيدة أنطوانيت: «يا خجلتنا أمام الجيران، كيف سأروي الآن للأولاد أنّ الجدّة أم محمّد والجدّة أم أنطون كانتا تخبزان معاً على التنّور، وتقتسمان الطعام أيّام المجاعات والغزوات؟».

يجيبها المناضل جورج: «لا تعتبي عليهم كثيراً، عندما ننهي أمر الزعيم الجنرال ونظامه ستعود الألفة إلى حياتنا».

إبراهيم وجورج كانا صديقين متلازمين دائماً منذ أيّام المدرسة، عاشا معاً في الحارة نفسها التي لا تبعد كثيراً عن الساحة الرئيسيّة باتجاه الغرب، ثمّ أصبحا رفيقين قياديّين على مستوى البلدة في حزب يساري تاريخي معارض بشدّة لحكم الزعيم الجنرال وعسكره، وناضلا طويلاً في وقت كان فيه البلد يشتعل يساراً بمعظمه، تاركين لحية كثّة وشعراً طويلاً على طريقة العم ماركس، وبالكثافة نفسها.

وفي لحظة تاريخية كادت قيادة الحزب تنزلق إلى تحالف وقتي مع يمين ديني من ذوي اللحى الصحراويّة، بدعوى مواجهة سطوة العسكر القمعيّة، فشعر جميع الأعضاء بالتشويش. وقبل أن يصل الحزب إلى قرارات حاسمة حيال هذا الموضوع، كان الزعيم الجنرال قد بطش بوحشيّة ودمويّة بكلّ من وقف بوجهه، ومهما كان شكل لحيته، من اليمين واليسار على حد سواء، وسيق من بقي حيّاً إلى المعتقلات ليقضي فيها أحكاماً طويلة.

وكان من نصيب الرفيقين إبراهيم وجورج اعتقال دام خمسة عشر عاماً فقط، خرجا منه معاً حليقي شعر الرأس، وقد نسيا العم ماركس. أحدهما أصبح عميلاً منهاراً بلحية صغيرة عند طرف ذقنه، على طريقة «المثقفين البورجوازيين»، والثاني بطلاً صامداً دون لحية بالكامل.

كان إبراهيم قبل دخوله المعتقل رمزاً نضاليّاً صلباً لشباب البلدة، يستلهمون منه حكايات البطولة، هو الذي يوزّع المنشورات الممنوعة بجرأة في الشارع نهاراً، أو يلصقها على الجدران ليلاً، غير هيّاب من دوريّات الأمن، لكن سني السجن الطويلة حطّمته وطحنته، فانهار. وأكملت على دماره الوفاة المفاجئة لابنته الصبيّة الوحيدة، بعد إصابتها بمرض السرطان في الدم، ماتت ودُفنت دون أن يستطيع رؤيتها، أمّا ابنه الوحيد فقد سافر إلى الغرب بدعوى الدراسة، ولم يعد. وفي هذه الأثناء، تزوّجت امرأته برفيق بقي طليقاً، كان يتردّد عليها في المنزل من أجل الاطمئنان على أوضاعها في غياب زوجها بالسجن، ثمّ قرّر أن يصطحبها معه إلى منزله لتقيم معه من أجل أن يطمئنّ عليها باستمرار، ويُقال إنّ علاقتهما الحميمة تعود بجذورها إلى ما قبل زواجها بإبراهيم.

في آخر زيارة لإبراهيم قالت له زوجته: «أصبحتُ وحيدة بعد وفاة ابنتنا وسفر ابننا، ويبدو أنّ غيابك سيطول عن البيت، لأنّ هذا الزعيم الجنرال لا يغفر لأحد، لا أعرف ماذا سأفعل؟».

لكنّها عرفت ماذا تفعل، فقد تزوّجت برفيق الطفولة، بعد أن حصلت على الطلاق بسهولة.

حدث هذا كله وإبراهيم يعاني في السجن، وزاد من آلامه انقطاع زيارات عائلته التي تبعثرت، فكانت ضربية نضال قاسية وثقيلة عليه في حزب تفتتت صفوفه، وانطفأ ألقه اليساري بعد أن تجاوز الزمن عقائده.

خرج إبراهيم في النهاية من السجن عميلاً ومخبراً للأمن في البلدة، تحت ستار صداقة تربطه بضابط أمن محقق ساعده في فترة الاعتقال الأخيرة في الحصول على شهادة دكتوراه بالمراسلة من «جامعة الصداقة» عن «تحرير زيمبابوي من حكم التمييز العنصري»، بعد أن زوّده بمراجع من مكتبته الشخصيّة.

كان ضابط الأمن، المحقق الذكيّ، قد عقد أواصر الصداقة مع جميع أصحاب الفعاليات الاجتماعية من ذوي الأفكار الذهبيّة في البلدة، ابتداءً من الخوري عبدو الذي كان لديه في الكنيسة فرقة موسيقيّة نحاسيّة من طلاب الدروس الدينيّة في فترة ما بعد الظهر، جاهزة «للطبل والزمر والنفخ» في جميع المناسبات الوطنيّة، وانتهاءً بالمناضل السابق إبراهيم الذي استعاد وعيه الوطني الزعيمي في السنوات الأخيرة من سجنه.

وسرعان ما بزَّ إبراهيم، بعد خروجه من السجن، جميع مخبري البلدة المخضرمين بتقاريره الدقيقة، وتوسّع أذنيه اللتين تدلتا حتّى كتفيه، مستفيداً من خبراته النضاليّة القديمة، ومن علاقاته

الرفاقيّة الأخيرة في السجن. وتوّج مسيرته أخيراً بدراسات أمنيّة عن الأوضاع الاجتماعية للسياسيين في البلدة، أهّلته لها معرفته العميقة بأخطار التمييز العنصري في زيمبابوي.

يعلن إبراهيم دائماً: «هؤلاء الشيوعيّون الأمميّون، والإسلاميّون المتعصّبون لدينهم، يمكن أن يتحوّلوا إلى عنصريّين في أيّ لحظة ينهارون فيها أمام الإمبرياليّة العالميّة وثقافتها الاستهلاكيّة... يجب أن يتحصّنوا ضدّ ذلك بمحبّة الزعيم الجنرال وتمجيده».

وسرعان ما أصبح مرجعيّة أمنيّة عليا، يكتب تقارير تفصيليّة عن المعارضين للزعيم الجنرال في البلدة، وصلت إلى تقديم معلومات عمّا يحدث معهم في غرف النوم، سواء مع الزوجات أو العشيقات... إذ إنّ تجربته القاسية مع زوجته جعلته يشكّ في جميع الزوجات، ويؤمن بحتميّة تحوّلهن إلى عشيقات.

يقول لصديقه الضابط المحقق: «كلّ حدث له دلالته الأمنيّة التي تمسّ الزعيم الجنرال من قريب أو بعيد، وخاصّة الشتائم السياسيّة له في غرف النوم، عندما ينفلت اللسان في اللحظات الحميميّة، فينكشف المستور».

استغلّ إبراهيم وقوع منزله في حيّ يعجّ بالمعارضين القدامى، فعاود الاتصال بهم بعد خروجه من السجن، هؤلاء الذين استقبلوه بطلاً، فأحسنوا وفادته، وأفسحوا له مكاناً متميّزاً في مجالسهم، دون أن ينتبهوا إلى شكل لحيته الصغيرة.

يسألهم إبراهيم: «لقد قضيت أيّاماً صعبة في السجن، فكيف قضيتم أيّامكم أنتم خارجه؟».

يثرثرون أمامه بكلّ حرّية وثقة، وهم يشربون الشاي ويتسلون بأوراق اللعب، يشتمون الزعيم الجنرال وحاشيته، وخاصّة عندما ينهزم أحدهم، ويخترعون أمامه بطولات وهميّة، يتحدّثون ويتحدّثون، فإبراهيم بطل مناضل ضحّى بزهرة عمره وبعائلته من أجل الوطن. وبدلاً من أن يلعب الورق معهم، يجلس ويراقب، يستمع بدقّة لكلّ ما يتفوّهون به، حتّى لو عطسوا، كي يجد مادّة لكتابة تقاريره في المساء.

ولم يكتشف المعارضون معنى لحيته إلّا متأخرين، فقد ارتفعت تقارير دسمة بالمعلومات عنهم، وصلت إلى معرفة عدد الهزائم التي ينالها كلّ منهم في أوراق اللعب، وعدد كؤوس الشاي التي يشربونها في كلّ سهرة.

كان إبراهيم دقيقاً جداً بسبب مؤهّلاته العلميّة التخصّصية.

وكان مسروراً من أن الذين سجنوه خمسة عشر عاماً قد أصبحوا بحاجة إلى خبراته السياسيّة والأمنيّة التي لم يكن هو نفسه قد اكتشفها، فإذا به قد أصبح رفيق السجّان، ثمّ تلبّس شخصيّة السجّان نفسه لينسى آلام الماضي. وفي أثناء ذلك، كان يشعر بالزهو لأهمّيته الوطنيّة للزعيم الجنرال ولسلالته، وقد أصبحت سيّارة الأمن تحضر إلى منزله يوميّاً، تصطحبه علانية إلى

المركز الأمني مثل موظف رسمي، وأخذ ينال مكافآت ماليّة مجزية عمّا يكتبه من تقارير، وينجزه من أبحاث.

لما اندلعت انتفاضة الشباب فوجئ إبراهيم بها، مثل جميع الأذكياء جداً في البلدة. صدمته، إذ لم يعرف من أين انبثق هؤلاء الشبّان الصغار الرعاع، وملأوا الشارع فوضى وشغباً، فيما كان تركيزه منصبّاً على المعارضين القدامى الذين يتناقشون حول «الإمبريالية ونهب ثروات الشعوب»، دون أن يجرؤ أحدٌ منهم على الحديث عن «الزعيم الجنرال ونهب ثروات البلد».

سارع الجهاز الأمني إلى الطلب من إبراهيم تكثيف تقاريره الأمنيّة عن المجموعات الجديدة غير المعروفة التي تخرج في التظاهرات، ومحاولة تحديد قياداتها وتمويلها ومرجعيّتها. لم يرغب إبراهيم في أن يبدو جاهلاً، فكتب عن جميع أهل بلدته، من يشارك في التظاهرات، ومن لا يشارك. وهذه المجموعة الأخيرة كان يُسمّي أفرادها في تقاريره ويحدّد علاقتهم مع الانتفاضة إمّا متعاطفين، أو مؤيّدين في السرّ، أو محرّضين غير علنيّين، أو مموّلين خفيّين... المهمّ أن تتوالى تقاريره دسمة مليئة بالمعلومات، ولو كانت «غير دقيقة».

يقول إبراهيم لصديقه الضابط المحقق: «الشبهات والظنون قد تفضي إلى حقائق مروّعة لاحقاً، هنا يعمل حدسي الخاصّ الذي لن تجد مثله... أنا أشك بواسطة حدسي، وأنت تنتزع الحقائق بخبراتك ووسائلك الخاصة».

وبهذا ازدادت شرور إبراهيم، بحيث طالت الجميع، مسببة اعتقالات عشوائية وخراب بيوت البلدة، وكادت تلحق بعض مؤيّدي الزعيم الجنرال، لو لم يتم تلافيها في اللحظات الأخيرة.

وذات ليلة، قفز أحد الشباب الملثمين إلى منزل إبراهيم من فوق الجدار العالي الذي يسوّر حديقته، مستغلاً انقطاع الكهرباء وانتشار الظلمة الكثيفة. ويبدو أن الملثم كان يعرف المنزل من الداخل جيداً، فعلى الأغلب هو من أهل الحارة، إذ إنه توجّه مباشرة إلى الغرفة التي تتجمّع فيها الأوراق والملفّات المليئة بالمعلومات عن أهل البلدة، المرتبة والمصنفة بحسب الانتماء إلى التنظيمات السياسية المتعدّدة. ألقى نفطاً يحمله في زجاجة على محتويات الغرفة وأضرم ناراً فيها، ولم يغادر البيت إلا بعد أن تأكد من تأجّجها، فيما كان إبراهيم يغط في نوم عميق في الغرفة الثانية، بعد أن تناول عشاءً دسماً مع صديقه الضابط المحقق، شربا فيه كؤوساً مترعة من الويسكي.

زحفت النيران بسرعة إلى بقيّة المنزل، ارتفع لهيبها عالياً، وأضاءت الظلمة في الحارة.

لم يهتمّ الجيران بالحريق المشتعل في بيت بطل مخبري البلدة، انتظروا قليلاً، وقالوا: «سينطفئ وحده بعد قليل، ثم ما علاقتنا ببيوت المخبرين».

إلّا أنّهم عندما شعروا باستمرار الحريق طويلاً، نهضوا بتكاسل من أسرّتهم، وجلسوا على كراسيّهم يتفرجون عليه من وراء زجاج نوافذهم، أحضروا كؤوس شاي وأوراق اللعب، مستغلين

وجود ضوء الحريق بدلاً من نور التيّار الكهربائي المقطوع.

لاحظ الجيران كلمات التقارير الأمنيّة تتطاير مشتعلة في العتمة، فأخذوا يستمتعون بمشاهدتها، كلمات من نار تتراقص أطراف حروفها ألسنة حمراء، وبرتقالية، وخضراء، وزرقاء، تتطاول وتتعالى، لتذوب وتتحوّل إلى دخان كثيف، يتبعثر شيئاً فشيئاً في الفضاء ويتلاشى. استطاعوا بسهولة قراءة الكلمات الملتهبة قبل أن تختفي في الجوّ، فعرفوا التهم الجاهزة لكتابة التقارير عن مشاركتهم في التظاهرات:

شيوعي، ناصري، بعثي، العمل الشيوعي، قومي سوري، إخوان مسلمون، تحرير إسلامي، سلفي وهّابي، التكفير والهجرة، القاعدة، جند الشام، الجبهة الشعبيّة، جبهة التحرير الفلسطينيّة، مجموعة أبو نضال، مجموعة وديع يوسف، مجموعة كارلوس، الألوية الحمراء، مجموعة بادر ماينهوف، الجيش الأحمر، التوباماروس، عميل إسرائيلي، عميل مخابرات أميركية، عميل جمعيّات البيئة الأستراليّة، إمبريالي، عنصري، سنّي، شيعي، علوي، درزي، إسماعيلي، زرادشتي، مانوي، هندوسي، بوذي، أفلاطوني، سريان كاثوليك، روم أرثوذكس، سريان أرثوذكس، ماسوني، كلوكس كلان، عبدة الشيطان، عبدة الطاووس، عبدة البقرة، عبدة النملة، متلصّص على نساء الجيران، لوطي، سادي، مازوشي، مغتصب أطفال، فيتيشي، غاوي أفلام إباحيّة... احترقت كلها، تعالت دخاناً، وذابت في العتمة.

«كل هؤلاء كانوا يخرجون في التظاهرات ضد الزعيم الجنرال**!؟**»، يتساءل المتفرّجون من وراء نوافذهم.

جاءت الإطفائية متأخرة. لم تستطع أن تنقذ أيّاً من الكلمات. أما إبراهيم، فقد زحف خارج البيت بعد أن التقطت النيران لحيته الصغيرة، وانتشرت منها إلى جسده، وسقط مغمىً عليه عند الباب بسبب كثافة الدخان، ونُقل إلى المستشفى وهو بين الحياة والموت، وإن كان أقرب للثاني.

جمع الضابط المحقق صديق إبراهيم أهل الحارة، وسألهم طويلاً عن الفاعل، فكانت إجاباتهم مبهمة، إذ إن الجميع كانوا يتابعون احتراق الكلمات وتلاشي دخانها في الفضاء. اعتقل مجموعة منهم، وضرب بعضهم بشدة، لكن دون أن يصل إلى نتيجة، فجميعهم كانوا ينظرون إلى فوق، مهمهمين: «طاروا واحترقوا».

«من؟»، يسألهم الضابط المحقق.

فيعيدون قائمة الكلمات المشتعلة التي قرأوها في الفضاء ليلاً: «شيوعيّون، ناصريّون، بعثيّون، إخوان مسلمون، التوباماروس...».

فيصرخ بهم الضابط المحقق: «اصمتوا يا مجانين وإلّا أحرقتكم معهم».

يضحكون في سرّهم ويقولون له: «وما علاقتنا بكلّ هذه التنظيمات، نحن من مجموعة أوراق اللعب فقط، والسلطة بنفسها شجّعتنا على تكوينها».

يقول الضابط المحقق لضابط المركز الأمني: «هذه حارة مجانين، لنركّز انتباهنا الآن على الحارات الفقيرة، حيث تتجمّع العصابات المخرّبة بكثافة، ابحثوا عن مخبر جديد بدلاً من إبراهيم، اختاروه شابّاً قويّاً، لا عجوزاً لا يقوى على النهوض من الفراش إذا ما اشتعلت النيران حوله، وأعطوه مسدّساً للدفاع عن نفسه».

ثمّ أردف بعد توقف قليل: «وليس من الضروري أن يعرف كيف تحرّرت زيمبابوي من التمييز العنصري، أو أن يكون لديه حدسه الخاصّ بالشبهات والظنون».

«وإبراهيم، يا سيدي؟»، سأله ضابط المركز.

أجابه مستغرباً: «ماذا به إبراهيم؟! لقد انتهى. بمَ سيفيدنا رجل مخبول مثله؟ قدّم لنا كلّ ما يعرف عن رفاقه القدامى، الذين لم يكونوا يشكّلون خطراً حتّى على الكلاب الشاردة، أمّا تقاريره عن الشباب فمشكوك في صحّتها، لأنّه بعيد عن أجوائهم، ولا يعرف عنهم شيئاً... منذ زمن، وأنا أبحث عن طريقة للتخلص من ظله الثقيل، وترّهاته عن الإمبرياليّين الذين أصبحوا من أصدقائنا. وعلى كلّ الأحوال، سيموت قريباً نتيجة الحروق التي أصابته، إذ إن أحد أطبّائنا في المستشفى سيقوم بواجبه نحوه ويسكته نهائياً، فقد أخذ يهذي ويثرثر كثيراً بما يعرفه عنّا».

وانتهت حكاية إبراهيم البطل المناضل الذي تحوّل إلى بطل المخبرين، ومع أن نهايته حزينة، إلّا أنّها كانت معروفة سلفاً، فقد مات منبوذاً من الجميع.

على عكس إبراهيم، صمد جورج، وبصموده افترق عن صديق طفولته ونضاله، وصمدت معه زوجته التي اهتمّت بأولادها الثلاثة الذين أكملوا دراستهم الجامعيّة في البلد، دون أن تحتاج إلى مساعدة رفيق يطمئنّ عليها في أثناء غياب زوجها في السجن.

لم يهتمّ جورج بقضايا الإمبرياليّة وامتصاص ثروات الشعوب في أثناء فترة السجن... سأله الضابط المحقق في تحقيق رسمي: «لماذا لا تحضّر دكتوراه بالمراسلة عن تدمير المجتمعات البدائيّة للهنود الحمر المسالمين من قبل المستعمرين الأوروبيّين الأشرار؟».

رفض إبراهيم، وقال متعللاً: «لديّ صداع دائم من القراءة والكتابة».

فسأله الضابط: «غريب، لا يصاب المناضلون أمثالكم بالصداع من القراءة!».

«بلى، أنا أصابني بعد أن قرأت المادّية التاريخيّة، والماديّة الديالكتيكيّة، ونظريّات لينين في الثورة»، أجابه، مفوّتاً بذلك فرصة عقد أواصر صداقة قويّة مع ضابط أمن يساعده بعد الخروج من السجن في الحصول على شهادة عليا في العلوم السياسيّة، تسمح له بولوج أبواب السلطة الصعبة المنال.

وعندما سألته ذات مرّة في أثناء زيارة له بعد خروجه من السجن: «يا صديقي جورج، كيف استطعت أن تمضي فترة السجن الطويلة ما دمت لا تهتمّ بالإمبرياليّة، ولا بالقضاء على الهنود الحمر؟».

أجابني بابتسامة ودودة: «انشغلت بدلاً من ذلك بتجميع حكايات عن معاناة المسجونين معي وصمودهم، كي أرويها للناس بعد خروجي».

– لكن سجنك طال كثيراً.

– لهذا امتلأت جعبتي بالحكايات الكثيرة لأرويها، فصمدت بعزيمة أقوى.

عندما خرج جورج من السجن، وجد أن كثيراً من المناضلين القدامى العجائز قد انهاروا، تحوّلوا إما إلى مخبرين أو ندّابين على أمجادهم القديمة. ومن أجل أن يتسلى الندّابون تحوّلوا إلى أوراق اللعب، وتدخين النارجيلة، والشتم الإباحي للزعيم الجنرال وحاشيته، والزمن الأسود الذي وصلوا إليه في عهده. وإذا ما روى أحدهم حكاية عن أمجاده القديمة سرعان ما يغفو الباقون على إيقاع موسيقى «الإمبرياليّة»، و«الرجعيّة»، و«الصهيونيّة»، و«العنصريّة»، التي كان يناضل ضدّها.

يقيم جورج في مسكن أرضي صغير بأحد الأحياء الحديثة من البلدة، غير بعيد عن الساحة. ومنذ خروجه من السجن أصبحت أزوره من وقت لآخر لشرب الشاي وتبادل الحديث. يستقبلني ضاحكاً باستمرار، وهو يقول: «أهلاً بقارئ الكتب الذي لا فائدة تُرجى منه، ستبقى في شقتك عالياً تراقب الشارع من فوق، وكأنك تعيش في برج عاجي. لم تؤدِّ بك ثقافتك سوى إلى الجنون الذي جعل زوجتك تهرب منك ومن كتبك».

تلاقيني زوجة جورج بودّ وترحاب، وتخاطب زوجها: «اتركه لهمومه، ألا يكفي أنه لا يلعب الورق مثل مناضليك العجائز القدامى، يأتي ويستمع إلى أحاديثك الطويلة المملّة عن الثورة واستبداد الزعيم الجنرال».

أردّ عليها: «لا، لن أعجبه إلّا إذا ذهبت إلى السجن وقضيت في العتمة والاختناق ما لا يقل عن عشرة أعوام، كي أصبح بطلاً مثله... أنا لا أريد السجن ولا البطولة».

تستمرّ زوجة جورج بالحديث معي بودّ: «كانت زوجتك رائعة، لا أدري ما حدث لعقلها حتّى تغادرك، بل والأسوأ أنها أخذت الأولاد معها».

أجيبها: «ربّما ذهبت حتّى أجد وقتاً لأزوركم فيه، وأسمع ثرثرات البطل المناضل جورج عن الصمود في السجن».

في هذه الأثناء، وصلت تظاهرة إلى الشارع الذي يقيم فيه جورج، توقفت أمام البيت وأخذت تهتف وكأنّها تناديه، كي يخرج إليها.

يفتح جورج الباب منفعلاً، يخرج إلى المتظاهرين، تناديه زوجته: «أصبحت عجوزاً، لن تقوى على السير والهتاف طويلاً... ثمّ أين تترك صديقك، أتى ليشرب شاياً معك؟».

يحرّك يده بإشارة لامبالاة: «لا فائدة من صديقي، ليذهب إلى كتبه وشرفته، كنت أظنّه يخرج مع الشباب منذ أن رآهم في المرّة الأولى، دعيه لهلوساته، وتعالي معي». وينضمّ إليهم، ليذوب فيهم، وقد رفع قبضته في الهواء هاتفاً معهم «خبز، كرامة، حرّية».

حدّثني جورج أنه في اليوم التالي من خروجه في التظاهرة التقى بابن الجيران فؤاد، الذي قدم في زيارة قصيرة لبيت أهله في الحيّ الذي يسكنه، فبادره فؤاد قائلاً: «أنا الذي حملتك على كتفيّ يوم التظاهرة، كان البعض يتساءلون من هذا العجوز الذي يهتف بحماسة أكثر من الشباب، لكن أنا عرفتك، فأنت جارنا المناضل جورج الذي خرج قبل وقت قريب من سجن طويل».

– عندما دخلتُ السجن كنتَ أنت صبيّاً في الثامنة من عمرك، هل فعلاً تتذكّرني الآن بعد خمسة عشر عاماً؟

– ليس كثيراً. يقولون إن لديك حكايات كثيرة عن الصمود في السجن، والجميع يحبّونك لأنّك لم تخرج منه مخبراً مثل إبراهيم.

– وكيف تعرف أن إبراهيم أصبح مخبراً؟

– الجميع يعرفون ذلك، إنه ليس مخبراً عاديّاً، بل مرجعية أمنيّة أساءت إلى أهالي البلدة، نراه مع صديقه ضابط الأمن باستمرار، يسهران معاً، وينقل إليه كلّ شيء مكتوباً. يُقال إن منزل إبراهيم يحوي أرشيفاً كبيراً مرتباً بمعلومات عن أهل البلدة جميعهم، كما أنّ لديه جداول بتهم انتماءات جاهزة، بعضها غريب، لكنّ جميعها تقود إلى السجن.

– ولماذا لا أراك كثيراً يا فؤاد؟

– لأنني يا عم جورج لم أعد أقيم هنا، كما أنني أغلقت محلّ النجارة الصغير بسبب قلة الأعمال، انتقلت للسكن مع الشباب في الأحياء القديمة، هناك نبحث معاً عن الحرّية.

– عن أيّ حرّية تبحثون يا فؤاد، يُقال الآن إنّكم تردّدونها دون أن تفهموا معناها...

يضحك فؤاد مبتسماً: «حرّيتنا تعني أن نعيش دون زعيم جنرال، الزعماء الجنرالات مستبدّون أينما وجدوا، يجثمون على الصدور حتّى الموت...»، ويردف:

– لماذا لا تزورنا يا عم جورج في بيتنا الطيني وتلتقي بالأستاذ فارس، فهو الذي يحدثنا عن الحصان الأبيض، رمز حرّيتنا.

– سأزوركم بالطبع، لكن متى سأراك في المرّة المقبلة؟

– ستراني قريباً. عندما ترى ناراً تخرج من بيت إبراهيم، ستعرف وقتها أنني مررت من هنا.

القسم الرابع

جنون

المجزرة

السيد حسّون رجل أقرب إلى النحول بجسده، لكنّه مفعم بالنشاط والحيويّة، وبوجه لا تفارقه الابتسامة التي إن تكلم تحوّلت إلى ضحكة ناعمة، تجذب حتّى الغريب الذي يلتقيه للمرّة الأولى. ما إن يتحدّث حسّون مع شخص حتّى تمتدّ يده بخفّة وعفويّة لتصلح له هنداماً، أو تنفض عنه غباراً، أو تعيد خصلة شعر له تَلاعب بها الهواء إلى مكانها... حركة ودودة للتعبير عن رفع الحواجز الرسميّة بينهما. هكذا يتسلّل المخلّص العقاري حسّون إلى النفوس البسيطة، ليفرغ ما بقي في الجيوب المثقوبة أصلاً، بعد أن يعد بالأحلام والثروات، ويغوص في صفقات مشبوهة، لا يعرف متاهاتها السريّة إلّا هو وصديق المصالح المشتركة المحامي حسن.

منذ أن غادرتني زوجتي مصطحبة الأولاد معها أصبحت أنزل أحياناً في المساء إلى الساحة، وقد مللت الجلوس في الشرفة، أتسكّع بعض الوقت أمام متجر كميل لتمضية بعض الوقت. أتبادل التحيّات مع الجيران العابرين، أثرثر قليلاً مع أبو كميل وزوجته، أرى البائع الأربعيني في السوبر ماركت بجانب متجر كميل يغازل بنات أبو عصام، اللواتي يتجوّلن بين الرفوف متعللات بالشراء، فيما هنّ بانتظار صيد ثمين من شباب عابرين قد يقعون في غرامهنّ.

أشاهد دائماً السيد حسّون يتحدّث مع أحد ما في الساحة، يمرّ من قربي، يبتسم محيّياً ويمضي، لا يتوقف للتحدّث معي، فأنا لست بزبونٍ عقاري دسم...

لكن، في هذا المساء فوجئت به يقترب منّي محيّياً، وقد مدّ يده مباشرة إلى عروة قميصي ذات الزرّ المقطوع قائلاً: «أستاذنا الكبير، يبدو أنه ليس لديك أحد كي يخيط أزرار قميصك بعد ذهاب زوجتك، أعرف خيّاطاً يُصلح ويرتي الملابس القديمة، إذا أردت نذهب معاً إليه».

أندهش لابتسامته واهتمامه المفاجئ بي، وقبل أن أفكّر بما أجيبه يستمرّ متحدّثاً: «أنت مثقف كبير، لديك مكتبة كبيرة وتقرأ كثيراً، لكن ليس لديك الوقت لتمنحنا بعضاً من علمك ومعرفتك».

– أنا جاهز للمساعدة في أيّ وقت سيّد حسّون.

لا أفاجأ كثيراً بحركاته، وقد استلّ نظارتي من وجهي ليمسح زجاجها بمنديل ورقي أخرجه من جيبه، ويعيدها إلى موضعها فوق عينيّ، فيما هو يقول: «الجميع ينظر إليَّ كرجل معاملات رسميّة ومصالح ماليّة، فما إن أتكلم مع أحد حتّى يجري تناقل الأخبار عن صفقة تجاريّة أعقدها معه. ما رأيك لو نقوم بنزهة مسائيّة الآن باتجاه الحقول بسيّارتي، ونتحدّث قليلاً، حديثاً ودّياً عن الثقافة».

ويضحك حسّون وحده ضحكة مجلجلة، ويقول: «عن الثقافة، فنحن ليس بيننا صفقات تجاريّة».

أجد اقتراح السيد حسّون معقولاً، فلا مصالح تجاريّة بيننا، بالرغم من شكوكي في نواياه الخفيّة، كما أن نزهة مسائيّة حول البلدة في سيّارته الفارهة دعوة لا تتكرّر دائماً، فلِمَ لا أستغلها.

نركب السيّارة، تشتعل الأضواء الملوّنة الحالمة فيها، وتنبعث موسيقى رومانسيّة فرنسيّة من مذياعها، ويمضي بها السيد حسّون على مهل.

أقول له: «هذه النزهة مناسبة لصديقة، لعشيقة، لا لرجل يثير الضجر مثلي...».

يجيبني: «بالمناسبة، إذا أردت أن نجد لك صبيّة من البلدة عروساً، فأنا جاهز للمساعدة».

– لا، أصبحت عجوزاً، انسَ هذا الموضوع... أرى أنّك تسير باتجاه الأحياء القديمة، أليس خطراً أن نمرّ فيها ليلاً في هذه الأيّام؟

– تقصد أيّام التظاهرات... لا، الشباب المنتفضون هنا رائعون، وهم يعرفونني جيّداً.

– الشباب رائعون، لكنّهم متهوّرون وطائشون، من يجرؤ في هذه الأيّام على أن يقف بوجه الزعيم الجنرال... ثمّ منذ متى تهتمّ لأمر هؤلاء الشباب؟

ينظر حسون إليَّ نظرة عتاب مستهجنة: «لا يا صديقي، نحن كلنا مع الانتفاضة، إن كنّا لا نستطيع الخروج في التظاهرات لأننا عجائز القلب والروح، فعلى الأقل لنتضامن معهم ببعض القول أو الفعل، لكن في الوقت نفسه علينا أن نجنّب البلدة الفوضى والخراب. أنت تعرف أنّ الصدام في الشارع مع رجال الأمن ومؤيّدي الزعيم الجنرال يترك الكثير من الجرحى لدينا، فهم مسلحون جيداً بينما نحن نسير عراة الصدور في تظاهرات فوضويّة، ومن الممكن أن يؤدّي ذلك إلى سقوط قتلى منّا أيضاً».

– وما علاقتي أنا بهذا الحديث، فأنا لا أخرج مع المتظاهرين!

يأخذ السيد حسّون مظهراً جدّياً متجهّماً لا يتناسب مع ابتسامته التي لا تفارقه، ويقول: «البلدة منقسمة الآن بين مؤيّد متعصّب للزعيم الجنرال ومعارض بجنون له، إمّا الأبيض أو الأسود، والناس الرماديّون أمثالنا هم قلائل، وفي هذه الأجواء يمكن للحرب الأهليّة أن تشتعل بسرعة».

– ماذا تريد أن تقول في النهاية؟

– بالتأكيد، يجب أن نتضامن مع الشباب المنتفضين، لكن علينا أن نتعاون معاً، كي يهدأوا قليلاً ونتجنّب الجنون، أنت مثقف محترم في البلدة ولك دور في تهدئة سياسيّي البلدة الذين يحرّضونهم على الفوضى... علينا إنهاء الانتفاضة في البلدة لدرء الخراب عنها، الظروف لا تسير الآن لمصلحة الشباب.

– لا يا صديقي، تكفيني مشاكلي الشخصيّة مع زوجتي، والطلقة التي أصابتني في كتفي على الشرفة وأنا أتفرّج فقط.

نصل إلى مدخل الأحياء القديمة ببيوتها المتناثرة بين بساتين كثيفة واسعة، تخفف السيّارة من سرعتها على دروب زراعيّة ضيّقة ملتوية، تظللها أشجار الجوز والحور والزيزفون الباسقة وسياج العوسج الكثيف، التي تنمو على أطراف سواقٍ صغيرة حفرها الفلاحون لجرّ المياه إلى أراضيهم.

التيّار الكهربائي هنا مقطوع باستمرار، يبدو أنه عقاب للأحياء المنتفضة، لكن ضوء القمر الفضّي المكتمل يسطع هذه الليلة على البيوت والبساتين، يداعبها بنوره الحميم، فتتعرّى ظلالها لتنتشي معه، فيما تغازل النسائم الرطبة أغصان الأشجار التي تتراقص بهسيس أوراقها، مُذكّرةً بحكايات الجنّ الريفيّة... لا أدري إن كانت هذه الأجواء الليليّة في مجاهل الأحياء المنتفضة تثير الشاعريّة، أم هل صمتها ينذر بالقلق والترقب. أظنّ أنّ حسّون يراها بشاعريّتها، إذ لم تفارق الابتسامة شفتيه، وقد ترك يده ممدودة عبر نافذة السيّارة، تتلاعب بها نسيمات الهواء، مستمتعاً بالموسيقى الحالمة، بينما كنت أنا منكمشاً على نفسي، لا أعرف ماذا تخبّئ لنا المنعطفات بظلالها المرتبكة بأنوار مصابيح السيّارة من مفاجآت، في منطقة بالكاد كنت أعرفها في أيّام مراهقتي.

لم تتأخر المفاجآت التي تخبّئها المنعطفات، إذ برز من بين الأشجار ثلاثة شباب ملثّمين بكوفيات، يحملون بأيديهم عصيّاً مفلطحة الرأس، اعترضوا السيّارة وهم يطلبون بصوت آمر إطفاء مصابيحها. تقدّم منّا أصغرهم الذي يبدو قائدهم من طريقة تصرّفه الواثقة بالنفس، حلّ اللثام عن وجهه عندما تعرَّف إلى حسون، فظهر شابّاً صغيراً في بداية العشرينيّات من عمره، لم تكد لحيته قد نبتت. تبادل التحيّة بودّ مع السيد حسّون قائلاً: «أهلاً حسّون، مرّت ليلتان لم نشاهدكم فيهما».

يمدّ حسّون يده إلى اللثام المرميّ على الكتف، يرفع طرفه المنسدل ويلفّه على العنق، ويجيب: «مشاغل العمل يا صديقي كاسر».

ثمّ يلوّح بيده للشابّين الآخرين: «تحيّاتي يا فؤاد ويا علي».

يسأل حسّون: «كيف الأوضاع لديكم، هل تصلكم وجبات العشاء يومياً، لكم ولبقيّة الحواجز؟ البارحة كانت مدعومة، سندويشات شاورما وزجاجات كولا. وما هي أخبار الجرحى الذين يُعالجون في المستشفى الميداني، هل هم بخير؟».

يجيب كاسر: «بخير، لكن ياسين، الذي استخرج الطبيب ياسر رصاصة من قرب كبده، يُصرّ على الخروج من جديد في التظاهرات على الرغم من عمليّته الجراحيّة».

– يا شباب، نحن تكفّلنا بعلاجه بشرط أن يهدأ، ينبغي أن يجلس في البيت، كي يتعافى سريعاً... هل تريدون شيئاً آخر؟ نحن بالخدمة.

ينطلق السيد حسّون من جديد، وقد تركني في حالة من الذهول والاندهاش. يقول لي ساخراً: «ألا ترى معي بعض الغباء لدى هؤلاء الشباب، ماذا يستطيع أن يفعل ثلاثة مسلحين بعصيّ إذا ما داهمتهم فجأة دوريّة أمنيّة مدجّجة بالسلاح؟».

أجيبه بجدّية: «يستطيعون فعل الكثير، على الأقل ينذرون رفاقهم بوجود خطر، كي يختفوا في هذه البساتين الكثيفة، فلا يتم اعتقالهم. ثمّ لا أعتقد أن رجال الأمن يجرؤون على التغلغل في هذه المناطق».

ثمّ ما ألبث أن أسأله مستغرباً: «سيد حسّون هل أنت متعاطف مع الشباب، أم تسخر منهم؟».

يجيب بابتسامة خبيثة: «أنا أريد الخير لهم، إذا ما جلسوا في بيوتهم فلن يقع بينهم جرحى، وستهدأ البلدة».

ما إن تمرّ دقائق قليلة من المسير في طريق زراعي آخر حتّى تبرز مجموعة جديدة من الشبّان الملثمين المسلحين بالعصيّ، فيتوقف السيد حسون من جديد لتحيّتهم... لا أدري إن كانت الأمور تحدث مصادفة أمامي، أم أن السيد حسون يتقصّد المرور من هذه الحواجز، كي أراه كيف يتصرّف بثقة مع الشباب.

سألهم: «سمعت يا شباب أنكم تريدون الخروج للتظاهر أيضاً يوم الاثنين إلى جانب يوم الجمعة من أمام المسجد؟».

فأجابه أحدهم: «وما المشكلة يا سيد حسّون، لنخرج أيضاً في كل أيّام الأسبوع».

فردّ بخبث دون أن تفارقه الابتسامة، وهو يتلمّس الرأس المفلطح لإحدى العصيّ بيد أحدهم: «لا يا شباب، أنتم بهذه الطريقة تفسحون مجالاً لعناصر الأمن كي يرتكبوا مجزرة في البلدة، ليس من الضروري الخروج في كل يوم».

– ومتى نخرج؟

– يكفي يوم الجمعة فقط.

– الجمعة فقط؟!

– نعم الجمعة فقط، بعد الصلاة، من أمام المسجد حتّى الساحة الرئيسية، المهمّ إيصال رسالتكم عن طريق هتافاتكم خلال ساعتين من الزمن، أو حتّى ساعة، ثمّ ترجعون إلى منازلكم دون خسائر. هكذا، لا تسمحون لأحد بارتكاب مجزرة بحق البلدة.

يقترب من بعيد صوت يبدو حازماً وواثقاً من نفسه: «حسّون نشكرك على نصائحك ومساعداتك، لكن إن كنت لا ترغب بالمشاركة في التظاهرات معنا خوفاً على نفسك وثروتك، أرجوك أن تترك هذه القرارات الميدانية لنا».

يتلعثم قليلاً السيد حسّون، ويقول: «أهلاً عصام، أنا أريد الخير للبلدة، مؤيّدو الزعيم الجنرال ورجال أمنه يستعدّون لإيقاع الشرّ بكم، فلا ينبغي أن نعطيهم الفرصة».

يقترب عصام منّا، يشاهدني فيندهش قليلاً: «أهلاً بجارنا، كنت أتمنّى مشاهدتك معنا في الشارع، في قلب التظاهرات. تفضّلوا إن كان لديكم وقت لشرب الشاي في بيتنا الطيني المتواضع».

أصابتني رعدة خفيّة عندما سمعت عبارة «بيتنا الطيني»، فرددت عليه معتذراً بابتسامة.

يحاول السيد حسّون أن يصلح الموقف، يمدّ يده إلى سترة عصام ليصلح شيئاً ما فيها بحركة مقصودة أكثر منها عفويّة على غير عادته. يتلقاها عصام بحركة أقرب إلى الجلافة، مبعداً إيّاها، ويردّها إلى داخل السيّارة قائلاً: «سنعطيهم الفرصة ونحن مستعدّون لهم، لن نترك الشارع، بل سنعتصم فيه ليل نهار حتّى يسقط الزعيم الجنرال».

– على كل الأحوال، نحن معكم في ما تقرّرون، لكن بعد أن تفكّروا بعقل.

– فكّرنا وانتهينا منذ زمن بعيد، فيما كنت أنت والمحامي حسن مشغولين باستغلال الفلّاحين البسطاء.

ما إن تنطلق السيّارة حتّى أرى الانزعاج بادياً على وجه السيد حسّون. لم يكن يرغب في حدوث مشهد كهذا أمامي، فقال لي مبرّراً «هل رأيت كم رأسه يابس؟ كيف يمكن التحاور مع الشباب ودرء الأخطار عن البلدة بوجود مثل هؤلاء القادة بينهم؟ والده أبو عصام رجل محترم في البلدة، لم يرغب في أن ينفلت ابنه بهذا الشكل وينضمّ إلى المنتفضين».

لا أردّ، أبقى صامتاً... أشعر بقلق خفيّ وترقب غريبين، إذ يخفف السيد حسّون سرعة سيّارته إلى أدنى حد، ويقول: «انظر إلى هذا البيت القديم... هنا يجتمع الشباب المنتفضون، يرسمون خططهم فيه وينطلقون منه إلى التظاهرات».

يرتعش القلب لمرأى البيت الطيني القديم. يبدو لي حميمياً، مع أنني لم أزره أبداً، كأنني أعرف ما في داخله، وما يجري فيه، وكأن جدرانه وجنباته مزيّنة بعشرات الأشياء الغريبة القديمة، تحمل ذاكرة ما... إلّا أنني سرعان ما أهز رأسي، كي أبعد الأوهام، ساخراً من هلوساتي.

يبدو البيت من الخارج بسيطاً، يتجلى بالروعة تحت ضوء القمر الفضّي، يسحرني مرآه، وكأنه ينبثق من حكايات الجدّات القديمة. يقود إلى بوابته القديمة جسر خشبي عتيق، يرخي بظلاله فوق ساقية تترنم بإيقاعات تقافز مياهها فوق أحجار صغيرة. البوابة كبيرة تنتهي بقوس، بنية متآكلة اللون، مليئة بالشقوق الطوليّة المهترئة التي تتحدّث عن قِدَم عمرها المديد، مُرصّعة بمسامير ذات رؤوس ضخمة تزيّن حوافها، ورؤوسها تلتمع تحت الضياء، فترتسم دوائر تصغر أو تكبر، هنا أو هناك، وكأنها أشكال سحريّة، تمائم تحرس البيت، وتتربّع في مركزها العلوي قبضة نحاسيّة تشد أصابعها على كرة معدنيّة ثقيلة بلون أصفر شاحب، تُستخدم لقرعها.

أبتسم عندما أشاهد حبلاً صغيراً يخرج من ثقب في البوابة، أعرف أنه مشدود إلى المزلاج في الداخل، هنا يحضر الزائرون دون إعلام، يشدّونه ويدخلون مباشرة ليشربوا الشاي، على عادة الفلّاحين في بيوت الأحياء القديمة.

تقع البوابة في سور حجري غطته عريشة عنب، يمتدّ لينتهي في طرفه جدار غرفة تنفتح فيها نافذتان بعتبتين عميقتين، تغلقهما قضبان حديديّة متقاطعة علاها الصدأ، وتنسدل عليهما ستارتان سميكتان تتلاعب بهما نسيمات العشيّة، فيظهر بصيص ضوء شموع من خلفهما. وأمام السور في الخارج، ينتصب عالياً صفّ من أشجار الحور، فيما تظلّل الساقية أشجارُ الزيزفون والصفصاف، وتزنّر السور أزهار الياسمين والنرجس والورد الجوري.

كأنه بيت الأحلام، بل إنه يأتيني فعلاً في أحلامي الليلية. كأنني أتذكر الآن ما وراء سوره. هناك، بالتأكيد، حديقة مليئة بمقتنيات حجريّة أثريّة، وفيها تمثال لإلهة حجريّة، وعلى الحائط في البيت أشياء قديمة معلقة... هل أنا مجنون، ما علاقتي أنا بهذا البيت، وما علاقتي بالمنتفضين الشباب، صحيح أنني أتعاطف معهم من بعيد، لكنني لا أرغب في التورّط بشبهة ما معهم تودي بي إلى السجن.

وكأنّ شواشاً غريباً في الرأس بدأ يهاجمني، شواشاً لم أمرّ بقسوته قبلاً، أشعر برغبة قويّة في الهروب من هذا المكان، فصرت أستحثّ مُلِحّاً السيد حسّون على الابتعاد عن الأحياء القديمة، وعن هذا البيت الطيني بالذات. وفيما أنا غارق بأفكاري هارباً من مواجهة ذاتي، إذا بي ألمح مجموعة من الفتيات يخرجن من عتمة البيت، من بوّابته التي أصدرت صريراً موسيقيّاً كأنني أعرفه، ثلاث فتيات بعضهن يتأبّطن ذراع بعض، واثنتان تتقافزان... إنّها آلاء بنت صبري، تلك التي تتراكض بحيويّة، هذه الفتاة اللعوب الصغيرة التي تحاصرني إلى حدّ الاختناق، ماذا تفعل هنا؟ هل هي سيّئة إلى هذه الدرجة، كي تحضر ليلاً إلى بيت مشبوه، بيت شباب متمرّدين على السلطة، وربّما يعاقرون الخمرة ويدخنون الحشيشة؟

آه آلاء، هذه الشيطانة الصغيرة، لا أستطيع الوصول إليك ولا محاصرتك. لو لمحتِني هنا، لتسبّبتِ لي بفضيحة مجلجلة وأنت تقولين: «ها هو العجوز الذي يخشى التظاهرات نهاراً، يجد الجرأة كي يدور على بيوت مشبوهة ليلاً».

أطلب من حسون أن يعيدني بسرعة إلى شقتي، هناك من شرفتي أشعر بأنني أسيطر على الساحة، وعلى البلدة، وعلى الأحداث.

– لماذا تنفعل وتثور عندما تشعر بأنك مهزوم؟ تريد لرأيك أن يسود دائماً، غير آبه لما يقوله الآخرون، لا تستطيع أن تواجه ذاتك مهزوماً، تظن نفسك كليّ القدرة، لا تنكسر.

أستمع بدهشة وذهول لما تقوله لي آلاء، ونحن جالسان مساءً في الحديقة بجانب البيت الطيني، قرب تمثال الإلهة الحجريّة، تتحدّث، وقد اكتسى وجهها جدّية غير متوقعة، لا تتناسب مع نظراتها الطفوليّة التي تنبعث من ألق ربيعها الثامن عشر. يختلط وجها الإلهة وآلاء. لم أعد أدري من يحدّثني منهما، ومن هو عاتب عليَّ.

لا تتوقف آلاء الإلهة عن الحديث، تستمر كساقية منحدرة، تندفع دفقات جريانها بصخب: «يتغيّر محيّاك، تتبدّل تصرّفاتك، بحيث لا أكاد أعرفك، كأنني أراك رجلاً آخر ينتمي إلى عالم بعيد، ضبابي، يغرق في التيه والغموض... لماذا لا تُحلّ القضايا الصعبة عندك إلا بالعنف والدم؟».

يبدأ الصداع بمهاجمتي. شواش كثيف يتحايل على حصاري، أرغب في النهوض والهروب، لكن آلاء تحاصرني، تقبض على ساعدي بقوّة لا تتناسب مع كفها الصغيرة، تقف بوجهي فيما تستمرّ بقسوة: «ما إن يخذلك المنفلتون من طغيانك، غير آبهين لصراخك حتّى تصبح ممسوساً، لا تعود ترى ما حولك، تنقلب بالكامل عن جانبك الصافي الأصيل، وتشعر بأنّ مملكتك الصغيرة في هذا البيت الطيني آخذة بالانهيار، فتمضي كأعمى، تائهاً لا يعرف دربه، لكن قدميه المتعجلتين تقودانه إلى هناك، حيث الهروب، إلى الباب الجانبي المؤدّي إلى فسحة الحديقة».

أجيبها بانفعال غاضب: «لا أصدق ما تقولين، دعيني أذهب».

تتشبّث آلاء الإلهة بي بشدّة، لا تفلتني: «أنتبهُ أنا إليك، أُسرعُ نحوك كي أخفف من غلواء غضبك، وقد تحوّل الشباب عنك إلى الأستاذ فارس وكلماته الهادئة المتزنة. ألحق بك، لكنّك تصيبني بالهلع، إذ يُخيّل إليَّ أنك تختفي في فضاء المسافة بيني وبين الباب، رويداً رويداً، وكأنك تذوي وتضمحلّ متلاشياً. تضيع يدك التي تسبقك في الخفاء، تلحقها قدمك، نصف جسدك، تخرج من الباب، وتختفي. يا للجنون الذي يصيبني، الباب لا ينفتح، تخترقه كما تخترق الأشباح فضاءات العوالم».

أرى الرعب مرتسماً على وجه آلاء، تنفعل وتجهش بالبكاء، وهي تستمرّ بالحديث: «وعندما لحقت بك في المرّة الأخيرة، فتحت الباب، وخرجت وراءك إلى الحديقة، فلم أجدك، ناديتك بهلع شديد، وأنا أبحث عنك، وراء الأحجار القديمة، وبين الأشجار الكثيفة، صرت أركض وأنفاسي المتهدّجة تسبقني، فلا أجدك، كأنّ الأرض انشقت وابتلعتك، كما في حكايات الساحرات الشرّيرات».

تنوس الرغبة بي بين الهروب من الشواش في رأسي، وبين كفكفة دموع آلاء التي مالت على كتفي الجريحة متشبّثة بي، فهي التي ضمّدتني بحنانها في ذلك اليوم. تغلبني آلاء، أهدأ، ألتفت إليها، أمسح دموعها، أتلمّس وجنتها وأنا حائر لا أدري ماذا أقول، فيما يضيع نظري بينها وبين الإلهة التي تنساب منها دمعة حجريّة لا تتوقف عن الجريان منذ أن انبثقت في الحديقة.

وكأنني أمام امرأة حكيمة اختبرت الحياة، بعكس ما يوحي به عمرها الصغير. أليست هي الإلهة... أو ربما واحدة منهما هي الموجودة، والأخرى صنيعة الوهم، فأيّهما الحقيقيّة؟!

تنزوي آلاء مبتعدة قليلاً عنّي، وتقول: «ربما أنا مجنونة بما أتخيّله، مريضة بالأوهام، وبما أرميه عليك من تخيّلات، فالأحلام المبهمة الغامضة تلاحقني دائماً حين أتمدّد في فراشي».

أضمّ آلاء بحنان، أمسح دمعة عن وجنتها بقبلة صغيرة ناعمة، وأسألها: «ما هذه الأحلام التي تلاحقك ليلاً؟».

– أحلام لا يستطيع عقلي الصغير أن يستوعبها، ولا أرغب في تذكّرها، ربما هي التي تجعلني أتوهّم ما أراك فيه.

– حاولي أن تواجهيها وتخبريني بها، فربما نتغلب عليها معاً.

تشهق وهي تخبرني: «عوالم غريبة، متداخلة بعضها ببعض، مليئة بوجوه تتكرّر في ما بينها، تتكرّر، كأنّها نسخ شبحيّة».

– وجوه من؟

– يراودني أولاً وجه رجل قميء لا يحلق ذقنه، لكنه مسكين، إذ يبدو أن عقله أصابه مسّ من الجنون، كأنني أفهم أن زوجته السمينة غادرته، هربت مع عشيقها نحو الشمال.

– أيّ شمال؟!

– لا أدري، شمال في منام ما!... ثمّ أرى وجه رجل أخر، يبدو مهووساً برائحة الدماء التي تمتلئ بقعٌ منها على بذلته العسكريّة المُترعة بالأوسمة.

– وما المخيف في هذه الأحلام؟

– كل شيء فيها مخيف، فالوجه الأول أراه بأشكال متنوّعة، لكنّه عابس باستمرار، شزر ممّا حوله، لكنني أجده في أحيان أخرى مشقّقاً ككسرات مرآة محطمة، ومرّة رأيته مَمْحوّاً دون ملامح.

أمّا الوجه الثاني، فأراه بصورة أسوأ، إذ لا ينقطع عن التهام قلب بشري بضراوة، وقد أمسك به بكلتا يديه.

– ينبغي أن تنسي هذه الأحلام.

– كيف أنسى، وهذه الوجوه تلاحقني باستمرار في مناماتي؟ والأسوأ، أن هذه الوجوه تعرّيني من ملابسي وتنام معي في سريري، إنها تنام معي حقيقة، كأنّها... أخجل أن أستمرّ، لا أريد الحديث عن هذه الكوابيس، كأنني أعيشها عندما أتحدّث عنها، رأسي الصغير لا يحتملها، ولا يحتمل الحديث عنها.

– وماذا عليَّ أن أفعل حتّى أجعلك ترتاحين؟

– أرتاح عندما أراك هادئاً، صافياً، مثل ريشة متطايرة تلعب بأحلامي، عندها تنقذني من كوابيسي... أكره العنف والدم واللجوء إلى السلاح.

لا أرغب في إخافة آلاء بأحاديثي عن الجنون الذي ينتابني، فقد تهرب مني، وأفقدها إلى الأبد... كيف أخبرها أنني في لحظات شواشي أرى نفسي واقفاً على بوابات عوالم تنفتح على ضياع ضبابي، بأجواء أقرب إلى هلوسة الجنون، وأنني ألمح على عتباتها وجهها نفسه. أراها أحياناً صبيّة صغيرة ترتّب زهوراً جميلة في مزهريّة أتت بها من حفرة الأموات، دون أن أفهم ذلك، فيما أبدو أنا رجلاً غريباً يرتدي سترة سوداء قديمة، مجعّدة ومهترئة، وأنتعل حذاءً أسود ينفتح على العالم ثقوباً تحفر جلده، وأراها أحياناً سيّدة صغيرة تلتف بمعطف فرو ثقيل، وقد تزيّن جيدها بقلادة ماسيّة غالية الثمن، فيما أقف إلى جانبها مرتدياً بذلة جنرال عسكريّة مثقلة بالأوسمة.

حاولت سابقاً عدّة مرّات أن أشرح لها بعضاً من آلامي الناشئة من الصداع في رأسي، والرؤى التي تهاجمني، لكنّها كانت تلتفت إليَّ مستنكرة، وتقول: «لا تدعني أصدّق ثرثرات فؤاد عن لحظات الجنون التي تنتابك».

وكأنَّ الفتاة الصغيرة التي ترتّب الزهور تطبع قبلة على شفتيّ، وتقول لي بلسان آلاء الآن: «وبعد ذلك ماذا حدث؟».

قالتها لي ذات مرّة، ذات عالم بعيد.

أتمدّد على العشب الأخضر في الحديقة المجاورة للغرفة الطينيّة، هارباً من ضجيج الشباب في الداخل، ومن حدّة نقاشاتهم حول الاعتصام في الساحة. أرتشف شاياً من كوبي الفخاري القديم، كوب رمادي اللون باهت، مكسور الشفة والأذن، تسخر آلاء منه باستمرار لأنّني لا أغيّره، تريد أن تعرف لماذا أنا متعلق به، فلا أجد جواباً، أنا نفسي لا أعرف من أين حصلت عليه، فهو موجود في الغرفة منذ زمن بعيد، ولا أستطيع شرب الشاي إلا به. ورغم سخرية آلاء منه، تزيّن لي الشاي فيه بوريقات النعناع الأخضر وشرائح الليمون الأصفر.

آلاء بشعرها الأسود المشلوح على كتفيها لا تهدأ حولي، تروح وتجيء، تقفز وتطير، وقلبي ينخطف، وراء كل إيماءة تبدر منها، أو همسة تصدر عنها، فأنسى اللحظات السوداوية عندما بكت البارحة وهي تتحدث عن كوابيسها.

تتماهى آلاء في الحديقة مع ما تقف إلى جانبه، كما الإلهة المنتصبة فيها، فتمنحه المعنى. تتبعثر بين الزهور ألوان قوس قزح، فتتوحّد بها كرنفالاً من الأحلام. تتفرّع مع أغصان شجيرات المشمش والكرز والخوخ عالياً نحو الشمس، فتنمو عليها زهوراً ربيعيّة بيضاء بحافات ورديّة مبشّرة بالعطاء. تتقافز بين المقتنيات الحجريّة، تلمسها، فتجعلها تستيقظ وتتحدّث بحكايات الزمان. تدور آلاء مع موسيقى جرش أحجار الرحى، تطحن الأيّام أحلاماً وآمالاً خضراء، تشتعل النوافير بالحياة، يسيل الزيت من المعاصر، تمتلئ الأجران بضلوع اللحم، وتطفو الخوابي بنبيذها. وفي النهاية، تنجلي النقوش عن الأحجار، تتفكّك وتحلّ طلاسم أسرارها، فإذا بها حكايات عشّاق وأساطير أبطال، عاشوا في أزمنة غارقة في القدم.

آلاء تنعش الحياة، تجعلها خضراء، فأعشق الحياة لأجلها، ما إن تنهض باسقة قرب أحد الأعمدة التاريخيّة السوداء، الطالعة من اخضرار العشب وألوان الزهيرات، حتّى أراها ملكة عابرة للأزمنة والكلمات، ملكة الخصب والعشق. أرى عوالم تتوالى عبر تاريخ طويل، وفي كلّ منها آلاء ملكة يركع إلى ألق عينيها عاشق يقود انتفاضة، ثورة، على الظلم والطغيان، فتباركه وتسبغ على فعله قداسة المعنى حتّى يطلع للأجيال وردة... عوالم تتوالى، وعشّاق يعبرون الزمان، ولا تزال هي مليكة القلوب.

– آلاء، متى سأتزوّجك؟

– عندما تجد مهري، ومهري غالٍ جداً.

– وما هو مهرك؟

– الحصان الأبيض... أختي علياء تقبض الآن مهرها من أبو سويلم، عشرات من أغاني الثورة، يملأ بها قلوب الشباب حماسة، فينشدونها في التظاهرات.

الحصان الأبيض قريب كما الحلم بانتصار الثورة، لكنّه بعيد في الوقت نفسه بقدر شراسة الزعيم الجنرال، فأين أنت يا جدّي لتقف إلى جانبي وتنصحني؟

يأتي جدّي الشاب من باب الحديقة الجانبي، حاملاً بندقيته القديمة بيده اليمنى، فيما يمسّد شاربه الكثّ بأصابع يده اليسرى، يخرج من الصورة الفوتوغرافيّة القديمة بالأبيض والأسود، المعلقة على جدار الغرفة بين الصحون النحاسيّة المذهّبة العتيقة، الصورة التي تمثله مع شباب القرية على كتف الجبل في أثناء انتفاضة على غزاة احتلوها قبل قرن مضى. يستأذن جدّي أصدقاءه الذين يقف بينهم

في الصورة، يقول لهم: «حفيدي يناديني، أترككم ساعة من الزمن لأشرب الشاي معه، وأعود إليكم... لا تغفلوا عن الحراسة في غيابي، فالعدوّ غدّار».

يحضر جدّي، يملأ الفضاء حولي، ممشوق الروح والجسد، واثق الخطوة، جميل المحيّا، مبتسم القلب، وقد لفّ عنقه بكوفيّته البيضاء المخططة بسلاسل سوداء على طريقة رجال بلدتنا، أرخى طرفيها المجدولين وردّهما إلى الخلف، تاركاً وجهه بشاربيه العريضين ولحيته الناعمة مكشوفاً لنسائم الهواء وضياء الشمس، فبدا أكثر رجولة وعظمة.

تُسرع آلاء بتقديم كأس شاي إلى جدّي، وقد امتلأ وجهها بابتسامة مشرقة، يسألني: «من يستطيع الجلوس مع هذه العروس الحلوة ويبقى شارد الذهن كما يبدو عليك، ما الذي يقلقك إلى هذه الدرجة حتّى طلبتني من الجبل؟».

– الحصان الأبيض ضاع يا جدّي، سرقوه في غفلة منّا، وهذه خطيبتي آلاء، لا ترضى بزواجي بها إلّا إذا قدّمته لها مهراً، البعض يريد استعادته بالأناشيد والهتافات الوطنيّة، وأنا أريد استعارة بنادق من عندكم في الجبل، كي نسترجعه بالقوة.

يبتسم جدي وهو يأخذ رشفة من الشاي: «هذه الفتاة كلها شهامة وكبرياء، فلا تتخلَّ عنها... لكنني كنت أظنّ أننا استعدنا الحصان الأبيض قبل زمن بعيد، وتركناه لكم أملاً للمستقبل، هل جاء غزاة جدد إلى البلدة وتكاسلتم في الدفاع عنها؟ وهل هم أقوياء إلى درجة تريد بها الحصول على بنادق لطردهم؟ أراكم في الغرفة دائماً تثرثرون كثيراً، تتناقشون وتتصايحون، وأنتم تشربون شاياً طوال الوقت، الأفضل أن تذهبوا وتقاتلوا في الجبال».

تقول آلاء بلهجة يشوبها الحزن: «إنهم ليسوا غزاة يا جدّي، هم وباء خرج من تحت جلودنا، أخذوا أبي وأخي والكثير من الأحرار إلى السجن. يزورني أبي في المنام، ويقول لي لن يستطيعوا الخروج من السجن إلّا إذا شاهدوا الحصان الأبيض حرّاً طليقاً، لذلك طلبته مهراً لي».

أسأل جدّي: «كيف استطعت أنت ورفاقك استرجاع الحصان الأبيض، هل كنتم تقاتلون في الجبال طوال الوقت؟ بحثت كثيراً عن صور لك خارجها، أنت وجدّتي في البيت، أنت وأبي وأعمامي وعمّاتي في الحقل، حول صينيّة قشّ في العشاء، كي أعلقها على الجدار في الغرفة، فلم أجد. ألا تتعب من الوقوف طوال الوقت تحت المطر في برد الجبال الشديد أنت وأصدقاؤك، والبنادق لا تفارقكم؟».

ينظر جدّي بعيداً، كأنه يقلب صفحات الماضي: «كانوا غزاة شرسين، جاؤوا ذات ليل أسود حالك الظلمة مخيّم على القلوب، قتلوا الرجال واغتصبوا النساء، سرقوا الحليّ ومؤونة الشتاء، سكبوا النفط فوق الحنطة والبرغل، كسروا خوابي السمن والزيت، وما لم يستطيعوا أخذه من المواشي قتلوه».

تقول آلاء: «يا جدّي، وباؤنا أقسى من الغزاة، نما كالطحالب من بين الأصابع، حطموا آمالنا وسرقوا أحلامنا، لا أستطيع الحبّ والزواج، وأنا في زنزانة... لكنّني أخاف طوفان الدماء».

ينهض جدي مهموماً، يريد أن يعود إلى الصورة، فقد تأخر على رفاقه. أسأل جدي ملتاعاً وهو يبتعد: «ماذا نفعل؟ هل نستعير بنادق من عندكم؟».

يجيبني وهو يختفي: «أنا أعطيك الصمود والشجاعة يا بنيّ، أما أنت فاستفتِ قلبك وحكّم عقلك، وقرّر، هل تريد بندقيّة أم لا؟ والآن عليَّ أن أعود إلى الصورة، فالرفاق ينتظرونني».

أيقظتني ذات أربعاء أشعّة الشمس المتسللة إلى الشقة عبر نافذة الشرفة. هارباً كالعادة من كابوسي اللعين أستيقظ، لكنني ما زلت أشعر بصداع شديد، يجعلني أتململ في النهوض من الفراش، فبقيت مستلقياً أتقلب فيه. كنت قد قرّرت عدم الذهاب إلى العمل في هذا اليوم، إذ ستقام مسيرة كبرى مؤيّدة للزعيم الجنرال في البلدة، ستساق إليها قطعان الموظفين كالعادة. وكي لا أصطدم برئيس البلديّة الغبيّ، منحت نفسي إجازة استثنائيّة.

«سيُطرد من العمل كلّ من لا يشارك من الموظفين في المسيرة، فينقطع سبيل رزقهم»، يشيع المسؤول الحزبي في دائرة البلدية.

تضجّ الساحة باكراً في هذا اليوم منذ الساعة العاشرة بشكل غير اعتيادي، أصبحت أعرف مصدر الضجيج ونوعيّته بسهولة وأنا في سريري. ليس نداءات الباعة الجوّالين ولا لغط المتسكّعين. إنه ضجيج المتظاهرين الذين حضروا اليوم على غير عادتهم باكراً، للمشاركة في تظاهرة مضادّة لمسيرة تأييد الزعيم الجنرال، التي أعرف أنها ستنطلق من جانب البلدية إلى الساحة.

أنهض من فراشي متثاقلاً، وأذهب إلى المطبخ لأغلي القهوة، أسكبها في كوبي الفخاري الرمادي القديم لأشربها على الشرفة وحيداً، كعادتي منذ أن غادرتني زوجتي. ومثل كلّ الفضوليّين على الشرفات الأخرى، أتسلّل إلى شرفتي لأتفرّج على التجمّعات في الساحة، لكنّني على عكسهم أخرج الآن متلصّصاً، فجرحي الذي أصبت به في الكتف إثر الطلقة العشوائيّة لم يندمل بعد بالكامل، كما أنني لا أريد الالتقاء بنظرات غريمي الشاب القاتلة، ولا بنظرات عصام العاتبة، وقد تعرّف إليَّ في النزهة المسائيّة.

أظن أنَّ اليوم سيكون مليئاً بالإثارة، إذ سأرى كيف سيتواجه المتظاهرون الناريّون مع تجمّعات التلاميذ والنسوة والعجائز من الموظفين المساكين، المَسوقين إلى المسيرة كقطيع الأغنام.

لم تفتح المحالّ التجاريّة أبوابها، ولا الحوانيت أغلاقها، لم يحضر الباعة الجوّالون، ولا المتسكّعون. كان كلّ شيء يوحي بالقلق والتوتّر واقتراب صدام وشيك، وقد انتقلت تلك المشاعر

إلى المتفرّجين على الشرفات الذين وقفوا على الأبواب مترقبين، دون أن يحضروا كراسيّهم ليجلسوا ويتفرّجوا كما هي العادة، وقد بدا هذا واضحاً على شرفتيْ أبو كميل، وأم عصام.

كانت الساحة تغصّ بشباب المتظاهرين الذين يبدون اليوم غاضبين أكثر من العادة، من خلال تراكضهم وتقافزهم الصاخب هنا وهناك، يتصايحون والشرر يتطاير من عيونهم. كان كل فرد منهم يبدو قائداً لمجموعات الساحة كلها، يديرها بصراخه، ويوجّههم نحو سدّ المنافذ إليها بالدواليب والحجارة والأخشاب، فيما أغلقت شاحنة أبو كاسر أحد المنافذ دون أن يطفئ محرّكها المزعج، «حتّى تكون جاهزة لأيّ طارئ»، سيقول أبو كاسر.

وفي أثناء ذلك، كان راكبو الدرّاجات الناريّة لا يهدأون، وهم يستطلعون الشوارع والمنعطفات المؤدّية إلى الساحة، وفوجئت بأكوام كثيرة من الحجارة الصغيرة تكدّست في مواقع متعدّدة منها، حجارة لم تكن موجودة قبلاً، مستغرباً متى أحضِرت. وفي إحدى الزوايا، تجمّعت نسوة تحت ما يشبه خيمة طبّية، يبدو أنها أقيمت للحالات الطارئة، وبالتأكيد ستكون معذبتي الصغيرة آلاء بينهنّ، فهي تحشر نفسها في كلّ شيء. أرى أيضاً في الخيمة الشابّ الذي يرتدي ملابس فلكلوريّة مضحكة، يبدو أنه هو المسؤول هناك.

ما إن يمرّ بعض الوقت حتّى أسمع قادماً من بعيد صوت بوق الحافلة القديمة، التي تنقل المسافرين بين البلدة والقرى الجبليّة المجاورة ذات الصخور السوداء. يزعق البوق بشدّة وبطريقة احتفاليّة معلناً اقترابها من الساحة، لتقتحمها فجأةً، وتتوقف بين تجمهرات المتظاهرين الذين أصيبوا بالذهول من مظهرها وطريقة دخولها. كانت الحافلة مزيّنة بكثافة بصور الزعيم الجنرال واللافتات المؤيّدة له على جوانبها، وزجاجها، وسطحها، فيما كانت أنصاف أجساد جبليّين تبرز من نوافذها، وقد اعتلى بعضهم سطحها، يلوّحون بأعلام حزب الزعيم الجنرال، ويهزجون بالهتافات المؤيّدة له بأعلى الأصوات على إيقاع بوقها، وقد ازدادت شدّة حماستهم مع دخولهم الساحة.

لا بدّ من أن هناك خللاً ما حدث، إذ إن الهتافات الممجّدة للزعيم الجنرال ما لبثت أن خفتت شيئاً فشيئاً، ثمّ خبت بالكامل هي وبوق الحافلة. لقد أدرك المحتفلون أنهم وصلوا إلى المكان الخطأ، إذ دخلوا ساحة المتظاهرين بدلاً من مكان تجمّع المشاركين في مسيرة تأييد الزعيم الجنرال في ساحة البلديّة.

بدءاً من تلك اللحظة، ستتوالى الأحداث في الساحة بطريقة متسارعة، وكأنّ زمام الأمور أفلت من الجميع، فيما كنت أنا أقف على الشرفة مترقباً، متابعاً تسارعها بذهول.

ما إن استوعب المتظاهرون الناريّون الوضع حتّى هاجموا الحافلة المحتفلة بالحجارة، هاجموا عشرين رجلاً محصورين في قفص صغير كالأرانب، فأخذت تنهال عليهم من كلّ صوب. مزق المتظاهرون الصور واللافتات، وهشموا زجاج الحافلة، وهم يردّدون شعارات إسقاط الزعيم

الجنرال بهياج شديد. تفجّرت نقمتهم ضدّ مسيرة المؤيّدين عبر هذه الحافلة الصغيرة، فصبّوا عليها جام غضبهم.

أخذ الجبليّون بالتساقط من سطح الشاحنة ومن نوافذها، وقد أصابهم رعب شديد، محاولين أن يلوذوا بالفرار من الساحة بأيّ طريقة. أرى كيف ترميهم اللكمات والدفعات أرضاً، فتنهال عليهم الركلات من كلّ صوب وحدب، وما إن ينهضون عن الأرض حتّى يسقطوا من جديد متعثرين. تمزقت ثيابهم، وتشعّثت شعورهم، وأدميت وجوههم. وأخذت مجموعة من المتظاهرين بدفع الحافلة حتّى انقلبت على جانبها، بينما كان من بقي فيها يحاول الخروج منها بأيّ ثمن.

وفجأة ألمح بين المتظاهرين رجلاً أربعينياً، يبدو كأحد قادتهم، يصرخ بشدّة: «سلميّة يا شباب سلميّة، لا تؤذوهم، دعوهم يخرجوا من الساحة، الساحة لنا».

ثمّ حاول مع بعض الشباب، ومنهم غريمي، تشكيل سلسلة حول الهاربين، كي يؤمنوا خروجهم من الساحة بسلام، دون أن ينقطع عن الصراخ: «سلميّة، سلميّة».

وكادت الحكاية تنتهي هنا لولا أن آخر اثنين من الجبليين خرجا من إحدى نوافذ الحافلة المقلوبة على جانبها، وبدلاً من الهروب وقفا عليها، وسحب كلّ منهما فجأةً مسدّساً من حزامه، وأخذا يطلقان النار على المهاجمين حولهما، فازداد الهياج من جديد، وعلا الصراخ من الساحة والشرفات، واختلط بأصوات إطلاق النار.

ما إن سمعتُ صوت إطلاق الرصاص حتّى انخفضت واختبأت خلف جدار الشرفة متلصّصاً، وأنا أفكر كيف يجرؤ هذان المجنونان على استعمال سلاحيهما في هذه الظروف المأزومة حولهما، فهذه ليست عمليّة تهريب على الحدود قرب قريتهما، يتبادلان فيها إطلاق النار مع دوريّة صغيرة من رجال الجمارك، ثم يفرّان، هذه معركة حقيقيّة، حيث النار مشتعلة في النفوس، اثنان مجنونان مسلحان أمام ما يقارب أربعمئة من المتفجّرين نقمة، فماذا يفعلان؟!

يثيرني ضجيج الجنون، ويهاجمني الشواش من جديد، الأفضل أن أختبئ في الداخل، فقد تصيبني من جديد رصاصة طائشة... أهرب، وأتّجه إلى غرفة المكتبة.

استطعت مع الأستاذ فارس تهدئة الناقمين من المتظاهرين في الساحة، ودفع الجبليّين الهاربين خارجها، وهم في حالة يُرثى لها. لكنّي فجأة سمعت صوت طلقات مسدّس متتالية، بحثت عن مصدرها فرأيت آخر جبليّين اثنين قد وقفا على الحافلة المقلوبة على جانبها بعد أن خرجا منها، وأخذا يطلقان النار عشوائيّاً من مسدّسيهما، دون أن يعيا ما يفعلان.

سادت الفوضى في صفوفنا من جديد، وعلا الصياح وتبعثر الشباب. أسمع أصواتاً تصرخ ملتاعة تقول: «أصيب أحمد بكتفه»، «أصيب علي أيضاً في قدمه»، «خالد، إنه ينزف بشدّة».

لم أحضر مسدّسي معي. لقد أخطأت. لم أتوقع أن تتأزم الأمور إلى هذا الحد، كنت أظنّها سلميّة من أجل عيون الأستاذ فارس. يجب أن نبادر إلى فعلٍ ما قبل أن تزداد الإصابات لدينا.

أقفز أنا وبضعة شباب إلى الحافلة المقلوبة. أجد نفسي في مواجهة الرجل الأول الذي يطلق النار بجنون. كان يرتجف رعباً من الحشود حوله، يطلق دون تركيز وكأنه لا يدري ماذا يفعل. شعرت بازدياد رعبه وتبلبله عندما شاهدنا في مواجهته. تلتقي نظراتي المتحدّية الواثقة بنظراته الخائفة المرتعدة، يرفع يده التي تحمل المسدّس مرتجفة، يريد أن يطلق النار علينا، لكن مخزن الطلقات كان قد أصبح فارغاً، فيما لم تمهله عشرات الأيدي لتغييره، فيسقط أرضاً، ويلحقه رفيقه.

ثمّ هجم الشباب الثائرون على الاثنين ليمزّقوهما، لكن الأستاذ فارس صرخ من جديد «سلميّة يا شباب، لا نريد أن نقتل أحداً».

أيّ سلمية يا أستاذ فارس، بعد أن يجهزا على عشرة، عشرين منّا!

إلا أن محاولات الأستاذ فارس لم تضع سدى، فقد استطاع سحب الجسدين الممزقين بمعونة بعض الشباب إلى أحد المحالّ التجارية المجاورة، ووقف سدّاً بوجه من يريد الدخول إليهما.

تصلنا أخبار غريبة إلى الساحة عن طريق راكبي الدرّاجات الذين يستطلعون الأوضاع حولنا، خبراً وراء خبر، فتتوالى التساؤلات والإجابات المختلفة، تتكرّر، تتقاطع، وتختلط بالصياح والصخب:

«لا توجد مسيرة مؤيّدة للزعيم الجنرال، انفرطت وتفرّقت!»،

«كيف حدث هذا، لم يكادوا يجتمعون!».

يتفرّقون وتنتهي الأمور هنا؟! هكذا ببساطة؟! ينظمون مسيرة ضخمة، يحضر مؤيّدون من الجبل ومن البلدات المجاورة، ويتفرّقون بمجرّد سماعهم صوت إطلاق مسدّسين من بعيد؟! ربما هم الموظفون البسطاء والتلاميذ والعجائز الذين تفرّقوا، لكن أين هم المؤيّدون المتعصّبون المسلحون الذين ينتظرون فرصة للتحرّش بنا، ويريدون اقتحام الساحة؟ إن لم يحضروا إلى المسيرة فأين هم؟ وأين رجال أمن الزعيم الجنرال وشبّيحة أبو عصام الذين ينبغي أن يحموا المسيرة؟ وفيما نحن ننتظر الأخبار نسمع أصوات انفجارات متتالية، تصدر فجأة من طرف البلدة، ثمّ تتعالى سحب من الدخان الكثيف الأسود. ترد الأخبار سريعاً هذه المرة، يلقيها راكبو الدرّاجات، دون أن يلتقطوا أنفاسهم، لينطلقوا ثانية من أجل إحضار المزيد منها:

«إنهم يدمّرون البلدة. يحرقون المنازل والمحالّ التجاريّة، يفجّرون السيّارات المتوقفة أمامها ويطلقون الرصاص في كل الاتجاهات».

«أصيب اثنان من راكبي الدرّاجات».

لقد تجمّع المؤيّدون المتعصّبون للزعيم الجنرال في حيّ سكن عائلات العسكر الموجود في طرف البلدة، ومن هناك زحفوا إليها... المسيرة المتّجهة إلى الساحة كانت غطاءً وهميّاً لتضليلنا، لا توجد مسيرة مؤيّدة.

يتدافع الشباب في ثلاث من الشاحنات وهم يهتفون «الله أكبر، حرّية»، أجد نفسي في واحدة منها، وإلى جانبي فؤاد وكاسر وعصام. يبادرني عصام بنظرة عميقة، وهو يقول: «حتّى مسدّسانا لم نحضرهما معنا، من كان يظنّ أنّ هجوماً مسلحاً سيحدث بدلاً من مسيرة».

ما إن تصل الشاحنات الثلاث إلى منتصف الشارع الرئيسي حتّى تنهمر علينا زخات متتالية من الرصاص، تجعلنا نقفز منها مبعثرين هنا وهناك، فيما يفرّ سائقوها بها يميناً ويساراً من وابل الرصاص المفاجئ. نتساقط أرضاً، ننهض، نتراكض ونحن نبحث عن ملجأ، فلا نجد أمامنا إلّا مداخل الأزقة نحتمي بها.

أقف في طرف زقاق مع مجموعة من الشباب لنستطلع الوضع قليلاً في الشارع قبل أن نبادر لفعل شيء. هالني المشهد الذي أراه من بين زخات الرصاص التي تنصبّ باتّجاهنا. أرى ناراً ملتهبة تتصاعد من محالّ تجارية، ومن منازل تقع فوقها، ومن سيّارات مركونة على جانبيْ الشارع، ناراً، فدخاناً أسود يغطي الفضاء بموجاته الكثيفة ورائحته الكريهة. أشم منه رائحة الهلع والموت، وألمح الخراب من بين سحبه التي يتلاعب بها الهواء، فتتراءى من ورائها خيالات أشباح مجنونة تروح وتجيء، وهي تطلق النار، صراخ غزو عابث يتعالى في الفضاء، يختلط بعويل نسوة وأطفال.

كان مؤيّدو الزعيم الجنرال وشبّيحته يتقدّمون في الشارع الرئيسي، وهم يصدرون صراخاً بدائيّاً، معظمهم إمّا أفراد من الميليشيات الحزبيّة، أو عناصر في وحدات أمنيّة عسكريّة خاصّة، أو هم من المراهقين أولاد العسكر المتعصّبين، قدموا من حيّ سكن العسكر، وجميعهم يحملون السلاح ويتقنون استعماله.

يطلقون رصاص بنادقهم في كلّ اتجاه، يطلقون ويرقصون رقصة الموت الوحشية، حيث تستيقظ غريزة سفك الدماء من خزانها البدائي العميق. يكسرون أقفال الحوانيت بمقاطع فولاذية ذات رؤوس حادة وبمطارق ثقيلة، يحطمون أبواب المحالّ التجارية بأعقاب البنادق، يدخلون إليها، يعبثون بها خراباً، يقلبونها رأساً على عقب، ثمّ ينهبون كل شيء، فهذه غنائم حرب القبيلة.

يحمّلون الغنائم في شاحنات، حيث تختلط بعضها فوق بعض أجهزة كهربائية مع أثاث منزلي، وتتكدّس فوقها سلع غذائيّة، وصناديق خضار وفواكه، وملابس، وأدوية، وكل ما يمكن حمله من المحالّ... تلال وتلال من المنهوبات.

في إحدى الزوايا كانت هناك مجموعة تتلهّى بنهش لحوم فراريج مشويّة ساخنة، سطوا عليها من أحد المواقد في محلّ بيع الدجاج. يلتهمون قسماً من الفروج بيد، حاملين البندقية بيد أخرى، ويرمون بقيته في الهواء. هناك أيضاً محلّ للحلويات الشهيّة ينتظرهم، ومخزن للمشروبات الكحوليّة يروي ظمأهم، لكن لا ينبغي أن يتلهّوا كثيراً بالطعام والشراب، وأن ينشغلوا عن النهب والسطو، فسيّارات رفاقهم تمتلئ أكثر فأكثر.

يسطون، ثم يضرمون النار وراءهم، لتحترق هياكل المحالّ المنهوبة الفارغة، ناراً تأكل أخشابها وتذيب معادنها. النار المشتعلة المعبودة تضيء لهم المشهد الوحشي، تجعلهم يشعرون بأنهم يرقصون في غاب بدائي مجنون.

يلقون قنابل يدويّة على الشقق السكنية الموجودة فوق المحالّ التجارية، عبر الشرفات والنوافذ، يتحطم الزجاج، تعقبه أصوات انفجارات، ثم نار ودخان، فعويل نساء وأطفال. وإذا ما اعترضت سيّارة طريقهم على أحد جانبي الشارع، وضعوا تحتها عبوة ناسفة تجعلها تقفز في الهواء، تطير قليلاً، ثم تهبط كتلة نيران يتصاعد منها دخان كثيف.

يغلي الدم في عروقي، ويتصبّب جسدي عرقاً شديداً، أكاد أفقد صوابي... شواش كثيف يهاجمني في رأسي، وغشاوة غضب تغطي عينيّ، فلا أرى إلا النار المضطرمة التي تقترب مني لتأكلني، فيما أشعر بظهري يحكني بشكل مسعور في المكان الذي لا تطاله يدي.

نكسّر الحجارة الكبيرة وقطع البلوك على أطراف الرصيف، وفي أثناء ذلك تصل شاحنة أبو علي محمّلة بحجارة صغيرة، نأخذ برميها من أطراف الأزقة على المهاجمين.

أصبحت السماء تمطر حجارة وغضباً فوق المهاجمين، حجارة مجنونة عابثة تطير إلى أهدافها، وغضباً ينفجر معها، يجعلها أكثر دقة وقوة. الحجر مخيف، قاسٍ، صلد، بحافات جارحة، وعندما يصيب رأساً يتمايل صاحبه، يفقده توازنه، وربما يُغمى عليه من شدّة الصدمة. الحجر يترك شجّاً قويّاً دامياً في الرأس، بل ربما كسراً، الحجر المعبّأ بالغضب رصاصة ملتهبة، شظيّة متفجّرة، تدرك أهدافها.

تفعل الحجارة فعلها مع أصوات «الله أكبر، حرّية» التي تعلو بقوة، تفاجئ مؤيّدي الزعيم الجنرال، تصيبهم بالبلبلة والاضطراب، فنستغلّ ذلك ونتقدّم في الشارع، تتقدّم مئات الأيدي، تقذف وتتقدّم. يتوقف المؤيّدون عن الحرق والنهب مذهولين، يحاولون الاختباء منها، وما إن يستوعبون ما يحدث حتّى يتذكّروا أسلحتهم الناريّة، فيأخذون بإطلاقها عشوائياً في كافة الاتجاهات.

ينصبّ علينا وابل كثيف جداً من الرصاص، تتعالى الأصوات من اتجاهنا «أصيب ياسين، رصاصة في كتف ماهر، الدم ينزف من ساق محمّد... احملوهم بسرعة إلى السيّارات، لنأخذهم إلى المستشفى».

يتساقط الكثيرون منّا، يصرخون، ينزفون، يتألمون، لكن لا ينبغي أن نتوقف أو أن نتراجع، سيرتدّون علينا ويقتلوننا جميعاً دون رحمة، إنّهم مجانين وعلينا أن نكون أكثر جنوناً منهم.

نصل إلى أولى السيّارات المحترقة، لا يزال الدخان يتصاعد منها، وقليل من النار تتأجج فيها، ندفعها عرضانياً ونسدّ بها الطريق، نستغلها كمتراس يحمينا. تعلو الأصوات مستفزة الهمم، ونغلق قسماً كبيراً من الشارع، نرمي الحجارة من فوقها ومن جوانبها.

أرى فؤاد يطير بجسده الضخم وراء حجر يقذفه بعيداً من فتحة بين سيّارتين محترقتين، يطير جسده وراءه، لكنه لا يعود على قدميه متراقصاً، بل يهبط به كله أرضاً. يسقط مرتمياً على الأرض، ويصرخ متألماً: «أُصبت في فخذي».

بقعة من الدم الأحمر على بنطاله الرمادي الفاتح تكبر وتتوسّع بسرعة، يتلوى من الألم على الأرض، فيما أخذت قدمه الثانية تختلج بحركات مرتعشة مجنونة. وانهمر الرصاص يئز حوله متراقصاً، مثيراً غباراً خفيفاً مكان اصطدامه أرضاً، ومصدراً رائحة الموت. كان كاسر الأقرب إليه، طار إليه بجسده الصغير، أمسكه من يديه كي يسحبه بعيداً عن وابل الرصاص، لكن ما إن شدّه قليلاً حتّى أصيب بطلقة في خاصرته. يهوي كاسر بكامل جسده فوق فؤاد، يسقط متألماً، وتتوالى الطلقات تمزّق جسده، ليتقافز مع كلّ واحدة منها، وتنفر الدماء منه، فتتلوّث ثيابه بالأحمر، ثمّ يهدأ دون صوت، دون حراك. يهدأ كاسر، لكنّ دمه ينزف غزيراً، يسيل فوق فؤاد المختلج ألماً تحته.

أرى ما يحدث مذهولاً، وللحظة أفكر في أن أوقف الزمن، أرجعه إلى الوراء، أعيد قفزة فؤاد وراء الحجر، ليهبط على قدميه ويختبئ بعدها وراء الحاجز، ولا يقفز كاسر وراءه... لكنّهما سقطا. أركض إليهما كالمجنون، لا يهمّني الرصاص المشتعل حولي، فيما عصام يصرخ: «انتبه، ستصاب أنت أيضاً، لنحاول أن نسحبهما ونحن نزحف».

ننجح في سحبهما قليلاً وراء الحاجز. أقلب جسد كاسر الصغير على ظهره لأرى وجهه. هالني مشهد الدم الذي ينزف بغزارة من صدره وبطنه، وقد ارتخت يداه وزاغت عيناه. أحاول أن أسدّ ثقوب الدم بيدي كالمعتوه، فيتمزّق الجلد تحت يدي التي تغور في الجسد، فتغتسل بالدماء، وأرى الأحشاء تكاد تندلق. أصرخ بجنون: «كاسر، لا تمت، تحدّث معي، أجبني».

وفي لحظة أخيرة، تنزاح نظرات كاسر نحوي، تنزاح بمشهد حزين ترافقه موسيقى أزيز الرصاص الجنائزيّة المشتعلة حولنا. تنفرج شفتاه اللتان سال من بينهما الدم أحمرَ قانياً. يحاول أن يرفع يده التي ترتجف. لا يستطيع. يُخيَّل إليَّ أنّه يحاول رفع إصبعين في الهواء علامة الانتصار، يتمتم، لا أسمعه، لا أفهمه، أقترب من فمه بأذني، بالكاد أسمعه، يتلفظ بكلمات أخيرة، تنفجر مع كثير من الدماء، أفهمها بصعوبة، يقول: «لا تنسوا الحصان الأبيض، أعيدوه».

أحمل كاسر وأمضي به إلى شاحنة أبو علي، أسجّيه في صندوقها بهدوء، وأطبع قبلة على جبينه. أرفع رأسي قليلاً لأرى أن الشاحنة امتلأت بالأجساد، بعضها ما زال ينتفض والدماء تنزف منه، والباقي همدت حركته. اختلط القتلى بالجرحى، ولم أعد أرى إلّا كتلاً بشريّة مدماة.

من بين غشاوة الدموع أشعر بيد تمسك بي بقوّة، إنها يد فؤاد المرميّ في الشاحنة أيضاً بعدما سحبه الشباب، ما زال في وعيه، يتمتم لي بعينين دامعتين.

وتقفز الشاحنة منطلقة بسرعة إلى المستشفى، وهي تثير غباراً شديداً.

نتراكض كخيول أصيلة منفلتة من إسار الزمان. نقذف حجارة ونتقدّم، نتجاوز حاجز السيّارات، نتجاوز سيّارات محروقة، يسقط البعض منّا بالرصاص، ويستمرّ الباقون بالتقدّم، فلم يعد هناك مجال للتراجع. تزحف وراءنا نساء، يخرجن من المنازل المجاورة، يستنهضن همم الشباب، يرمين الحجارة لنا، يحضرن ماء الشرب، يسحبن الجرحى جانباً، فيما نستمرّ نحن بالركض. وفي اللحظة الحرجة ينضمّ إلينا شباب آخرون من البلدة من غير المنتفضين. الجميع وصل ليدعمنا. لا يريدون للبلدة أن تحترق. تحتدم المعركة، يلتفّ البعض من الأزقة الجانبيّة ويتقدّمون من خلالها، يلاقوننا في رأس الشارع. تخرج خناجر، تلمع نصالها، لا أدري من أين أتى بها بعض الشباب... حتّى خنجري لم أحضره.

تبلبلت صفوف مؤيّدي الزعيم الجنرال. هم لم يأتوا ليقاتلوا، أتوا ليسطوا وينهبوا ويحرقوا البلدة في غفلة منّا، ونحن مشغولون في الساحة بمنع مسيرتهم الوهميّة من الدخول إليها. حقد يتفجّر من بؤسهم، من خراب أحيائهم المهملة في فوضى الفساد، من القرى المشلوحة في النسيان، غادروها ليجدوا أنفسهم أداة قمع بيد الزعيم الجنرال الظالم، حقد تاريخي قديم لديهم استطاع أن يوجّهه إلينا، ونحن فقراء مثلهم، بدلاً من أن يتّجه ضدّ ظلمه.

ترك المؤيّدون بعض شاحناتهم الممتلئة بغنائم هجومهم في الشارع، وأخذوا يتفرّقون أمامنا منسحبين إلى حيّ العسكر، وهم يطلقون النار عشوائيّاً... متى سيتوقف هذا الجنون.

أتقدّم كثيراً في الشارع، لأجد نفسي في مواجهة رجل ضخم الجثة بابتسامة ذئبيّة، ينبثق فجأة أمامي، حاملاً بندقيّة يصوّبها نحوي. نقف كلٌّ في مواجهة الآخر، أنا بحجر، وهو ببندقيّة... البندقيّة موجّهة إليَّ بكراهيّة تريد دمي، والحجر عاجز في يدي، وهذا الرجل يبتسم باستمرار كذئب ماكر. لم يكن مرتعداً، كما الجبلي في الساحة، بل كان وحشيّاً واثقاً من سطوة بندقيّته.

للحظات شعرت بوجه غريمي سادياً، منسجماً مع ابتسامته الذئبيّة، إذ كان يؤخّر إطلاق رصاصه عليَّ كي يستمتع برعبي للحظات. لكنني لا أخاف الموت، فأنا أموت عدّة مرّات في عوالمي المجنونة. سألقي بنفسي عليه مع أول رمشة عين له، سأموت، لكن قد أقتله معي.

في انتظار رمشة العين، يتصبّب العرق غزيراً منّي، تتساقط منه قطرات على العينين، فتغلفهما غشاوة رقيقة. أرتجف قليلاً، وتتوالى صور ما قبل الموت سريعاً في ذهني. صورة آلاء تداهمني، لكنّها ليست آلاء في الحديقة قرب البيت الطيني، بل آلاء التي ترتّب زهور الموتى في عالم آخر، ثمّ تتوالى صورة وجه رجل بكسرات زجاجيّة، وصورة زعيم جنرال على شرفة مصاب بكتفه، وصورة مسدّس تحمله يد، موجّه إلى صدغي، لا أدري من أين تأتيني هذه الصور الغريبة... يداعب الرجل ذو الابتسامة الذئبيّة بندقيّته، فتجتاحني سريعاً في لمحة أخيرة صورة حصان أبيض، يركض سريعاً في سهول خضراء. أمتطيه، وآلاء تلوّح لي بمنديل أبيض.

يحسم الرجل ذو الابتسامة الذئبيّة، أمره أخيراً، يرفع البندقيّة بهدوء، يصوّبها إلى صدري بدقة، وتتّسع ابتسامته الذئبيّة. الإصبع على الزناد، الحريق حولي، الحريق في حلقي، في داخلي، يلتهمني. هوّة تنفتح لتبتلعني، ثوانٍ وألتحق بكاسر الذي كان جسده يتقافز مع الطلقات، وعجزت عن إغلاق ثقوب دمه.

وتنطلق رصاصة... تئز في الفضاء حولي، وتصيب هدفاً، ويسقط جسد. ليس جسدي. إنه جسده هو وقد باغته أحدهم برصاصة من الخلف.

يوقظني صوت عصام من ذهولي وسباتي: «كاد يقتلك وأنت ساكن لا تتحرّك من مكانك».

كان يحمل بندقيّة استولى عليها من أحد مؤيّدي الزعيم الجنرال.

ما إن توقّف إطلاق الرصاص في الساحة حتّى عدت شبه زاحف إلى الشرفة، بالكاد أتطاول برأسي فوق حافتها لأستطلع ما يجري في الأسفل بعينين قلقتين خائفتين... يبدو أنّ المتظاهرين عادوا إلى السيطرة على الساحة بعدما فرّ الجبليّون منها، دون أن أدري ما حدث في أثناء هروبي إلى داخل الشقة. أفاجأ برؤية الحافلة المقلوبة شبه محطمة، وقد تناثر الزجاج حولها، والساحة شبه فارغة من المتظاهرين، لا أدري ما حدث أيضاً للمسيرة التي كان عليها أن تجوب البلدة، وتنتهي هنا في الساحة الرئيسيّة. كنت أتوقع حدوث اشتباك هنا، أشاهده من الشرفة، اشتباك مليء بالإثارة، لكنّه للأسف لم يحدث.

وما إن أستقرُّ قليلاً على الشرفة حتّى تتناهى إلى سمعي أصوات انفجارات متتالية تصدر من طرف البلدة، تختلط بأصوات إطلاق الرصاص، ثمّ أرى سحب دخان سوداء في السماء. لا بدّ من أن هناك شيئاً مريباً يحدث هناك، ينذر بالقلق والترقب.

في الخيمة لم يبقَ إلّا بضعة شباب وفتيات، من بينهم الرجل المضحك بالملابس الفلكلوريّة، الذي لا تفارقه صبيّة جميلة. أنعم النظر فيها، أعرفها، إنّها علياء بنت صبري، وبالتأكيد فإن آلاء معها أيضاً. أراهنّ الآن، بنات صبري الثلاث مع والدتهنّ، فأتساءل ماذا تفعل العائلة كلها هنا. أتستغلّ غياب الأب والأخ في السجن، وتنفلت في الشارع؟ ألا يكفي أن آلاء تتردّد إلى ذلك البيت

الطيني المشبوه في العشيّات؟ والآن تقف الوالدة هنا معهنّ وسط شباب منفلتين، قد يعتقلهم رجال الأمن في أيّ لحظة.

صحيح أنّ أم حسين ونسوة أخريات موجودات هناك أيضاً، لكن ما يهمّني أنا هو وجود آلاء في هذا المكان الخطير.

قرّرت أن أنزل إلى الساحة لأتحدّث مع آلاء، سأنصحها كأب بعدم البقاء هنا. لا، هكذا سأبدو عجوزاً، سأنصحها كأخ كبير. وعلى الأغلب، لن تكون قاسية معي وتسخر منّي في هذه الظروف الصعبة، ستتقبّل ما سأقوله عن شراسة رجال الأمن، وعن هؤلاء الشباب المنفلتين. ولِمَ لا، فقد أستطيع إعادة حبل الودّ معها، علاقة احترام طبيعيّة، وإن كان بيننا فارق في العمر، ليس كبيراً بالتأكيد. ولِمَ لا تكون علاقة حب بسيطة بيننا، فالعمر لا يهمّ كثيراً. سأحبّها دون جنس، سأعطيها كتباً من عندي تقرأها وأوقعها في شباكي، فقد تتعلّق هي بي، وتطلب هي ممارسة الجنس معي. لمَ لا؟ فهي جريئة، وأنا رجل يعيش غياب زوجة لن تعود.

سأنزل إذاً إلى الساحة لأتحدّث مع آلاء... لكنّني أسمع فجأة صوت انفجارين متتاليين، وصليات رصاص جديدة، وإن كانت بعيدة، فأتجمّد مكاني. يبدو أنّ الأمور ما زالت خطيرة، أتردّد في النزول. أفكّر من جديد، هذه فرصة للتحدّث مع آلاء، لن تتكرّر بسهولة، بل إنها ستقدّر نزولي إليها في هذه الأوقات الصعبة. لكن ماذا سيحدث لو اقترب إطلاق النار من الساحة، وحدثت اشتباكات دمويّة فيها؟ وربما يأتي رجال الأمن مدجّجين بالسلاح ويعتقلون الجميع، وقد يعتقلونني معهم، مع أنني لم أشارك في أيّ تظاهرة ضدّ الزعيم الجنرال... وإذا اعتقلوني بالخطأ، فسأقول لهم إنه لا علاقة لي بالمتظاهرين، ولكنّي نزلت إلى الساحة لأتحدّث مع فتاة تعذبني. لكنّ رجال الأمن محتالون، لن تنطلي عليهم هذه الحكاية، إذ سيروي كلّ متظاهر لهم حكاية مشابهة، وبالتالي فلن يصدّقوني.

الأفضل أن أنتظر قليلاً، فما زال النهار طويلاً، ولا ضرورة لأعرّض نفسي للخطر.

تهدأ فجأة أصوات الانفجارات وإطلاق الرصاص القادمة من طرف البلدة، لكنّ أحد راكبي الدرّاجات يحضر مسرعاً إلى الساحة أمامي، أسمعه من الشرفة ينقل الأخبار بصوت عالٍ، أصغي مذهولاً، وهو يقول: «سقط لنا كثير من الجرحى في معركة الشارع الرئيسي، نحتاج إلى متبرّعين بالدم في المستشفى، من كلِّ الزمر الدمويّة».

يتراكض بعض الشباب نحو السيّارات، يبدو أنهم سيذهبون إلى المستشفى للتبرّع بالدم، لكن ماذا أرى! فتيات يذهبن معهم أيضاً، وهذه المجنونة الصغيرة آلاء يبدو أنّها سترافقهم، إنّها تركب إحدى السيّارات معهم، هل تريد أن تريق دمها من أجل شباب لا تعرفهم، إنّها تذهب بينما أنا أنتظر فرصة لمحادثتها.

تزداد النداءات في الساحة للتبرّع بالدم، نسوة ينظرن إلى المتفرّجين على الشرفات، ويستنجدن: «يا أهل النخوة والشهامة والكرامة، أبناء البلدة ينزفون وهم بحاجة للدماء، أبناؤكم يموتون وأنتم تتفرّجون».

تردني الأصوات إلى الواقع، لا بدّ من أن الوضع خطير جداً والجرحى كثر، الشباب بحاجة شديدة للدماء، وأنا أفكّر بفتاة صغيرة تعذبني. ألا يجب أن أخجل من نفسي، ربّما ينبغي أن أتبرّع بالدم أنا أيضاً، يجب أن أفعل شيئاً ما لأجل الجرحى.

لكن كيف سأتبرّع بالدم، وقد نزفت الكثير منه في أثناء إصابتي بكتفي قبل وقت غير بعيد؟ وماذا سيحدث لوظيفتي في البلديّة التي أعيش من راتبها الشهري؟ إذا ما انتشر الخبر بأنني أتبرّع بالدم للمتظاهرين، فقد يطردونني منها، ولا أعرف إلى أيّ مشاكل ستجرّني هذه القضيّة.

صوت استغاثة النسوة يتردّد صداه في رأسي، قاسياً، مؤلماً، لكن يوقظني صوت المخبر إحسان وهو يلوّح لي من شرفته القريبة، يزعق وهو يشير إلى هاتفه المحمول «تصلني الأخبار، مجانين، كيف يجرؤ هؤلاء الحيوانات على مواجهتنا؟... هل تريد أن تعرف آخر الأخبار من المستشفى؟ سبعة قتلى كالكلاب، وسبعة وثلاثون جريحاً كالأغنام. هؤلاء الإرهابيّون المجرمون، سيكون هذا درساً قاسياً لهم».

أشيح بوجهي عنه وأتمتم: «العدد كبير، كيف يحدث هذا في بلدة صغيرة، سبعة شهداء منتصرين، وسبعة وثلاثون بطلاً في يوم واحد، وخلال بضع ساعات... شهداء وأبطال».

ماذا يحدث لي؟ بماذا أتمتم؟!

هدير غريب يزحف إلى الساحة، أسمعه لأول مرّة من الشرفة، أصغي إليه مندهشاً، فأنفلت من نفسي بين الذهول والذعر.

هدير صاخب كموج البحر في ليل إعصار يجتاح الشطآن، يجتاح الزمان والمكان، يقترب أكثر، أتبيّنه، ينبعث من حشود كبيرة، خرجت تضجّ بغضب السماء على الأرض في ليلة عاصفة، يلفّها حزن من عمق التاريخ انفلت، وزنّر البكاءات الضاجّة بوعيد الانتقام.

تزحف البلدة كلها، فتملأ الساحة وتفيض عنها بالناس والبكاءات، وجثامين سبعة من الشهداء تتوالى، تسبح بخفّتها في الهواء، بالكاد تلامسها الأصابع كي ترفعها، فلا تطال إلّا أطيافاً. سبعة جثامين ترتسم الابتسامات على وجوههم، فقد ماتوا وهم منتصرون.

المنتفضون، والمتفرّجون، والفضوليّون، والمتسكّعون، واللامبالون، كلهم خرجوا، وخرج أيضاً الأطفال، والنساء، والعجائز، زحفوا جميعهم مع الشباب، وحزن مخيّم على القلوب يلفّهم جميعاً. على ألواح خشبيّة مفتوحة لحنين السماء المشتاقة إليهم سجّوهم، وبملابسهم المضرّجة بالدماء التي ما زالت طريّة تركوهم، وبأكاليل الغار زيّنوهم.

البكاء أنشودة، والدم عطاء، الدم يزهر أقحواناً وابتسامات أطفال، وأحمر الدم يمنح العشاق لون الحبّ لشغفهم، عشّاق القلب والأرض.

خمس أغنيات انتصار تجول في الساحة على السواعد، على الأصابع، على خفقات القلوب، خمسة سيذهبون إلى فرح سرمديّ في السماء بعدما رووا الأرض العطشى للأحلام بدمائهم.

أنظر من الشرفة، بحر الحزانى يتلاطم أمامي، أرتعد، يرتعش القلب، تزورني دمعة، أشعر كم أنا صغير، ضئيل، دون كرامة. أترك الشرفة، أنزل الدرج بهدوء، واثقاً ممّا أفعل، أخرج من البناء، أمضي إلى الساحة، أنضمّ إلى الحشود، وأمضي معها.

يهتف المنشد «الله أكبر، حرّية».

تردّ الحشود وهي ترفع قبضاتها عالياً «الله أكبر، حرّية».

أرفع قبضتي عالياً معهم، ملوّحاً بغضب، وأردّد مع الحشود ودمعة زارت مقلتي «الله أكبر، حرّية، حرّية، حرّية».

أمضي مع الحشود... ومن بعيد ألتفت إلى شرفتي، فأرى ذلك المقهور، الخائب، الخائف، المتردّد، المصاب بجرح في كتفه، أراه خيالاً مضطرباً ينظر إليّ مستغرباً.

لا أهتمّ له، وأذوب مع الحشود.

إنـهم قادمون – الاجتياح

إنها الرابعة صباحاً – اقترب طلوع الصباح. كان يتمطّى ثقيلاً، مُتعباً، كئيباً، مشبعاً بدخان الدواليب المشتعلة طوال الليل، وقد تحوّل إلى غمامات سوداء فوق الساحة، ورائحة الموت تحوم في الأجواء. صباح مليء بالقلق، والترقب، والتوتر، جاء وعيون المنتفضين المتعبة لم يطرقها النوم طوال ثلاث ليالٍ إلّا قليلاً.

كانوا قد احتلوا الساحات والشوارع، بعد أن مضى الشهداء إلى السماء، وسهروا مع النار والدخان، وتلويحات العصيّ المهدّدة في الهواء، وانتظار المفاجآت المريبة... وسهرت أنا معهم على الشرفة، حيث تحدّثت طويلاً مع الشهداء الأحياء، قريباً منّي في السماء.

تتوارد الأخبار المريبة إلى الساحة في عتمة الصباح الباكر، بواسطة راكبي الدرّاجات الناريّة العتيقة التي تزأر باستمرار، فتمزّق السكون بالقلق، والصمت بالترقّب. يتوقفون لدقائق، يلقون تحذيراتهم سريعاً، ثمّ يعودون إلى جولاتهم الاستطلاعيّة: «الجنود بدأوا يضربون طوقاً حول تلال البلدة، ويسدّون منافذها»، «سيجتاحون البلدة بمدرّعاتهم وأسلحتهم الثقيلة»، «ستلحقهم فرق الموت متلطّية وراءهم».

إنها الرابعة والنصف – أخذت حركة الدرّاجات الناريّة تنقطع شيئاً فشيئاً، اختفاء أزيزها سمح بسماع لغط المعتصمين في الساحة بوضوح.

بين السابعة والتاسعة خيّم صمت غريب على البلدة. وكأنّ سكّانها هجروها فجأة، أو ربما لم يكن فيها بالأصل سكّان. منازل دون أناسها، أو ربّما كانت لديّ توهّمات، تتراءى لي خيالات شبحيّة وراء النوافذ، وعلى الشرفات، وفي الشوارع، فأظنّها بلدة ضاجّة بالحياة.

صمت ثقيل، مريب، ضاجّ بريبته، وكأنّ إلهاً أسطوريّاً عبثيّاً خلق البلدة، ونسي في لحظة ثمالة أن يخلق أناسها. غسل يديه بالنور بعد نشوة خلق، ومضى في غفوة قدسيّة، فبقيت البيوت دون

أحد، أشياء دون أحد، يغمرها ضوء ساكن دون رنين، ضوء صلب لا يمكن كسره، أو اختراقه، أو تمزيقه. حتّى الهواء فيها سَكَنَ، اختفى، أو ربّما نسي الإله أيضاً خلقه، فلا حاجة له إذ لا أناس يتنفّسونه.

صمت عميق، مبهم، غامض، سرمدي، انبثق من العدم، فلا في البدء كانت الكلمة، ولا في البدء كانت الصورة، ولا في البدء كان الخيال الذي يتصوّر وجوداً. في البدء كان الصمت. ومن الصمت ينبثق الخوف، من الريبة والقلق والترقّب المختزن في الصمت ينبثق الخوف، الذي ما إن يتكاثف شيئاً فشيئاً حتّى يصبح رعباً شديداً حالك السواد، يحلّ مكان الصمت بعد أن يخلخله، وينثره في الزوايا... يسود الرعب مستبدّاً بسطوته، ناشراً سدوله الكابوسيّة على البلدة.

أقف على الشرفة في الطابق الثالث، المطلة على الساحة، وقد توحّدتُ بالصمت، أقاوم الرعب الذي يتقافز إليَّ من كلّ الجهات بأبعادها اللانهائيّة، الرعب الذي يغريني بأن ألقي بنفسي إلى الشارع، كي أتحرّر منه. أتمسّك بآخر حبال الصمت الخفيّة، لعلّي أصمد وأبقى واقفاً متماسكاً، أتحايل على الانتحار، فقد أستطيع مواجهة الرعب الحالك السواد الشديد الكثافة.

ما زالت بعض العصيّ تستند هنا وهناك إلى الجدران. تبدو تعبة بعدما لوَّح بها المتظاهرون طوال الليل، لكنّها لم تهرب، قرّرت أن تبقى وتراقب الأوضاع، فهي مستعدّة دائماً للاشتباك.

ألقي نظرة على الساحة، شوارع رئيسيّة أربعة تقود إليها، شارعان فرعيّان ينتهيان إليها أيضاً، زقاق مغلق في أحد الأطراف، مداخل حارات وأزقّة على بعد أمتار هنا وهناك... كلها فارغة، فارغة تماماً، يخيّم عليها الصمت، والسكون، والهدوء... لا هواء، والضوء بلا رنين.

عند التاسعة وخمس دقائق تناهت من بعيد أصوات معدنيّة تجأر بوحشيّة، من المدخل الشرقي للبلدة. أبدأ بتمييزها، صوت جنازير تتقدّم بصرير آليّ مرعب، تقتلع إسفلت الشارع، وتترك ندوباً مؤلمة محفورة فيه. صوت محرّك مجنون يزأر، يمزّق الصمت ويبعثره كسرات، فيتساقط مطر لحظات معدنيّة، يحاصر أنّات القلب، يخنقه.

أسمع الأصوات فيُخيّل إليَّ أن وحشاً عملاقاً معدنيّاً قادماً من كوكب آخر، قرّر غزو البلدة واجتياح أحيائها الحديثة الكئيبة، وبقايا بيوتها الريفيّة القديمة، وحقولها التي تعيش رمقها الأخير. كان الوحش يتقدّم بخطوات ثقيلة، بأزيز وصرير وتكسّر مفاصل معدنية، بإيقاعات حشرجات تنبش في الأرض، تُكسّرها، تجرشها، وتطحنها.

أشعر بأنّ الوحش قادم إليَّ ليغرز حفّاراته القاسية في جسدي، ويجرشه مع الحديد والصخور، يمتصّه بمجسّاته، ثمّ يتقيّأ كلّ شيء خردة سوداء ورصاصيّة، يلوّنها بدم طازج، اتّسخ احمراره بهباب الخليط المطحون.

التاسعة وخمس دقائق. صوت الوحش المعدني يقترب أكثر فأكثر، ليبرز فجأة عند طرف الساحة. إنّها مدرعة الجيش الأولى. تتقدّم، وهي تنفث وراءها دفقات دخان أسود مروّعة، فيما صوت محرّكها يجرش الصمت والزمن. تتوقف، تنحرف قليلاً باتّجاه الشارع الجنوبي حيث تمتدّ الحارات القديمة.

أتجمّد من الرعب في مكاني على الشرفة، ينكسر الزمن، تتوقف الأنفاس ونبضات القلب. لا شيء إنسانيّاً توحي به هذه الكتلة المعدنيّة المتحرّكة التي تبدو دون جنود، آلة صمّاء تُسيّر نفسها بذاتها، ولا تحمل إلّا الموت.

ستُغتصب اليوم بكارة البلدة الريفيّة التي لم ترَ مثل هذه المجنزرات خلال تاريخها الطويل، منذ أن نشأت في كتف الجبل ذات مرّة، إلى أن اختفى نهرها الغزير.

التاسعة والربع. توقفت المدرّعة، لكنّ صوت محرّكها ما زال يزأر، انتظمت حشرجاته على إيقاع منتظم لرقصة موت. فجأة، أسمع صرير برجها الذي أخذ يدور ببطء، فأكتشف عندئذٍ أنّ لها مدفعاً صغيراً يتحرّك معه. دار البرج ومدفعه ربع دورة مستطلعاً المكان، ثمّ ربع دورة أخرى باتّجاهي، توقف، اكتشفني على الشرفة، ارتفعت السبطانة نحوي، توَقّفت، أصبحتُ في مرماها، شعرت بأن وراءها عيناً معدنيّة تراقبني، ولا تحيد النظر عنّي... تصبّب العرق غزيراً منّي، وأنا أرتجف، أكاد أسقط ولا أسقط. ماذا أفعل، كي لا يطلق قذيفة نحوي؟ هل من الأفضل أن أبقى واقفاً دون حراك، علامة على الاستسلام، أم ألقي بنفسي في الداخل هارباً؟

التاسعة وعشرون دقيقة. يبدو أنّ العين المعدنيّة اكتشفت أنّني لست أميراً صحراويّاً في إمارة إسلاميّة، يقود جيوشه المؤمنة من على الشرفة، ولا ألوّح بسيف، أو بلطة، أو ساطور. ربما فكّرَتْ أنني مسافر عابر، أنتظر على الشرفة غيمة تأخذني في سفر... صرير جديد يصدر من البرج ومدفعه، يكمل دورته بهدوء مستمرّاً باستطلاع المكان... يبدو أنّني نجوت.

التاسعة وخمس وعشرون دقيقة. يتوقف البرج ومدفعه باتّجاه الشارع الجنوبي، شارع طويل عميق يمتدّ إلى الحارات القديمة، تظنّ المدرّعة أنه يخبّئ لها المفاجآت المريبة. يَسْكن المحرّك، يتوقف تنفّسها، لكنّ شيئاً غريباً يحدث على سطحها، إذ انقلبت أغطية عن ثلاث فوهات، وأخذت تبرز منها مرتفعة ثلاث خوذ عسكريّة. أصابني الذهول، فالخوذ كانت دون رؤوس جنود تعتمرها، خوذ فارغة ترتفع، وأنا لا أحلم، وهذه أيضاً ثلاث بنادق تبرز معها أيضاً متّجهة إلى الجنوب.

فوجئتْ العصيّ الخشبية المركونة على الجدران من البارحة أيضاً بهذا المشهد غير الإنساني، خوذ دون رؤوس وبنادق تتطاول! شعرَتْ بالخوف، انزلقت وتمدّدت على الأرض، محاولةً الاختباء.

التاسعة والنصف. الساحة آمنة... وهذا الحيّ المحيط بها يبدو حديثاً، معظم سكّانه مترفون لا يشكون الفقر والعوز، هم في معظمهم من مؤيّدي الزعيم الجنرال، ولا خطراً مباشراً فيه إذ ليس في ساحته معتصمون منتفضون، لا حجارة، ولا رماح، ولا نبال، تُرمى على المدرّعة، ولا مجانيق منتصبة على أسطح البنايات، تلقي بالكتل الناريّة أو الزيت المشتعل عليها... الساحة آمنة تماماً.

التاسعة وخمس وثلاثون دقيقة. تتوالى الآن المدرّعات، تتقدّم الواحدة تلو الأخرى بصريرها الوحشي نحو الساحة، تجتازها، وتمضي منتشرة في البلدة وهي تبثّ الرعب. استقرّت واحدة في المدخل الشمالي للساحة، تحت الشرفة تماماً، وأخرى في المدخل الغربي، فيما انتظم رتل بعشر دبّابات، وانطلق في الشارع الجنوبي، باتّجاه الحارات القديمة الفقيرة المعارضة بالكامل للزعيم الجنرال... هناك يكمن الخطر، فقد يكون الشباب يشحذون الآن سيوفهم المسلولة، ويُعدّون نبالهم المسمومة.

فاجأني منظر المدرّعة الأولى في الرتل الجنوبي بزئيرها الأكثر وحشيّة، وقد برز منها نصف جسد ضخم غريب، يعتمر خوذة معدنيّة، وتزيّن كتفيه نجوم ذهبيّة وشرائط حمر. إنّه الجنرال، قائد الحملة كما يبدو. أدقق النظر فيه متمعّناً، فإذا به غوريلا، نعم، بالتأكيد نصف جسد علوي لغوريلا بخوذة وبزة عسكريّة، فيما النصف الآخر السفلي غارق في جسم المدرعة.

إنها العاشرة الآن. تقيّأت المدرّعات جنوداً انتشروا بكثافة في الساحة أمامي. جنود قادمون من كوكب معدني بعيد بخوذهم الرصاصيّة التي تخفي وجوهاً رماديّة مغبرّة كالحة دون ملامح إنسانيّة، وجوه بتقاسيم ذات خطوط حادّة منكسرة، صقلتها آلة تصنع منهم نسخاً لانهائيّة طبق الأصل. بدت أجسادهم المثقلة بجعب ذخائرهم المنتفخة، وأحمالهم القتاليّة المكدّسة على ظهورهم، كتلاً مهلهلة غير قادرة على الانتصاب. كانوا يتعثرون بظلالهم وأحذيتهم الثقيلة، فيسقطون على وجوههم، دون أن يستطيعوا الاستناد إلى أيديهم المتمسّكة ببنادقهم والأصابع على الزناد، فيستقرّون حيث يقعون، ويوجّهونها إلى عدوّ وهميّ... تمّ احتلال الساحة المشاغبة المتمرّدة، وتم تأمين المواقع الاستراتيجيّة في البلدة.

ما إن انطلق رتل المدرّعات العشر باتّجاه الحارات القديمة ليتوغّل فيها حتّى بدأت سيمفونيّة احتفاليّة مشبعة بموسيقى رعب أسود، صادرة من إطلاق رصاص كثيف مجنون من البنادق والرشاشات، تضبطها إيقاعات وحشيّة لأصوات انفجارات قذائف تُطلق من المدرّعات، تهزّ بأزيزها فضاءات البلدة. موسيقى لا تتوقف، بعثرت بقايا كسرات الصمت، فهطلت في ثنايا القلوب خوفاً غريزيّاً وحشيّاً يبشّر بالدم المسفوك. كأن جبهة قتال مجنونة انفتحت بين جيشين شرسين محترفين، معركة بدأت في الحارات القديمة، ثم ما لبثت أن انتشرت وتوزعت في مختلف أحياء

البلدة وأطرافها وصولاً إلى البساتين والحقول... جيشٌ «زعيميٌّ» يطلق الرصاص، وجيشٌ «وهميٌّ» يردّ عليه بصدى أزيز الرصاص.

عند الثانية عشرة ظهراً، حضرت شاحنة قديمة عجوز تجرّ نفسها، مليئة بأكياس الرمل الأحمر، أخذ جنود كسالى نصف نائمين، دون خوذ أو سلاح، يلقونها بإهمال في زوايا وأطراف الساحة، لترتفع متاريس بفتحات تبرز منها سبطانات رشاشات ثقيلة، سرعان ما احتلتها رؤوس متيقظة بانتظار الأعداء الذين قد يظهرون في أيّ لحظة... لكن، ما إن ابتعد الضابط المسؤول عنهم حتّى تراخوا وذهبوا في غفوة عميقة.

عند الثانية عشرة والنصف، بدا الوضع الميداني آمناً. تستطيع الآن فرق المداهمة، الشهيرة بعنفها ودمويّتها، دخول البلدة، وتنفيذ اعتقالات وفق قوائم سريّة أعدّها المخبرون ذوو الآذان الضخمة بدقة شديدة، فسجّلوا بها ما سمعوه وما لم يسمعوه حتّى تصبح مكتنزة بمعلومات، وإن كانت وهميّة، فمن سيتحقق منها في هذه الأوضاع المتوترة؟

عند الواحدة تماماً، دخلت قافلة فرق المداهمة ببطء شديد من الشارع الجنوبي على موسيقى إطلاق النار الكثيف، التي تصاعدت بإيقاعات متعالية ومتسارعة، معلنة ذروة النشوة باحتفالية الموت. تتقدّم القافلة خمس عشرة درّاجة ناريّة ملأت الفضاء بأزيزها، يمتطي كلّ واحدة منها قردان اثنان، مسلحان، بوجهين متجهّمين وبندقيّتين على الظهر، يشكلون الطلائع الكشافة، دخلوا إلى الساحة باحتفاليّة سيرك صاخب.

ثمّ تلت الدرّاجات شاحناتٌ صغيرة «دبل كابين»، انتصب على سطح كل واحدة منها رشاش كبير، خلفه عملاق ضخم جداً بعين كبيرة واحدة في منتصف الوجه، وبإصبع ضخم زائد في يده مُحكَم على الزناد، ذكّرني حجمه مباشرة بأجساد الفيَلة، فشعرت بضآلتي أمامه. بعدهما تقدّمت سيّارات متنوّعة، مكدّسة بالمسلحين، بينها حافلات نقل رسميّة فارغة إلّا من حراسها، لنقل المعتقلين، تلك الحافلات الخضر التي كانت قد استُوردت حديثاً لحلّ مشكلة النقل في المدن، إلّا أنّها حُوِّلت لحلّ مشاكل النقل إلى المعتقلات.

تشابهت أجساد العمالقة وملابسهم وراء الرشاشات، فجميعهم لديهم صلعة خفيفة في مقدمة الرأس فوق العين الوحيدة، مع شاربين كثين يغطيان ابتسامة عريضة مسرورة، فقد تلقوا أخيراً وبسرور الأوامر لاقتحام بلدة «العصابات الصحراويّة». كانوا جميعهم يلبسون سترات مبرقعة دون أكمام، خرجت منها سواعد عارية مفتولة العضلات بشكل متضخم جداً بما يتناسب مع حجم الرشاشات أمامهم، وقد رسموا عليها وشم جماجم وعظام.

وبما أنَّ العملاق قد احتل خلفيّة الشاحنة، فقد تكدّس وراءه بشكل عشوائي عشرة رجال في مكان يتسع لثلاثة، فركب بعضهم على بعض وقوفاً وجلوساً، فلم أعد أشاهد سوى رؤوس رجال اختلطت بفوهات بنادق مصوّبة في كلّ الاتّجاهات وأقدام متدلية بلامبالاة. أمّا مقدّمة الشاحنة فقد امتلأ «دبل الكابين» فيها بالمسلحين، بحيث انفزر وبصق بعضهم خارجاً، فتمسكوا بأطراف النوافذ حتّى لا يسقطوا وبقوا متعلقين بها وقد تدلت أسلحتهم منهم.

عند الواحدة والربع، قفز بعض عناصر فرق المداهمة من سيّارتهم بخفة ورشاقة قبل أن توقف سيرها، لم يقع أحد منهم أرضاً مثل الجنود، إذ يبدو أن لا ظلال لهم يتعثّرون بها. وكأنهم تركوا ظلالهم في بيوتهم تنام مع زوجاتهم في أثناء غيابهم بمهام أمنيّة طويلة، أولئك اللواتي يفتحن الشبابيك وتغازلهنّ العصافير، فيخبرنها أنّ حفلات الصيد التي يذهب إليها أزواجهنّ مريبة وسيّئة السمعة.

ينتشر العناصر في الساحة بحيويّة الأرانب والغزلان، لكن دون أن يتخلوا عن نظرات الذئاب الحمراء... يرتدون ملابس كرنفاليّة شبه عسكريّة، مُبرقعة، زيتيّة، كاكيّة، رصاصيّة، بنّية، وسترات مشمّرة الأكمام أو دون أكمام، سترات صيّادي البراري، شُدَّت عليها جُعَبُ الذخيرة الممتلئة، وفي أقدامهم أحذية رياضيّة خفيفة، وأحذية مطاطيّة متينة تجمع طرفي البنطال حول الساق بإحكام.

وجوه معظم العناصر حليقة، ما عدا مجموعة من المشوّهين الذين تذكّرني أجسادهم الضخمة بوحيد القرن (لكن دون قرن)، فلديهم وجوه بلحى كثيفة مشعّثة مجعّدة مغبرّة، وكأنّها لم ترَ مقصّ الحلاقة والماء والصابون منذ أعوام، يزيّنها رأس ناعم محلوق بشفرة الموس ليزداد التشويه الغرائبيّ أكثر. وبما أن وحيدي القرن هؤلاء لا يحملون سلاحاً، فقد توقعت أن مهامهم تقتصر على تحطيم أبواب المنازل التي تُداهَم، وتكسير أضلاع من يقع بين أيديهم من معارضي الزعيم الجنرال السيّئي الحظ.

انتهى تلقّي الأوامر، فتفرّق العناصر في الساحة من أجل التهيئة لعمليّة المداهمة.

أشعلوا ناراً في وسط الساحة من بقايا حواجز المتظاهرين، أصبحت النار كبيرة بعد أن ألقوا فيها سيّارة كانت مركونة على الناصية، ثمّ أخذوا يرقصون بوحشيّة، يدورون حولها ويقفزون عالياً ويطلقون صرخات بدائية قادمة من غابة بعيدة. يرفعون بنادقهم نحو السماء، ويطلقون الرصاص بكثافة، لتنسجم موسيقاهم الوحشية مع سيمفونية الرعب التي تعيشها أحياء البلدة وأطرافها. أخرجوا سكاكينهم الحادّة، لحسوها، رسموا بها ندوباً على الخدود، وتزيّنوا بالدم، فاشتعل في داخلهم هياج القطيع البدائي، نامت العقول وتفتحت الغرائز البدائيّة... حدث كل هذا فيما لا يزال الجنود في الساحة شبه نائمين خلف متاريسهم، يتساءلون عما إن كانوا سيحصلون على بعض الغنائم.

وفي أثناء ذلك، انتصبت عدّة طاولات في أطراف الساحة، جلس وراء كلّ واحدة منها قائد مجموعة مداهمة، وأمامه مجموعة أوراق ملتفّة بعضها على بعض، عليها أسماء المطلوبين، وإلى جانبه رجل ملثّم، تلتف كوفية بيضاء مخططة بالأسود حول رأسه وتغطي كامل وجهه، فيما اختفت عيناه خلف نظارة سوداء... هؤلاء هم مخبرو البلدة الأشاوس الذين يعرفون حاراتها بيتاً بيتاً، وكلّ من يقطن فيها، وهم من سيقودون مجموعات المداهمة في دهاليزها.

عند الثانية والنصف، تجرّأت على استراق النظر من باب الشرفة، إذ إنّ موسيقى إطلاق الرصاص المجنون من الراقصين حول النار في الساحة قد هدأت أيضاً، لن أخشى أن تصيبني طلقات عشوائيّة. ها هي مجموعات المداهمة تقفز إلى سيّاراتها، كل واحدة مع مخبرها الثمين منطلقةً لاصطياد طرائدها.

تشجّعت وخرجت إلى الشرفة، فانفتح المشهد أمامي بالكامل. الساحة تعجّ الآن بحركة هياج مجنونة، فقد تحوّلت إلى مركز تجمّع وقيادة، تنطلق منه هجمات متتالية على عدوّ لامرئي، مختفٍ في ثنايا الأزقة والحارات وتلافيفهما... مدرّعات أربع استقرّت بوضعيّات قتاليّة، تقف كلّ واحدة منها في مدخل شارع رئيسي دون أن تطفئ محرّكاتها التي تزمجر، وما زال المزيد منها يجتاز الساحة باتّجاه الأحياء القديمة التي تصدر منها باستمرار أصوات انفجارات وإطلاق رصاص كثيف.

تمرّ سيّارات المداهمة المكدّسة بعناصرها مسرعة، ترافقها دائماً درّاجات الكشافة، تروح وتجيء باستمرار في كل الاتّجاهات والصياح يتصاعد منها، تتوقف أحياناً في الساحة لبعض الوقت، يتلقى عناصرها تعليمات عن مناطق مداهمات جديدة، فتبدّل المُخبر، ثمّ تنزلق مسرعة إلى أهدافها.

لم يمضِ وقت طويل حتّى اندسّت بين سيّارات المداهمة تلك الحافلات الخضراء الرسميّة التي دخلت البلدة فارغة في بداية الحملة، لتعود الآن مثقلة بالمعتقلين. أراها تمرّ ببطء وقد تدلّى مسلحون من أبوابها، يهزون بنادقهم في الهواء، وعلى وجوههم ابتسامة انتصار ذئبيّة، فيما يسيل الدم من أفواههم، فرحين بالحصول على طرائدهم الثمينة. كانت الطرائد تجلس على الكراسي صامتة، عراة الصدور أو بالملابس الداخليّة، مقيّدة الأيدي إلى الخلف، معصوبة الأعين، محنيّة الرؤوس إلى الأسفل، تحوم فوقها أعقاب بنادق، تتقافز لتضربها عشوائيّاً.

عند الثانية وخمس وأربعين دقيقة، أفاجأ بوجود جيران على بعض الشرفات حولي، خرجوا بثقة ودون خوف يستعرضون أنفسهم أمام الجنود.

أعرفهم، هؤلاء المحسوبين من مؤيّدي الزعيم الجنرال، اختفوا عند اشتداد التظاهرات وعادوا الآن للظهور. كنت أعتقد طوال الوقت أن شققهم مهجورة، فإذا بهم موجودون، خلف العتمة

والظلال.

عند الثانية والدقيقة الخمسين، أيقظني من ذهولي جاري زاهر الجالس في شرفته التي يفصلني عنها شارع فرعيّ جانبي، وهو يقول لي: «مرحباً جار، منذ فترة طويلة لم أرك».

ألمح زاهر الخمسيني من وراء أصص الزهور المستقرّة على مصطبة شرفته، التي يتلصّص عادة من ورائها على الشرفات الأخرى، يجلس باسترخاء على كرسيّ، وقد وضع ساقاً على ساق، يدخّن نارجيلته باستمتاع، ضائعاً في غمامة من دخانها. يستمرّ في الحديث معي: «رجعت أيّام العز يا جار، كان على الجيش أن يدخل البلدة ويطهّرها من العصابات الإرهابيّة الحقيرة منذ زمن طويل، أليس كذلك؟».

جاري زاهر من مؤيّدي الزعيم الجنرال المتعصّبين، ففي رعاية الفساد والخراب الذي انتشر في البلدة انتعشت أعمال مكتبه العقاري، التي تجاوزت المضاربات والسمسرة، وصولاً إلى التعاون الوثيق مع أبو عصام في عمليّاته المشبوهة. وهو يستغلّ مكتبه أيضاً في الساحة لتجميع المعلومات عن المنتفضين، إذ تلتمّ عنده شلّة من المخبرين ليثرثروا طويلاً ويتناقلوا الأخبار حولهم. لكنّ زاهر صُدم بشدّة عندما عرف بخروج ابنه الوحيد مع المتظاهرين، وأتاه صاعقاً نبأ إصابته بطلق ناري في قدمه في إحدى مواجهاتهم في تظاهرة مع رجال الأمن.

أشيح بوجهي عن جاري زاهر، لكنّه لا يتوقف عن محادثتي: «لقد خطف الإرهابيّون ابني منّي، استغلوا بساطته وضمّوه إليهم، لا أعرف بماذا أغروه ولدينا المال الوفير، بل وانقلبت والدته وأخواته البنات ضدّي... هذا ما حدث معنا يا جار، والآن سأنتقم من هؤلاء الكلاب جميعهم».

ثم يلوّح بخرطوم نارجيلته في الهواء وهو ينشد بصوته الأجش: «أهلاً وسهلاً بالجيش حامينا، والزعيم الجنرال في قلبنا».

سعيد أيضاً يخرج إلى شرفته المقابلة لي في الطابق الثالث، وهو يصفق ويغنّي متراقصاً بحماسة: «حيّوا الزعيم الجنرال والجيش، أهلاً وسهلاً بالجيش حامينا».

تلحق به زوجته السمينة التي يعادل حجمها ثلاثة أضعاف حجم زوجها النحيل، لترقص أيضاً على إيقاع تصفيقه، وتدور حول نفسها كالبرميل. ثمّ يحمل سعيد طفله البالغ من العمر أربع سنوات على كتفه، ويصرخ بنشوة وهو يتمايل: «يعيش الزعيم الجنرال، ولتسقط العصابات الإرهابيّة».

فيردّ الصغير بصوته الطفولي المتلعثم وراءه: «يعيش العصابات، وتسقط الزعيم، يعيش العصابات والزعيم».

لا ينتبه سعيد لما يردّده الطفل وراءه، فهو مشغول برقصة زوجته السمينة الرائعة التي يتأمّل دورانها البرميلي بإعجاب. سعيد لا يخفي فرحه دائماً بقبولها الزواج به، هو الشاب الذي لا يتقن

عملاً إلا التسكّع والثرثرة، ربحها هي وجسدها الممتلئ، وشقتها الفارهة، وسيّارتها الأنيقة التي لا تعرف قيادتها، ولذلك هو سعيد بها.

تتوقف الزوجة عن الدوران عندما تنتبه لما يردّده الصغير، ويتوقف معها سعيد صارخاً بابنه: «يا حمار، يلعن أبوك على هذه التربية».

يتقافز الآن سعيد على جنبات الشرفة، مؤدّياً حركات مسرحيّة عشوائيّة بلهاء مفتعلة، معبّراً عن إحساسه بالفرح المتملق لدخول الجيش إلى البلدة، ومنادياً على الجيران حوله بصوت عالٍ وضجيج مفتعل، وهو يصفق بيديه ويدعوهم لشرب الشاي معه احتفاءً.

إنها الثالثة والربع عصراً. تحت شرفتي عشر شاحنات عسكريّة تمرّ ببطء...

تتوارد إلى ذهني مباشرة ذكرى من مراهقتي، عندما كنت مهووساً بمشاهدة عروض السينما، وبالضبط ذكرى موجة أفلام روسيّة وغربيّة راجت بكثافة في وقتها، تتحدّث موضوعاتها عن الانتصار على النازيّين الأشرار الذين يدمّرون المدن، ويحرقون الناس أحياءً في أفران معسكرات الاعتقال.

يبقى في ذاكرتي مشهد يتكرّر في جميع الأفلام مهما كان مصدرها، مشهد منع التجوّل في المدن المدمّرة التي يحتلها النازيّون الأشرار، حيث تسير متتالية عدّة شاحنات عسكريّة ألمانيّة صغيرة بأقفاص مفتوحة، وقد توزع في كلّ واحدة منها ما يقارب عشرة جنود بعتادهم الكامل. يستندون إلى قضبان أقفاصها، موجّهين أسلحتهم في كلّ الاتّجاهات، وأصابعهم على الزناد. وجوه جنود وحشيّة، متجهّمة، قاسية، دون ملامح، حذرة، تثير الخشية والقلق، مستعدّة لإطلاق النار على كلّ ما يتحرّك في مرماها حتّى لو كان هرّاً. وقد تصدّر في قفص السيّارة الأولى جندي، يستند إلى كابينها، وهو يحمل مكبّر صوت، ينطلق منه أزيز مزعج وصوت بالكاد تُفهم كلماته يعلن «يُمنع التجوّل في المدينة تحت طائلة إطلاق النار».

لكنّ هذا ليس فيلماً عن الألمان النازيّين. هذا مشهدٌ حيّ لساحة بلدتي.

أفاجأ بنزول سعيد وابنه إلى الشارع على الرغم من منع التجوّل. الآن سعيد ينشد للجيش، وابنه الذي يحمل لعبة «زميرة» يزمّر له.

يلمح سعيد جاره طوني يتحدّث بحيوية مع مجموعة من الجنود شبه النائمين على الناصية، مشيراً بيديه نحو المنازل ومداخل الحارات. بالتأكيد كان ينبّههم إلى الاتّجاهات التي يمكن أن يخرج لهم منها إرهابيون.

يمضي سعيد إلى طوني، ويشارك في حديثه مع الجنود مبادراً لتقديم خدماته المجّانيّة بحماسة أكبر. خُيّل إليَّ أنهما يدلان الجنود على شقتي. على الأغلب أنا مخطئ، فهما يقصدان الشقق

المجاورة لي، وبالتأكيد شقة أم حسين، فأنا لم أخرج سوى في جنازة الشهداء، ولا أظنّ أن أحداً لمحني ضمن الجموع المحتشدة.

عند الرابعة والنصف عصراً، لمحت الجارة الجديدة، التي استأجر زوجها قبل وقت قريب شقة بائسة في مدخل الحارة الفرعيّة المؤدّية إلى الساحة، تقف على الشرفة الصغيرة الممتلئة ببقايا الأثاث القديم، وهي ترتدي قميص نومها الرمادي الباهت والمهترئ الذي يكشف نصف صدرها المتهدّل. تتطاول فوق حافة شرفتها بحيث يكاد ثدياها العجوزان يسقطان إلى الأسفل، وتقول لبضعة عناصر من فرقة مداهمة تمرّ أمامها: «هنا في هذه الحارة يوجد الكثير من الإرهابيين، هنا وهناك، على اليمين واليسار، وفي الأعلى وتحت الأرض».

وفي أثناء ذلك أرى زوجها، الذي يعمل سائقاً في مَرأب قصر الزعيم الجنرال، قد خرج إلى الشارع بشحاطته، ولهجته التي تؤكّد انتماءه إلى موطن الزعيم الجنرال وطائفته. وجد الآن فرصته ليثبت وجوده في الحارة في غياب تعاطف الجيران معه لادّعاءاته المتعجرفة بأنّه يستطيع حلّ أيّ مشكلة عن طريق «القصر»، لكن مقابل دفع مبلغ محترم من المال لتسهيل الأمور... وهو بالذات لا يسري عليه قرار منع التجول، فهو من «الجماعة».

يمضي الزوج إلى طوني وسعيد ليدلي برأيه أيضاً، فهو وإن كان حديث السكن في الحارة، يعرف جميع الإرهابيّين فيها من النظرة الأولى، بحكم خبرته المكتسبة من عمله في مَرأب قصر الزعيم الجنرال.

زاهر، وسعيد، وطوني، والسائق، ومعهم إحسان، جميعهم سكنوا حديثاً في بيوت الساحة، لم يعرفوا في حياتهم طعم خبز التنّور الساخن والحليب الطازج الذي اقتسمه أهل البلدة في الملمّات والمصائب.

انتبهت فجأة أيضاً لعائلة أبو كميل التي تسترخي بهدوء على الشرفة منذ الصباح، دون أن تزعجها سيمفونيّة الانفجارات والرصاص التي تلعلع في فضاءات البلدة، فقد عاد الأمن والأمان إلى البلدة مع دخول الجيش.

لم يعد أبو كميل تمثالاً حجريّاً منتصباً ينظر بعيداً في الفراغ، إنّه يضحك على غير عادته، ويتنقّل من كرسيّ إلى آخر وبيده فنجان القهوة باستمرار، يراقب باطمئنان مشهد تحرّكات العسكر في الساحة أمامه.

تشاركه الحيويّة والطمأنينة زوجته، هي ومؤخرتها التي لم تعد تتركها على الشرفة معه لتسليه عندما تذهب لإحضار المزيد من فناجين القهوة.

أمّا ابنتاه، فقد رجعتا إلى العادة القديمة. خرجتا إلى الشرفة منذ استيقاظهما بقميص النوم دون «الكيمونو»، تتمطيان، كأنّهما ما زالتا في سريرهما، فليس هناك الآن متظاهرون تخشيانهم.

وكميل لم يعد يقعي وراء مصطبة الشرفة، متلصّصاً خشية قدوم الإرهابيّين، ولن يجبره أحد بعد دخول الجيش إلى البلدة على إغلاق محله، فما علاقته هو بجرحى المتظاهرين.

لكنّني أفاجأ اليوم بوجود صينيّة كبيرة على الشرفة، ممتلئة بأنواع مختلفة من الفواكه إلى جانب فناجين القهوة.

عند الثالثة والدقيقة الخمسين ينزل أبو كميل أيضاً إلى الشارع، على الرغم من منع التجوّل، بكامل أناقته مع ربطة عنق، ربّما يظنّ أنّ اليوم يوم عيد!

يمرّ بين الجنود وهو يتمشى بهدوء وثقة. يصل إلى حاجز، فيوقفه عنصر مداهمة، ويطلب منه هويّته الشخصيّة. يقف أبو كميل مستغرباً، فهو ليس من المتظاهرين حتّى يبرزها، لكنّه يضطرّ لإخراجها من جيبه تحت تهديد النظرة القاسية للعنصر، ويقدّمها له قائلاً: «يا سيّدنا، نحن معكم ضدّ الإرهابيّين».

يسأله العنصر بجلافة: «إلى أين أنت ذاهب في هذا الوقت؟».

– غريب هذا السؤال، أنا ذاهب طبعاً للصلاة في الكنيسة، هنا بقربكم، لا إلى المسجد الذي يخرج منه الإرهابيّون المتعصّبون.

يرمي عنصر المداهمة البطاقة بوجهه، ويمضي دون أن يهتمّ بأمره. يلتقط أبو كميل البطاقة من الأرض منكسراً، يتوقف طويلاً بحيرة وهو يتلفت، لا يدري ماذا يفعل! غريب، لم يهتمّ أحد بأمر ذهابه إلى الكنيسة! فيقرّر أن يعود أدراجه إلى البيت.

على صعيدٍ آخر، يبدو أنّ توجيهات الجارة وزوجها السائق للجنود، إضافة إلى ما قدّمه لهم أيضاً سعيد وطوني من معلومات، انتقلت إلى عناصر المداهمة، وأخذت تعطي نتائجها إلى جانب الأسماء المكدّسة في القوائم.

تشكّلت مجموعات اقتحام صغيرة، تساندها سيّارات وحيدي الأعين وراء رشاشاتهم، تقدّمت وغابت في مجاهل الحارات الفرعيّة حول الساحة. أسمع من وقت لآخر أصوات تحطيم أبواب بالمطارق، صراخ نسوة وأطفال، رشقات إطلاق رصاص قريبة. وما إن يمضي بعض الوقت حتّى يخرج عناصر المداهمة منتصرين، وهم يقبضون على طرائدهم المكسورة الجناح.

أعرفهم، رجال وعجائز معظمهم من المتسكّعين الثرثارين الذين يواظبون على الوقوف قرب الناصية أو يفترشون طرف الرصيف ساهمي النظرات خلال التظاهرات. أراهم الآن يجرجرون أقدامهم، وهم مقيّدو الأيدي ومعصوبو الأعين، بعضهم بوجوه مدماة، تدفعهم أعقاب البنادق مع صيحات جنون الغابة الوحشيّة، بعضهم حفاة، وآخرون بملابس داخليّة، تمضي بهم الحافلات إلى مصير مجهول.

عند الرابعة والنصف عصراً تظهر المجنونة حسنة في طرف الشارع الشمالي المؤدي إلى الساحة، تحمل على ظهرها أكياسها الممتلئة بالغنائم التي حصلت عليها من حاويات وأكوام النفايات، تتمشّى في جولتها اليوميّة الاعتياديّة، وهي تجرجر عصاها التي تنبش بها في كلّ مكان. ترتدي أسمالها البالية الممزقة التي لم تعرف التبديل أو الغسل منذ عشر سنوات، بقايا معطف أسود، وغطاء رأس سميك كحلي، وقفازات يد ممزقة بالكامل اسودَّ بياضها القديم، وجزمة بلاستيكيّة رماديّة مشقّقة طولياً تضيع قدماها فيها. أسمال تتهدّل عليها، وتخبّئ بقايا جسد يجرجر قدميه بتثاقل، تجعل من الصعب تمييزها كائناً حيّاً إذا ما غطست في كومة نفايات، لتخرج منها بوجه دون ملامح، تراكمت عليه بشاعة ودمامة أرض محروقة بأطنان من المتفجرات.

تتقدّم المجنونة حسنة إلى الساحة، تجذبها أكوام النفايات هنا وهناك، تمضي إليها دون أن يعنيها وجود الجنود من حولها.

في طرف الساحة، يقف رئيس إحدى مجموعات المداهمة. وحش جميل ممتشق القامة، حليق الذقن والشارب، غزير شعر الرأس ناعمه، وقد سرَّحه بعناية شديدة نحو الخلف، مع نظارة شمسيّة معتمة أنيقة. ومع أنّه يرتدي ملابس عسكريّة ترابية اللون، إلّا أنّه مُعتنى بها بشدّة، نظيفة، مكويّة، مفصّلة على جسده بجماليّة تبرز تفاصيل عضلاته الرياضيّة، ويزيد من رشاقة حركاته حذاء مطاطي رمادي يصعد نحو الساق. يبدو بمظهره الأنيق كأنّه يتحرّك بغمامة عطر حوله، وأنه قادم إلى حفلة تنكّرية بزيّ عسكريّ ليغوي مراهقات، لا إلى ساحة معركة.

ينهي رئيس المجموعة حديثه مع عناصره، ينفصل عنهم، يدور إلى الخلف ليمضي نحو سيّارته، ليجد نفسه فجأة في مواجهة المجنونة حسنة، يفصل ما بينهما عشرة أمتار... عالمان متناقضان يتواجهان، عبق العطر الناعم بمواجهة رائحة النفايات الكريهة، جماليّة الجسد الرياضي بقباحة بقايا جسد ذاوٍ، أناقة اللباس ببشاعة الأسمال.

يصيب رئيس المجموعة الذهول والارتباك أمام الظهور المفاجئ لهذه الكتلة المتحرّكة الخطرة، لا يدري لوهلة ماذا عليه أن يفعل لتدارك خطرها، فيما تبدو المجنونة لامبالية تهمّ بالاستمرار بالسير. لكن سرعان ما يستعيد رئيس المجموعة رباطة جأشه، فيلقم بندقيته سريعاً ويصوّبها باتّجاه المجنونة ويده على الزناد، ويجأر بذعر وبأعلى صوته: «انتبهوا، انتحاريّة متنكّرة ستفجّر نفسها فينا».

تبلبلت الساحة واضطربت. ارتمى عناصر المداهمة خلف أقرب ساتر وهم يصرخون برعب: «انتحاريّة، انتحاريّة»، فيما بقي الجنود وراء متاريسهم ساهين، كأنّ الأمر لا يعنيهم.

توقف الجنون للحظات في رأس حسنة، وهي ترى عالماً يموج حولها وقد انتقل إليه الجنون، فتجمّدت في مكانها، هي وأحمالها على ظهرها وعصاها في يدها. تشكّلت حول المجنونة بسرعة

دائرة من عشرة مسلحين ببنادق مصوّبة عليها، وهم يصرخون بها: «ضعي ما تحملينه أرضاً، ارفعي يديك إلى الأعلى، تراجعي إلى الوراء».

أزعج الصراخ المجنونة، فأرخت أحمالها أرضاً ورفعت عصاها في الهواء مهدّدة، وهي تجأر، تخاف أن يستولي أحد على غنائمها الثمينة. وبما أنّ التلويح بالعصا لم يخف المحيطين بها، فقد خلعت فردتي جزمتها ورمتهم بهما تباعاً. وبحركة سريعة خاطفة، ألقى اثنان من المهاجمين بنفسيهما على الإرهابيّة موقعين إيّاها أرضاً، وقد أمسك كلٌّ منهما بيد لها حتّى لا تصل إلى الحزام الناسف حول خصرها، حركة تدرّبا عليها مراراً وتكراراً حتّى أتقنها بمهارة، ثمّ أخذا يتحسّسان جسدها بحثاً عنه.

اقترب رئيس المجموعة من الأكياس المرميّة أرضاً، وفتح واحداً منها بحذر شديد بطرف بندقيته للتأكد ممّا فيها، وهو متأهّب لإلقاء نفسه بعيداً، إن كانت الشحنة جاهزة للتفجير. مدّ يده وأخذ يُخرج ببطء ما تحتويه الأكياس؛ خرق بالية، أحذية قديمة، زجاجات بلاستيكيّة، خبز يابس، نفايات خضار وفواكه. تأفّف رئيس المجموعة الأنيق من الروائح البشعة التي نفحته إيّاها الأكياس، لبط الغنائم بقدمه، وهو يشتم البلدة الحقيرة وشحّاذيها، فيما نهض العنصران عن المجنونة، وهما يكادان يتقيّآن. أمسكت المجنونة بعصاها وأخذت تضرب حولها خبط عشواء، وقد تضاعف جنونها، فيما صدرت ضحكات مكتومة من الجنود الواقفين وراء الحواجز، لم يتبيّن العناصر مصدرها تماماً.

لم تنقطع أصوات الانفجارات الشديدة وإطلاق الرصاص الصادرة من الأحياء القديمة، لكنّني أرى الآن سحباً كثيفة من الدخان الأسود تتعالى فوقها وتملأ السماء. أكيد أنّ فرق المداهمة تحرق هناك بيوت الناشطين في الانتفاضة بعد أن تُنهب، فهذا ما حدث في البلدات التي اجتيحت قبلنا... بالتأكيد سيصلون إلى البيت الطيني في بساتين الأحياء القديمة، لكنّهم على الأرجح لن يجدوا فيه شيئاً للنهب.

أتعب من الوقوف على الشرفة، وممّا أراه في الساحة. كان عليَّ أن أنضمّ إلى الشباب المنتفضين في الأحياء القديمة. منذ زمن لم يعد لديّ ما أخسره.

لكن ما إن أرى عناصر المداهمة فجأة يتجمّعون حول البناية التي أسكن فيها، وكأنّهم ينظرون باتّجاهي، وبمجرّد التفكير بإمكانيّة مداهمة شقتي، ينفجر الشواش في رأسي، فأهرب إلى غرفة الكتب.

منذ الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم، ومسدّسي الفضّي يستقرّ في حزام بنطالي. قرّرت ألّا يفارقني أبداً بعد المواقف الصعبة التي واجهتني في الأيّام الأخيرة، وكدت أفقد فيها حياتي.

اجتمعنا، خمسة وعشرون شاباً، مصمّمين على الوقوف بوجه اجتياح العسكر للأحياء القديمة، نتخفى وراء حواجز صغيرة من حجارة وبقايا أثاث عتيق، أقمناها على عجلٍ بين أكمات الأشجار، غير بعيد عن بيتي الطيني. وقد تسلحنا إلى جانب العصيّ بتسع بنادق، حصلنا عليها في معركة الشارع الرئيسي، مع قليل من الطلقات لكل واحدة منها.

كان دخان الإطارات المطاطيّة المحترقة يتصاعد عالياً في مداخل الحارات، حيث أشعلناها بهدف إعاقة تقدّم الجنود، فيما نقل إلينا راكبو الدرّاجات الأخبار الأخيرة: رتل طويل من المدرّعات يتقدّم نحو الأحياء القديمة، تلحقه سيّارات مداهمة. استقرّ الرأي من الصباح الباكر على أن يغادر الشباب المنتفضون البلدة سريعاً، ويختبئوا في الحقول والتلال القريبة حتّى لا يتعرّضوا للاعتقال، ريثما تتّضح نتائج الاجتياح العسكري للبلدة. لا أدري لماذا عارضت هذا الرأي مع معرفتي بعدم جدوى البقاء فيها حالياً، لم أفكّر كيف يمكن لبضع بنادق أن توقف جيشاً نظامياً بأسلحته الحديثة ومدرّعاته! لكنني عارضت. كان على أحد أن يبقى ويقاوم، أو على الأقل أن يحاول ذلك...

عصام لا يريد أن يفارقني رغم عدم موافقته على رأيي، إلّا أنّه قال: «سنقاوم حسب الظروف والإمكانيات، لكننا سننسحب في الوقت المناسب».

عند الحادية عشرة والنصف، يصلنا من بعيد ضجيج مبهم. إنّه ضجيج الجنازير الفولاذيّة على الطرقات، يقترب باتّجاهنا أكثر فأكثر، وبمقدار ما يتّضح صريره نتعرّف إلى أزيز رصاص يرافقه.

حوّامات هيليكوبتر تحلق فوق الأحياء القديمة، وقصف عشوائي منها على البيوت المتناثرة في البساتين. قذائف مدفعيّة هاون تنطلق من إحدى التلال القريبة. قذائف مدرّعات تقترب منّا أكثر فأكثر، تتساقط في كلّ مكان وتنفجر بدويّ مرعب، ترافقها صليات رشاشات وبنادق، تمزق الصمت القابع فوق البيوت الطينيّة...

لقد بدأ الاحتفال...

عند الثانية عشرة ظهراً سقطت بالقرب منّا، على الممرّ الترابي، غير بعيد عن الحاجز، قذيفة أحدثت دويّاً هائلاً يصمّ الآذان. اشتعل لهب يخطف الأبصار، تشقّق الهواء حولنا ثم تكسّر، حلّت مكانه رائحة موت وحريق. تبعثرنا هنا وهناك، انبطح كلّ منا وراء أول ساتر صادفه أو زحف إلى أقرب حفرة.

ما إن تمرّ ثوان قليلة حتّى تلحق تلك القذيفة واحدة ثانية، وثالثة، تسقطان غير بعيد في البساتين حولنا. يمتلئ القلب بالخشية ويتصبّب العرق بارداً. لم أتوقع أن تُحدث فيَّ القذائف التي أواجهها للمرّة الأولى في حياتي هذه المشاعر من الارتباك والاضطراب، لا مكان هنا للمواجهة بشجاعة،

لا أستطيع أن أحمل خنجري أو مسدّسي وأقف بوجهها متحدّياً، بل عليَّ الانحناء والاختباء من شظاياها، فالموت يأتي معها متخفياً في معطفها الذي تفرده واسعاً فوقنا.

تتشبّع الأجواء بنشيج الدم المنفلت من أوردته، برائحة اللحم البشري المحترق، وبنثراته الدمويّة المتطايرة هباباً، وبالأضلاع المطحونة فتاتاً، وبالصرخات والأنّات التي تمزق الأنفاس رعباً، بآلام تراكمت منذ أن عرف البشر استعمال النار والبارود معاً، فأصبح سفك الدماء أسهل من حزّ السيوف وطعن الرماح.

كنّا خمسة وعشرين شاباً، بدّدتنا القذائف، وذهبت بأحلام ثلاثة عشر منّا إلى ظلمات الموت. ينهض اثنا عشر ممّن بقوا منّا، والذهول والصدمة يربكاننا والدماء تنزف منّا. ننهض لسحب الأصدقاء من تحت التراب والحجارة، لكن لا أصدقاء، فالإصابة كانت مباشرة، بعثرت الأجساد أشلاءً. أيدٍ وأقدام ورؤوس منفصلة متناثرة، وأحشاء اندلقت من بطونها، وأسرعنا إلى ما بقي لنا من بنادق.

كان جبيني ينزف من جراء شظيّة صغيرة، لكن الجرح غير خطر، تكفيه عصابة صغيرة.

عند الثانية عشرة والربع، كانت المدرّعات تختال بوحشيّتها المعدنيّة لتغتال آخر آثار الحنين والبراءة المتراكضين على الطرقات، وفي قلوبنا. من وراء فولاذها، أعين معدنيّة وقحة تراقب، فتهرب العصافير خجلى بعري ريشها، والفراشات بعذريّة ألوانها. أطلقنا على المدرّعات رصاص بنادقنا، فانزلق عنها متطايراً. سخر معدنها منّا، وتقدّمت أكثر، اخترقت حواجز نار الإطارات وسحقتها كأعقاب سجائر، وحطمت حواجز الأخشاب التي قرقعت تحت جنازيرها كلعب أطفال.

كنّا اثني عشر شابّاً، سرعان ما لحق أحد عشر منهم رفاقهم إلى ظلمات الموت. لم يبقَ أحد غيري، وعصام بين ذراعيَّ جثة هامدة.

قلت لي يا عصام إننا سننسحب في الوقت المناسب، فلماذا لم نغادر؟ أعرف ما ستقول، لم نجد الوقت لنفكّر بالانسحاب، فالموت حضر سريعاً...

عند الثانية عشرة والدقيقة العشرين، كنت أمضي نحو البيت الطيني. أشلاء عصام بين يديّ، الدماء تنزف من جبيني، صمم يملأ أذنيّ، غشاوة خفيفة تغطي عينيّ، وشواش يملأ رأسي. ألتفت، فأرى المدرّعات وقد توقفت غير بعيد عن الحاجز، وتقيّأت جنوداً، يقفزون ويتخذون مواقع قتاليّة، لتحضر بعدهم فرق الموت، وتداهم ما بقي من البيوت الطينيّة التي تساقط معظمها على رؤوس ساكنيها بفعل القصف.

يصل عناصر المداهمة الذين قدموا وراء المدرّعات إلى الحاجز. يقلّبون بقايا الجثث بأقدامهم، لا أحد حيّ، لكنّهم يطلقون عليها الرصاص رغم ذلك، فتتقافز وكأنّها تموت من جديد. يلمحونني

فجأة وأنا أبتعد عن الحاجز، أرى من وراء الغشاوة نيران بنادقهم تنطلق نحوي بكثافة، طلقات تلمع دون أن أسمع صوتها، لكنّني أتابع السير دون أن أنظر إلى الخلف، لا أسمع شيئاً، ولا أسقط.

تتجمّع الطلقات بكثافة على ملابسي، تتكدّس عليها وكأنها مجذوبة إليها بمغناطيس، لا تثقبني ولا تجرحني، بل تتعشّق في الثنايا وتتطاول كحبائل. تزعجني، وقد أصبحت ثقيلة عليَّ، أتوقّف قليلاً وأهزّ نفسي بشدّة فتتساقط أرضاً وتتكوّم تحت قدميّ. أعود وأغذّ السير حاملاً أشلاء عصام، أنظر إلى الخلف فأرى عناصر المداهمة، وقد تحوّلوا إلى ذئاب، ذئاب بأشداق وحشيّة تحمل بنادق، تلهث ورائي مسعورة. أستردّ سمعي الآن، أسمعها، إنها تعوي بحنق، ولا تتوقف عن مطاردتي. أزداد قوة وثقة بنفسي كلما اقتربت من بيتي الطيني، يعاودني السمع بوضوح وتنقشع الغشاوة، وتصبح المسافة بيني وبين الذئاب ثابتة، لا تتغيّر، فلا تصلني.

في البيت، أمضي مباشرة إلى الحديقة وأسجّي أشلاء عصام تحت شجرة التوت قرب جدار الغرفة، يشفق عليها التراب النديّ ويضمّها إليه بحنان، فتختفي في دفئه حيث لا أزيز رصاص ولا دويّ قذائف. أرى شجرة التوت تنهض فجأة باسقة إلى السماء، وهي تمتلئ ثماراً ناضجة، مشبعة بعصيرها الأحمر، ترتفع، وتتجاوز سطح البيت وتغطيه بظلالها الوارفة، لقد عاد عصام للحياة فيها.

أنظر من فوق جدار الحديقة، فأرى الذئاب المسعورة قد توقفت عن السير والعواء بعيداً عن البيت. كانت تدور في مساحة واسعة، وهي تشمشم الأرض دون أن تتوقف، باحثةً عن أثري. كأنّها لا ترى البيت. أستغرب. فهي تدخل البيوت المجاورة وتخرج منها خالية الوفاض بعد أن تشعلها ناراً، لكنّها لا تدخل بيتي الطيني. دخلت جميع البيوت إلّا بيتي، كان لامرئيّاً، محميّاً بتمائم مقتنياته القديمة، العابرة للزمان، كتميمة سريّة تحرسه من غدر الزمان، إذا ما دهمنا الأعداء.

عند الواحدة ظهراً، كانت المدرّعات تتقدّم في عمق الحارات مزمجرة، طاحنةً كلّ ما تصادفه بجنازيرها، سيّارات، بيوت، عربات خشبيّة، حيوانات، جثث بشريّة. وفي أثناء ذلك، لا تنقطع زخّات رشاشاتها وقصف مدافعها في كلّ الاتجاهات، مع أنّه لم يعد هناك أناس أحياء، لا في الأزقة ولا في البيوت، ومن لم يسقط ميتاً فرّ هارباً بعيداً... لم أكن أظنّ أن الجنازير الفولاذيّة بهذه الوحشيّة.

تتقدّم مدرّعات ثلاث، تصل إلى قرب البيت الطيني، تنحرف عنه وتتجاوزه، كأنّه غير موجود، أتأكّد الآن من أنّه غير مرئي.

عند السادسة مساءً، استنفار مفاجئ في الساحة. أشعر به وأنا أطلّ من الشرفة. يبدو أن أحداً من القادة سيحضر للاطلاع على الأوضاع الميدانيّة. أرى الجنود يصحون من غفوتهم، ويقفون

مشدودي الأعصاب وراء سواترهم من الأكياس الرمليّة، يصوّبون بنادقهم نحو الأعداء اللامرئيّين. المدرّعات تزأر وهي توجّه رشاشاتها نحو الأحياء القديمة، حيث تحوم الأشباح. عناصر المداهمة ينتشرون بمجموعات صغيرة للتأكد من تنفيذ الجنود للأوامر العسكريّة وعدم نومهم، فقد يتسلل العدوّ عبر أحلامهم.

ما إن تمرّ دقائق حتّى تحضر سيّارة القائد الهام الذي اضطربت الساحة له، يخرج منها، يلتمّ رؤساء مجموعات المداهمة حوله.

يسأل: «ما هي نتائج حملة المداهمة حتّى الآن؟».

فيبدأ رؤساء المجموعات بتلاوة تقاريرهم:

– اقتحمنا إحدى الشقق يا سيّدي بعد أن حطمنا بابها، دخلناها بسرعة ومهارة وخفة، ووجدنا رجلنا المطلوب نائماً فوق زوجته، اعتقلناه مباشرة والدهشة تعلو وجهه من المفاجأة وعضوه ما زال منتصباً، قيّدناه وجررناه كالكلب وهو عارٍ، كي لا يفكّر بالهروب. أمّا الزوجة المسكينة فقد كانت في حالة نفسيّة سيّئة يُرثى لها بسبب انقطاع متعتها، أشفقنا عليها كثيراً، وتألمنا لمرآها مرتعدة. وبما أنها كانت عارية مفتوحة القدمين، جاهزة لتلقي المعونة، فقد اضطررنا للقيام بواجبنا الإنساني نحوها مباشرة. تناوبنا فوقها، عشرة من رجال الزعيم الجنرال الشجعان، بحيث تحطّم السرير تحتنا. صرخت كثيراً في البداية من المتعة، ثمّ همدت أنفاسها مع الرجل الخامس، ولم تعد تصدر أيّ صوت أو حركة مع البقيّة.

– اكتشفنا في أثناء مداهمة البيوت أن معظم المطلوبين كانوا قد فرّوا إلى الحقول والتلال البعيدة قبل وصولنا، فاضطررنا إلى اعتقال أفراد عائلاتهم ممّن نصادفه في البيوت رهائن بدلاً منهم، والد، والدة، إخوة، أخوات، أقارب، جيران. أصبح لدينا ما يقارب مئتين من المعتقلين، بينما العدد المطلوب من القيادة حسب قوائم المخبرين هو سبعمئة، فلجأنا إلى اعتقال من كنّا نلاقيه في الشوارع عشوائيّاً لإكمال العدد، إلّا أنّه تبيّن أنّ معظمهم من مؤيّدي الزعيم الجنرال. لكن ماذا نفعل، كان علينا رفع عدد المقبوض عليهم للوصول إلى الرقم المطلوب... وعلى كلّ الأحوال، سيتحمّل هؤلاء المؤيّدون الاعتقال والتعذيب من أجل عيون الزعيم الجنرال، وسنمنح أوسمة لمن سيخرج منهم حيّاً من السجن... هذا إذا خرج.

لكنّ المشكلة الآن أنه رغم ذلك ما زال ينقصنا مئتا معتقل حتّى يكتمل العدد المطلوب... ما رأيكم يا سيّدي أن نقبض على مئتين من الجنود النائمين بدعوى أنّهم منشقون؟ في الحقيقة، هم كانوا سينشقون أصلاً لولا الرقابة الأمنيّة اللصيقة عليهم. لكن إذا اعتقلناهم كمنشقين، فسيكون علينا إعدامهم مباشرةً وفي الميدان، لذلك ننتظر موافقتكم على هذا الرأي.

– نجح فريقنا الطبّي العسكري يا سيّدي في استئصال الكثير من الأعضاء الحيّة من أجساد الإرهابيّين في لحظة موت أصحابها، إذ كان يكفينا السير وراء مجموعة مداهمة بسيّارتنا المجهّزة بصناديق حفظها حتّى يتساقط القتلى أمامنا، وقد كان العمل سريعاً وناجحاً، إلّا أنّه متعب لكثرتهم. وهكذا تجمّعت لدينا قلوب، وأكباد، وعيون، ورئات، وأيدٍ، وأقدام، وأعضاء جنسيّة... وقد عمل عناصر فرق المداهمة بهمّة ونشاط لتأمين أكبر عدد من الأموات الطازجين لنا، وخاصّة بعدما علموا أن نسبة أرباح مبيعاتها للدول الأجنبيّة تعود إليكم.

– واجهنا يا سيّدي في الأحياء القديمة حاجزاً صغيراً مضحكاً من إطارات مشتعلة وركام أحجار وبقايا أثاث، اختبأ خلفه خمسة وعشرون مجنوناً من الإرهابيّين، يظنّون أنّهم سيوقفون حملتنا ببضع بنادق صيد. تكفّلت قذائف المدفعيّة بنصفهم، والمدرّعات بالنصف الآخر، ولم ينجُ منهم إلّا شابّ محظوظ واحد، يُقال إنّه قائد بين المنتفضين، خرج بأعجوبة من زنّار النار ومن تحت الركام والرماد، رأيناه يجرّ كتلاً من لحم بشري ممزّق، مضى بها باتجاه الحقول، حيث اختفى بين أكماتها. وقد تشكّلت في أثره فرق مطاردة تبحث عنه، فهو كنز أسرار عن المنتفضين، كما يقول المخبرون... وما زال البحث جارياً عنه.

عند الثامنة مساءً، بدأ الليل يزحف إلى الساحة، ويرخي سدوله السوداء عليها شيئاً فشيئاً. أرى الآن من الشرفة في آخر بصيص المساء، الجنود المتعبين من الوقوف وترصّد العدو طوال النهار، قد افترشوا الأرض تحت الشرفات، واسترخوا على بلاطها، تخفيهم عن الأنظار عتمة انقطاع الكهرباء، بينما ذهب الضبّاط وعناصر المداهمة المُجدّون إلى منازلهم، ليستلقوا في أسِرّتهم المريحة.

عند الثامنة مساءً، زحف الليل فوق البساتين والحقول، وأرخى معطفه السميك الأسود عليها. أرى الآن في آخر انسكاب ضياء المساء، من فوق جدار حديقة البيت الطيني، الجنود الذين تقيّأتهم المدرّعات نهاراً، يفترشون أرضاً معشوشبة تحت السياج، ويسترخون، بينما ذهب الضبّاط وعناصر المداهمة إلى منازلهم ليستلقوا في أسرّتهم المريحة ويحسبوا غنائمهم.

عند الثامنة مساءً، نظرت إلى السماء من الشرفة، فرأيت القمر في اكتماله بدراً، لكنّه كئيب لا ينير إلّا نفسه، فيما حلّ ظلام دامس في الساحة. القمر حزين لما يحدث في البلدة، التفّ بمعطفه وأخفى نوره، وجلس على طرف غيمة يبكي بدموع تسيل خطوطاً من نور على وجهه المتشقق إلى كسرات، حزناً على الناس الذين اعتُقلوا بوحشيّة.

عاد الصمت من جديد إلى البلدة مع هبوط الظلام، لكنّه ليس صمتاً مطلقاً، إذ يتسلل إليه عواء كلاب يأتي من بعيد، وهمهمات مبهمة تصدر من الجنود المستلقين على الأرصفة، وصفير رياح

يختزن أصوات متظاهرين مختنقة، وقرقعة علبة معدنيّة فارغة يتلاعب بها الهواء، فتتدحرج طويلاً على أرض الشارع، وسرعان ما تبدّد الظلمة هذه الأصوات... توقفت سيمفونيّة إطلاق الرصاص، لكن من وقت لآخر كان أحد الجنود النيام يتذكّر أن يطلق رصاص بندقيّته أو قذيفة دبابته من قلب مناماته، ليرهب العدوّ المتلطي في ثنايا خوفه، فتشتعل الموسيقى من جديد في فضاءات الصمت المخيّمة على الساحة لبعض الوقت، هنا وهناك.

عند الثامنة مساءً، نظرت إلى السماء من حديقة بيتي الطيني، فرأيت القمر كبيراً، لكنّه حزين لا ينير إلا نفسه، فيما حل ظلام دامس فوق البساتين والحقول. خلع غلالته الضوئيّة المنيرة وأخفاها بين ندفات غيمة، وأشعل بدلاً منها شمعات، فبدا نوره كابياً، فقد كان الألم يعتصر قلبه تشققاتٍ ضوئيّةً، حزناً على الناس الذين ماتوا تحت أنقاض البيوت أو تحت جنازير المدرّعات.

عاد الصمت من جديد إلى الأحياء القديمة مع انسدال الظلام، لكنه ليس صمتاً مطلقاً، فالكلاب تنظم في الحقول موسيقى عواءها الليلي، وهمهمات مبهمة تصدر عن جنود يتأفّفون من النوم في الحقول، رياح تتلاعب بأوراق الأشجار، فتتراقص كأكف ناعمة مصفقة وراء شدو أبو سويلم في الأمسيات، خشخشة حشائش يابسة تتلوّى في ما بينها أفعى تسعى إلى طريدتها، سرعان ما تبدّدها الظلمة جميعها... توقفت سيمفونية القصف وتفجير البيوت، لكن من وقت لآخر كان أحد الجنود يتذكر في منامه أن يزيّن صمت الليل بدويّ قذيفة، تنير العتمة للحظات، ويتراقص الرعب على انفجارها، فتشتعل الموسيقى من جديد في فضاءات الصمت المعرّشة فوق الحقول لبعض الوقت، هنا وهناك.

عند التاسعة، تمدّدت على أريكة في غرفة الكتب واللوحات الفنّية، وفتحت نافذة صغيرة تطلّ على زقاق جانبي مستروحاً رطوبة الليل. كان نهاراً طويلاً وصعباً.

عند التاسعة، تمدّدت على فراشي في غرفتي الطينيّة، قرب نافذة صغيرة تطلّ على الحديقة الصغيرة، مستروحاً رطوبة الليل. كان نهاراً طويلاً وصعباً.

في التاسعة وخمس دقائق، عدت بذاكرتي إلى الساحة قبل أيّام، فرأيت آلاء مليئة بالحيويّة، مشتعلة عطاءً، كنحلة تطير هنا وهناك، تسعف الجرحى وتتبرّع بالدم... أين هي الآن؟ هل اقتحم عناصر المداهمة بيت أهلها المشبوه دائماً بروح الانتفاضات، فاستغلوا وجود النسوة وحدهنّ؟ لا، آلاء تقتل نفسها، بالتأكيد، ولا تسمح لذئب بأن يغتصبها.

في التاسعة وخمس دقائق، نظرت إلى إلهتي الحجريّة عبر النافذة، فتذكّرت آلاء، حلم يهفو إليه القلب باستمرار، تمنح الحياة لكلّ من حولها، ترسم بأحلامها وابتساماتها أملاً للحالمين بالحرّية...

أين هي الآن؟ هل حاول عناصر المداهمة الاعتداء عليها؟ لا، آلاء روح متوثبة بإحساس عميق بحرّيتها، تقتل نفسها، بالتأكيد، ولا تسمح لذئب بأن يقترب منها.

في التاسعة وعشر دقائق، آلاء حبيبة القلب، سأحضرُ لك الحصان الأبيض من الجبال مهراً لك، وسأجعل زفافنا عرساً لانتصار الثورة.

في التاسعة والربع، أتذكّر هذا الشاب البطل الذي كان غريمي، أصبحت أشعر بودّ غريب نحوه، واحترام لتوقه للحرّية، فهو الذي شدّني بجرأته إلى الانتفاضة، وبقلبه الشجاع استعدت إنسانيّتي لأنضمّ إلى المناضلين، فحسمت أمري في النهاية، تركت الشرفة وخرجت مع جنازات الشهداء الذين ذهبوا إلى السماء... أحبّه، وأشعر به، بالتأكيد، نصفي الثاني، مرآتي، الذات المكتملة به.

في التاسعة والربع، أتذكّر رجل الشرفة الغريب الأطوار، أشعر بودّ غريب نحوه منذ أن غادر الشرفة، ورأيته في تشييع جنازات الشهداء، يرفع قبضته متحدّياً ويهتف معنا «الله أكبر، حرّية»، بل أعرف أنّه بخبرته وتجربته في الحياة سيعطيني توازناً روحيّاً... أحبّه، وأشعر به، بالتأكيد، نصفي الثاني، مرآتي، الذات المكتملة به.

في التاسعة والثلث، أعرف من شرفتي حقيقة البيت الطيني الرائع، المرميّ في شمس الحقول المتألقة، فقد زرته كثيراً في الأحلام، فهو روح بلدتي المتجذرة في تقاليد التوق الدائم للحرّية، ورائحة الحياة اليوميّة التي تعبق من مقتنيات الذاكرة الشعبيّة المعلقة على الجدران، وبوح بتاريخ الآمال المختزنة في الفخاريّات والحجريّات القادمة من عمق الزمان، تحرسهم جميعاً إلهة قادمة من عمق الخيال والبحث عن المطلق.

في التاسعة والثلث، أعرف من بيتي الطيني غرفة الكتب واللوحات الفنّية في شقة الأحياء الحديثة، وكأنّي قرأت فيها الكثير عن انتفاضات الناس البسطاء، وعن أحلامهم ببلدات تسودها الحرّية والعدالة، بلدات بدون زعماء ببزّات عسكريّة ولغوا بوحشيّة في دماء شعوبهم، وعن شباب يذهبون للموت باندفاعات القلوب نحو مستقبل أفضل.

في التاسعة و25 دقيقة، كم هو رائع أن أناضل من أجل الحرّية حتّى لو قدّمت حياتي إليها... أكره الشرفة والتفرّج البليد، وسأغادر الشقة غداً نحو الجبال، حيث مضى الشباب المنتفضون ينظمون صفوفهم للقتال، سأنضمّ إليهم، فهذه الأنظمة العسكريّة لا يمكن تغييرها إلّا بالعنف الثوري.

في التاسعة و25 دقيقة، كم هو رائع أن أناضل من أجل حرّية بلدتي حتّى لو قدّمت حياتي على مذبحها... سألحق برفاقي الشباب غداً في الجبال، وأترك بيتي الطيني مسوّراً بسحر إلهتي الحجريّة واعتناء آلاء، هناك سننتظم في مجموعات مسلحة، فزعماء العسكر هؤلاء لا يفهمون إلّا لغة النار والرصاص.

في التاسعة والنصف، إذا ما بقيت حيّاً بعد انتصار الثورة، فسأذهب إلى زوجتي وأعتذر منها، سأرجعها هي وأطفالي الثلاثة إلى الشقة، وأعتني بهم جيداً... وإذا ما متّ في معركة، فستعين، أيّها الشاب العزيز، زوجتي على العيش بشرف وكرامة، وتعلم أطفالي الصغار التوق الدائم إلى الحرّية.

في التاسعة والنصف، إذا ما بقيت حيّاً بعد انتصار الثورة، فسأتزوّج آلاء، أحملها على الحصان الأبيض وأعود بها إلى بيتي الطيني، وسأجعل زفافنا عرساً للشهداء... وإذا ما متّ، فستعينها، أنت أيّها الصديق العزيز، على الحياة بشرف وكرامة وتوق دائم للحرّية.

عند العاشرة، يداعب النعاس عينيّ... سأنتظرك عند طرف البوابة السحريّة في الصباح الباكر، ونمضي معاً إلى الجبال.

إنه منتصف الليل.

– من أنا؟! هل أنا أنت؟

– من أنت؟! هل أنت أنا؟

– نعم أنا أنت.

– وأنا أنت أيضاً.

– إنّه منتصف الليل، لماذا تقهقه بصوت عالٍ؟

إنه منتصف الليل، هل أنت من يقهقه بصوت عالٍ؟

إنه منتصف الليل، أنا من يقهقه، أنا الزعيم الجنرال، أنا صدى صوتكما معاً، أنتما قادمان إلى شرفة القصر معاً، سنتوحّد ونلقي معاً خطاباً موحّداً عن «إله على الأرض»، عن «إله في السماء»... عن «إله يطيل لحية صحراويّة، ويرتدي بزّة عسكريّة مموّهة».

شواش عظيم يضرب الرأس حتّى الهذيان، حكاك يأكل الظهر بجنون، أنا المثقف «قائد انتفاضة»، أنا الشابّ الجهادي «باسم السماء»، أنا «الزعيم الجنرال».

الإمارة الإسلاميّة

تناقلت وكالات الأنباء الوطنيّة تفاصيل خطيرة عن مجريات الأحداث الأخيرة في البلدة، مستقاة من مصادر أمنيّة عليا موثوقة، تكشف النقاب عن كيفيّة القضاء على الإمارة الإسلاميّة التكفيريّة فيها، التي انتهت بإعادة الأمن والاستقرار إليها. ويتتالى نشر هذه التفاصيل حالياً في الصحف الرسميّة، وعلى صفحات الإنترنت، لفضح المؤامرة الإمبرياليّة الصهيونيّة الرجعيّة التي تتعرّض لها البلدة الشامخة.

وممّا جاء في التقارير التي أشرف على إعدادها خبراء أمنيّون متخصّصون بالحركات الدينيّة السلفيّة:

نفذت عناصر من وحدات الجيش الزعيمي البطل، ومجموعات المداهمة الشجاعة، واللجان الشعبيّة الأبيّة، بالتنسيق في ما بينها، عمليّة عسكريّة نوعيّة في البلدة المتمرّدة على الشرعيّة الوطنيّة والقانون، استمرّت عدّة أيّام كانت صعبة ومضنية، لكن تكللت نهايتها بالنجاح والانتصار. واستطاعت هذه العناصر المخلصة لزعيمها الجنرال أن تُسقط الإمارة الإسلاميّة، التي أعلنتها في هذه البلدة مجموعة من التكفيريّين المتشدّدين الإرهابيّين، وذلك بعد مقاومة ضارية من قبلهم، تمّ كسرها بهمّة أبطالنا الشجعان – والنصر والخلود لزعيمنا الجنرال العظيم.

وفي التفاصيل، فقد استطاعت وحداتنا الشجاعة تدمير الحاجز القوي المنيع، الواقع في مدخل الأحياء القديمة من البلدة، الذي كانت تتحصّن وراءه مجموعة كبيرة من الإرهابيّين، يُقدَّر عددهم بحوالى ثلاثمئة مقاتل، بقيادة الأمير التكفيري الشاب الذي رُصد على رأسها، ممتطياً حصانه الأبيض، ملوّحاً بسيفه في الهواء، وهو يعطيها الأوامر بالقتال. ومع أنه تمّ القضاء على المجموعة الإرهابيّة، استطاع الأمير التكفيري الإفلات منا بالخديعة والمكر، والهرب باتجاه التلال، إذ هو رجل زئبقي، يستطيع التخفّي بمهارة والتسلل في الدروب السريّة بين الحقول، لكنه سيقع في النهاية

بأيدي جنودنا الأبطال الميامين لينال القصاص، إذ لا مفرّ له بعد القضاء على قاعدته التكفيريّة في البلدة. وكذلك، فإنّ البحث ما زال جارياً عن زوجته الأميرة المدعوّة آلاء، وهي فتاة خبيثة تجيد التنكّر والتخفّي بدهاء، لكنّ المخبرات الذكيّات والنشطات سيكشفن مكان اختبائها في البلدة ليُلقى القبض عليها قريباً.

وقد تبيّن، من خلال تقارير المخبرين الموثوقين الذين استطاعوا التسلل إلى قلب المجموعات التكفيريّة في البلدة، أن أمير الإمارة هو شاب مريض نفسيّاً، مصاب بانفصام في الشخصيّة، يسمع منذ صغره أصواتاً غريبة تداهمه في رأسه، وتدعوه لإقامة إمارة إسلاميّة بحدّ السيف على هدي السلف الصالح. وهو ينتمي إلى عائلة فلّاحية متعصّبة غريبة الأطوار، تدّعي أن الجدّ فيها هو بطل وطني قاتل الغزاة في الجبال، وهو في الحقيقة ليس إلّا قاطع طريق شرساً، كان يقتل ضحاياه دون رحمة بعد أن يسلبهم كلّ ما معهم. وقد نشأ الأمير في جوّ عائلي مريض، يسوده الشذوذ الجنسي والانحرافات الأخلاقية، وخاصّة ممارسة الجنس مع المحارم والبهائم.

وتجمَّع حول الشاب في بيته الطيني الواقع في الأحياء القديمة الكثير من التابعين السلفيّين، ومع أنهم ما زالوا شباباً بذقون غضّة طرية، بالكاد نبتت شعيراتها، فإنهم استطاعوا بسرعة إطالة لحى مشعّثة، وصلت إلى الأرض، مستعينين بسماد زراعي خاصّ حصلوا عليه من البلاد الصحراوية. وجميعهم يرتدون سراويل داخلية طويلة، تصل إلى ما تحت الركبة حتّى لا تنكشف عوراتهم. كما أن معظمهم من اللوطيين على هدي أميرهم، الذي أباح فعلهم بفتاوى عديدة، تستند إلى مقولته بأن كلّ رجل يستطيع أن يفعل ما يشتهيه في جنّته الموعودة، حتّى مع الغلمان المخلدين فيها، ولذلك فهم يقيمون معه في بيته الطيني باستمرار لممارسة شذوذهم.

وخصّ الأمير الشاب نفسه بعدد كبير من الفتيات المختطفات من بلدته والبلدات المجاورة، كجوارٍ يمارس معهن نزواته الجنسيّة الشاذة، وعددهنّ سبعون فتاة بالتمام والكمال، كعدد الحوريّات التي يعد بها مريديه في جنّته. وقد جمعهنّ في قصر طيني سرّي بين البساتين، يحرسه سيّافون سود مخصيّون غلاظ القلوب. أولئك الجواري كنّ يظهرن باستمرار في التظاهرات، يتلفّعن بالسواد، ويسرن وراء الرجال، وهنّ يزأرن كنساء شبقات. ولحسن الحظ، فقد تمّ الآن إنقاذ براءتهن من براثن هذا الأمير الجزار وزبانيته، وتسليمهنّ إلى أحد الملاهي الليليّة الوطنيّة للمنفعة العامّة، خلال حفل حضره وزيرا الثقافة والإعلام، ونُقل على التلفزيون الرسمي.

لكن لا تزال هناك صعوبة في إلقاء القبض على الأمير الشاب بعد فراره إلى التلال بسبب قدراته الذكيّة على التنكّر، فقد حلق لحيته السلفيّة المشعّثة الطويلة، وأرخى شارباً عريضاً مثل أهالي الجبل، وتخلى عن سرواله الداخلي الطويل... ولذلك، على كل مواطن شريف مخلص للزعيم الجنرال إبلاغ الجهات المختصّة بأيّ معلومات تفيدنا في إلقاء القبض عليه.

أمّا الأميرة اللعوب آلاء، زوجة الأمير التكفيري، التي لا يتجاوز عمرها الثامنة عشرة، فقد أشارت التقارير إلى أنّها امرأة مولعة نفسيّاً بشهوة الدماء والسلطة والجاه. لذلك، فهي منذ صغرها تظنّ نفسها تارة زوجة أمير صحراوي، وتارة أخرى زوجة جنرال عسكري.

أوقعت الأميرة آلاء بشخصيّتها القويّة الكثير من شباب البلدة في شباكها منذ بداية تفتّح جسدها، ومارست معهم الجنس بكافة أشكال شذوذه، ولم تستثنِ رجالاً متقدّمي العمر من إغواءاتها، ومن بينهم رجل مثقف، لكن مخبول، يجلس باستمرار على شرفة منزله المطلّ على الساحة.

نشأت الأميرة آلاء في عائلة شاذة غريبة الأطوار، فوالدها مهرّب مخدّرات دولي شهير، يخفي نشاطاته تحت شعار انتمائه إلى منظمة ثوريّة تدّعي تحرير الوطن السليب، ويقضي الآن حكماً طويلاً في السجن نتيجة أعماله المشينة بحق شباب الوطن. أمّا أخوها فقد نظم عمليّات اختلاس داخل مؤسّسات الدولة، وحوّل الأموال المسروقة إلى البنوك الأجنبيّة، متحرّكاً تحت ستار تنظيم يدّعي محاربة الفساد، لكن عين الأمن الساهرة استطاعت كشف تلاعباته والزجّ به في السجن. وفي هذه الأجواء، لجأت الأم إلى ممارسة الدعارة المجّانيّة في أوساط المتظاهرين التكفيريّين للإيقاع بهم في شباك الإمارة، وفي الوقت نفسه لإشباع نزواتها الشاذة، ولحقتها بناتها الثلاث في فعلها الشائن.

وتسعى الجهات الأمنيّة جاهدة للكشف عن مكان الأميرة آلاء والقبض عليها، وهي عمليّة صعبة لقدرة هذه الإرهابية الخطيرة على التنكر والتخفّي.

وبنتيجة العمليّة الناجحة التي نفّذتها وحداتنا العسكريّة والأمنيّة، فقد تمّ القضاء على جميع التكفيريّين المتشدّدين في الأحياء القديمة.

ويقدّر خبراؤنا الأمنيّون المتخصّصون، الذين عاينوا موقع القتال ميدانياً، عدد جثث التكفيريّين حتّى لحظة إعداد هذا التقرير بحوالى ثلاثة آلاف. ولا يفرّق هؤلاء الخبراء المتخصّصون هنا بين جثث الرجال والنساء والأطفال، فكلها سواسية، إذ لا تُحسب جثة الطفل مثلاً كنصف جثة رجل راشد، بل رقم مساوٍ له، وذلك وفق معايير الحروب الدولية.

في المقابل، فإن عدد الجرحى صفر، وليس أربعة أضعاف عدد القتلى كما هي العادة، إذ تمّ الإجهاز على كافة الجرحى والتخلص منهم مباشرة، وفق معاييرنا الوطنيّة الخاصّة بنا، وأينما صودفوا.

وتشير التقارير الصادرة عن قيادة المعتقلات الوطنيّة، والمرفوعة إلى الجهات العليا، إلى أنه تم اعتقال سبعمئة متظاهر متعاطف مع الإمارة التكفيريّة في الأحياء الحديثة وفق قوائم مسبقة، أُعدِم مئتان منهم مباشرةً لتقديمهم المساعدة المادّية للإرهابيّين. ومن المثير للسخرية أن الكثير من الخمسمئة الباقين بمجرّد مشاهدتهم غرفة التعذيب وأدواتها ادّعوا وفاءهم للزعيم الجنرال، وقالوا

إنه لا علاقة لهم البتّة بالمتظاهرين، بل اعتُقلوا بالخطأ من الشارع. لكن مثل هذه الحكايات الكاذبة لا تنطلي على المحققين الأذكياء، أصحاب الخبرة والحنكة في التعامل مع الإرهابيّين الماكرين، فنال الجميع عقابهم من التعذيب دون تفرقة.

وعلى الرغم من المواجهة الشرسة التي لاقتها القوى العسكريّة والأمنيّة من قبل الإرهابيين، أكد المصدر الموثوق أن المعركة لم تشهد سقوط أيّ من الشهداء أو الجرحى بين عناصرنا. وقد استطاعت إحدى الانتحاريات المتنكّرة بلباس جامعي القمامة التسلّل خلسة إلى صفوفنا في الساحة، وكادت تفجّر نفسها، وتأخذ معها ما لا يقل عن مئة بطل من عناصرنا، إلّا أنّ العناية الإلهيّة ومستوى التدريب العالي لدى عناصر المداهمة سمحا بالسيطرة عليها، وإيقاعها أرضاً وتكبيلها قبل أن تصل يداها إلى الحزام الناسف.

وخلال العمليّة النوعية التي قام بها عناصرنا الأبطال في البلدة اكتُشفت أطنان من الأسلحة المخزّنة في أقبية المسجد، والمستشفى، والبلديّة، ومركز اتّحاد الفلّاحين، وفي مخابئ سريّة بين الحقول، وقد صودرت جميعها.

وفي منزل وزير العدل في الإمارة، وجد أبطالنا عدّة مشانق منصوبة، وأحجار عالية مسطحة لقطع الرؤوس والأطراف، رُميت إلى جانبها مجموعة من الفؤوس والسكاكين الحادّة. واعترف الوزير – طبعاً قبل إعدامه – بأنها مخصّصة لتنفيذ الأحكام الشرعيّة التي يتخذها مباشرة بحق مؤيّدي الزعيم الجنرال، وكلّ من يخالف معتقدات المتطرّفين التكفيريّة.

وفي منزل وزير الثقافة والإعلام، صودرت كتب دينيّة سلفيّة تكفيريّة، تتحدّث الفصول الخطيرة فيها عن الاستعانة بالجن والشياطين والعفاريت والغيلان، للقضاء على أبطالنا الشجعان من عناصر الجيش والأمن واللجان الشعبيّة، لا بل وُجدت فيها فصول عن استقدام تنانين غريبة، تطير وتنفث النيران من أفواهها، ومن الصعب إسقاطها حتّى بمنظومات الصواريخ الحديثة التي زوّدتنا بها روسيا الاتحاديّة، صديقتنا المخلصة.

وفي قبو مركز جمعيّة الإسعاف الخيريّة تمّ التعرّف إلى غرفة للتعذيب يستخدمها الإرهابيّون، بأدوات غريبة غير معروفة في أقبية سجوننا، فنحن لدينا وسائلنا الحضاريّة المتقدّمة التي تحترم الإنسان، فهي لا تطيل عذابه وتسهّل موته إن لم يرغب في الاعتراف بالأسرار التي يمتلكها، كالصعق بالتيّار الكهربائي، والتذويب بالأسيد، كما أننا أصبحنا نلجأ أخيراً إلى دفن الجرحى الأحياء في مقابر جماعيّة للتخلص منهم سريعاً، كي لا تؤلمهم جراحهم. أمّا الإرهابيّون فما زالوا متوحّشين، مثل أسلافهم الهمجيّين، يقتلون المخالفين لهم على الخازوق، أو يسلخون جلودهم وهم أحياء، أو يرمونهم في بئر مليء بالأفاعي والعقارب، فيطيلون أمد عذابهم وموتهم.

ولقد فوجئ عناصرنا بوجود استديو تصوير بمعدّات حديثة متطوّرة في أحد البيوت الطينيّة الواقعة في الأحياء القديمة، يبدو في مظهره الخارجي بسيطاً، تبيّن أنه يجري فيه إخراج أفلام إخباريّة تلفزيونيّة مفبركة عن تظاهرات سلميّة وهميّة يقمعها رجال الأمن، وإرسالها إلى محطات التلفزة المعادية لزعيمنا الجنرال.

ويضمّ الاستوديو إلى جانب معدّات التصوير مجسّمات متنوّعة الأحجام عن ساحات البلدة وشوارعها وبيوتها، يحدث فيها إيهام بتفجيرات وقصف بتقنيّات خدع سينمائيّة خاصّة، فتبدو خراباً مهجوراً. وإلى جانب المجسّمات، توضع بكمّيات كبيرة ألعاب أطفال لآليّات وأسلحة عسكريّة، تبدو حقيقيّة باستخدام تقنيّات التكبير والتضخيم، وبزّات عسكريّة، وملابس مدنيّة مهترئة ملوّثة بأصبغة حمراء، يستخدمها الكومبارس المشارك في الأفلام المفبركة. وصودرت أيضاً في الاستوديو أجهزة حواسيب وأقراص ليزريّة، تحتوي على معلومات سمعيّة-بصريّة، تُستغلّ لخلق أجواء استيهاميّة بوجود اضطرابات في البلدة.

ويقدّر الخبراء المحترفون، الذين قدموا من روسيا، أن المعدّات بتقنيّاتها المتقدّمة جداً في الاستوديو تستطيع خلق إيحاءات بأن تجمّعاً مؤلفاً من خمسة أشخاص يمكن أن يبدو كتظاهرة تضمّ خمسمئة شخص، بل وخمسة آلاف، وهي تقنيّات معروف استخدامها لإنتاج الأفلام التاريخيّة في الاستوديوهات الهوليوودية. وبالتدقيق في مضمون الأقراص الليزريّة وأفلام الفيديو اكتشفوا مشاهد من اضطرابات حدثت في بلدان مختلفة وفي أزمنة بعيدة، للاستفادة منها في فبركة أفلام جديدة، يُدّعى أنها حدثت في البلدة.

وأفاد المصدر الوثيق الصلة بالعمليّة النوعيّة التي نفذها أبطالنا الشجعان، بوجود اعترافات مثيرة لبعض الإرهابيّين عن وجود مختبرات سريّة، مخفيّة عميقاً تحت الأرض، لم نستطع حتّى الآن تحديد مواقعها، تُستخدَم لتصنيع اليورانيوم المشعّ من أجل إنتاج قنابل نوويّة، كان يُراد بها قصف قصر الزعيم الجنرال المحصّن جداً.

وكانت الأنشطة المريبة للتكفيريّين قد ظهرت في البلدة انطلاقاً من المسجد أيّام الجمعة بقصد التظاهر. ولم تنجح محاولات شيوخنا الأجلاء المتعاونين معنا في ثني الناس عن الخروج في التظاهرات من المسجد، على الرغم من إفتائهم بحرمتها، والتهديد بغضب السماء على المشاركين فيها.

ظهر الشيخ الفقيه الأول للزعيم الجنرال على شاشة التلفزيون الرسمي في سهرة الخميس الدينيّة، وكانت عامرة بالمريدين الأتقياء والمريدات الطاهرات. وبكى طويلاً وطويلاً حتّى بللت دموعه السخيّة لحيته الطاهرة المباركة، فبكى الجميع وراءه، بمن فيهم مخرج السهرة التلفزيونيّة والمصوّر والمنتج، دون أن يجرؤ أحد على السؤال عن سبب بكائه. وفي النهاية، دعا أحبّاءه في

البلدة بعينين دامعتين، وشهقات مليئة بالمرارة، إلى الهدوء وعدم الانجرار وراء المفسدين في التظاهرات، والتزام المنازل يوم الجمعة لأنّه يوم راحة مقدس، فالإله ذاته ارتاح فيه. وأضاف أن هذا اليوم مخصّص لقضاء الحاجات، والسمر مع النساء، ومداعبة الأطفال، بل وأفتى لهم بعدم الذهاب إلى صلاة الجمعة ما دام هناك خطر التعرّض لطلق عشوائي من العصابات الإرهابيّة.

وأعلن الشيخ أيضاً من الشاشة أنّ رؤيا مباركة جاءته، فيما هو نائم على جنبه الأيمن، بعد أن سبَّح بحمد الله طويلاً، أكدت له أن العقيدة في البلدة بخير، وأنّ هناك من يحميها ممثلاً بالسيّد الزعيم الجنرال.

واستعان الشيخ في السهرة الدينيّة بالداعية الإسلاميّة الأولى، الشهيرة بالشيخة حسنيّة، التي ناحت وولولت وضربت على وجهها أمام المشاهدين بطريقة تنشقّ لها القلوب، فسالت دموعها الحارّة شفقة على الشباب المغرّر بهم في التظاهرات، وتساقطت من جهاز التلفزيون في غرف المشاهدين. ثمّ شقت حجابها، فبان وجهها الستّيني المنير، وشعرها الأشيب المصبوغ الفتان، ونحرها المتهدّل العاري المليء بالإغراء، منتهكة تعاليم التستر المتشدّدة، منكشفة علناً عليهم، على أمل أن تستدرّ عطفهم وموافقتهم على عدم الخروج في التظاهرات.

وقد وقعت بين أيدينا وثيقة سريّة للغاية تبيّن كيفية توزيع الأموال والمغريات على المشاركين في التظاهرات بسخاء شديد، إضافة إلى أكداس من الجداول الورقيّة التي دُوِّنت عليها أسماؤهم وتوقيعاتهم التي تثبت تسلّم مكافآتهم «التظاهراتيّة».

وتشير الوثيقة السريّة إلى أنّه بمجرّد خروج شخص في إحدى التظاهرات فإنه ينال في نهايتها مبلغ ألفي درهم، مع ربع فرّوج نيء، وقبضة من قطع الشوكولا، وقبلة من فتاة عذراء متبرّعة بفمها لنصرة الإرهابيّين، ويتلقى هذه المكافآت جميعها أمام باب المسجد. وتؤكد الوثيقة توزيع هذه المكافآت حتماً في نهاية التظاهرة حتّى لا ينسلّ المشاركون منها خلسة من بدايتها، ويتخلّوا عنها.

وإذا ما شارك الشخص في رمي الحجارة على رجال الأمن، فإن المغريات تزداد بتصاعد، لينال عندئذٍ ألفين وأربعمئة درهم، ونصف فرّوج نيء، وقبضتين من الشوكولا، وقبلة طويلة من فم الفتاة مع إدخال لسانه بفمها.

وتتدرّج المكافآت المغرية نحو الأعلى بحسب السلاح الأبيض الذي يحمله المتظاهر، والمهام التي ينفذها في أثناء التظاهر. فإذا استطاع قتل رجل أمن فإنّه يتلقى ألفين وثمانمئة درهم، وفرّوجاً كاملاً، لكن مشويّاً في هذه المرة، وخمس قبضات شوكولا محشوّة بالفستق والجوز واللوز، مع السماح بمداعبة العضو الجنسي للفتاة العذراء المتبرّعة.

ويمكن للشاب النوم مع إحدى الفتيات المتبرّعات وافتضاض عذريّتها إذا ما قتل خمسة رجال أمن، وأحضر رؤوسهم المقطوعة كإثبات لفعله الشجاع أمام الشهود. وهذا الحق الأخير ممنوح

لجميع المشاركين في مثل هذه الأفعال بغضّ النظر عن أعمارهم، إذ إنّ هناك عدداً كبيراً من الإرهابيين دون الثانية عشرة من أعمارهم، وذلك تشجيعاً لهم.

وقد تدافع الشباب إلى الخروج في التظاهرات مع شدّة الإغراءات المقدّمة لهم، ما جعلها تنتشر في البلدة طوال أيّام الأسبوع، صباحاً ومساءً، بعد أن كانت مقتصرة على نهار الجمعة في فترة ما بعد صلاة الظهر، لا بل أخذوا يطالبون بتحويلها إلى اعتصامات نهاريّة وليليّة متواصلة لتحقيق ثروات طائلة منها.

وقد زوّدت القيادة الإرهابيّة العليا رؤساء العصابات الميدانيّين بكمّيات وفيرة من حبوب مخدّرة، تثير حالات متقدّمة من الهلوسات عند متعاطيها، من أجل توزيعها على المتظاهرين. وقد تمّ إنتاج هذه الحبوب بتركيبات سريّة بعد أبحاث مضنية وطويلة في أشهر مختبرات المخابرات الغربيّة، بهدف السيطرة على المتظاهرين في بلادنا، فتجعلهم يسيرون كالمنوّمين مغنطيسيّاً، مشلولي القدرة على التفكير، يردّدون كالببّغاوات جميع الشعارات السوقيّة البذيئة المطروحة أمامهم. وإذا ما تناول الشخص حبّتي هلوسة معاً فإنه يصبح مشلول العقل والإرادة بالكامل، بحيث يمكن دفعه للذهاب إلى الموت مباشرة، دون أن يتردّد أو يراوده شعور بالخوف حتّى لو رأى العشرات يتساقطون أمامه أشلاءً تنفر منها الدماء.

وتشير الوثيقة أيضاً إلى أنّ المتظاهرين سيرفضون بالتأكيد تناول حبوب مخدّرات الهلوسة لو عرفوا بطبيعتها وتأثيرها، ولذلك يوصي الخبراء المتخصّصون في القيادة بطحنها سراً، ثم خلطها بطعام ناعم يخفي آثارها، ويقترحون الفلافل والكباب كوجبات مشهورة شعبياً، وإن كان الثاني غالي الثمن مكلفاً.

ولذلك صدر تعميم بتوزيع سندويش الفلافل المخلوط سرّاً بمسحوق الحبوب على المتظاهرين طوال أيّام الأسبوع، ما عدا نهار الجمعة الذي تشتدّ فيه الاشتباكات مع رجال الأمن أمام المساجد، فيوزّع عليهم سندويش الكباب الذي تُزاد فيه كمّية المسحوق المُخدّر. وكي يتشجّع المتظاهرون على تناول هذا الطعام، فقد أوعِز بلفّ السندويش أولاً بورقة ماليّة كبيرة من فئة الخمسمئة درهم، ثمّ بورقة اللفّ العاديّة.

وأفادت تقارير مخبرينا أنّ المتظاهرين الأغبياء كانوا يأكلون الورقة الماليّة مع السندويش معاً، دون أن ينتبهوا إلى وجودها.

ولحلّ الإشكاليّة المتعلقة بخمود الحماسة والحيويّة لدى المتظاهرين، تشير الوثيقة إلى تزويد الرؤساء الميدانيّين ببودرة ذات تركيب سرّي جداً، تنتج سائلاً رغوياً أبيض بمجرّد حلها في الماء، فإذا ما رُش به أحد الأشخاص فإن ملابسه تترطب به، ثم يتبخر وتصدر منه رائحة تتسلل مباشرة

إلى الأنف، فيصاب صاحبها بهيجان غريب، أقرب إلى جنون ثيران المصارعة المنفلتة، فيمكنه عندئذٍ أن يرقص تحت الرصاص المنهمر عليه دون وعي.

وقد لاحظ مخبرونا أنّ حالات الهيجان تنتاب المتظاهرين بمجرّد مرورهم أمام شرفة أم حسين بالضبط، وعندما راقبوها تبيّن أنها كانت ترشّهم ماءً من خرطوم بخاخ، بدعوى ترطيب الأجواء الحارّة حولهم، وكان هذا في الظاهر ماءً، إلّا أنّه في الحقيقة لم يكن سوى هذا السائل الرغوي الذي يؤدّي إلى الهياج المجنون.

وتمّ الحصول على كمّية من البودرة بهدف تجربتها على أحد عناصرنا من رجال الأمن من أجل معرفة خصائصها، لكن يبدو أنّ كمّية البودرة المضافة إلى الماء زيدت قليلاً لعدم معرفتنا بالمعايير المطلوبة. وما إن رششناه بها حتّى جُنّ جنونه بطريقة لم نرها من قبل، فأخذ يقفز إلى الأعلى، يكاد يطير إلى السماء، ويضرب نفسه بالجدران يميناً ويساراً، بحيث تشققت وكادت تسقط. وانتصب عضوه الجنسي بطريقة مرّوعة، فهجم على زملائه ممزقاً ملابسهم، ثم أخذ يغتصبهم من الخلف، الواحد تلو الآخر، دون أن يستثني من ذلك رؤساءه الضبّاط، بمن فيهم رئيس الفرع نفسه ذو الرتبة العالية جداً. ولم يهدأ إلا بزوال تأثير السائل الرغوي بعد مرور عدّة ساعات، نُقل على أثرها العناصر حوله إلى المستشفى، وهم ينزفون من مؤخّراتهم، بمن فيهم مُعدّ هذا التقرير. أمّا هو، فبعد أن استعاد وعيه، لم يتذكّر شيئاً ممّا حدث حوله، بل جلس يشرب الشاي مستغرباً من حال رفاقه وإدخالهم إلى المستشفى.

وقد عمد المتظاهرون طوال الفترة الماضية إلى تحطيم تماثيل الزعيم الجنرال المقدّسة، وتمزيق صوره المباركة في البلدة، مستسهلين هذا الفعل الشائن، فأصبح رأس التمثال كرة يلعبون بها بعد أن كسروا أنفه وقلعوا عينه، وأفسدوا تسريحة شعره، فلم يبقَ للعصافير مكان تقف عليه في الساحات لتغرّد، ولم يعد المتعبون يجدون ظلاً يتفيّأون به. وأصبحت الصور بلا عيون، ممزقة الذقن، وربطة العنق الأنيقة الغالية الثمن متسخة، تدوس أوراقها السامية النعال الكريهة للرعاع السوقيّين، بعد أن كانت تزيّن بجمالها الآسر المكاتب والشوارع.

وهكذا يتأكّد أن لا علاقة لنا البتّة بكلّ المجريات التي تحدث في الشارع، لكن سمعتنا الوطنيّة والتاريخ المجيد لمحققي أجهزتنا الأمنيّة كانا يحتّمان علينا كشف هذا الطرف الثالث لتوضيح الأمور، فشُكّلت لجنة تحقيق خاصة لمعرفته من أجل وضع حدّ لهذا القتل المروّع.

وخلصت اللجنة إلى اكتشاف المجرم الحقيقي خلف هذا القتل العشوائي العنيف:

اعتاد سكان البلدة منذ فترة غير بعيدة رؤية أنوار ساطعة تهبط من السماء في الليل، وتحط على التلال المشرفة على الحقول، وتبقى متلألئة بشدّة بحيث تعمي الأبصار إذا ما أطال أحد النظر إليها، فلا يجرؤ على الاقتراب منها. وقد حدثت هذه الظاهرة في العديد من البلدان، إلّا أنّها تواترت

بشدّة في البلدة بطريقة غريبة. ويرجّح علماؤنا الفلكيون الذين يعملون في مرصد الزعيم الجنرال أن هذه الأنوار ما هي على الأغلب إلا مركبات فضائية آتية من مجاهل الكون، ومن المرّيخ بالذات، حيث ظهرت أدلة حديثة على وجود حياة فيه، وقد اختارت كائنات هذه المركبات بلدتنا بسبب الطبيعة الجميلة والأمان الذي تنعم به في ظلّ حكم الزعيم الجنرال.

ويبدو أنّ الضجيج الذي يصدره المتظاهرون بصراخهم المستمرّ في الشوارع ليل نهار، أزعج هؤلاء المرّيخيين، الذين قدموا إلى البلدة ليستجمّوا، بعيداً عن صفير الرياح المزعج في كوكبهم البارد القاحل. وعندما استفحل الضجيج استشاط المرّيخيّون غضباً، فانطلقوا بصحونهم الطائرة المطليّة بمادّة تجعلها غير مرئيّة، وأخذوا يطلقون النار بكثافة على المتظاهرين، لعلهم يرتدعون عن الضجيج والفوضى...

خاتمة

الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً، انتهى يوم، وجاء يوم جديد، ليس فيه جديد، فالأيّام تتشابه بمقتها، وكآبتها، وسوداويّتها، ما دمنا ننتمي إلى هذه البلاد، التي لا يشرق فيها ضياء.

شواش عظيم يضرب الرأس حتّى الهذيان، حكاك يأكل الظهر حتّى الجنون، أنا المثقف «قائد انتفاضة»، أنا الشاب الجهادي «باسم السماء»، أنا «الزعيم الجنرال».

كأنّ صليل أوسمة ينتظرنا، تتألق في عرض عسكري يمرّ أمام شرفة قصر... من أين تأتي هذه الأصوات؟ من أين يأتي هذا الشواش الشديد في الرأس، ويقودني إلى كوابيس مدمّرة؟

وكأنّ صورنا تملأ الساحات، والشوارع، والبيوت... غريبة صورنا، بلحية صحراويّة، وبزّة عسكريّة مموّهة... من أين يأتي هذا الحكاك الشديد في الظهر، ويقودني إلى الجنون؟

كأنّ شرفة قصر تنتظرنا لنلقي خطاباً حماسيّاً ثوريّاً، ثمّ منبر مسجد لنلقي موعظة دينية.

لماذا تقهقه عالياً، كأنّك تسخر منّي... من أنت؟

أنت تذكّرني بجنونك في الشارع، وأنت تحمل مسدّسك، تلاحق الجنود، أيّها «البطل الثوري»... أقصد «الإسلامي»، بعد أن استبدلته بسيف؟

وأنت تذكّرني بخطاباتك الثوريّة الحماسيّة على شرفة قصر، أيّها «المثقف الثوري»، وقد استدعيت طوائف وعشائر من غياهب التاريخ.

وأنت تذكّرني بجحافل جيوش غرباء، أيّها «الزعيم الجنرال»، استدعيتها من خارج البلاد.

أنا صداكما أيّها الاثنان الأغبياء،

بل أنا صداكما أيّها الاثنان المهووسان بالعنف،

بل أنا صداكما أيّها الاثنان المجنونان بالسلطة.

لكنّ «الانتفاضة» جعلتك تطلق نار مسدّسك على رأسك في كوابيسك المتتالية، سواء في الصحو أو المنام.

أنا أطلق الرصاص على رأسيكما معي... أنا لا أموت، وإذا حدث ذلك، نموت معاً.

تمسكُ يدي المسدّس الفضّي نفسه، أوجّهه إلى صدغي، وإصبعي على الزناد، يحكّني عندئذٍ ظهري بجنون في المنطقة التي لا تطالها يدي، ويتصاعد الشواش في رأسي إلى أعلى درجاته وكثافته في تلك اللحظة، فيضغط الإصبع بثقة ودون تردّد على الزناد، لتخرج الطلقة... لا أموت أنا، تموت البلاد.